سيمون دوبوفوار

Simone de Beauvoir

الجنس الآخر I

Le deuxième sexe, tome I

الوقائع والأساطير

Les faits et les mythes

ترجمة: د. سحر سعيد

سيمون دوبوفوار

Simone de Beauvoir

الجنس الآخر

I

الوقائع والأساطير

ترجمة

د. سحر سعيد

الجنس الآخر

I

الوقائع والأساطير

الجنس الآخر I (الوقائع والأساطير)

تأليف: سيمون دوبوفوار

ترجمة: د. سحر سعيد

الطبعة الأولى 2015

الإخراج الفني: فايز علام

تصميم الغلاف: مناف عزام

الناشر:

الرحبة للنشر والتوزيع

العنوان البريدي ـ دمشق:

أمية، ص. ب. 7634

دمشق، سوريا

الموقع الإلكتروني: http://www.musawasyr.org

البريد الإلكتروني: info@musawasyr.org

العنوان الأصلي للكتاب بالفرنسية

Le deuxième sexe, tome I : Les faits et les mythes

Simone de Beauvoir

Folio essais

Gallimard

الفهرس

تمهيد _____ 7

مقدمة _____ 13

القسم الأول: المصير _____ 29

الفصل الأول: معطيات البيولوجيا _____ 31

الفصل الثاني: وجهة نظر التحليل النفسي _____ 61

الفصل الثالث: وجهة نظر الماديّة التاريخية _____ 75

القسم الثاني: التاريخ _____ 83

الفصل الأول _____ 85

الفصل الثاني _____ 91

الفصل الثالث _____ 107

الفصل الرابع _____ 123

الفصل الخامس _____ 147

القسم الثالث: الأساطير ______ 183

الفصل الأول ______ 185

الفصل الثاني ______ 247

1. مونترلان أو خبز الاشمئزاز

2. د. هـ. لورنس أو الغرور القضيبي

3. كلوديل وخادمة السيّد

4. بروتون أو الشعر

5. ستندال أو روائي الواقع

الفصل الثالث ______ 305

تمهيد

كتبت سيمون دوبوفوار مذكّراتٍ تطلعنا فيها على حياتها وعملها. أربعة أجزاءٍ صدرت بين الأعوام 1958-1972: «مذكرات شابةٍ رصينةٍ» *Mémoires d'une jeune fille rangée*، «قوة العمر» *LA Force de l`age*، «قوة الأشياء» *La force des choses*، «بعد كل شيء» *Tout compte fait*، أضافت إليها روايةً عام 1964 «موتٌ لطيفٌ للغاية» *Une Mort très douce*، ويمكن تفسير حجم السيرة الذاتية الكبير بتناقضٍ أساسيٍّ لدى الكاتبة: كان من المستحيل لديها دائمًا الاختيار بين سعادة الحياة وضرورة الكتابة، التألق العارض من جهةٍ، والواجب المخلّص من الجهة الأخرى. لذا كان المخرج من هذه الدوامة بشكلٍ ما أن تجعل وجودها نفسه موضوع كتاباتها.

ولدت سيمون دوبوفوار في باريس في 9 حزيران/ يونيو 1908. وتلقت تعليمها حتى الشهادة الثانوية في معهد «كور ديزير» Cours Désir الكاثوليكي المتعصب. ونالت شهادة أستاذٍ في الفلسفة عام 1929، ومارست التدريس في مرسيليا وروان وباريس حتى عام 1943. وأنهت «عندما يتفوّق الروحي» *Quand prime le spirituel* قبل حرب 1939 لكنه لم يصدر إلا عام 1979.

ويجب اعتبار «المدعوّة» (1943) *L'invitée* بدايتها الأدبية الحقيقية. تلاها فيما بعد «دم الآخرين» *Le Sang des autres*، و«كل الرجال زائلون» (*Tous les homes sont mortels*

1946)، ثم «المثقفون» *Les Mandarins* وهي رواية نالت عليها جائزة غونكور عام 1954، و«الصور الجميلة» (1966) *belles images les*، و«المرأة المنهكة» (*La femme rompue* 1968).

وعدا الكتاب الشهير «الجنس الآخر»، الذي ظهر عام 1949 وأصبح الكتاب المرجع للحركة النسوية العالمية، تضمّ الأعمال النظرية لـسيمون دوبوفوار العديد من المقالات الفلسفية أو المثيرة للجدل، «الامتيازات» مثلًا (1955) *Privilèges*، الذي أعيد نشره تحت عنوان المقال الأول «هل يجب إحراق ساد؟»، و«الشيخوخة» (1970) *La Vieillesse*.

كما كتبت للمسرح «الأفواه عديمة الجدوى» (1945) *Les Bouches inutiles*، وروت بعضًا من رحلاتها في «أمريكا يومًا بيوم» (1948) *L'Amérique au jour le jour*، و«المسيرة الطويلة» (1957) *la longue marche*.

بعد وفاة سارتر[1] أصدرت سيمون دوبوفوار «احتفال الوداع» *La Cèrèmonie des adieux* عام 1981، و«رسائل إلى القندس» (1983) *les lettres au castor* التي تضم جزءًا من الرسائل الكثيرة التي تلقتها منه. وساهمت بشكلٍ فعّالٍ حتى يوم وفاتها، في 14 أبريل 1986، بالمجلة التي أسستها هي وسارتر، «الأزمنة الحديثة» les *Temps modernes*، وأظهرت بأشكالٍ مختلفةٍ لا حصر لها دعمها الكامل للحركة النسوية.

1- شكّلت سيمون مع جان بول سارتر إحدى أشهر ثنائيّات القرن العشرين. كان في الرابعة والعشرين وهي في الواحدة والعشرين عندما التقيا على مدرّجات جامعة السوربون حيث نالا شهادة الفلسفة وحاز سارتر على الدرجة الأولى ودوبوفوار على الدرجة الثانية. وظلّا معًا أكثر من خمسين سنةً في علاقةٍ دون زواج تخللتها مغامراتٌ عابرةٌ لكليهما. تشاطرا الأفكار والوحي بشكلٍ مثمرٍ وخاضا المعارك نفسها وسافرا معًا في أرجاء العالم حيث قابلا ماو وكاسترو. توفي سارتر عام 1980 وسيمون عام 1986 ودفنا بقرب بعضهما في مقبرة مونبارناس في باريس. (المترجمة)

إلى

جاك بوست Jacques Bost

«هناك مبدأٌ جيدٌ خلق النظام، والنور، والرجل، ومبدأٌ سيئٌ خلق الفوضى، والظلمات، والمرأة».

فيثاغورث

«يجب التشكيك بكل ما كتبه الرجال حول النساء، لأنهم خصمٌ وحَكمٌ في الوقت نفسه».

بولان دولابار *Poulain de la Barre*

مقدمة

ترددت كثيرًا قبل أن أكتب كتابًا عن المرأة. فالموضوع مثيرٌ للسخط، وخصوصًا للمرأة؛ وليس بجديدٍ. وقد أسالت معركة الحركة النسوية ما يكفي من المداد، وانتهت الآن تقريبًا: لن نتحدث في الموضوع بعد الآن. ومع ذلك ما زلنا نتحدث فيه. ولا يبدو أن الحماقات الكبيرة التي نُشِرت خلال هذا القرن الأخير قد أوضحت هذه المشكلة كثيرًا. ولكن هل هناك مشكلةٌ؟ وما هي؟ وهل هناك نساءٌ أصلًا؟ بالتأكيد ما زال هناك أتباعٌ لنظرية المؤنث الأزلي؛ ويتهامسون قائلين: «يبقين نساءً حتى في روسيا»؛ ويتنهّد أشخاصٌ آخرون ذوو معرفةٍ ـ وربما كانوا نفس هؤلاء أحيانًا ـ قائلين: «المرأة تتلاشى، انتهت المرأة». لم نعد نعرف جيدًا إن كان ما يزال ثمة نساءٌ، وإن كنّ سيبقين على الدوام، وهل يجب أن نتمنى ذلك أم لا، وما مكانهنّ في هذا العالم، وما المكان الذي يجب أن يشغلنه. لقد تساءلت مؤخرًا إحدى المجلات التي تخرج بشكلٍ متقطّعٍ[2]: «أين النساء؟». ولكن دعونا نحدّد أولًا: ما هي المرأة؟ يقول أحدهم: «إنها رحمٌ». مع ذلك يصرّح العارفون عند الحديث عن بعض النساء: «إنهنّ لسن نساءً» رغم أنهنّ يملكن رحمًا كالأخريات. ويتفق الجميع على أن هناك إناثًا في النوع البشري؛ وهنّ يشكّلن الآن كما كُنَّ في الماضي نصف البشرية تقريبًا؛ مع ذلك يُقال لنا إن «الأنوثة في خطرٍ». ويحثّوننا قائلين: «كنَّ نساءً، ابقين نساءً، أصبِحنَ نساءً». إذًا ليست كل أنثى بشريةٍ بالضرورة امرأةً؛ وعليها أن تساهم في هذا الواقع الغامض والمهدَّد الذي

2- كان اسمها فرانشيز Franchise ولم تعد اليوم موجودةً.

هو الأنوثة. هل يفرز المبيضان هذه الأخيرة؟ أم أنها ثابتة في أعماق سماءٍ أفلاطونيةٍ؟ وهل تكفي تنورةٌ ذات حفيفٍ لإنزالها على الأرض؟ ورغم أن بعض النساء يبذلن جهدًا حماسيًا ليمثّلنها، فلم يتم أبدًا تحديد نموذجٍ لها. وهي توصف بألفاظٍ مبهمةٍ وبراقةٍ تبدو مأخوذةً من تعابير العرّافات. وفي زمن سان توماس saint Thomas، كانت تبدو كجوهرٍ محدّدٍ لا لبس فيه، كالتأثير المنوّم للنوّاس. لكن التصوّريّة تراجعت: فلم تعد العلوم البيولوجية والاجتماعية تعتقد بوجود كياناتٍ ثابتة لا تتغيّر تحدّد صفاتٍ معينةٍ كصفات المرأة، واليهودي، أو الأسود؛ إنها تعتبر السمات ردّ فعلٍ ثانوي على وضعٍ ما. إذا لم تعد هناك اليوم أنوثةٌ، فهذا يعني أنها لم توجد أبدًا في السابق. هل يعني ذلك أنّه ليس لكلمة «امرأة» أيّ محتوىً؟ هذا ما يؤكده بقوةٍ أنصار فلسفة التنوير والعقلانية: ما معناه أنّ النساء هنّ فقط من بين البشر من يُشار إليهنّ تعسّفًا بكلمة «امرأة»؛ وتعتقد الأمريكيات بصورةٍ خاصةٍ أنّ المرأة بهذا الشكل لم تعد موجودةً؛ وإن كانت إحدى المعتوهات ما تزال ترى نفسها امرأةً، فإنّ صديقاتها ينصحنها بالخضوع لتحليلٍ نفسيٍّ لتتخلص من هذا الهوس. هناك كتاب مزعجٌ للغاية، عنوانه «*المرأة الحديثة: جنسٌ ضائعٌ*» *Modern woman, a lost sex* كتبت فيه دوروثي باركر Dorothy Parker: «لا أستطيع أن أكون منصفةً تجاه الكتب التي تعالج موضوع المرأة كامرأةٍ... وأعتقد أنّه يجب اعتبارنا جميعًا بشرًا، نساءً أو رجالًا، مهما كنا». لكن الإسمائية[3] مذهبٌ موجزٌ نوعًا ما، وقد سنحت الفرصة لمعادي الحركة النسوية لإظهار أنّ النساء لسن رجالًا. إنّ المرأة بالتأكيد كائنٌ بشريٌّ مثل الرجل: لكنّ مثل هذا التأكيد مجرّدٌ؛ فلكلّ إنسانٍ ملموسٍ موضعه الخاص دائمًا. إنّ رفض مفاهيم الأنثوي الأزلي، والروح السوداء، والطباع اليهودية لا يعني إنكار وجود يهودٍ وسودٍ ونساءٍ اليوم: لا يمثّل هذا الإنكار خلاصًا لهؤلاء، ولكن تهرّبًا غير صحيحٍ.

من الجليّ أنه ليس بإمكان أية امرأةٍ أن تدّعي بحسن نيّةٍ أنها لا تنتمي لجنسها، لقد رفضت كاتبةٌ شهيرةٌ منذ بضع سنواتٍ أن تظهر صورتها ضمن مجموعةٍ من الصور مخصصةٍ فقط للنساء الكاتبات: كانت تريد أن تصنّف بين الرجال؛ واستخدمت نفوذ زوجها لكي تحصل على هذا الامتياز. أما النساء اللواتي يؤكدن أنهنّ رجال فذلك لا يمنعهنّ

3- مذهب فلسفي يقول إن المفاهيم المجرّدة ليست سوى تَمَثّلٍ للواقع، لا تدل على حقيقته ولا تساعد في معرفته. (المترجمة)

من المطالبة بتكريم الذكور ومراعاتهم لهنّ، أذكر أيضًا تلك التروتسكية الشابة وهي تقف على منصةٍ وسط اجتماعٍ عاصفٍ وكانت تتهيأ لتسديد لكمةٍ رغم هشاشتها الواضحة: كانت تنكر ضعفها الأنثوي؛ لكن ذلك كان حبًّا بأحد المناضلين الذي أرادت أن تضاهيه. وتثبت وضعية التحدي التي تتقوقع فيها الأمريكيات أنّ الشعور بأنوثتهن يستحوذ عليهنّ. يكفي في الحقيقة أن نفتح أعيننا جيدًا لنلاحظ أنّ البشرية تنقسم إلى زمرتين من الأفراد يبدو جليًا اختلافهما في الملابس والوجه والجسم والابتسامات والمشية والاهتمامات والأعمال: ربما كانت هذه الاختلافات سطحيةً، وربما كانت مؤهبةً للزوال. والمؤكد أنها موجودةٌ الآن بشكلٍ واضح الجلاء. إن كانت وظيفة المرأة كأنثى غير كافيةٍ لتحديد هويتها، وإن كنّا نرفض كذلك أن نفسرها بـ «المؤنث الأزلي» وإن كنّا نوافق مع ذلك ولو بشكلٍ مؤقتٍ على أنّ هناك نساءً على الأرض، فعلينا بالتالي أن نتساءل: ما هي المرأة؟ مجرّد عرض المسألة يعطي على الفور جوابًا مبدئيًا. أن طرحها هو أمرٌ ذو مغزى. إذ لا يخطر ببال الرجل أن يكتب كتابًا حول وضع الذكور في البشرية![4] لو أردت أن أعرّف نفسي عليّ أن أقول أولًا: «أنا امرأةٌ». وتشكّل هذه الحقيقة الأساس الذي تقوم عليه كل التأكيدات الأخرى. لا يبدأ الرجل أبدًا بطرح نفسه كمخلوقٍ من جنسٍ محدّدٍ: كونه رجلٌ هو أمرٌ بديهيٌّ. في سجلات البلدية وفي تصريحات الهويات تبدو فقرة «ذكر، أنثى» متناظرةً بشكلٍ حاسمٍ. وعلاقة الجنسين ليست علاقة كهربائيتين أو قطبين: فالرجل يمثّل الإيجابي والمحايد في آنٍ واحدٍ إلى درجة أنّنا نقول بالفرنسية «الرجال» عندما نتحدث عن البشر، إذ اندمج المعنى الفردي لكلمة «ذكر» بالمعنى العام لكلمة «إنسان». وتبدو المرأة كالقطب السلبي بحيث تُبتَر لديها كل إرادةٍ، ولا يعامل الرجل بالمثل. أزعجني أحيانًا أن أسمع الرجال خلال نقاشاتٍ مجرّدةٍ يقولون لي: «أنت تفكرين على هذا النحو لأنك امرأة»؛ لكني كنت أعرف أن دفاعي الوحيد هو أن أجيب: «أفكر على هذا النحو لأنه صحيحٌ» لاغيةً بذلك ذاتيتي، لم يكن واردًا أن أجيب: «وأنت تفكر بالعكس لأنك رجلٌ»؛ لأن من المفهوم أن كون المرء رجلًا ليس أمرًا متميزًا فالرجل محقٌّ لأنه رجلٌ والمرأة هي المخطئة. وعمليًا، منذ الزمن القديم، كان هناك شاقوليٌّ مطلقٌ يتحدد بموجبه المنحرف. وهناك نمطٌ بشريٌّ مطلقٌ هو النمط المذكر. للمرأة مبيضان، ورحمٌ؛

4- تقرير كينزي Kinsey على سبيل المثال يقتصر على تعريف الصفات الجنسية للرجل الأمريكي، وهذا مختلفٌ كليًا.

وتلك هي خصائص فرديّةٌ تحبسها ضمن ذاتيتها؛ ويقال في العادة أنها تفكر بغددها. وينسى الرجل تمامًا أن تشريح جسده يتضمن أيضًا هورموناتٍ وخصيتين. إنه يعتبر جسده علاقةً مباشرةً وطبيعيةً مع العالم الذي يظن أنه أدركه بموضوعيته، بينما يعتبر جسد المرأة مثقلًا بمواصفاته: عقبةً، سجنًا. كان **أرسطو** يقول: «الأنثى هي أنثى بموجب نوعٍ من التجرّد من الميزات». «علينا أن نعتبر خصائص النساء عيبًا خلقيًّا طبيعيًا». ويسير **سان توماس** على نهجه مصرّحًا أن المرأة هي «رجلٌ ناقصٌ، كائنٌ عارضٌ» وهذا ما ترمز إليه قصة الخلق حيث تبدو حواء مستخرجةً من ضلعٍ زائدةٍ لدى آدم. الإنسانية ذكريةٌ، والرجل لا يعرّف المرأة بحدّ ذاتها ولكنها لا تُعتَبَر كائنًا مستقلًا بالنسبة له. وقد كتب **ميشليه Michelet**: «المرأة، هذا الكائن التابع..». وهكذا يؤكد م. بندا M. Benda في تقرير أورييل: «لجسد الرجل معنىً بحدّ ذاته، بصرف النظر عن جسد المرأة، بينما يبدو هذا الأخير مجرّدًا من المعنى إذا لم نذكر الذكر.. يفكّر الرجل بنفسه بمعزلٍ عن المرأة، ولا تفكّر هي بنفسها بمعزلٍ عن الرجل. وهي ليست سوى ما يقرره الرجل؛ وهكذا تُدعى «الجنس»، وذلك يعني أنها تبدو للرجل بشكلٍ أساسيٍّ كائنًا جنسيًّا: هي الجنس بالنسبة له، إذن هي كذلك قطعًا. إنها تتحدّد وتتميز تبعًا للرجل ولا يتحدّد هو بالنسبة إليها؛ إنها غير الأساسيّ في مواجهة الأساسيّ. إنه «الذات»، و«المطلق»؛ وهي «الآخر»[5]. إنّ فئة الآخر هي أصليّةٌ بقدر الوعي ذاته. نجد دائمًا ثنائيةً بين الذات والآخر في أكثر المجتمعات بدائيةً، وفي أقدم الأساطير؛ لم يوضع هذا التقسيم في البدء تحت شعار تقسيم الجنس، فهو لا يعتمد على أيّة معطياتٍ تجريبيةٍ: إنه بعض نتاج مؤلفات غرانيه Granet حول الفكر الصيني، وكتابات **دوميزيل**

5- تجلت هذه الفكرة بشكلها الأكثر وضوحًا لدى ليفيناس E. Lèvinas في مقالته حول «الزمن والآخر». وهو يقول ما يلي: «أليس هناك وضعٌ تكون فيه الغيرية صفةً إيجابيةً لدى الشخص كجوهرٍ؟ ما هي الغيرية التي لا تدخل بكل بساطةٍ في تعارض نوعين من نفس الجنس؟ أظن أن النقيض الحقيقي، الذي لا يتأثر تعارضه البتة بالعلاقة التي يمكن أن تنشأ بينه وبين مترابطه، النقيض الذي سمح بالنهاية أن يبقى حتمًا الآخر، هو المؤنث. فالجنس ليس اختلافًا نوعيًا بسيطًا... واختلاف الجنسين كذلك ليس تناقضًا... وهو ليس أيضًا ثنائية مصطلحين متكاملين لأن المصطلحين المتكاملين يفترضان أنه كان هناك كلٌّ في السابق... تكتمل الغيرية في المؤنث. وهو لفظةٌ من مرتبة الإدراك ولكن بالمعنى المعاكس». أفترض أنّ السيد لوفيناس لا ينسى أنّ المرأة هي أيضًا وعيٌ بالنسبة لذاتها. لكنّ ما يلفت النظر أنه يعتنق بمحض إرادته وجهة نظر الرجل دون أن يشير إلى أنّ الأمر متبادلٌ بين الذات والشيء. عندما يكتب أنّ المرأة غامضةٌ، فهو يعني أنها غامضةٌ بالنسبة للرجل. بحيث أنّ هذا الوصف الذي يحاول أن يكون موضوعيًا هو في الواقع تأكيدٌ لامتياز الرجل.

Dumèzil حول الهند وروما. ولم يدخل أيّ عنصرٍ مؤنثٍ في البداية ضمن ثنائيات فارونا ـ ميترا، وأورانوس ـ زيوس، والشمس ـ القمر، والليل ـ النهار؛ وكذلك الأمر في تعارض الخير والشر، والمبادئ الحسنة والسيئة، واليمين واليسار، والله وإبليس؛ فالغيرية منظومةٌ أساسٌ في الفكر الإنساني. إذ لا تعرّف أي مجموعةٍ نفسها أبدًا كواحدةٍ دون أن تضع الأخرى فورًا مقابلها. ويكفي أن يجتمع ثلاثة مسافرين صدفةً في نفس المقصورة لكي يصبح جميع المسافرين الباقين «آخرين» معادين بشكلٍ مبهمٍ. وبالنسبة للقروي، كل الناس الذين لا ينتمون لقريته هم «آخرون» مثيرون للريبة؛ ويبدو سكان البلدان الأخرى بالنسبة لمواطن بلدٍ ما «أجانب»؛ واليهود هم «آخرون» بالنسبة لمعادي السامية، والسود بالنسبة للعنصريين الأمريكيين، وسكان البلاد الأصليين بالنسبة للمستعمرين، والعمال بالنسبة للطبقات المالكة للثروة. وبعد دراسةٍ متعمقةٍ للمجتمعات البدائية في صورها المختلفة استخلص **ليفي شتراوس** Lèvi-Strauss مايلي: «يتحدّد الانتقال من حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة باستعداد الإنسان للتفكير في العلاقات البيولوجية بشكل منظوماتٍ متعارضةٍ: فالثنائية، والتعاقب، والتعارض، والتناظر، سواءً كانت بأشكالٍ محدّدةٍ أو بأشكالٍ غير واضحةٍ، لا تشكّل ظواهر يجب تفسيرها بقدر المعطيات الأساسية والفورية للواقع الاجتماعي»[6]. لن يكون بالإمكان فهم هذه الظواهر لو كان الواقع الإنساني فقط عيشًا مشتركًا قائمًا على التعاضد والصداقة. على العكس من ذلك يمكن تفسيرها طبقًا **لهيجل** Hegel إذا اكتشفنا في الشعور ذاته عدائيةً عميقةً تجاه كل شعورٍ آخر: لا تكون الذات إلا بمعارضة شيءٍ آخر: إنها تدّعي أنها الأساس وأن الآخر غير أساسٍ، أنه شيءٌ.

غير أن الشعور الآخر يقابله بادّعاءٍ مقابل: فعندما يسافر الساكن الأصلي يفاجأ مذهولًا أنّ في البلدان المجاورة سكانًا أصليين ينظرون إليه بدورهم كأجنبيٍّ، وبين القرى، والعشائر، والدول، والطبقات، هناك حروبٌ وخصوماتٌ وتجارات واتفاقياتٌ وصراعاتٌ، تجرّد فكرة *الآخر* من معناها المطلق، وتكشف نسبيتها؛ ويُرغَمُ الأفراد والجماعات طوعًا أو كرهًا على الاعتراف بالمعاملة بالمثل. كيف إذًا لم يُطرح هذا التعامل بالمثل بين الجنسين،

6- انظر ليفي شتراوس C.Lèvi-Strauss، الهياكل الأساسية للقربى *Les Structures èlèmentaires de la parent*.
أشكر ليفي شتراوس لأنه أعطاني أطروحته التي استخدمتها بشكلٍ كبيرٍ مع سواها في الجزء الثاني، ص74-89.

وثبت أحد اللفظين كأساسٍ وحيدٍ، منكرًا كل نسبيةٍ له تجاه مترابطه، معرّفًا هذا الأخير بأنه الغيرية المجرّدة؟ لماذا لا تعترض النساء على السيطرة الذكرية؟ لا يدّعي أيّ شخصٍ فورًا وتلقائيًا أنه الأساس؛ وليس الآخر هو الذي يعرّف الواحد بأنه الآخر عندما يعرّف نفسه. ولكن كيلا يعود الآخر إلى الواحد، عليه أن يخضع لوجهة النظر الغريبة هذه. من أين أتى هذا الخضوع لدى المرأة؟

هناك حالاتٌ أخرى حيث نجحت فئةٌ لمدةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ بالسيطرة على فئةٍ أخرى بشكلٍ مطلقٍ. غالبًا ما يعطي التفاوت العددي هذا الامتياز: فالأغلبية تفرض قانونها على الأقلية أو تضطهدها. لكن النساء لسن أقليةً مثل سود أمريكا أو اليهود: فنساء الأرض يساوين الذكور بالعدد. وكذلك في البدء كانت المجموعتان الموجودتان مستقلتين غالبًا: كانت إحداهما تتجاهل الأخرى في السابق، أو كانت كل واحدةٍ تقبل باستقلال الأخرى؛ وألَحَق الأضعفَ بالأقوى حدثٌ تاريخيٌّ: فالشتات اليهودي، وإدخال الرقّ إلى أمريكا، والغزوات الاستعمارية هي كلها وقائع مدوّنةٌ. في هذه الحالات، كان هناك «سابقٌ» بالنسبة للمضطَهَدين: فلديهم ماضٍ مشتركٌ، وتقاليد، وديانةٌ أحيانًا، وثقافةٌ. وبهذا المعنى تكون المقاربة التي قام بها بيبل Bebel بين النساء والكادحين هي الأكثر صدقًا: فالكادحون كذلك ليسوا أقليةً عدديةً ولم يشكّلوا أبدًا مجموعةً منفصلةً. مع ذلك ودون وجود حدثٍ، فإن تطوّرًا تاريخيًا ما هو الذي يفسّر سبب وجودهم كطبقةٍ، ويحلّل توزع هؤلاء الأشخاص ضمن هذه الطبقة. لم يكن هناك دومًا كادحون، بينما كانت هناك دومًا نساءٌ. إنهنّ نساءٌ بتركيبهنّ الفزيولوجي، وقد كُنَّ دائمًا؛ ومنذ أقدم العصور، تابعاتٍ للرجل: لم تكن تبعيّتهنّ نتيجة حدثٍ أو تطوّرٍ، لم *تطرأ*. ولأن الغيرية نوعًا ما ليست حدثًا طارئًا كالحدث التاريخي تبدو هنا كالمطلق. فالوضع الذي نشأ عبر زمنٍ يمكن أن يزول في زمنٍ آخر؛ وقد أثبت سود هايتي كغيرهم ذلك جيدًا؛ ويبدو على العكس أن ظرفًا طبيعيًا قد تحدّى التغيير. وفي الحقيقة إن الطبيعة كالحقيقة التاريخية ليست معطىً ثابتًا. وإن كانت المرأة ترى نفسها غير أساسيةٍ فلا يمكن أبدًا أن تصبح أساسيةً، ذلك أنها لا تقوم بنفسها بهذا الانتقال. يقول الكادحون «نحن». والسود كذلك. وبطرحهم نفسهم كذاتٍ يحوّلون البورجوازيين والبيض إلى «آخرين». ولا تقول النساء «نحن» إلا في بعض المؤتمرات التي تظل تظاهراتٍ سخيفةً؛

والرجال يقولون «النساء» ويتناولن هنّ هذه الكلمة ليُشرن بها إلى ذاتهنّ؛ لكنهنّ لا يطرحن نفسهنّ بصورةٍ حقيقيةٍ كذاتٍ. لقد قام الكادحون بثورةٍ في روسيا، والسود في هايتي، ويقاتل أهل الهند الصينية في بلادهم: بينما لم يكن عمل النساء أبدًا سوى تحرّكٍ رمزيٍّ؛ ولم يكسبن سوى ما أراد الرجال تركه لهنّ؛ لم يأخذن شيئًا: لقد تلقّين[7]. لأنهنّ لا يملكن الوسائل الملموسة للتجمّع في وحدةٍ تطرح نفسها كمعارضةٍ. ليس لديهنّ ماضٍ، أو تاريخٌ، أو ديانةٌ خاصةٌ بهنّ؛ وليس لديهنّ كالكادحين تضامنٌ في العمل والمصالح؛ حتى أنه ليس لديهنّ ذلك التجمّع المكاني الذي يجعل من سود أمريكا ويهود الغيتو وعمال سان دني أو مصانع رينو مجموعةً. إنهنّ يعشن متفرقاتٍ بين الرجال، يربطهنّ المسكن والعمل والمصالح الاقتصادية والوضع الاجتماعي ببعض الرجال ـ الأب أو الزوج ـ أكثر مما يربطهنّ بالنساء الأخريات. فالبرجوازيات يتعاضدن مع البرجوازيين وليس مع النساء الكادحات؛ والنساء البيض بالرجال البيض وليس بالنساء السود. قد يتوخى الكادح ذبح الطبقة الحاكمة؛ وقد يحلم يهوديٌّ أو أسود متعصّبان بالحصول على سرّ القنبلة الذرية وصنع عالمٍ يهوديٍّ أو أسود بأكمله؛ أما المرأة فهي لا تستطيع إبادة الذكور حتى في أحلامها. فما يربطها بقامعها لا يشبه أيّ رباطٍ آخر. والزوجان وحدةٌ أساسٌ يتمسّك طرفاها أحدهما بالآخر: ومن المستحيل شطر المجتمع حسب الجنس. هذا ما يميّز المرأة بشكلٍ أساسيٍّ: إنها الآخر وسط كلٍّ يكون طرفاه ضروريين لبعضهما.

يمكن أن نتخيّل أنّ هذا التبادل سهّل تحررها؛ فعندما يغزل **هرقل** الصوف تحت قدمي **أومفال**، تقيّده رغبته: لماذا لم تنجح **أومفال** في امتلاك سلطةٍ دائمةٍ؟ وكي تنتقم **ميديه** من **جايسون** قتلت أطفالها: تفترض هذه الأسطورة المتوحشة أن المرأة كانت تستطيع عبر ارتباطها بالطفل أن تحصل على ابن ذي سطوةٍ. وقد تخيّل **أرسطوفان** بظرافةٍ في *ليسيستراتا* *Lysistrata* تجمّعًا لنساءٍ رغبن في توظيف احتياج الرجال لهنّ لغاياتٍ اجتماعية: لكن ليست تلك سوى ملهاةٍ. والأسطورة التي تقول إنّ نساء السابين المختَطَفات عارضن خاطفيهن بالعقم تقول أيضًا إنّ الرجال وهم يضربونهنّ بسيورٍ من الجلد قضوا بشكلٍ سحريٍّ على كل مقاومةٍ لهن. فالحاجة البيولوجية ـ الرغبة الجنسية والرغبة بالذريّة ـ التي تجعل الذكر

7- المرجع السابق، الجزء الثاني، 5.

تابعًا للأنثى لم تحرّر المرأة اجتماعيًا. وكذلك تجمَعُ السيدَ والعبدَ حاجةٌ اقتصاديةٌ متبادلةٌ لا تحرّر العبد. لأن السيّد في علاقته بالعبد لا يطرح حاجته للآخر: إنه على العكس يملك السلطة لإشباع هذه الحاجة ولا يعلنها؛ وبالمقابل، فالعبد المحتاج يكظم حاجته للسيد، أملًا أو خوفًا، وتعمل ضرورة الاحتياج دائمًا وإن كانت متساويةً بين الاثنين لصالح القامع ضد المقموع: وهذا ما يفسر البطء الذي تمّت عليه عملية تحرير الطبقة العمالية. غير أن المرأة كانت على الدوام تابعةً للرجل إن لم تكن جاريته؛ ولم يتقاسم الجنسان العالم أبدًا بالتساوي: واليوم أيضًا، رغم أن وضع المرأة قيد التطوّر، فهي معوّقةٌ بشكلٍ كبيرٍ. ففي كل البلاد تقريبًا لا يماثل وضعها القانوني وضع الرجل وغالبًا ما يجردها من الامتيازات بشكلٍ كبيرٍ. وحتى عندما يتم الاعتراف بحقوقها بشكلٍ مبهمٍ، تمنع العادات المتأصّلة هذه الحقوق من أن ترسخ في الأعراف. ويشكّل الرجل والمرأة اقتصاديًا طبقتين؛ فعندما يتساويان في كل شيءٍ يحصل الرجال على امتيازاتٍ أكثر، ورواتب أعلى، وحظٌّ أكبر في النجاح من منافساتهم حديثات العهد؛ ويحتلون أماكن أكثر بكثيرٍ في الصناعة وفي السياسة.. إلخ وهم الذين يحتلون المناصب الأعلى. وفيما عدا السلطات الملموسة التي يملكونها، فهم يكتسون ثوبًا من المهابة تحافظ عليه تربية الطفل، فالحاضر يغطي الماضي، وفي الماضي صنع الذكور التاريخ كلّه.

وفي اللحظة التي بدأت النساء فيها الإسهام في إعداد العالم، ما يزال هذا الأخير عالمًا يملكه الرجال: هم لا يشكّون في ذلك، وهنّ يشكّكن به بالكاد. إنّ رفضهنّ أن يكُنّ الآخر، رفض التواطؤ مع الرجل، يعني بالنسبة إليهنّ التخلّي عن كل الامتيازات التي يمنحهنّ إيّاها ارتباطهنّ بالطبقةالأعلى. فالرجل الإقطاعيّ يحمي ماديًا المرأة التابعة ويبرر وجودها: وبوجود المخاطرة الاقتصادية تتفادى هي مخاطرةً ميتافيزيقية هي حرّيّةٌ يجب أن توصلها لغاياتها دون مُعينٍ. وفي الواقع، إلى جانب مطالبة كل شخصٍ بتثبيت نفسه كذاتٍ، وهي مطالبةٌ أخلاقيّةٌ، هناك أيضًا في داخله محاولة الهروب من حريته والتشكّل كشيءٍ: إنه طريقٌ ضارٌّ لأنه خاملٌ، قاصرٌ، ضائعٌ، يغدو بالتالي نهبًا لإرادةٍ غريبةٍ، مجرّدًا من تفوّقه، ومن كل قيمةٍ. لكنه طريقٌ سهلٌ: إذ يتحاشى بذلك القلق وتوتر الوجود الأكيد. والرجل الذي يشكّل المرأة كآخر سيجد فيها تواطؤًا عميقًا. وهكذا لا تطالب المرأة بأن تُعتَبر ذاتًا لأنها لا

تملك الإمكانيات المحسوسة لتكون كذلك، باعتبارها تشعر بالصلة الضرورية التي تربطها بالرجل دون أن تطرح فكرة المعاملة بالمثل، ولأنها غالبًا سعيدةٌ بدورها كآخر.

يجعلنا هذا نتساءل: كيف بدأت هذه القصة كلها؟ نفهم أن ثنائية الجنسين ككل ثنائيةٍ أخرى تتجلى بصراعٍ. ونفهم أنه لو نجح أحد الاثنين في فرض هيمنته، فسيفرض نفسه على أنه مطلقٌ. ويبقى علينا أن نفسّر لماذا نجح الرجل في ذلك أولًا. ويبدو أنه كان بإمكان النساء الفوز؛ أو أن الصراع ما كان ليُحسَم أبدًا. كيف ظلّ هذا العالم دائمًا عالم الرجال ولم تبدأ الأمور بالتغيّر إلا اليوم؟ هل هذا التغيّر أمرٌ حسنٌ؟ هل سيؤدي إلى توزيعٍ عادلٍ للعالم بين الرجال والنساء أم لا؟

ليست هذه الأسئلة بجديدةٍ؛ وقد قُدّمت عليها أجوبةٌ عديدةٌ؛ ولكنّ مجرّد كون المرأة *آخر* يناقض كل التبريرات التي وضعها الرجال لذلك والتي أملتها عليهم مصالحهم بالطبع. وقد قال **بولان دولابار** Poulain de la Barre في القرن السابع عشر، وهو مناضلٌ نسويٌّ غير مشهورٍ: «يجب التشكيك بكل ما كتبه الرجال حول النساء لأنهم خصمٌ وحكمٌ في الوقت نفسه». لقد أظهر الذكور في كل مكانٍ وزمانٍ الرضى الذي يشعرون به لإحساسهم بأنهم ملوك الخليقة. ويقول اليهود في صلاتهم الصباحية: «الحمد للربّ إلهنا وإله كل العوالم لأنه لم يخلقني امرأةً»؛ بينما تتمتم نساؤهم بإذعانٍ: «الحمد لله الذي خلقني حسب مشيئته». وكان **أفلاطون** يشكر الآلهة على النعم التي فاضت بها عليه، وأولها أنها خلقته حرًّا وليس عبدًا، وثانيها رجلًا وليس امرأةً. لكن ما كان للذكور أن يستمتعوا بشكلٍ كاملٍ بهذا الامتياز لو لم يعتبروه قائمًا بالمطلق وإلى الأبد: فقد أعطوا أنفسهم حقوقًا اعتمادًا على سيطرتهم، ويقول **بولان دولابار** كذلك: «هؤلاء الذين وضعوا القوانين ولفّقوها أعطوا جنسهم امتيازاتٍ باعتبارهم رجالًا، ثم حوّل المشرّعون هذه القوانين إلى مبادئ». وقد انهمك المشرّعون والكهنة والفلاسفة والكتاب والعلماء في إثبات أن السماء قرّرت وضع المرأة كتابعٍ وأن في ذلك فائدةً للأرض. وتعكس الديانات التي صنعها الرجال إرادة السيطرة هذه: فقد بذلوا جهودهم في أسطورة حوّاء وباندورا. واستخدموا الفلسفة واللاهوت كما رأينا في جمل **أرسطو** و**سان توماس** التي أوردناها. واستطاب الهجاؤون والأخلاقيون منذ العصور القديمة رسم صور الضعف الأنثوي. ونعلم أن اتّهاماتٍ عنيفةٍ وجّهت ضدّ النساء عبر كل

المؤلفات الفرنسية: فمونترلان Montherlan يحذو ببراعةٍ أقلّ حذو جان دومونج Jean de Meung. قد تبدو هذه العدائية مبرَّرةً أحيانًا وغالبًا دون سببٍ؛ وهي تخفي في الواقع رغبةً في تبرير الذات أُخفِقَ في إخفائها. ويقول مونتينيه Montaigne «اتّهام جنسٍ أسهل من عذر الآخر». تبدو العملية واضحةً في بعض الحالات. فمن المدهش مثلًا أن التشريع الروماني كي يحدّ من حقوق المرأة يتذرّع «ببلاهة وضعف الجنس» حين تصبح المرأة خطرًا على الورثة الذكور عندما تضعف الأسرة. ومن المدهش أنّه لإبقاء المرأة المتزوجةً تحت الوصاية، يُلجأ في القرن السادس عشر إلى قانون سان أوغستان Augustin saint الذي يعلن أن «المرأة بهيمةٌ لا تصلح لشيءٍ» بينما يُعتَرَف للعزباء بأنها قادرةٌ على إدارة أملاكها». لقد فهم مونتينيه جيدًا التعسّف والظلم المفروضين على مصير المرأة: «النساء لسن مخطئاتٍ البتة عندما يرفضن القواعد الموضوعة في هذا العالم، وخصوصًا أن الرجال هم الذين وضعوها من دونهنّ. هناك بالطبع دسائس وشجارٌ بيننا وبينهنّ». لكن مونتينيه لا يبلغ في تعاطفه حدّ الدفاع عنهنّ. في القرن الثامن عشر فقط تناول المسألة بموضوعيةٍ رجالٌ ديموقراطيون للغاية. فانهمك ديدرو Didrot مع آخرين في إثبات أن المرأة كائنٌ بشريٌّ كالرجل. بعد ذلك بقليلٍ دافع عنها ستيوارت ميل Stuart Mill بحماسٍ. لكن هؤلاء الفلاسفة غير المنحازين كانوا قلائل. في القرن التاسع عشر أصبح صراع القضية النسوية من جديدٍ صراع أنصارٍ؛ كان إسهام المرأة في العمل المنتج إحدى نتائج الثورة الصناعية: في تلك اللحظة خرجت المطالب النسوية من الحيّز النظريّ، ووجدت أسسًا اقتصاديةً؛ وغدا خصومهنّ أكثر عدوانيةً؛ ورغم أن الملكية المالية تزعزعت جزئيًا فقد تمسّكت البورجوازية بالأخلاق القديمة التي ترى في تماسك الأسرة ضامنًا للملكية الفردية: فطالبت بضراوةٍ بعودة المرأة إلى المنزل وخاصةً أن تحررها أصبح تهديدًا حقيقيًا؛ وحاول الرجال ضمن الطبقة العمالية ذاتها لجم هذا التحرّر لأن النساء بَدَونَ لهم منافساتٍ خطراتٍ وخاصةً أنهنّ كنّ معتاداتٍ على العمل بأجورٍ منخفضةٍ[8]. ولكي يثبت معارضو الحركة النسوية دونيّة المرأة، استخدموا كما في الماضي ليس فقط الدين والفلسفة واللاهوت ولكن العلم أيضًا: البيولوجيا وعلم النفس التجريبي..إلخ. وفي أفضل الأحوال قبلوا بالاعتراف للجنس

8- انظر القسم الثاني، فقرة 5.

الآخر بالمساواة ضمن الاختلاف. ولهذه الصيغة التي راجت مغزىً كبيرًا: إنها بالضبط ما استعملته قوانين جيم كرو Jim Crow بشأن سود أمريكا؛ غير أن هذا التمييز المفترض أنه يدعو إلى المساواة لم يؤدِّ إلا إلى إدخال أكثر أشكال التمييز العنصري تطرّفًا. لم يكن هذا التطابق وليد الصدفة: إذ تبقى عملية التبرير نفسها سواءً تعلق الأمر بعرقٍ أو طبقةٍ أو جنسٍ. «المؤنث الأزلي» يماثل «الروح السوداء» و«الطبع اليهودي». لكنّ المسألة اليهودية بمجملها مختلفةٌ جدًا عن المسألتين الأخريين: فاليهودي بالنسبة لمعادي السامية ليس دونيًا بقدر ما هو عدوٌّ ولا يُعترَف في هذا العالم بأي مكانٍ خاصٍّ به؛ على العكس يتمنون إبادته. لكنّ هناك تشابهًا عميقًا بين وضع النساء ووضع السود: فكلاهما يتحرّر الآن من نفس النظام الأبوي والطبقة التي كانت سابقًا مسيطرةً تريد إبقاءهما «في مكانهما»، أي في المكان الذي اختارته لهما؛ وفي الحالين لا تنفك تمتدح، صادقةً أم لا، فضائل «الأسود الطيب» ذي الروح غير الواعية الطفولية الضاحكة، الأسود المستكين، والمرأة «الحقيقية»، أي العابثة السخيفة غير المسؤولة، المرأة الخاضعة للرجل. وفي الحالين تستغل الوضع القائم الذي ابتكرته. ونعرف دعابة برنارد شو Bernard Shaw الذي يقول ما خلاصته: «الأمريكي الأبيض يحصر الأسود في مرتبة ماسح الأحذية، ويستنتج من ذلك أنه لا يستطيع القيام بشيءٍ سوى مسح الأحذية». نجد هذه الدارة المعيبة في كل الظروف المشابهة: عندما نبقي شخصًا أو مجموعة أشخاصٍ في وضعٍ دونيٍّ، فلأنه يكون أدنى؛ لكن يجب أن نتفق على معنى كلمة يكون؛ إذ يكمن سوء النية في إعطائها قيمةً جوهريةً بينما لديها الحس الحركي الهيغلي: أن تكون يعني أن تصبح، أنك تشكّلتَ كما تبدو؛ أجل، النساء اليوم في المجمل أدنى من الرجال، أي أن وضعهنّ يتيح لهنّ إمكانياتٍ أقلّ: المسألة هي معرفة إن كان على هذا الوضع أن يدوم للأبد.

يتمنى كثيرٌ من الرجال ذلك: لم يلقِ الجميع أسلحتهم بعدُ. وما زالت البرجوازية المحافظة ترى في تحرّر المرأة خطرًا يهدّد عرفها ومصالحها. كما يخشى بعض الذكور المنافسة الأنثوية. وفي مجلة *لبدولاتان L'Hebdo-Latin* صرّح أحد الطلاب منذ فترةٍ بما يلي: «كل طالبةٍ تحتل مركز طبيبٍ أو محامٍ تسرق منا مكانًا»؛ لم يناقش هذا الشخص مدى حقوقه في هذا العالم. وليست المصالح الاقتصادية وحدها التي تعمل. فإحدى المكاسب

التي يمنحها الاستبداد للمستبدين هو أن أكثرهم تواضعًا يشعر أنه متفوّق. ويُعزّي «الأبيضَ المسكينَ» من جنوب الولايات المتحدة الأمريكية أن يقول لنفسه إنّه ليس «زنجيًا قذرًا»؛ ويستغلّ البيض الأكثر ثراءً هذا الصلف ببراعةٍ. وكذلك يظنّ أقلّ الذكور قيمةً نفسه نصف إلهٍ أمام النساء. كان أسهل بكثيرٍ على السيد **مونترلان** أن يظن نفسه بطلًا عندما يواجه نساءً (عدا عن أنه يختارهنّ لغايةٍ محددةٍ) من أن يقوم بدوره كرجلٍ بين الرجال، وهو دورٌ كان كثيرٌ من النساء ليقمن به أفضل منه. وهكذا في أيلول 1948 في إحدى مقالاته في صحيفة *الفيغارو الأدبية* *Le Figaro Littèraire*، استطاع[9] السيد م. **كلود مورياك** M.Claude Mauriac ـ الذي يُعجَب الجميع بطرافته الفائقة ـ أن يكتب في شأن النساء: «نحن نصغي بلا مبالاةٍ مهذّبةٍ... إلى أكثرهنّ براعةً، عارفين أن فكرها يعكس في قليلٍ أو كثيرٍ، وبصورةٍ واضحةٍ، أفكارًا آتيةً منّا». وبالطبع فإن محدّثة السيد **مورياك** لا تعكس أفكاره شخصيًا، باعتبار أنّنا لا نعرف له أيّة أفكارٍ؛ أمّا أن تعكس أفكارًا آتيةً من الرجال، فهذا ممكنٌ: حتى بين الذكور هناك العديد ممّن يدّعون لنفسهم آراء لم يبتكروها؛ يمكن أن نتساءل إن لم يكن من مصلحة السيد م. **كلود مورياك** أن يعكس فكر **ديكارت** و**ماركس** وجيد أكثر من أن يطرح فكره؛ وما يلفت النظر أنه يتماهى مع **سانت بول** و**هيغل** و**لينين** و**نيتشه** بسبب غموض «نحن» ومن علياء عظمته ينظر باحتقارٍ إلى قطيع النساء اللواتي يجرؤن على التحدث إليه على قدم المساواة؛ وفي الحقيقة أعرف نساءً عديداتٍ ليس لديهنّ صبرٌ يمنحن به السيد م. **مورياك** «لهجة لا مبالاةٍ مهذبةٍ».

ألححت على هذا المثال لأنّ السذاجة الذكرية فيه لا لَبس فيها. وهناك أساليب كثيرةٌ أخرى أكثر حذاقةً يستفيد بواسطتها الرجال من غيرية المرأة. وهناك عقارٌ سحريٌّ لكل هؤلاء الذين يعانون من مركب الشعور بالنقص: لا يوجد أكثر وقاحةً تجاه النساء وأكثر عدوانيةً أواحتقارًا من رجلٍ قلقٍ على ذكوريته. هؤلاء الذين لا يهتمون لرأي نظرائهم مستعدون بشكلٍ أكبر بكثيرٍ للاعتراف بالمرأة شبيهةً؛ مع ذلك حتى بالنسبة لهؤلاء تظل خرافة المرأة، الآخر، عزيزةً لأسباب عديدةٍ[10]. لا نلومهم لأنهم لم يضحّوا عن طيب خاطرٍ

9- أو على الأقل اعتقد أنه استطاع.

10- يبدو مقال ميشيل كاروج Michel Carrouges في العدد 292 من *كاييه ديسود* *Cahiers du Sud* حول هذا الموضوع =

بكل الفوائد التي يجنونها من ذلك. إنهم يعرفون ما الذي يخسرونه إذا ما تخلوا عن المرأة التي يحلمون بها، ويجهلون ما ستمنحهم المرأة كما ستكون غدًا. يحتاج الأمر إلى الكثير من إنكار الذات ليرفض المرء وضع نفسه كذاتٍ وحيدةٍ ومطلقةٍ. على كل حالٍ فإنّ الغالبية العظمى من الرجال لا يصرّحون بهذا الادعاء علنًا. إنهم لا يطرحون المرأة كأدنى: لقد اخترقتهم اليوم كثيرًا مُثُل الديموقراطية بحيث أنهم يعترفون بتساوي جميع البشر. وتظهر المرأة ضمن الأسرة للطفل وللشاب بنفس مقام الذكور البالغين الاجتماعي؛ ثم يحسّ ضمن الرغبة والحب بمقاومة المرأة المرغوبة والمحبوبة وباستقلالها، وعندما يتزوج، يحترم في امرأته الزوجة والأم، وفي التجربة المحسوسة للحياة الزوجية تطرح نفسها أمامه كحرةٍ. يمكنه إذًا أن يقتنع بأنه لم تعد هناك بين الجنسين مراتب اجتماعيةٌ وأنّ المرأة مساويةٌ له بوجه الإجمال، عبر الاختلافات.

مع ذلك بما أنه يلاحظ بعض الدونية ـ أهمها العجز المهني ـ فهو ينسب ذلك إلى الطبيعة. عندما يتعامل مع المرأة بنوع من التعاون والعطف فهو يطرح مبدأ المساواة المجردة؛ ولا يفكر بعدم المساواة الملموس الذي يلاحظه. ولكن ما إن يصطدم بها، حتى ينقلب الموقف؛ فيطرح عدم المساواة الملموس ويسمح لنفسه بذلك بإنكار المساواة المطلقة[11]. وهكذا يؤكّد العديد من الرجال بنيّةٍ صافيةٍ أن النساء مساوياتٌ للرجال وأنّه ليس لديهنّ ما يطالبن به، وفي الوقت نفسه أنّ النساء لا يمكنهنّ مطلقًا أن يكنّ مساوياتٍ للرجل وأن مطالبهن عبثٌ. لأن من الصعب على الرجل أن يقدّر حجم التمييز الاجتماعي الهائل الذي يبدو في الظاهر لا قيمة له والذي تكون انعكاساته الأخلاقية والثقافية على المرأة عميقةً بحيث يمكن أن تبدو طبيعةً أصليّةً[12]. لا يعرف أكثر الرجال تعاطفًا مع المرأة وضعها المحسوس أبدًا. وهكذا نصدّق الذكور عندما يدافعون بحماسةٍ عن امتيازاتٍ لا يعرفون

= ذا مغزى. فهو يكتب مستنكرًا: «نتمنى لو لم تكن هناك مطلقًا خرافةٌ عن المرأة، لكن فقط جوقةٌ من الطاهيات والعجائز وبنات الهوى والمتحذلقات وظيفتهن المتعة أوالخدمة!» هذا يعني أن المرأة بالنسبة له ليس لديها وجودٌ لنفسها؛ إنه يعتبر فقط وظيفتها في العالم الذكوري. وهدفها هو الرجل؛ إذن بالفعل يمكن أن نفضّل «وظيفتها» الشاعرية على سواها. المسألة تحديدًا هي معرفة لماذا يجب تعريفها تبعًا للرجل.

11- مثلًا يعلن الرجل أنه لا يجد زوجته قاصرًا في شيءٍ إن لم تكن لديها مهنةٌ: فالأعمال المنزلية محترمةٌ بنفس الدرجة.. إلخ. مع ذلك عند أول شجارٍ يصيح: «أنت غير قادرة على كسب عيشك من دوني».

12- سيكون وصف هذه العملية تحديدًا موضوع الجزء الثاني من هذه الدراسة.

حتى مداها. إذن لن يخيفنا حجم الهجوم الموجّه ضدّ المرأة ولا عنفه؛ ولن يخدعنا الكلام المعسول الذي يمتدح «المرأة الحقيقية»؛ ولن يجرفنا حماس رجالٍ مهتمين بمستقبلها، وهم لا يريدون بأي ثمنٍ أن يتشاطروه معها.

مع ذلك يجب أن ننظر بحذرٍ إلى حجج أنصار الحركة النسوية: فغالبًا ما تجردها الرغبة في الجدل من كل قيمةٍ. إذا كانت «قضية النساء» تافهةً بهذا القدر فلأنّ العجرفة الذكورية صنعت منها «شجارًا»؛ وعندما نتشاجر، نفقد المنطق. ما حاولوا إثباته بلا هوادةٍ هو أنّ المرأة أعلى أو أدنى أو مساويةٌ للرجل: قال البعض إنّها مخلوقٌ ثانويٌّ بالطبع بما أنها خُلِقت بعد آدم؛ وقال آخرون على العكس إنّ آدم لم يكن سوى تجربةٍ أولى وإنّ الله نجح في صنع الإنسان بكماله عندما خلق حوّاء؛ ودماغها هو الأصغر: لكنه الأكبر نسبيًا؛ وربما كان المسيح رجلًا من باب التواضع. تستدعي كلّ حجّةٍ فورًا نقيضها وغالبًا ما يكون الطرفان مخطئين. إن أردنا أن نستوضح الأمر يجب الخروج من هذه الأفكار القديمة؛ يجب رفض مفاهيم التفوّق والدونية والمساواة المبهمة التي أفسدت كل المناقشات وننطلق من جديد. ولكن كيف سنطرح المسألة؟ ثم من نكون نحن لنطرحها؟ الرجال خصمٌ وحَكَمٌ: والنساء كذلك. أين نجد ملاكًا محايدًا؟ في الواقع لا يصلح الملاك للحديث في هذه المسألة، فهو يجهل كل معطياتها؛ أما بالنسبة للخنثى فهو حالةٌ استثنائيةٌ: إنه ليس رجلًا وامرأةً معًا وبالأحرى ليس برجلٍ ولا امرأة. أعتقد أن بعض النساء ما زلن الأكثر قدرةً على إجلاء وضع المرأة. من السفسطة أن ندّعي حبس ايبيمنيد Epimènide ضمن مفهوم الكريتي[13] والكريتي ضمن مفهوم الكاذب. ليس هناك جوهرٌ غامضٌ يملي على الرجال والنساء حسن النية أو سوءها؛ إنه وضعهم الذي يؤهّبهم للبحث عن الحقيقة في قليلٍ أو كثيرٍ. كثيرٌ من نساء اليوم، اللواتي كان لديهن حظّ استعادة كل امتيازات الكائن البشري، يستطعن أن يتمتّعن بالنزاهة: حتى أننا بحاجةٍ لذلك. لم نعد مثل سابقاتنا مناضلاتٍ؛ لقد ربحنا الجولة بالإجمال؛ وفي آخر المناقشات حول وضع المرأة، لم تكفّ الأمم المتحدة عن المطالبة بإلحاحٍ بتطبيق المساواة بين الجنسين، ولا تشعر العديدات منا الآن أبدًا بأن الأنوثة عقبةٌ أو أمرٌ مزعجٌ؛ ويبدو لنا العديد من المشاكل أكثر أهمّيةً من تلك التي تعنينا مباشرةً، يسمح لنا هذا الانفصال ذاته

13- أحد حكماء اليونان القديمة السبعة وقد ولد في جزيرة كريت. (المترجمة)

بأن نأمل أن يكون موقفنا موضوعيًا. مع ذلك فنحن نعرف دقائق العالم الأنثوي أكثر من الرجال لأن جذورنا موجودةٌ فيه. ونفهم بشكلٍ أسرع ما يعنيه للإنسان أن يكون أنثى؛ ونهتمّ أكثر بمعرفة ذلك. قلت إنّ هناك مشاكل أكثر أهمّيةً، لكن ذلك لا يمنع أن يبقى هذا مهمًا في نظرنا. ماذا أثّر كوننا نساءً على حياتنا؟ ما هي بالضبط الفرص التي أعطيت لنا وتلك التي مُنِعَت عنّا؟ ما هو المصير الذي ينتظر أخواتنا الأصغر سنًّا، وفي أي اتجاهٍ يجب توجيههنّ؟ من المدهش أن مجمل الكتابات النسويّة في أيامنا يحرّكها جهدٌ للتفسير أكثر من رغبةٍ في المطالبة. هذا الكتاب هو واحدةٌ من محاولات توضيح الوضع الراهن إثر الخروج من عصر المشاحنات الفوضوية.

ولكن هل يستحيل أن نعالج أية مسألةٍ إنسانيةٍ دون انحيازٍ؟ حتى طريقة طرح المسائل والمنظور المتّبع يفترضان ترتيبًا للمصالح: فكل صفةٍ تغطّي قيمًا، ولا يوجد وصفٌ يفترض أنه موضوعيٌّ لا يقوم على خلفيةٍ أخلاقيةٍ. ومن الأفضل أن نطرح المشاكل أولًا بدل محاولة إخفاء المبادئ التي نعنيها بشكلٍ واضحٍ قليلًا أو كثيرًا؛ وهكذا لا نجد أنفسنا مرغمين على أن نفسّر في كلّ صفحةٍ المعنى المعطى لكل كلمةٍ: أعلى، أدنى، أفضل، أسوأ، تقدّم، تراجع.. إلخ. وإذا راجعنا بعض المؤلفات المخصصة للمرأة، نرى أنّ إحدى أكثر وجهات النظر المتبنّاة غالبًا، هي الصالح العام، والمكاسب العامة: في الحقيقة كلّ واحدٍ يفهم هنا مصلحة المجتمع كما يحب أن يحافظ عليها أو ينشئها. أما نحن فنتصور أنّ لا مصلحة عامة سوى تلك التي تؤمّن الخير الخاصّ للمواطنين؛ نحن نحكم على التشريعات من وجهة نظر الفرص الملموسة المعطاة للأفراد. لكننا لا نخلط كذلك فكرة المصلحة مع فكرة السعادة: وهذه وجهة نظرٍ نصادفها كثيرًا؛ أليست نساء الحريم أكثر سعادةً من المرأة الناخبة؟ أليست ربة المنزل أكثر سعادةً من العاملة؟ لا نعلم كثيرًا ما تعنيه كلمة السعادة ولا ما هي القيمة الحقيقية التي تشملها؛ ولا توجد أيّة إمكانيةٍ لقياس سعادة الغير ومن السهل دومًا أن نصف بالسعيد الوضع الذي نريد فرضه عليه: خصوصًا هؤلاء المحكومون بالجمود، يقال إنّهم سعداء بحجة أن السعادة هي السكون. بالتالي هذا مفهومٌ لن نرتكز إليه. المنظور الذي نعتنقه هو منظور الأخلاق الوجودية. تقوم كل ذاتٍ بشكلٍ محسوسٍ عبر مشاريع تسامٍ؛ ولا تستكمل حريتها إلا عبر انطلاقتها الدائمة نحو حرياتٍ أخرى؛ ولا يوجد أي تبريرٍ للوجود

الحالي سوى امتداده نحو مستقبلٍ مفتوحٍ. كلما دخل التسامي في كمونٍ يحدث تراجعٌ للوجود إلى الذات، وللحرية إلى الواقع، وهذا السقوط خطأٌ أخلاقيٌّ إذا اعترف به الفرد؛ أما إذا فُرِضَ عليه فيأخذ شكل كبتٍ وقمعٍ؛ وهو في الحالين داءٌ مطلقٌ. وكل شخصٍ يهتمّ بتبرير وجوده يشعر به كحاجةٍ غير محددةٍ للتسامي. غير أن ما يحدد وضع المرأة بشكلٍ خاصٍ هو أنّها، باعتبارها ككل إنسانٍ حريةٌ مستقلةٌ، تكتشف وتختار نفسها في عالمٍ يفرض الرجال عليها فيه أن تكون «آخر»: يدّعون أنهم يجمدونها كشيءٍ، ينذرونها للكمون، بما أن تساميها سيقوده دائمًا شعورٌ آخر أساسيٌّ ومسيطرٌ. مأساة المرأة هي هذا الصراع بين المطالب الأساسية لكل ذاتٍ تطرح نفسها دومًا كأساسٍ، ومتطلبات وضعٍ يجعل منها غير أساسٍ. كيف يستطيع إنسانٌ أن يكتمل ضمن الظروف النسوية؟ ما هي الطرق المفتوحة أمامه؟ وأيها تفضي إلى طرقٍ مسدودةٍ؟ كيف نجد الاستقلال في كنف التبعية؟ وما هي الظروف التي تحدّ حرية المرأة وهل بإمكانها تجاوزها؟ تلك هي الأسئلة الأساسية التي نودّ إيضاحها. هذا يعني أننا باهتمامنا بفرص الفرد لن نعبّر عن هذه الفرص بلفظة السعادة بل بلفظة الحرية.

من الجليّ أنّه لن يكون هناك أيّ معنىً لهذه المسألة إذا افترضنا أن قَدَرًا فيزيولوجيًا ونفسيًا أو اقتصاديًا يثقل على المرأة. وكذلك سنبدأ بمناقشة وجهات نظر البيولوجيا وعلم النفس والمادية التاريخية حول المرأة. وسنحاول بعدئذٍ بصورةٍ إيجابيةٍ أن نشرح كيف تشكّل «الواقع النسوي» ولماذا عُرِّفت المرأة بأنها الآخر وماذا كانت انعكاسات ذلك من وجهة نظر الرجال. بالتالي سنصف من وجهة نظر النساء العالم كما اقترحوه عليهنّ[14]؛ وسيكون بإمكاننا أن نفهم ما هي الصعوبات التي تعترضهنّ في اللحظة التي يطالبن فيها بالمساهمة في العيش المشترك الإنساني، محاولاتِ الهروب من المجال الذي حُدد لهنّ حتى الوقت الراهن.

14- سيكون هذا موضوع الجزء الثاني.

القسم الأول

المصير

الفصل الأول

معطيات البيولوجيا

يقول هواة الصيغ البسيطة: المرأة؟ هذا بسيطٌ: إنها رحمٌ، ومبيضٌ؛ إنها أنثى: وهذه الكلمة كافيةٌ لتعريفها. يتردّد نعت «أنثى» في فم الرجل كإهانةٍ، مع ذلك هو لا يخجل بحيوانيته، على العكس من ذلك، هو يفخر حين يُقال عنه «إنه ذكرٌ»! وتعبير «أنثى» هو تحقيريٌّ ليس لأنه يغرس المرأة بالطبيعة، ولكن لأنه يجعلها أسيرة جنسها. إذا بدا هذا الجنس للرجل محتقَرًا وعدوًّا حتى لدى الحيوانات البريئة، فهذا بالطبع بسبب العدائية القلقة التي تثيرها المرأة لديه؛ وهو يريد مع ذلك أن يجد في البيولوجيا تبريرًا لهذا الشعور. فكلمة أنثى تثير لديه فيضًا صاخبًا من الصور: بويضةٌ هائلةٌ مستديرةٌ تختطف النطفة وتقتلعها، سريعةً، وحشيةً ونهمةً، وملكة دودة الخشب تسيطر على الذكور المستعبَدين؛ والسرعوفة تسحق شركائها وتلتهمهم بعد انتهاء التزاوج؛ والكلبة في مرحلة النزو تركض في الطرقات، ساحبةً وراءها موجةً من الروائح الفاسقة؛ والقردة تعرض نفسها دون حياءٍ وتتهرّب بغنجٍ خبيثٍ؛ وأروع الحيوانات المفترسة، النمرة، واللبوة، والفهدة تستلقي خاضعةً لعناق الذكر الشامخ، دون حركةٍ، متلهّفةً، ماكرةً، بلهاء، متبلّدةً، شهوانيّةً، مفترسةً، ذليلةً، يعكس الرجل على المرأة صورة كل الإناث معًا. والقصة أنها أنثى. ولكن إذا أردنا الكفّ عن الحديث في موضوعٍ

مطروقٍ يبرز للذهن فورًا سؤالان: ما الذي تمثّله الأنثى في مملكة الحيوان؟ وأيّ نوعٍ خاصٍ من الإناث يتحقق في المرأة؟

*

الذكور والإناث نمطان يتميّزان ضمن النوع بغرض التوالد؛ ولا يمكن تعريفهما إلا بالنسبة لبعضهما. ولكن علينا أولًا أن نلاحظ أنّه حتى مفهوم تقسيم الأنواع إلى جنسين ليس واضحًا. هذا التقسيم ليس عامًا في الطبيعة، وإذا أخذنا الحيوانات نموذجًا، نعرف أن التكاثر لدى وحيدات الخليّة، النُقاعيات والأميب والعصيّات.. إلخ، منفصلٌ كليًّا عن الجنس، فالخلايا تنقسم مرةً تلو المرة لوحدها. ولدى بعض عديدات الخلايا يتم التكاثر بالانشطار، أي انقسام الكائن اللاجنسي أصلاً، أو بالتبرعم blastogenese أي انقسام الكائن الآتي هو نفسه من ظاهرةٍ جنسيةٍ: ظواهر التبرعم والانقسام الملاحظة لدى هيدرة الماء العذب، والمجوّفات، والإسفنج، والديدان، والمغلّفات، هي أمثلةٌ معروفةٌ لذلك. وفي ظواهر التناسل العذري تتطوّر البيضة العذراء إلى جنينٍ دون تدخّل الذكر الذي لا يلعب أيّ دورٍ أو يلعب دورًا ثانويًا فقط: وينقسم بيض النحل غير الملقّح وينتج النحل الطنّان؛ ولدى القمل، تغيب الذكور خلال سلسلةٍ من الأجيال وتعطي البيوض غير الملقّحة إناثًا. وقد طُبّق التناسل العذريّ صنعيًّا لدى توتياء البحر، ونجمة البحر، والضفدع. مع ذلك يحدث لدى وحيدات الخلايا أن تندمج خليّتان مشكّلتين ما يسمّى لاقحةً؛ والإلقاح ضروريٌّ لكي تعطي بيوض النحل إناثًا، وبيوض القمل ذكورًا. استنتج بعض علماء البيولوجيا من ذلك أنه حتى لدى الأنواع القادرة على التكاثر بصورةٍ فرديّةٍ، فإن تجديد الخلايا الجنينية بمزيجٍ من الصبغيات الأجنبية مفيدٌ لتجديد السلالة وتقويتها؛ وبالتالي نفهم أن الجنس في أكثر أشكال الحياة تعقيدًا وظيفةٌ ضروريةٌ؛ وحدها العضويات الأوّلية تستطيع أن تتكاثر دون جنسٍ، وتستنفد حيويتها أيضًا بذلك. لكن هذه الفرضية اليوم ملفّقةٌ؛ فقد أثبتت بعض الملاحظات أن التكاثر اللاجنسيّ يمكنه أن يتم بشكلٍ غير محدودٍ دون أن نلاحظ أية استحالةٍ؛ والأمر أكثر إثارةً للتعجّب لدى العصيّات؛ فقد تعددت تجارب التناسل العذري وغدت أكثر جرأةً ويبدو الذكر في كثيرٍ من الأنواع غير ذي فائدةٍ بشكلٍ جذريٍّ. فضلًا عن ذلك، وإن أثبتت فائدة التبادل بين الخلايا، فهو نفسه يبدو أمرًا غير مبرّرٍ. ويلاحظ علم البيولوجيا انقسام الجنسين، ولكنه وإن كان

مُشبَعًا بالغائية[15] فهو لا ينجح في استخلاص ذلك من تركيب الخلية، ولا من قوانين التكاثر الخلوي، ولا من أيّة ظاهرةٍ أوليةٍ.

لا يكفي وجود المشيجة[16] المتغايرة لتحديد جنسين متميّزين؛ في الواقع يحدث غالبًا أن لا يؤدّي تمايز الخلايا المولّدة إلى انشطار النوع إلى نمطين: فيمكن أن ينتمي كلاهما لفردٍ واحدٍ. وهذه حال الأنواع الخنثى، العديدة للغاية لدى النباتات، والتي نجدها أيضًا لدى عددٍ من الحيوانات الدنيا، ومن بينها الحلقيّات والرّخويّات. ويتم التوالد عندئذٍ إما بالإلقاح الذاتي، أو بالإلقاح المتصالب. وحول هذه النقطة أيضًا أقرّ بعض علماء الأحياء الوضع القائم. فهم يعتبرون الإمشاجية، أي النظام الذي تنتمي فيه الغدد التناسلية[17] المختلفة لكائنين مستقلّين، كإكمالٍ للخنوثة، يتم عبر تطوّرٍ؛ لكن يعتبر آخرون الإمشاجية بدئيةً على العكس: فالخنوثة هي شكلٌ استحاليٌّ لها. وعلى كل الأحوال مفاهيم تفوّق نظامٍ على سواه تستدعي، فيما يخصّ التطوّر، نظريّاتٍ قابلةً للنقض. كلّ ما يمكن تأكيده عن قناعةٍ، هو أنّ نمطي التوالد هذين موجودان معًا في الطبيعة، ويحقق كلاهما ديمومة الأنواع، وأنّ تغاير الأجهزة الحاملة للغدد التناسلية يبدو طارئًا كما في تغاير المشيجة. ويبدو افتراق الأفراد إلى ذكورٍ وإناثٍ أمرًا محتملًا لا يمكن منعه.

اتّفقت معظم الفلسفات على ذلك دون أن تطمح إلى تفسيره. ونعرف الخرافة الأفلاطونية التي تقول إنّه كان هناك في البدء رجالٌ، ونساءٌ، وخناثى؛ وكان لكل مخلوقٍ وجهٌ مزدوجٌ، وأربعة أذرعٍ، وأربعة أرجلٍ، وجسدان ملتصقان؛ وذات يومٍ انفلق إلى اثنين «كما نفلق البيض» ومنذئذٍ، يحاول كلّ نصفٍ الالتحاق بنصفه الآخر المكمّل: فيما بعد قرّرت الآلهة أنه عبر تزاوج النصفين المختلفين تُخلَق كائناتٌ بشريةٌ جديدةٌ. لكن هذه القصة تقدّم تفسيرًا للحبّ فقط: إذ يؤخذ تقسيم الجنسين أولًا كمعطىً. ولا يقدّم أرسطو تبريرًا أفضل لها: لأنه إن كان اشتراك المادة والشكل مطلوبًا في كل عملٍ، فليس ضروريًا أن تكون العناصر الفاعلة والمنفعلة موزّعةً على زمرتين من الأفراد المتغايرين. وهكذا أعلن

15- الغائية مذهب فلسفي يرى أن لكل وجودٍ مآل، ما يجعله يعزو للغائية دوراً مهماً في تفسير العالم. (المترجمة)

16- تسمى الخلايا المولدة التي يشكّل اندماجها البيضة «مشيجة».

17- الغدة التناسلية هي الغدة التي تنتج المشيج (الخلية التناسلية الناضجة).

سان توماس saint Thomas أنّ المرأة مخلوقٌ «طارئٌ»، وهو أسلوبٌ لطرح الصفة الطارئة للجنس من منظورٍ ذكوريٍّ. كان **هيغل** Hegel مع ذلك ليتنكّر لهذيانه العقلانيّ لو لم يحاول تأسيس الجنس على أساسٍ منطقيٍّ. فهو يمثّل حسب رأيه الوساطة التي يصبح الفرد عبرها نوعًا محسوسًا. «يتشكّل النوع فيه كتأثيرٍ مضادٌّ لتفاوت واقعه الشخصي، كرغبةٍ في إيجاد إحساسه بنفسه لدى شخصٍ آخر من نوعه عندما يتّحد به، وفي أن يكمل نفسه ويغلّف بذلك النوع بطبيعته ويجعله موجودًا. إنه التزاوج». (فلسفة الطبيعة، الجزء الثالث،ص360) وبعد ذلك بقليلٍ يقول: «المسألة هي أن نعرف ما هم عليه، أي أنّهم نوعٌ واحدٌ، وحياةٌ واحدةٌ ذاتيةٌ، إنّهم يطرحونها كذلك». ويصرّح **هيغل** بعدئذٍ أنّه كي تتمّ عملية التقارب، يجب أولًا أن يكون هناك تمايزٌ للجنسين. لكن عرضه غير مقنعٍ: نشعر فيه بشدةٍ بالانحياز لإيجاد أزمنة القياس الثلاثة في كلّ عمليةٍ. إنّ تجاوز الفرد إلى النوع، هذا التجاوز الذي يتمّ بواسطته اكتمال الفرد والنوع في حقيقتهما، يمكن أن يتمّ دون مصطلحٍ ثالثٍ في العلاقة البسيطة بين الوالد والطفل: فالتوالد يمكن أن يكون لا جنسيًا. أو أيضًا يمكن أن تكون علاقة الواحد بالآخر علاقة متشابهَين، إذ يكمن التمايز في خصوصية أفرادٍ من نفس النمط، كما يحدث في الأنواع الخنثى. يكشف وصف **هيغل** مغزىً كبير الأهمية للجنس: لكن خطأه دومًا هو أنه يجعل من المغزى صوابًا. لدى قيام الرجال بنشاطهم الجنسيّ يعرّفون الجنسين وعلاقاتهما كما يبتكرون معنىً لكل الوظائف التي يقومون بها وقيمتها: لكن ذلك ليس بالضرورة داخلًا في طبيعة الإنسان. في «ظواهريّة الإدراك»، يشير **مرلو-بونتي** Merleau-Ponty إلى أن الوجود الإنساني يرغمنا على إعادة النظر في مفاهيم الضرورة وإمكان الحدوث. يقول «ليس للوجود خواصٌّ عابرة، ولا محتوىً لا يساهم في إعطائه شكله، وهو لا يقرّ بأنه حدثٌ خالصٌ لأنه الحركة التي تتم عبرها الأحداث». وهذا صحيحٌ. ولكن صحيحٌ أيضًا أن هناك ظروفًا يبدو فيها الوجود مستحيلًا. يتطلّب حضورنا في العالم حتمًا وضع جسمٍ يكون في الوقت نفسه شيئًا من العالم ووجهة نظرٍ حوله: ولكن لا يُفرَض أن يملك هذا الجسم هذا التركيب الخاصّ أو ذاك. يناقش **سارتر** Sartre في «*الوجود والعدم*» *L`etre et le Neant* تأكيد **هيدغر** Heidegger على أن الواقع الإنساني محكومٌ بالموت بسبب محدوديته؛ ويقول إنّ من الممكن فهم وجودٍ مكتملٍ وغير محدودٍ مؤقتًا؛ إلا أنه لو

لم تكن الحياة الإنسانية مأهولةً بالموت، لكانت علاقة الإنسان بالعالم وبنفسه مضطربةً بشكلٍ عميقٍ بحيث يصبح تعبير «الإنسان خالدٌ» بعيدًا كل البعد عن الحقيقة التجريبية: إن كان الموجود خالدًا فلن يعود ما ندعوه إنسانًا. إحدى خصائص مصيره الأساسية هي أن حركة حياته المؤقتة تخلق وراءه وأمامه لا نهائية الماضي والمستقبل: يبدو استمرار النوع إذن كمتلازمٍ مع التحديد الفردي؛ وبالتالي يمكننا اعتبار ظاهرة التوالد ذات أساسٍ من حيث علم الكائن ـ الأنطولوجيا ـ. لكن علينا التوقّف هنا؛ فاستمرارية النوع لا تقود إلى التمايز الجنسي. أن يقوم بها الموجودون بهذه الطريقة بحيث تدخل في المقابل بتعريف الوجود الملموس، فليكن. ولا يبقى منها سوى أنّ الإدراك بلا جسمٍ، الإنسان الخالد، هما أمران غير مفهومين أبدًا، بينما يمكن تصوّر مجتمعٍ يتكاثر بالتناسل العذريّ أو مؤلفٍ من خناثى. أما بالنسبة لدور الجنسين، فهذه نقطةٌ تنوّعت حولها الآراء كثيرًا؛ كانت بالبدء مجرّدةً من كل أساسٍ علميٍّ، كانت تعكس الخرافات الاجتماعية فقط. لقد ظنوا لفترةٍ طويلةٍ، وما زالت بعض المجتمعات البدائية الأمومية تظنّ، أنّ لا دور للأب في تكوّن الطفل: فاليرقانات السلفية تتغلغل في بطن الأم على شكل بذورٍ حيّةٍ. ومع حلول المجتمعات الأبوية، طالب الذكر بنسله بضراوةٍ؛ كانوا مضطرين للاعتراف للأم بدورٍ في الإنجاب، لكنهم قبلوا بأنها لا تقوم سوى بحمل البذرة الحيّة وتغذيتها: فالأب وحده هو الصانع. ويتخيّل **أرسطو** أن الجنين ينجم عن التقاء المني والحيض: في هذا التعايش، تقدّم المرأة فقط مادةً سلبيةً، ويكون الأصل الذكري هو القوة، والنشاط، والحركة، والحياة. وهذا أيضًا مذهب **أبوقراط** الذي يعترف بنوعين من البذور، واحدةٌ ضعيفةٌ أو أنثى، وواحدةٌ قويةٌ هي ذكَرٌ. واستمرت نظرية **أرسطوطاليس** عبر كل العصور الوسطى وحتى العصر الحديث. وفي نهاية القرن السابع عشر، ضحى **هارفي** Harvey بنعجاتٍ بعد التزاوج بقليلٍ فوجد في قرون الرحم حويصلاتٍ اعتبرها بيوضًا وكانت في الواقع أجنّةً. وأعطى الدانمركي **ستينون** Stènon اسم المبيضين للغدد التناسليّة المؤنثة التي كانت تدعى لغاية ذلك الوقت «خصياتٍ مؤنثةٌ» ولاحظ على سطحها وجود حويصلاتٍ ظنها **غراف** Graaf عام 1677 خطأً بيضةً ومنحها اسمه. واستمرّ الجميع في النظر إلى المبيض كنظيرٍ للغدة الذكرية. مع ذلك ففي هذا العام ذاته تمّ اكتشاف «الحيوانات المنويّة» ولاحظوا أنها تدخل إلى الرحم الأنثوي؛

لكنهم اعتقدوا أنها تتغذّى هناك فقط وأن المخلوق كان مصوّرًا فيها قبلًا؛ ورسم الهولندي **هارتساكر** Hartsaker عام 1694 صورةً للقزم المختبئ في النطفة، وعام 1699 أعلن عالمٌ آخر أنه رأى النطفة تقذف نوعًا من النسول ظهر تحتها رجلٌ صغيرٌ رسمه هو أيضًا.

إذن يقتصر دور المرأة في هذه النظريات على تغذية أصلٍ حيٍّ نشيطٍ ومكتمل النمو منذ البداية. لم يكن هناك إجماعٌ على قبول هذه النظريات واستمرّت المناقشات حتى القرن التاسع عشر؛ ثمّ سمح اختراع المجهر بدراسة البويضة الحيوانية؛ واكتشف **باير** Baer عام 1827 بويضة الثدييات: إنها عنصرٌ موجودٌ داخل جريّب غراف؛ وسرعان ما أصبح بالإمكان دراسة انقسامها؛ وعام 1835 اكتُشِف الورم الخبيث، وبالتالي البروتوبلاسما، أي المادة الحيّة، ثم الخليّة؛ وعام 1877 قُدِّمت دراسةٌ تُظهِر اختراق النطفة للبويضة لدى نجمة البحر؛ وانطلاقًا من ذلك أُظهِر تناظر النوى للخليتين التناسليتين؛ وتمّ تحليل تفاصيل اتّحادهما للمرة الأولى عام 1883 من قِبَل عالمٍ حيوانيٍّ بلجيكيٍّ.

لكن أفكار **أرسطو** مع ذلك لم تفقد سمعتها. ويقدّر **هيغل** أنّ لا بدّ من أن الجنسين مختلفان: فالأول فاعلٌ، والآخر منفعلٌ ومن البديهي أنّ الدور السلبي كان من نصيب الأنثى. «بالتالي يكون الرجل إثر هذا التمايز العنصر الفاعل بينما المرأة هي العنصر السلبي لأنها تظلّ بذاتها غير متطورةٍ»[18]. وحتى عندما اعترف الرجال بالبويضة كعاملٍ فاعلٍ، حاولوا أيضًا أن يقابلوا سكونها بسرعة النطفة. ينشأ اليوم اتّجاهٌ معاكسٌ: فقد دعت اكتشافات التوالد العذري بعض العلماء إلى خفض دور الذكر إلى دور عاملٍ بسيطٍ فيزيو - كيميائي. وتبيّن أنّ تأثير حمضٍ أو تنبيهٍ آليٍّ لدى بعض الأنواع قد يكون كافيًا لإطلاق انقسام البيضة وتطوّر الجنين؛ انطلاقًا من ذلك، افترضوا بجرأةٍ أنّ المشيجة الذكرية ليست ضروريةً للنسل، ولعلّها عامل مساعدٌ لا أكثر؛ ولعل إسهام الرجل في الإنجاب سيصبح غير ضروريٍّ ذات يومٍ: ويبدو أن ذلك هو رغبة عددٍ من النساء. لكن لا شيء يسمح بتوقّعٍ جريءٍ بهذا الشكل لأن لا شيء يسمح بتعميم عمليات الحياة النوعية. ولا تبدو ظواهر التكاثر اللاجنسي والتوالد العذري أكثر أو أقلّ مصداقيةً من التكاثر الجنسي. قلنا إنّ هذه الأخيرة ليست الأفضل: لكن لا شيء يشير إلى أنّه يمكن اختصارها إلى آليةٍ بدائيةٍ.

18- هيغل، فلسفة الطبيعة، الجزء الثالث، ص369.

وهكذا، رفضًا لكل مذهبٍ بديهيٍّ، وكل نظريةٍ جسورةٍ، نجد أنفسنا أمام واقعٍ لا يمكن أن نجد له أساسًا أنطولوجيًا ولا تفسيرًا تجريبيًا ولا يمكن فهم مداه بداهةً. عندما نفحصه ضمن حقيقته المحسوسة نستطيع أن نأمل بفهمه: عندئذٍ ربما سيتّضح محتوى كلمة «أنثى». لا نعني أننا نطرح هنا فلسفةً للحياة؛ وضمن الشجار الذي يجري بين الغائيّة والآليّة لا نريد أن ننحاز بسرعةٍ لإحداهما. مع ذلك من الملاحَظ أن كل علماء الفزيولوجيا والبيولوجيا يستخدمون لغةً غائيّةً في قليلٍ أو كثيرٍ، فقط لأنهم يعطون معنىً للظواهر الحياتية؛ وسنستخدم مفرداتهم. ودون أن نقرّر أي شيءٍ فيما يخصّ العلاقة بين الحياة والوعي، يمكن أن نؤكّد أنّ كل واقعٍ حيٍّ يشير إلى تسامٍ، وفي كل عملٍ يكبر مشروعٌ: وصفنا لا يعني شيئًا آخر.

*

تتعاون الأجهزة المذكّرة والمؤنثة في الغالبية العظمى للأنواع بهدف التكاثر. وهي تتحدّد أساسًا بالمشيجات التي تنتجها. هذه الخلايا التي تندمج لتشكّل البيضة متماثلةٌ لدى بعض الطحالب وبعض الفطور؛ وحالات تساوي الأمشاج هذه ذات مغزىً خاصٍّ بما تظهره من تساوٍ أساسيٍّ للمشيجات؛ وبصورةٍ عامةٍ هذه الأخيرة متمايزةٌ؛ لكن يبقى تشابهها صارخًا. وتنتج النطاف والبويضات من تطوّر خلايا متشابهةٍ أصلًا: فتطوّر الخلايا المؤنثة البدئية إلى بويضاتٍ يختلف عن تطوّر النطاف بظواهر بروتوبلاسمية (جبلّيّة)، لكن الظواهر النوويّة هي نفسها على نحوٍ ظاهرٍ. والفكرة التي طرحها عام 1903 عالم البيولوجيا آنسل Ancel ما تزال اليوم تُعتَبر صحيحةً: فالخلية المولّدة غير المتمايزة تصبح ذكرًا أو أنثى حسب الظروف التي تصادفها في الغدّة الجنسية في لحظة ظهورها، ظروفٌ يضبطها تحوّل عددٍ معيّنٍ من الخلايا الظهارية إلى عناصر مغذّيةٍ، تصنع مادةً خاصّةً. يتجلّى هذا التشابه الأصلي في تركيب المشيجتين اللتين تحملان نفس عدد الصبغيات ضمن كل نوعٍ؛ في لحظة الإلقاح تمزج النويّتان مادتهما وفي كلٍّ منهما يتم اختزال الصبغيات التي تصبح بنصف عددها الأصلي: يتم هذا الاختزال في الإثنتين بصورةٍ متماثلةٍ؛ ويؤدي انقساما البويضة الأخيران إلى تشكّل كريّاتٍ قطبيّةٍ معادلةٍ لآخر انقسامات النطفة. يُعتَقد اليوم أنّه بحسب الأنواع فإن المشيجة المذكّرة أو المؤنثة هي التي تحدد الجنس: فلدى الثدييات تملك النطفة

صبغيًّا مختلفًا عن البقية تكون إمكانياته مذكّرةً حينًا ومؤنثةً حينًا. أما بالنسبة إلى انتقال الصفات الوراثية، فهو يتمّ تبعًا لقوانين **مندل** Mendel الإحصائية من الأب والأم. من المهم أن نذكر أنه لا امتياز في هذا اللقاء لإحدى المشيجتين على الأخرى: فكلٌّ منهما تضحّي بفرديّتها، وتمتصّ البيضة كل مادتهما. هناك إذًا فكرتان مُسبَقتان شائعتان للغاية تبيّن أنهما خطأٌ، على الأقل في هذا المستوى البيولوجي الأساس: الأولى هي سلبية الأنثى؛ فالشعلة الحيّة ليست مختزنةً في أيٍّ من المشيجتين، إنها تنبثق من التقائهما؛ ونواة البويضة هي أصلٌ حيويٌّ مماثلٌ تمامًا لنواة النطفة. والفكرة المسبقة الثانية تناقض الأولى، ولا يمنع هذا من تواجدهما معًا غالبًا: وهي أنّ استمرار النوع تؤمّنه الأنثى، بما أنّ وجود الأصل الذكريّ سريع التأثّر وعابرٌ. يخلّد الجنين في الحقيقة خلايا الأب الوراثيّة كما يخلّد خلايا الأم الوراثيّة وينقلها معًا إلى سلالته بشكل ذكرٍ حينًا وأنثى حينًا آخر. بالتالي فهو خليّةٌ وراثيةٌ خنثى تظلّ من جيلٍ لآخر مقاومةً تبدلات الجسم الحيّ الفردية.

بعد هذا، يبقى أنّنا نلاحظ بين البويضة والنطفة اختلافاتٍ ثانويّةً تثير الاهتمام؛ خصوصيّة البيضة الأساسيّة هي أنّها تحمل موادّ مخصّصةً لتغذية الجنين وحمايته؛ فهي تجمع مدّخراتٍ يصنع منها الجنين أنسجته، مدّخراتٍ ليست مادّةً حيّةً ولكنها مادةٌ خاملةٌ؛ ولذلك هي ذات شكلٍ كبيرٍ، كرويٍّ أو بشكل مجسّمٍ ناقصٍ، وأنّها ضخمةٌ نسبيًّا؛ نحن نعرف كم تبلغ أبعاد بيضة الطير؛ أمّا لدى المرأة فيبلغ قطر البويضة 0.13 مم؛ بينما نجد في الميليمتر المكعب من السائل المنوي البشري 60000 نطفة[19]: كتلة النطفة صغيرةٌ للغاية، ولها ذيلٌ خيطيٌّ، ورأسٌ صغيرٌ متطاولٌ، لا تثقله أيّ مادّةٍ غريبةٍ، إنّه مليءٌ بالحياة؛ ويؤهّله هذا التركيب للحركة؛ بينما البويضة، حيث يُختَزَن مستقبل الجنين، عنصرٌ ثابتٌ: تنتظر الإلقاح بسلبيةٍ سواء كانت أسيرة العضوية الأنثوية أو معلّقةً في وسطٍ خارجيٍّ؛ وتأتي المشيجة المذكّرة لملاقاتها؛ والنطفة دائمًا خليّةٌ عاريةٌ، أما البويضة فمحميّةٌ أو غير محميّةٍ بغشاءٍ حسب الأنواع؛ ولكن في جميع الأحوال ما إن تلامسها النطفة حتى تدفعها وتهزّها وتخترقها: وتترك المشيجة المذكّرة ذيلها، وينتفخ رأسها وتبلغ النواة بحركةٍ دائريّةٍ، وعلى الفور تشكّل البيضة غشاءً يغلقها في وجه باقي النطاف. ولدى قنافذ البحر حيث الإلقاح خارجيٌّ من

19- العدد الصحيح للنطاف في الميليمتر المكعب من السائل المنوي 60 مليونًا. (المترجمة)

السهل أن نرى، حول البويضة التي تطفو خاملةً، أسراب النطاف التي تصطف حولها كهالةٍ. هذا السباق هو أيضًا ظاهرةٌ هامةٌ نجدها لدى معظم الأنواع؛ ولأن النطفة أصغر بكثيرٍ من البويضة فهي تصدر بكمياتٍ أكبر بكثيرٍ ولكلّ بويضةٍ كثيرٌ من الخطّاب.

وهكذا تكون البويضة خاملةً ظاهريًّا بينما هي نشيطةٌ في أصلها الأساسيّ، أي النواة؛ وتوحي كتلتها المنغلقة على نفسها، المنتفخة بذاتها، بكثافة الليل والراحة الداخلية: كان القدماء يتخيّلون العالم المغلق والذرّة الكامدة بشكلٍ كرويٍّ، وتنتظر البويضة ساكنةً؛ وعلى العكس تمثّل النطفة المنفتحة، الصغيرة، الرشيقة، قلة الصبر وقلق الوجود. لا يجب أن ننجرف في الاستعارات: لقد شبّهوا البويضة أحيانًا بالمثولية (كائنٍ ماثلٍ في آخر)، والنطفة بالتسامي؛ ولا تخترق هذه الأخيرة العنصر المؤنث إلا بالتخلي عن تساميها وحركتها: تختطفها وتقتلعها الكتلة الساكنة التي تبتلعها بعد أن تبتر ذيلها؛ وفي هذا عملٌ سحريٌّ مُقلِقٌ ككلّ الأعمال السلبية؛ بينما نشاط المشيجة المذكّرة عقلانيٌّ، إنه حركةٌ قابلة للقياس في الزمان والمكان. في الحقيقة ليس كل ذلك سوى هذرٍ لا طائل منه. فالمشيجتان المذكرة والمؤنثة تنصهران معًا في البيضة؛ وتلغيان نفسيهما معًا بشكلٍ كاملٍ. من الخطأ أن ندّعي أن البويضة تمتصّ العروس المذكرة بوحشيةٍ ومن الخطأ أيضًا القول بأنّ هذه الأخيرة تستولي منتصرةً على مدّخرات الخلية المؤنثة بما أن فردية كلٍّ منهما تضمحل في العمل الذي يمزجهما. وتبدو الحركة دون شكٍ بالنسبة للتفكير الإوالي ظاهرةً عقلانيةً بامتيازٍ؛ ولكن بالنسبة للفيزياء الحديثة ليست هذه الفكرة أكثر وضوحًا من فكرة التأثير عن بعدٍ؛ عدا عن أننا نجهل تفاصيل العمليّات الفيزيوكيميائية التي تؤدّي إلى الإخصاب. مع ذلك من الممكن أن نستخلص من هذه المواجهة تعليماتٍ مفيدةً. يوجد في الحياة حركتان متشاركتان؛ فهي لا تبقى إلا عندما تتفوّق على نفسها، ولا تتفوّق على نفسها إلا حين تبقى؛ هاتان الحركتان تتكاملان معًا دومًا، ومن المبهم أن نحاول تجزئتهما: مع ذلك تسيطر إحداهما تارةً والثانية تارةً أخرى. باتّحاد المشيجتين تتفوّقان على نفسيهما وتبقيان في آنٍ معًا؛ لكن البويضة بتركيبها تستبق الاحتياجات المقبلة؛ فهي مكوّنةٌ بحيث تغذّي الحياة التي ستستيقظ فيها؛ وعلى العكس فالنطفة ليست مجهّزةً بشيءٍ لتؤمّن نموّ البذرة التي ستُحدثها، بالمقابل البويضة غير قادرةٍ على إنتاج التغيير الذي سيؤدّي إلى انبثاق حياةٍ جديدةٍ: بينما

تنتقل النطفة. ودون فطنة البويضة لا يبقى لعمل النطفة فائدةٌ؛ ولكن دون مبادرة النطفة، لا تنجز البويضة إمكانياتها الحية. بالتالي نستخلص من ذلك أن دور المشيجتين أساسًا متماثلٌ؛ فهما تُنشئان معًا كائنًا حيًّا تضمحلان فيه كلاهما وتتفوقان فيه على ذاتهما. ولكنّ في الظواهر الثانويّة والسطحية التي تنظم الإخصاب، يتم عبر العنصر المذكّر تغيّر الوضع اللازم لتفتّح الحياة الجديد؛ وعبر العنصر المؤنث يثبت هذا التفتّح كعضويةٍ مستقرّةٍ.

من الجرأة أن نستنتج من مثل هذه الملاحظة أنّ مكان المرأة هو البيت: لكنّ هناك أشخاصًا جريئين. كان **ألفرد فوييه** Alfred Fouillée في كتابه «*الطبع والمزاج*» يدّعي أنه يحدّد المرأة بكاملها انطلاقًا من البويضة، والرجل انطلاقًا من النطفة؛ ويرتكز كثيرٌ من النظريّات التي تدّعي العمق على هذا التماثل المشكوك فيه. ولا نعرف إلى أي فلسفةٍ للطبيعة ترتكز هذه الأفكار الكاذبة. إن نظرنا إلى قوانين الوراثة، فالرجال والنساء هم أيضًا نتاج نطفةٍ وبويضةٍ. وأفترض بالتالي أنّ بقايا فلسفة القرون الوسطى القديمة التي تقول بأن الكون هو الانعكاس التام للإنسان تطفو في هذه العقول العاتمة: فيتصوّرون أنّ البويضة هي قزمٌ مؤنّثٌ، والمرأة بويضةٌ عملاقةٌ. تتناقض هذه الأوهام التي تخلّينا عنها منذ زمن الكيمياء القديمة بشكلٍ غريبٍ مع دقّة التوصيف العلميّة التي نعتمد عليها في اللحظة نفسها: لا تتطابق البيولوجيا الحديثة مع رمزيّة القرون الوسطى؛ لكن هؤلاء الأشخاص لا يرون ذلك بشكلٍ صحيحٍ. مع ذلك لو دقّقنا قليلًا، لوافقنا على أن هناك مسارًا طويلًا من البويضة إلى المرأة. لم يتمّ بعد تضمين البويضة مفهوم الأنثى. ويلاحظ **هيغل** تحديدًا أنّه لا يمكن مقارنة العلاقة الجنسية بعلاقة المشيجتين. علينا إذن أن ندرس العضوية الأنثوية بكلّيّتها.

قلنا سابقًا إنّ تمييز المشائج لا يؤدّي إلى تمييز الأفراد لدى عددٍ من النباتات وبعض الحيوانات الدنيا، وبينها الرخويّات، فكلٌّ منها ينتج بويضةً ونطفةً في آنٍ معًا. وحتى عند افتراق الجنسين، لا توجد بينهما حواجز عازلةٌ كتلك التي تفصل بين الأنواع؛ وكما أنّ المشيجات تتحدّد اعتبارًا من نسيجٍ بدئيٍّ غير متمايزٍ، تبدو الذكور والإناث بالأحرى تنوّعًا على أساسٍ مشتركٍ. ولدى بعض الحيوانات ـ أكثر الحالات نموذجيةً هي حالة البونلي Bonelli ـ إذ يكون الجنين في البدء غير محددٍ جنسيًا وتحدّد الصدف جنسه فيما بعد أثناء تطوّره. ونوافق اليوم على أن تحديد الجنس يتعلق في معظم الأنواع بتكوين النمط الوراثي Génotypique

للبيضة. فبيضة النحلة غير الملقّحة التي تتكاثر بالتوالد العذري تعطي ذكورًا فقط؛ وفي نفس الشروط تعطي بيوض القمل إناثًا فقط. وعندما تُلَقّح البيوض - إلا ربما لدى بعض العناكب - من اللافت للنظر أن عدد الأفراد الذكور والإناث الناتجين متماثلٌ تقريبًا؛ ويأتي التمايز من تغاير أحد تمطّي المشيجتين: فالنطاف لدى الثدييات هي التي تملك إمكاناتٍ إمّا مذكّرةً أو مؤنّثةً؛ ولا نعرف تمامًا ما الذي يحدّد الصفات الخاصّة للأمشاج المتغايرة خلال تشكّل النطفة أو البويضة، على كلّ حالٍ تكفي قوانين مندل الإحصائية لتفسير التوزيع المنتظم. وتتم عمليّة الإلقاح وبداية تطوّر الجنين لدى الجنسين بطريقةٍ متماثلةٍ؛ ويكون النسيج الظهاري الذي سيشكّل الغدد التناسلية غير متمايزٍ في البدء؛ وفي مرحلةٍ ما من النضج تتّضح الخصيتان أو ينشأ المبيض في مرحلةٍ متأخّرةٍ. هذا يفسّر أن هناك بين الخنوثة وتميّز الجنس العديد من الحالات الوسيطة؛ كثيرًا من الأحيان يملك أحد الجنسين أعضاءً مميّزةً للجنس المكمّل والضفدع أوضح مثالٍ لذلك؛ إذ نلحظ لدى الذكر مبيضًا ضامرًا يسمى عضو بيدر Bidder يمكن أن نجعله ينتج بيوضًا بطريقةٍ اصطناعيةٍ. وتبقى لدى الثدييات آثار هذه الطاقة الكامنة الجنسية المزدوجة: نذكر من بينها الرحم المذكّر والغدد الثديية لدى الذكر وقناة غارتنر والبظر لدى الأنثى. وحتى في الأنواع التي يكون فيها التقسيم الجنسي حاسمًا، هناك أشخاصٌ ذكورٌ وإناثٌ في الوقت نفسه: وحالات الجنس الوسيط كثيرةٌ لدى الحيوان والإنسان؛ ونجد لدى الفراشات والقشريات أمثلةً على الجنس الوسيط حيث توجد الصفات المذكرة والمؤنثة إلى جانب بعضها كنوعٍ من الفسيفساء. لأن الجنين الذي يحدّده نمطه الوراثي يتأثّر مع ذلك كثيرًا بالوسط الذي يأخذ منه مادّته: ونعرف أن نمط التغذية لدى النمل والنحل والنمل الأبيض هو الذي يجعل من اليرقة أنثى مكتملةً أو يوقف نضجها الجنسي، محوّلًا إياها إلى مرتبة العاملة؛ في هذه الحالة يكون التأثير على مجمل الجسم: فالجسم لدى الحشرات يحدّد جنسيًا في مرحلةٍ مبكرةٍ جدًا ولا يتعلّق ذلك بالغدد الجنسيّة. وتلعب الهورمونات المفرَزة من الغدد لدى الفقاريّات دورًا أساسيًّا منظّمًا. كما أثبِتَ بالعديد من التجارب أنه عندما يتمّ تغيير الوسط الغدّي يمكن التحكّم بتحديد الجنس؛ وهناك تجارب أخرى على الزرع والإخصاء تمت على حيواناتٍ بالغةٍ قادت إلى نظرية الجنس الحديثة: فالجسم متماثلٌ لدى ذكور الفقاريات وإناثها ويمكن اعتباره

عنصرًا محايدًا، ويعطيه تأثير الغدد صفاته الجنسيّة، وتعمل بعض الهورمونات المُفرَزة كحافزٍ وأخرى كمثبّطٍ، والمجرى الجنسي نفسه ذو طبيعةٍ جسميّةٍ، ويبدي علم الجنين أنه يتحدّد بتأثير الهرمونات انطلاقًا من بدايةٍ ثنائية الجنس. يحدث الجنس الوسيط عندما لا يتحقق التوازن الهورموني ولا تكتمل أيٌّ من الطاقات الكامنة الجنسية بشكلٍ واضحٍ.

وتبدو الأجسام الذكرية والأنثوية، الموزعة بشكلٍ متساوٍ في النوع، والمتطوّرة بشكلٍ متماثلٍ انطلاقًا من جذورٍ متماثلةٍ، متناظرةً بشكلٍ كبيرٍ بعد أن يكتمل نموّها. فيتّصف الاثنان بوجود غددٍ منتجةٍ للمشائج، مبايضٍ أو خصىً، بما أن عمليات تصنيع النطاف والبويضات متشابهةٌ كما رأينا؛ وتطلق هذه الغدد مفرزاتها في قناةٍ معقّدةٍ أو بسيطةٍ تبعًا لترتيب الأنواع: فتطلق الأنثى البويضة مباشرةً عن طريق البوق، أو تمسكها في مقذرٍ أو في رحمٍ متمايزٍ قبل أن تطلقها؛ ويطرح الذكر المني خارجًا، أو يكون مجهّزًا بعضوٍ يسمح له بإدخاله داخل الإنثى. إذًا إحصائيًّا، يبدو الذكور والإناث نمطين متكاملين. ويجب تناولهما من وجهة نظرٍ وظيفيّةٍ لندرك خصوصيتهما.

يصعُب جدًا إعطاء وصفٍ صحيحٍ لمفهوم الأنثى عمومًا؛ لا يكفي البتّة أن نصفها بأنها حاملة البويضات وأن الذكر حامل النطاف لأن علاقة الجسد بالغدد الجنسيّة متغيّرةٌ جدًا؛ وعلى العكس لا يؤثّر تمايز الأمشاج على مجمل الجسد بصورةٍ مباشرةٍ: لقد زعموا أحيانًا أنّ البويضة باعتبارها أضخم تستهلك قوىً حيّةً أكثر من النطفة؛ لكنّ النطفة تُفرَزُ بكميّاتٍ أكبر بكثيرٍ بحيث يتوازن الاستهلاك بين الجنسين. لقد أرادوا أن يروا في توليد النطاف مثالًا للإعجاز وفي الإباضة نموذجًا للاقتصاد: لكن هناك أيضًا تبذيرٌ غريبٌ في هذه الظاهرة؛ فالغالبية العظمى للبويضات لا تُلَقَّحُ. وعلى كل حالٍ لا تعطينا الأمشاج ولا الغدد الجنسيّة نموذجًا مصغّرًا عن الجسد بكامله. علينا إذن دراسة هذا الأخير مباشرةً.

إحدى أهمّ النقاط التي تلفت النظر عندما نراجع درجات السلّم الحيواني، هي أن الحياة تصبح فرديّةً أكثر كلّما انتقلنا من الأسفل للأعلى؛ ففي الأسفل هي فقط لحفظ النوع، وفي الأعلى تنتهي عبر أشخاصٍ متفردين. ويتضائل الجسم في الأنواع البدائيّة تقريبًا إلى مجرّد جهازٍ تناسليٍّ؛ وفي هذه الحالة تكون هناك أولويّةٌ للبويضة، وبالتالي للأنثى، بما أن

البويضة هي المؤهّبة خصوصًا لتكرار الحياة؛ لكنها ليست سوى بطنٍ ويلتهم وجودها بكامله عمل إباضةٍ هائلٌ. وتبلغ أبعادًا عملاقةً بالنسبة للذكر؛ لكن أعضاءها ليست غالبًا سوى جدعاتٍ، وجسدها كيسٌ لا شكل له، وتستحيل كل الأجهزة لصالح البيوض. في الحقيقة، رغم أنّ الذكور والإناث تشكّل جسمين متميّزين، إذًا يمكن اعتبارهما بالكاد أفرادًا، فهي لا تشكّل سوى كلٍّ واحدٍ ذي عناصر مرتبطةٍ بشكلٍ لا يمكن فصمه: إنها الحالات المتوسطة بين الخنوثة والتمايز المنسلي gonochorisme. وهكذا لدى طفيليات الأنتونيسيان les entonisciens التي تعيش متطفّلةً على السلطعون، يشبه شكل الأنثى النقانق المبيضّة وتحاط بصفائح حاضنةٍ تحتوي على آلاف البيوض؛ وسطها ذكورٌ ضئيلةٌ ويرقاتٌ مُعَدّة لإنتاج ذكورٍ تحلّ محلّها. وخضوع الذكر القزم لدى الأندريوليدنس l`endriolydnus شاملٌ أكثر: إنه مثبتٌ تحت درقة الأنثى، ولا يملك جهازًا هضميًّا شخصيًّا، فدوره إنجابيٌّ بحتٌ. ولكن في جميع هذه الحالات لا تكون الأنثى أقلّ خضوعًا منه: إنها تخضع للنوع؛ إذا كان الذكر مشدودًا إلى زوجته، فهي أيضًا مشدودةٌ، إما إلى عضويةٍ حيّةٍ تتغذّى عليها كطفيليّةٍ، أو إلى جمادٍ؛ وتفني نفسها في إنتاج البيوض التي يلقّحها الذكر الضئيل. وعندما تتّخذ الحياة أشكالًا أكثر تطوّرًا، ينشأ استقلالٌ فرديٌّ ويتراخى الرباط الذي كان يوحّد الجنسين؛ ولكن لدى الحشرات يظلان كلاهما ملحقين بالبيوض بشكلٍ لصيقٍ. وغالبًا ما يموت الزوجان فورًا بعد الإيلاج والبيض كما لدى ذباب اليوم les éphémères؛ وأحيانًا، كما لدى الروتيفير[20] les rotifères والبعوض، يموت الذكر المجرّد من جهازٍ هضميٍّ بعد الإلقاح، بينما تستطيع الأنثى التغذّي والبقاء على قيد الحياة: لأن تشكيل البيوض وبيضها يتطلبان بعض الوقت؛ وتموت الأم ما إن تؤمّن مصير الجيل التالي. يأتي الامتياز الذي تناله الأنثى لدى عددٍ كبيرٍ من الحشرات من أن الإلقاح عمليّةٌ سريعةٌ جدًّا عمومًا بينما تتطلّب الإباضة وحضانة البيوض عملًا طويلًا. فلدى دودة الخشب، الملكة الضخمة المُتخَمة بالعصيدة، والتي تبيض بيضةً كل ثانيةٍ إلى أن تصبح عقيمةً فتُقتَل دونما رحمةٍ، ليست عبدةً أقلّ من الذكر القزم المثبت على بطنها والذي يلقّح البيوض أولًا بأوّلٍ حالما تقذفها. ويُقتَل الذكور المتطفّلون في كلّ موسمٍ في النظام الأمومي الذي تشكّله مملكتا النمل والنحل: وقت الطيران الزفافي،

20- لا فقاريّاتٌ مائيّةٌ مجهريّةٌ. (المترجمة)

تنطلق كل النملات الذكور من قرية النمل وتطير نحو الإناث؛ فإن أدركتها ولقّحتها، تموت في الحال منهكةً؛ وإلا لا تدعها العاملات تدخل، فتقتلها أمام الأبواب أو تتركها تموت من الجوع؛ لكنّ الأنثى الملقّحة لديها مصيرٌ حزينٌ: فهي تغوص وحيدةً في التراب وتقضي غالبًا من الإجهاد وهي تبيض البيوض الأولى؛ فإن نجحت في إعادة تشكيل قرية نملٍ، تمضي فيها اثنتي عشرة سنةً حبيسةً تبيض دون توقّفٍ؛ وتعيش العاملات اللواتي هنّ إناثٌ ضمر لديهنّ الجنس أربعة أعوامٍ، حياةً مكرّسةً بكاملها لتغذية اليرقات. وكذا الأمر لدى النحل: فالذكر الطنّان الذي ينضمّ إلى الملكة في طيرانها الزفافي يقع على الأرض مبقور البطن؛ وتُستَقبل بقيّة الذكور لدى عودتها في الخليّة حيث تعيش حياة التبطّل وتضايق المكان؛ وتُقْتَل في بداية الشتاء. لكنّ الإناث المجهَضة التي هي العاملات تشتري حقّها في الحياة بعملٍ لا ينتهي؛ والملكة هي عبدة الخليّة في الواقع؛ إنها تبيض دون توقّفٍ؛ وإثر موت الملكة العجوز عندما تُغذّى عدة يرقاتٍ بشكلٍ تستطيع فيه السعي إلى الخلافة، الأولى التي تنمو تقتل الأخريات في المهد. ولدى العنكبوت الضخمة، تحمل الأنثى بيوضها في كيسٍ إلى أن تبلغ النضج: وهي أكبر من الذكر بكثيرٍ وأكثر قوّةً، ويحدث أن تأكله بعد التزاوج؛ ونلاحظ نفس العادات لدى السرعوفة الراهبة «la mante religieuse» التي تبلورت حولها خرافة الأنوثة المفترسة: فالبويضة تخطف النطفة، والسرعوفة تقتل زوجها، هذه الوقائع تمثّل حلم الأنثى بالإخصاء. ولكن السرعوفة في الحقيقة تبدي هذا القدر من القسوة خصوصًا عندما تكون حبيسةً: ومن النادر جدًا أن تجعل من الذكر وجبة طعامها عندما تكون حرّةً وسط أغذيةٍ غنيّةٍ؛ فإن أكلته، فهي كالنملة الوحيدة غالبًا ما تأكل بعض بيوضها كي تحصل على القوة لتبيض وتديم النوع. من الهذيان أن نرى في هذه الوقائع بدايةً «لصراع الجنسين» تضع أفرادًا في مواجهة بعضهم البعض. لا يمكننا القول إنّ الأنثى تستعبد الذكر وتلتهمه، لا لدى النمل ولا النحل ولا دود الخشب، ولا لدى العنكبوت أو السرعوفة الراهبة: إن النوع هو الذي يلتهمهما كليهما بطرقٍ مختلفةٍ. وتعيش الأنثى فترةً أطول ويبدو أنّ لها أهمّيّةً أكبر؛ لكنها لا تملك أيّة استقلاليّةٍ؛ فالبيض والحضانة والاعتناء باليرقات هي كلّ مصيرها؛ ووظائفها الأخرى ضامرةٌ كلّيًا أو جزئيًا. وعلى العكس يبدأ لدى الذكر وجودٌ مستقلٌّ. فهو يبدي في الإلقاح غالبًا مبادرةً أكثر من الأنثى؛ فهو الذي يذهب إليها، ويهاجمها، ويجسّها، ويمسكها ويفرض

عليها الإيلاج؛ وأحيانًا عليها أن تقاتل ذكورًا آخرين. وبالتالي تكون أعضاء الحركة واللياقة والإمساك لديه متطوّرةً أكثر غالبًا؛ كثيرٌ من الفراشات الإناث هي بلا أجنحةٍ بينما لدى ذكورها أجنحةٌ؛ والذكور ملوّنةٌ، ولديها أغماد أجنحةٍ وأرجلٌ وملاقط أكبر حجمًا؛ وتترافق هذه الميزات أحيانًا بترفٍ عبثيٍّ من الألوان البرّاقة. ولا فائدة من حياة الذكر عدا الإيلاج السريع: بطالة الذكور هي امتيازٌ واضحٌ مقارنةً بحيويّة ودأب العاملات. لكنّ هذا الامتياز فخٌّ؛ فغالبًا ما يدفع الذكر حياته ثمنًا لشيءٍ تافهٍ هو بداية الاستقلال. والنوع الذي يُبقي الإناث في العبوديّة يعاقب الذكر الذي يظنّ أنه أفلت منها: إنه يقضي عليه بقسوةٍ.

في أشكال الحياة الأكثر تطوّرًا، يصبح التكاثر إنتاج أجسامٍ متمايزةٍ؛ ويأخذ وجهًا مزدوجًا: فبمحافظته على النوع يخلق أيضًا أفرادًا جددًا؛ وتتأكّد هذه الناحية المُجدِّدَة بشكلٍ مضطردٍ مع تأكّد خصوصيّة الفرد. يلفت النظر عندئذٍ أنّ لحظتي الدوام والخلق تنقسمان؛ ونجد هذا الانقسام الذي حُدِّد أصلًا لحظة إلقاح البيضة في مجمل ظاهرة التوليد. وليس تركيب البويضة نفسه ما يتحكّم بهذا الانقسام؛ وتملك الأنثى مثل الذكر نوعًا من الاستقلالية ويتراجع ارتباطها بالبويضة؛ فالسمكة والبرمائيّات وأنثى العصفور ليست أبدًا بطنًا؛ لكنّ صلة الأم بالبيضة لصيقةٌ، وكلّما كانت عمليّة الولادة مهمةً أقلَّ استحواذًا، كلّما كان هناك عدم تحديدٍ للوظيفة في علاقة الأبوين بصغارهما. قد يحدث أن توكل للأب مهمّة الاهتمام بحياة الصغار؛ وهو أمرٌ شائعٌ لدى الأسماك. فالماء عنصرٌ قابلٌ لحمل البويضات والنطاف وتأمين التقائها؛ والإلقاح في الوسط المائيّ خارجيٌّ دائمًا تقريبًا؛ والأسماك لا تتزاوج: كلّ ما هناك أن بعضها قد يحتكّ فيه الذكر بالأنثى في عمليّة تحفيزٍ. وتقذف الأم البويضات والذكر النطاف: فدورهما متماثلٌ. وليس هناك من سببٍ ليدّعي أحدهما أكثر من الآخر ملكيّة البيوض. في بعض الأنواع، يهجر الأبوان البيوض التي تنمو دون مساعدةٍ؛ وأحيانًا تكون الأم قد أعدّت لها عشًّا؛ وأحيانًا أيضًا تسهر عليها بعد الإلقاح؛ ولكن كثيرًا ما يأخذها الأب على عاتقه: فيدفعها فور تلقيحها بعيدًا عن الأنثى التي تحاول التهامها، ويدافع عنها تجاه كلّ اقتراب؛ ومن الذكور ما يشكّل لها نوعًا من عشٍّ يحميها مُصدِرًا فقاعات هواءٍ مغلّفةً بمادّةٍ عازلةٍ؛ وكثيرًا أيضًا ما يحضن البيوض في فمه أو في ثنيات بطنه كحصان البحر. ونلاحظ لدى البرمائيّات ظواهر مشابهةً: فليس لديها إيلاجٌ

حقيقيٌّ؛ يحضن الذكر الأنثى وبهذا الاحتضان يحفّز البيض: ويطلق منيه أولًا بأوّلٍ مع خروج البيضات من المقذر. وكثيرًا ما يقوم الأب بلفّ عقودٍ من البيض حول قوائمه حاملًا إياها معه ومؤمّنًا تفريخها وخصوصًا لدى الضفدع المعروف باسم الضفدع المولّد. ويتمّ تشكّل البييضة لدى العصفور داخل الأنثى بشكلٍ بطيءٍ جدًّا، والبيضة كبيرةٌ نسبيًّا تُقذَف بصعوبةٍ جمّةٍ؛ وعلاقتها بالأم وثيقةٌ أكثر بكثيرٍ منها بالأب الذي لقّحها خلال الإيلاج السريع؛ والأنثى عمومًا هي التي تحضنها وتسهر بعد ذلك على الصغار؛ لكن الأب يشارك في أحيانٍ كثيرةٍ في بناء العشّ، وحماية الصغار وتغذيتها؛ وهناك حالاتٌ نادرةٌ ـ لدى السنونو ـ حيث يقوم الذكر بالحضانة والتربية. وتفرز الحمائم الذكور والإناث من حوصلتها نوعًا من الحليب تغذّي به الفراخ. وما يلفت النظر في كلّ هذه الحالات التي يلعب فيها الأب دورًا مغذّيًا، هو أنّ توليد النطاف يتوقّف خلال المرحلة التي يكرّس نفسه فيها لفراخه؛ فهو مشغولٌ بحياتها بحيث لم يعد لديه دافعٌ لإنتاج فراخٍ جديدةٍ.

وتأخذ الحياة لدى الثدييات أكثر الأشكال تعقيدًا وتصبح فرديّةً بشكلٍ ملموسٍ. يتحقّق عندئذٍ انفصال اللحظتين الحيويّتين، البقاء والخلق، بصورةٍ نهائيّةٍ، في افتراق الجنسين. تصبح علاقة الأم بصغارها ضمن هذا التقاطع ـ إذا أخذنا الفقاريّات فقط ـ لصيقةً للغاية ويقلّ اهتمام الأب بها؛ كلّ عضويّة الأنثى مؤهّبةٌ لخدمة الأمومة وهي تتحكّم بها، بينما تعود المبادرة الجنسيّة للذكر. الأنثى ضحيّة النوع؛ خلال موسمٍ أو اثنين، حسب الحالات، تُنظّم حياتها كلّها دورةٌ جنسيّةٌ، دورة الرغبة، التي تختلف مدّتها وتواترها من نوعٍ لآخر؛ وتنقسم هذه الدورة إلى طورين: خلال الأوّل تنضج البويضات (بعددٍ مختلفٍ حسب الأنواع) و تتمّ عمليّة التعشيش في الرحم؛ وخلال الثاني يحصل نخرٌ شحميٌّ يؤدّي إلى إزالة ما أُنشِئَ بشكل سيلانٍ مبيَضٍّ. وتوافق الرغبة فترة النزو؛ لكن النزو لدى الأنثى سلبيّ الطابع؛ إنها جاهزةٌ لتلَقّي الذكر، وهي تنتظره؛ ويحدث حتى لدى الثدييات ـ كما لدى بعض الطيور أيضًا ـ أن تطلبه؛ لكنّها تكتفي بتوجيه نداءٍ إليه عبر صيحاتٍ ورقصاتٍ أو استعراضاتٍ؛ ولا تستطيع فرض الإيلاج. يعود القرار له في نهاية الأمر. ورأينا أنّه حتى لدى الحشرات حيث تؤمّن الأنثى لنفسها امتيازاتٍ كبيرةً عبر التضحية التي تقدّمها للنوع، يكون الذكر عادةً هو الذي يحرّض الإلقاح؛ لدى الأسماك يدعو الأنثى غالبًا إلى البيض عبر حضوره أو عبر ملامساتٍ، ويعمل

كمحرّضٍ لها لدى البرّمائيّات. ولكنّه يفرض نفسه عليها لدى الطيور والثدييّات خصوصًا؛ كثيرًا ما تخضع له بلامبالاةٍ أو أنّها تقاومه. حتى وإن كانت هي المثيرة والموافقة، فبكلّ الأحوال هو الذي *يأخذها*: وهي *مأخوذةٌ*، وللكلمة غالبًا معنىً دقيقٌ إما لأنه يملك الأعضاء المؤهّلة، أو لأنه الأقوى، فالذكر يمسكها، ويثبّتها؛ وهو الذي يقوم بحركات الإيلاج بحيويّةٍ؛ ولدى العديد من الحشرات والطيور والثدييات يخترقها. بذلك تبدو مُغتَصَبةً مكبوتةً. ليس النوع هو ما يمارس الذكر العنف عليه لأنه لا يستمرّ إلا عندما يتجدّد، ويهلك إذا لم تلتق البويضات والنطاف معًا؛ لكن الأنثى الموكلة إليها مهمّة حماية البيضة تخبئها في داخلها ويبعدها جسمها الذي يشكّل ملجأً للبويضة عن عمل الذكر الملَقِّح؛ فهو إذًا مقاومةٌ يجب كسرها، بينما يحقّق الذكر ذاته كفعّاليّةٍ عندما يخترقه. وتتجلّى سيطرته في وضعيّة الإيلاج: إذ يكون الذكر فوق الأنثى لدى جميع الحيوانات تقريبًا. ولا شكّ أن العضو الذي يستخدمه جهازٌ هو أيضًا، لكنّه يبدو بشكله المتحرّك، فهو أداةٌ؛ بينما عضو الأنثى في هذه العمليّة ليس سوى وعاءٍ خاملٍ. يضع فيه الذكر منيّه: وتتلقّاه الأنثى. وهكذا رغم أنها تلعب دورًا فاعلًا في التكاثر، فهي تخضع للإيلاج الذي يرتهنها لنفسها عبر الإيلاج والإلقاح الداخلي؛ رغم أنها تشعر بالحاجة الجنسية كحاجةٍ فرديّةٍ، بما أنها تبحث عن الذكر وقت النزو، مع ذلك فهي تعيش المغامرة الجنسية في اللحظة كقصّةٍ داخليّةٍ وليس كعلاقةٍ مع العالم والآخر. لكن الاختلاف الأساس بين ذكر الثدييات وأنثاها هو أنّ النطفة في نفس اللحظة السريعة التي تتصعّد بها حياة الذكر إلى حياةٍ أخرى تصبح غريبةً بالنسبة له وتنفصل عن جسده؛ وهكذا ما إن يتفوّق الذكر على فرديّته حتّى يغوص فيها من جديدٍ. وعلى العكس تبدأ البويضة بالانفصال عن الأنثى عندما تنفصل ناضجةً عن الجريّب لتسقط في البوق: ولكن ما إن تخترقها مشيجةٌ غريبةٌ حتى تستقرّ في الرحم: تُغتَصَب الأنثى أولًا ثم تصبح مرتهَنةً؛ وتحمل الجنين في بطنها حتى مرحلة النضج التي تختلف حسب الأنواع: فالخنزير الهنديّ يولد بالغًا تقريبًا، والكلب يولد قريبًا من حالة الجنين؛ وخلال كلّ مرحلة الحمل التي تكون فيها الأنثى مسكونةً بآخر يتغذّى من مادتها، تكون هي ذاتها وغيرها في آنٍ معًا؛ وبعد الولادة، تغذّي الوليد بحليب ثديها. بحيث لا نعرف متى يمكن اعتباره مستقلًا: في لحظة الإلقاح، أم الولادة، أم الفطام؟ من اللافت للنظر أنه كلّما بدت الأنثى فردًا منفصلًا، كلما ازداد حتمًا

تأكّد الاستمرار الحياتي وراء كل انفصالٍ؛ فالسمكة والطائر اللذين يقذفان البويضة البكر أو البيضة الملقّحة هما ضحيّة ذريّتهما أقلّ من أنثى الثدييات. وتعود هذه الأخيرة مستقلّةً بعد ولادة الصغار: عندئذٍ تنشأ بينها وبينهم مسافةٌ؛ وانطلاقًا من الانفصال تكرّس نفسها لهم؛ وتهتمّ بهم بتدبيرٍ ومبادرةٍ، وتقاتل كل الحيوانات دفاعًا عنهم وتصبح عدوانيّةً حتى. لكنها لا تحاول إثبات فرديّتها عادةً؛ فلا تواجه الذكور ولا الإناث الأخريات؛ ولا تملك غريزةً قتاليّةً[21]. رغم تأكيدات داروين Darwin المختَلَف عليها اليوم، فهي تقبل الذكر الذي يتقدّم دون أن تختاره. ليس أنها لا تملك خصائص فرديّةً، بل على العكس؛ يمكنها أحيانًا أن تساوي الذكر في الفترات التي تتخلّص فيها من عبوديّة الأمومة: فالفرس سريعةٌ بقدر الحصان، وكلبة الصيد حاسة الشم لديها كالكلب، وإناث القرود تبدي لدى إخضاعها لاختباراتٍ نفس ذكاء القِرَدة. لكنها لا تطالب بهذه الفرديّة: فالأنثى تتنازل لمصلحة النوع الذي يطلب هذا التنازل.

أما مصير الذكر فمختلفٌ جدًا؛ رأينا أنه ينفصل ويؤكّد ذاته حتى في تفوّقه. هذه النقطة ثابتة، من الحشرات إلى الحيوانات العليا. حتى الأسماك والحيتان التي تعيش ضمن أسرابٍ، مختلطةً بتراخٍ وسط الجماعة، تنشقّ عنها وقت النزو؛ وتنعزل وتصبح عدوانيّةً تجاه الذكور الأخرى. والجنس المباشر لدى الأنثى يكون غير مباشرٍ لدى الذكر: هناك مسافةٌ بين الرغبة وإشباعها يملؤها بحيويةٍ؛ فهو يتحرّك ويبحث ويجسّ الأنثى ويداعبها ويثبّتها قبل أن يخترقها؛ والأعضاء التي تستعمل في العلاقة والحركة والإمساك هي غالبًا أكثر تطوّرًا لديه. من اللافت للنظر أنّ الدافع الحيّ الذي يُحدِث لديه تكاثر النطاف يتجلّى أيضًا بظهور ريشٍ لمّاعٍ، وحراشف برّاقةٍ، وقرونٍ، وخشبٍ، وعرفٍ، وبغنائه، وحيويّته، لم نعد نظنّ أنّ «كسوة الزفاف» التي يرتديها وقت النزو ولا أنّ استعراضاته المُغوية ذات غايةٍ اصطفائيّةٍ؛ لكنها تُظهِر قوة الحياة التي تزدهر عندئذٍ لديه بترفٍ رائعٍ مجّانيٍّ. هذا السخاء الحيويّ، والنشاط الذي يعرضه بهدف التزاوج، وحتى التأكيد المسيطر لسلطته على الأنثى ضمن الإيلاج، يسهم كلّ شيءٍ في وضع الفرد كفردٍ في لحظة تفوّقه الحيويّ على ذاته. في ذلك

21- بعض الدجاجات تتنازع أفضل الأماكن في الحظيرة وتنشئ مراتب فيما بينها بضربات مناقيرها. وفي غياب الذكور هناك أيضًا بقراتٌ تنتزع بالقوة قيادة القطيع.

يكون هيجل Hegel محقًّا في أن يرى في الذكر العنصر الذاتيّ بينما تظلّ الأنثى محاطةً بالنوع. الذاتيّة والافتراق تعنيان مباشرةً الصراع. والعدوانيّة هي إحدى صفات الذكر في فترة النزو؛ ولا يمكن تفسيرها بالمنافسة بما أنّ عدد الإناث معادلٌ لعدد الذكور؛ يمكن تفسير المنافسة بالأحرى بهذه الإرادة القتاليّة. لكأنّ الذكر، قبل أن يَخلِق، إذ يطالب بأن ينسب إليه الفعل الذي يديم النوع، يؤكّد في صراعه مع أقرانه حقيقة فرديّته. ويسكن النوع الأنثى ويستغرق جزءًا كبيرًا من حياتها الشخصيّة؛ وعلى العكس يدمج الذكر القوى الحيويّة النوعيّة في حياته الشخصيّة. لا شكّ أنه يخضع هو أيضًا للقوانين التي تتفوّق عليه، فلديه توليد النطاف ونزوٌ دوريٌّ؛ لكن هذه العمليّات لا تشمل مجمل العضوية بالقدر الذي تفعله الدورة الإستروجينية؛ إنتاج النطاف كإنتاج البويضات ليس عمليةً متعبةً: إن تطوّر البيضة إلى حيوانٍ كاملٍ هو العمل المنهك للأنثى. الإيلاج عمليّةٌ سريعةٌ لا تقلّل من حيويّة الذكر. ولا يبدي تقريبًا أيّ غريزةٍ أبويّةٍ. وغالبًا ما يهجر الأنثى بعد التزاوج. وعندما يبقى قريبًا منها كزعيمٍ لمجموعةٍ أسريّةٍ (أسرةٌ وحيدة الزوجة أو حريمٌ أو قطيعٌ) فهو يلعب دورًا حاميًا ومورِدًا للغذاء بالنسبة لمجمل العشيرة؛ ومن النادر أن يهتمّ مباشرةً بالأطفال. في هذه الأنواع المناسبة لازدهار الحياة الفرديّة، يُتَوَّج بالنجاح جهد الذكر في سبيل الاستقلاليّة، الذي يسبب هلاكه لدى الحيوانات الدنيا. إنه عمومًا أكبر من الأنثى، وأقوى، وأسرع، ومغامرٌ أكثر؛ يعيش حياةً أكثر استقلاليّةً وأنشطتها أكثر مجّانيّةً: هو الآمر دائمًا في المجتمعات الحيوانية.

في الطبيعة، لا شيء واضحٌ تمامًا أبدًا: لا يتميّز النمطان، الذكر والأنثى، عن بعضهما بشكلٍ واضحٍ دائمًا؛ نلاحظ أحيانًا بينهما اختلافًا شكليًّا ـ لون الجلد، توضّع البقع والبرقشة ـ يبدو عارضًا بالتأكيد؛ ويحدث على العكس ألّا يمكن التمييز بينهما وأن تتشابه وظائفهما، كما رأينا لدى الأسماك. مع ذلك بوجه الإجمال، وخصوصًا في أعلى السلّم الحيواني، يمثّل الجنسان مظهرين مختلفين من مظاهر حياة النوع. وتعارضهما ليس تعارض نشاطٍ وسلبيّةٍ كما زعموا: لا يتعلّق الأمر فقط بنشاط نواة البويضة لكنّ تطوّر الجنين عمليّةٌ حيويّةٌ، وليس حدثًا آليًّا. إنّنا نبَسِّط الأمور كثيرًا إذا عرّفناه كتعارض التغيير والاستمرار: لا تَخلُق النطفة إلا لأنّ حيويتها تثبت في البيضة؛ ولا يمكن للبويضة البقاء إلا إن تفوّقت على ذاتها وإلا

تراجعت واستحالت. مع ذلك صحيحٌ أنّه لا يجري تركيب الصيرورة بنفس الطريقة في عمليّتي البقاء والخلق الفاعلتين هاتين كلتيهما. البقاء هو رفض تشتيت الأمور المُلِحّة، إنه تأكيد الاستمراريّة خلال تدفّقها: والخلق هو إطلاق حاضرٍ لا يُختَزَل، منفصلٍ، ضمن الوحدة الزمنيّة؛ وصحيحٌ أيضًا أنّ استمراريّة الحياة ضمن الأنثى هي التي تحاول أن تتحقّق رغم الانفصال؛ بينما تحرّض المبادرة الذكريّة الانفصال إلى قوىً جديدةٍ وفرديّةٍ؛ مسموحٌ له إذًا أن يؤكّد ذاته ضمن استقلاله؛ إنه يُدخِل الطاقة النوعيّة إلى حياته هو؛ وعلى العكس فرديّة الأنثى تعاكسها مصلحة النوع؛ وتبدو مستَلَبةً وكأنّ قوىً غريبةً تتملكها. ولهذا لا يخفّ تعارض الجنسين عندما تتأكد فردية الأجسام أكثر: على العكس. يجد الذكر طرقًا مختلفةً أكثر فأكثر ليبدد القوى التي يسيطر عليها؛ وتشعر الأنثى بعبوديتها أكثر فأكثر؛ وينهكها الصراع بين مصالحها الخاصّة ومصالح القوى المولّدة التي تسكنها. ولادة البقر، والأفراس هي مؤلمةٌ وخطيرةٌ أكثر بكثيرٍ من ولادة الفئران والأرانب. والمرأة التي هي أكثر فرديّةً من أيّ أنثى أخرى تبدو أيضًا الأكثر هشاشةً، تلك التي تعيش مصيرها بشكلٍ أكثر مأساويّةً والتي تتميّز عن ذكرها أكثر.

يولد لدى الجنس البشريّ كما لدى أغلب الأنواع عددٌ متساوٍ من الجنسين تقريبًا (100 بنتٍ مقابل 104 صبيّ)؛ وتطوّر الأجنّة متماثلٌ؛ مع ذلك يبقى النسيج الظهاري البدئي محايدًا لفترةٍ أطول لدى الجنين الأنثى؛ ينجم عن ذلك أنه يخضع لتأثير الوسط الهرموني لفترةٍ أطول ويكون تطوّره معكوسًا غالبًا؛ أغلب الخناثى هم أشخاصٌ نمطهم الوراثي أنثويٌّ تحوّلوا لاحقًا إلى الذكورة: لكأنّ العضويّة الذكريّة تتحدّد في الحال كذكرٍ بينما يتردّد الجنين الأنثى في قبول أنوثته؛ ما تزال خطوات الحياة الجنينية الأولى هذه مجهولةً بشكلٍ لا يدع لنا مجالًا لفهمها. تكون الأعضاء التناسليّة فور تشكّلها متماثلةً عند الجنسين؛ وتنتمي هورمونات كليهما إلى نفس الزمرة الكيميائية، زمرة الستيرولات، وتُشتَقُّ كلها في تحليلٍ أخيرٍ من الكولسترين؛ وهي التي تتحكّم بتمايز الجسم الثانوي. ليست صيغتها ولا الخصائص التشريحية هي التي تحدّد الأنثى البشرية كما هي. يميّزها عن الذكر تطوّرها الوظيفي. وتطوّر الذكر بسيطٌ بالمقارنة. فهو ينمو بانتظامٍ تقريبًا من الولادة حتى البلوغ؛ وحوالي سنّ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة يبدأ توليد النطاف الذي يتمّ بطريقةٍ متواصلةٍ حتى

الشيخوخة؛ ويترافق ظهوره بإنتاج هورموناتٍ تحدّد تشكيل الجسم الذكوريّ. منذئذٍ تصبح للذكر حياةٌ جنسيّةٌ مندمجةٌ عادةً بوجوده الفردي: في الرغبة، والإيلاج، يمتزج تفوّقه نحو النوع بلحظة تساميه الذاتيّة: إنه جسده. قصة المرأة أكثر تعقيدًا بكثيرٍ. فذخيرة خلايا البويضات مشكّلةٌ نهائيًّا منذ الحياة الجنينية؛ ويحتوي المبيض على حوالي خمسين ألف بويضةٍ كلٌّ منها مخبأةٌ في جريّبٍ تصل منها حوالي أربعمئةٍ إلى النضج؛ لقد استولى عليها النوع منذ ولادتها، ويحاول تأكيد نفسه: تجتاز الأنثى عندما تولد نوعًا من البلوغ الأول؛ فتتضخّم الخلايا البويضية فجأةً؛ ثم يقلّ حجم المبيض بمقدار الخُمس تقريبًا: لكأنّ مهلةً أعطيت للطفلة؛ فبينما يتطوّر جسمها، يبقى جهازها التناسلي متوقفًا تقريبًا: وتتضخّم بعض الجريّبات، لكنها لا تبلغ النضج؛ ويماثل نمو البنت نمو الصبي: حتّى أنها تكون بنفس العمر غالبًا أطول منه وأكبر وزنًا. ولكن في لحظة البلوغ يؤكّد النوع حقوقه ثانيةً: فيزداد عدد الجريّبات النامية تحت تأثير إفرازات المبيض، ويحتقن المبيض ويتضخّم، وتبلغ إحدى البويضات النضج وتبدأ الدورة الشهريّة؛ ويبلغ الجهاز التناسليّ حجمه وشكله النهائيين، ويصبح الجسم أنثويًّا، ويستقرّ التوازن الغدّي. ومن اللافت للنظر أنّ هذا الحدث يتّخذ شكل أزمةٍ؛ إذ يقاوم جسد المرأة استقرار النوع فيه؛ وتضعفها هذه المعركة وتعرّضها للخطر: يموت من الصبيان تقريبًا نفس عدد البنات قبل البلوغ، وبين الرابعة عشرة والثامنة عشرة، تموت 128 بنتًا مقابل 100 صبيٍّ ومنذ الثامنة عشرة حتى الثانية والعشرين 105 بناتٍ مقابل 100 صبيٍّ. وفي هذه اللحظة يظهر غالبًا اليرقان والسلّ والجنف، والكساح، إلخ. ويكون البلوغ مبكّرًا بصورةٍ غير طبيعيّةٍ لدى بعض الأفراد: قد يبدأ في سنّ الرابعة أو الخامسة. وقد لا يحدث لدى أخرياتٍ على العكس: فيبقين طفوليّاتٍ، ويعانين من انعدام الطمث أو عسرته. وتبدو على بعض النساء سمات الذكورة: إذ تمنحهنّ زيادة إفرازات الغدد فوق الكلية صفاتٍ ذكوريّةً. لا تمثّل هذه الشذوذات أبدًا انتصار الفرد على استبداد النوع: فلا وسيلة للإفلات من هذا لأنه يغذّي الحياة الفردية في نفس الوقت الذي يستعبدها فيه؛ وتتجلّى هذه الثنائية على مستوى الوظائف المبيضيّة؛ فجذور حيوية المرأة في المبيض كما جذور حيوية الرجل في الخصيتين: في الحالتين الفرد المخصيّ ليس فقط عقيمًا: إنه يتراجع ويستحيل؛ سواء كانت العضوية غير «مُتشَكِّلةٍ» أو سيّئة التشكّل، فهي تصبح بكاملها

فقيرةً وغير متوازنةٍ؛ لا تزدهر إلا عبر ازدهار الجهاز التناسليّ؛ مع ذلك كثيرٌ من الظواهر التناسليّة لا تهمّ حياة الفرد الخاصّة وحتى تجعلها في خطرٍ. ليس للغدد الثدية التي تنمو وقت البلوغ أيّ دورٍ في اقتصاد المرأة الفردي: يمكن استئصالها في أيّ لحظةٍ من حياتها. كثيرٌ من الإفرازات المبيضيّة لها غائيّتها في البويضة، في نضجها، في تأهيل الرحم لحاجاتها: فهي عامل اختلال توازنٍ أكثر من كونها عاملاً منظّمًا بالنسبة لمجمل العضوية؛ والمرأة مؤهبةٌ لاحتياجات البويضة أكثر منها لاحتياجاتها هي نفسها. من البلوغ وحتى انقطاع الطمث هي موضع حكايةٍ تجري داخلها ولا تعنيها هي شخصيًّا. ويسمّي الأنغلوساكسون الدورة الشهرية (The curse)، «اللعنة»؛ وفي الواقع لا يوجد في الدورة الشهرية أيّة غائيّةٍ فرديّةٍ. كان يُعتَقَدُ في زمن **أرسطو** أن الدم المخصّص في حال الإلقاح لتشكيل دم الطفل ولحمه يسيل في كل شهرٍ؛ حقيقة هذه النظريّة القديمة هي أن المرأة تهيّئ دون كللٍ عمل الحمل. لا تجري هذه الحلقة الإستروجينيّة لدى بقيّة الثدييات إلا خلال موسمٍ؛ ولا يصاحبها سيلان دمٍ: يترافق كلّ شهرٍ بألمٍ ودمٍ[22] لدى القردة العليا والمرأة فقط. خلال حوالي أربعة عشر يومًا يكبر حجم أحد جريّبات غراف التي تغلّف البويضة وينضج بينما يفرز المبيض الهورمون الذي يوجد في مستوى الجريّبات والمسمّى جريّبين (فوليكولين). وفي اليوم الرابع عشر تتمّ الإباضة: ينشقّ جدار الجريّب (ما يؤدي أحيانًا إلى نزفٍ خفيفٍ) وتسقط البويضة في البوقين وأثناء ذلك يتم الالتئام مشكّلًا الجسم الأصفر. عندها يبدأ الطور الثاني اللوتئيني الذي يتّصف بإفراز الهورمون المسمّى البروجستين الذي يؤثّر على الرحم. فيتغيّر هذا الأخير: تحتقن الجملة الشعريّة للجدار، وتتثنّى، وتنتفخ، مشكّلة نوعًا من التخريم ـ الدانتيل ـ؛ وهكذا ينشأ في الرحم مهدٌ مؤهّلٌ لتلقّي البيضة الملقّحة. هذه التبدّلات الخلويّة غير قابلةٍ للتراجع، لا يُمتَصُّ هذا المهد في الحالات التي لا يحدث فيها إلقاحٌ: ربما تأخذ الأوعية اللمفاويّة البقايا غير اللازمة لدى الثدييات الأخرى. ولكن لدى المرأة عندما تنهار دانتيلا بطانة الرحم، تُفتَحُ الأوعية الشعرية وترشح كتلةٌ دمويّةٌ إلى الخارج. ثم بينما يستحيل الجسم الأصفر، تتشكّل المخاطيّة من جديدٍ ويبدأ طورٌ جريبيٌّ جديدٌ. هذه العملية المعقّدة،

22- استطاعوا تحليل هذه الظواهر في السنوات الأخيرة بمقارنة الظواهر التي تحدث لدى المرأة بتلك التي نلاحظها لدى القردة العليا، وخصوصًا في النمط ريزوس. وقد كتب غالين في «الجنس»: «من الأسهل بالطبع أن نجري تجاربًا لدى هذه الحيوانات».

التي لا تزال مجهولة التفاصيل، تحرّك العضوية بكاملها بما أنها تترافق بإفرازٍ هورمونيٍّ يؤثّر على الغدّة الدرقيّة والنخامى، وعلى الجملة العصبيّة والجملة الإنباتية وبالتالي على كلّ الأحشاء. وتبدي كلّ النساء تقريبًا ـ أكثر من 85% ـ اضطرابات خلال هذه الفترة. يرتفع الضغط الشرياني قبل بدء سيلان الدم وينخفض بعده؛ وتزداد سرعة النبض والحرارة غالبًا: وتكثر حالات الحمّى؛ ويصبح البطن مؤلمًا؛ ونلاحظ غالبًا ميلًا إلى الإمساك وبعده الإسهال؛ هناك أيضًا غالبًا زيادةٌ في حجم الكبد، واحتباسٌ للبولة، وبيلةٌ بروتينيّةٌ؛ ويبدي كثيرٌ من النساء احتقانًا في مخاطية البلعوم والأنف (ألمٌ في الحلق)، وبعضهنّ اضطرابات في السمع والنظر؛ ويزداد إفراز العرق ويترافق في بداية الدورة برائحةٍ مميّزةٍ يمكن أن تكون قويّةً جدًا وتظلّ طيلة فترة الحيض. ويزداد الاستقلاب الأساسي. وينقص عدد الكريّات الحمر؛ مع ذلك ينقل الدم عناصر موضوعةً عمومًا كاحتياطيٍّ في الأنسجة، وخصوصًا أملاح الكالسيوم؛ ويؤثّر وجود هذه الأملاح على المبيض، والغدّة الدرقيّة التي تتضخّم، وعلى النخامى التي تدير عمليّة تحوّل مخاطيّة الرحم والتي يزداد نشاطها؛ يؤدّي عدم استقرار الغدد هذا إلى هشاشةٍ عصبيّةٍ كبيرةٍ: تصاب الجملة المركزيّة، فيحدث صداعٌ غالبًا، وترتكس الجملة الإنباتيّة بشكلٍ مبالغٍ به: فتقلّ السيطرة الآليّة للجملة المركزيّة ما يحرّر منعكساتٍ ومركّبات اختلاج ويتبدّى بعدم استقرارٍ كبيرٍ في المزاج، فتغدو المرأة أكثر انفعاليّةً، وأكثر عصبيّةً، وأكثر استثارةً من المعتاد وقد تبدي اضطرابات نفسيةً خطيرةً. وفي هذه الفترة تشعر أنها لا تطيق جسدها وكأنّه شيءٌ بليدٌ مُستَلَبٌ؛ إنه فريسة حياةٍ عنيدةٍ وغريبةٍ تصنع فيه كل شهرٍ مهدًا ثم تفكّكه؛ كلّ شهرٍ يستعدّ طفلٌ للولادة ويُجهَضُ في انهيار الدانتيلا الحمراء؛ المرأة هي جسدها[23]، كالرجل: لكنّ جسدها هو شيءٌ آخر سواها. وتمرّ المرأة باستلابٍ أعمق عندما تنزل البيضة الملقّحة في الرحم وتتطوّر فيه؛ إنّ التعشيش هو بالتأكيد ظاهرةٌ طبيعيّةٌ لا تؤذي الأم إذا تمّت في شروط الصحّة والتغذية الطبيعية: حتى أنّه ينشأ بينها وبين الجنين نوعٌ من العلاقات المشتركة المفيدة لها؛ مع ذلك، وبعكس نظريّةٍ متفائلةٍ لا شكّ في فائدتها الاجتماعية، التعشيش هو عملٌ متعبٌ لا يقدّم للمرأة أيّ فائدةٍ

23- «أنا إذًا جسدي، على الأقل كشيءٍ اكتسبته وبالمقابل جسدي هو كموضوعٍ طبيعي، كمخطّطٍ مختصرٍ لكياني بكامله». (مرلو ـ بونتي Merleau-Ponty، ظواهريّة الإدراك).

شخصيّةٍ[24] ويتطلّب على العكس تضحياتٍ كبيرةً. ويترافق غالبًا في الأشهر الأولى بنقصٍ في الشهيّة وإقياءاتٍ لا نراها لدى أيّ أنثى أخرى أليفة، ويُظهِر ثورة العضويّة على النوع الذي يتملّكها؛ فهي تصبح فقيرةً بالفوسفور والكالسيوم والحديد، ونقص الأخير صعب التعويض فيما بعد؛ وازدياد نشاط الاستقلاب يُتعِب الجملة الغدّيّة؛ وتكون الجملة العصبية السلبيّة في حالة ازدياد قابليّة الإثارة؛ أما الدم، فيقلّ وزنه النوعي، ويصبح فقيرًا، مماثلًا «لدم الصائمين، والجائعين، والأشخاص الذين خضعوا لفصاداتٍ متكرّرةٍ، والناقهين»[25]. كلّ ما يمكن لامرأةٍ بصحةٍ جيّدةٍ وجيّدة التغذية أن تأمله هو استرجاع ما خسرته بعد الولادة دون عناءٍ كبيرٍ؛ ولكن تحدث غالبًا خلال الولادة حوادث خطيرةٌ أو على الأقل اضطراباتٌ خطيرةٌ؛ وإذا لم تكن المرأة قويّةً، وإذا لم يكن وضعها الصحّيّ معتنىً به، ستصبح مشوّهةً قبل الأوان وهرمةً بفضل الولادات: ونعرف كم هذا شائعٌ في الريف. الولادة بحدّ ذاتها مؤلمةٌ؛ وخطيرةٌ. نرى ضمن هذه الأزمة وبشكلٍ واضحٍ أنّ الجسم لا يرضي دومًا الشخص والنوع في آنٍ معًا؛ يحدث أن يموت الطفل وأن يميت أمه أيضًا وهو يولد أو أن تُحدِث ولادته لها مرضًا مزمنًا. والإرضاع أيضًا عبوديّةٌ منهِكةٌ؛ تؤدّي مجموعةٌ من العوامل ـ وأهمّها دون شكٍّ ظهور هورمون البروجستين ـ إلى إفراز الحليب من الغدد الثدييّة؛ وبدء إدرار الحليب مؤلمٌ، ويترافق غالبًا بحمّى وتغذّي المرضع الرضيع على حساب قوّتها الذاتيّة. وصراع النوع ـ الفرد، الذي يتّخذ في الولادة شكلًا مأساويًّا أحيانًا، يسبّب للجسم الأنثويّ ضعفًا يثير القلق. يقال عن طيب خاطرٍ أنّ لدى النساء «أمراضًا داخل البطن»؛ وصحيحٌ أنهنّ يحبسن داخلهنّ عنصرًا معاديًا: إنه النوع الذي يقرضهنّ. كثيرٌ من أمراضهنّ لا يأتي من إنتانٍ من مصدرٍ خارجيٍّ ولكن من اضطراب داخليٍّ: وهكذا فالتهابات الرحم الكاذبة ناجمةٌ عن ارتكاس المخاطيّة الرحميّة لإثارةٍ مبيضيّةٍ غير طبيعيّةٍ؛ وإذا ظلّ الجسم الأصفر بدل أن يُمتَصّ بعد الطمث، فهو يُحدِثُ التهاباتٍ في البوقين أو الرحم.. إلخ.

وتُفلِتُ المرأة أيضًا من سيطرة النوع عبر أزمةٍ صعبةٍ؛ بين الخامسة والأربعين

24- أناقش الأمر هنا من وجهة نظرٍ فيزيولوجيّةٍ بحتةٍ. من الواضح أن الأمومة من زاوية علم النفس قد تكون مفيدةً جدًّا للمرأة، كما يمكنها أن تكون مصيبةً أيضًا

25- راجع هـ. فيني في Le Traité de physiologieH/Vignes، الجزء 11، إدارة روجيه وبينيه Roger et Binet.

والخمسين سنةً تحدث ظواهر سنّ اليأس، معاكسةً لظواهر البلوغ. فينقص نشاط المبيض ويزول حتى: يؤدّي هذا الزوال إلى إفقارٍ كاملٍ للشخص. ومن المفروض أن تحاول الغدد المقوّضة (cataboliques)، الدرق والنخامى، تعويض قصور المبيض: وهكذا نلاحظ إلى جانب اكتئاب سنّ اليأس ظواهر انتفاضةٍ: هبّات حرارةٍ وارتفاعًا في التوتّر الشرياني وعصبيّةً؛ هناك أحيانًا ازديادٌ في الغريزة الجنسيّة. وتتركّز الدهون في أنسجة بعض النساء؛ وتسترجل أخرياتٌ. ويحدث عدم توازنٍ غدّيٍّ لدى الكثيرات. تجد المرأة نفسها عندئذٍ محرّرةً من عبودية الأنثى؛ لم تعد مشابهةً لخصيٍّ لأن حيويّتها ما تزال كاملةً؛ مع ذلك لم تعد فريسةً للقوى التي تفوقها: غدت متوافقةً مع نفسها. قيل أحيانًا إنّ النساء المسنّات يشكّلن «جنسًا ثالثًا»؛ وفي الواقع إنّهنّ لسن ذكورًا لكنّهن لم يعدن إناثًا؛ و تتبدّى هذه الاستقلاليّة الفزيولوجيّة بصحّةٍ وتوازنٍ وقوّةٍ لم تكن تملكها قبلًا.

تضاف إلى التمايزات الجنسيّة البحتة لدى المرأة خصائص هي نتائج مباشرةٌ أو غير مباشرةٍ لها؛ إنها تأثيراتٌ هورمونيّةٌ تحدّد جسدها. فهي أقصر قامةً من الرجل في المتوسّط وأقل وزنًا، وهيكلها أكثر دقّةً، والحوض أعرض، مؤهّلٌ لوظائف الحمل والولادة؛ ونسيجها الضامُّ يخزّن الدسم وتقاطيع جسمها أكثر استدارةً من الرجل؛ والمظهر العام: الشكل والجلد والشعر إلخ.. مختلفٌ بشكلٍ واضحٍ بين الجنسين. والقوة العضلية أقلّ بكثيرٍ لدى المرأة، حوالي ثلثي قوة الرجل؛ ولديها سعةٌ تنفسّيّةٌ أقلّ: فالرئتان والرغامى والحنجرة أصغر لديها؛ واختلاف الحنجرة يؤدّي أيضًا إلى اختلاف الأصوات. والوزن النوعيّ للدم أقلّ لدى النساء، فهناك تثبيتٌ أقلّ لخضاب الدم؛ بالتالي هنّ أقل قوّةً، وأكثر استعدادًا لفقر الدم. ونبضهنّ أسرع، وجملتهن الوعائيّة أقل استقرارًا، يحمرّ وجههنّ بسهولةٍ. وعدم الاستقرار سمةٌ صارخةٌ من سمات عضويّتهنّ عمومًا؛ وبين أشياء أخرى لدى الرجل استقرارٌ في استقلاب الكلس؛ بينما تثبيت المرأة لأملاح الكلس أقلّ بكثيرٍ، وتطرح منها أثناء الطمث وخلال الولادة؛ ويبدو أن للمبيضين تأثيرًا مقوّضًا للكلس: يؤدي عدم الاستقرار هذا إلى اضطراباتٍ في المبيضين وفي الدرق الذي يكون أكبر لديها من الرجل: ويؤثر عدم انتظام إفرازات الغدد الصمّ على الجملة العصبية الإنباتية؛ ويصبح التحكّم العصبيّ والعضليّ غير مكتملٍ. يؤدّي نقص الاتّزان والتحكّم هذا إلى سرعة تأثّرهنّ، المرتبطة مباشرةً بالتغيّرات

الوعائيّة، كخفقان القلب والاحمرار إلخ..؛ ووبذلك يصبحن عرضةً للمظاهر التشنّجيّة: كالدموع والضحكات الهيستيريّة والنوبات العصبيّة.

ونرى أنّ كثيرًا من هذه السمات يأتي كذلك من تبعيّة المرأة للنوع. تلك هي أكثر نتائج هذا الامتحان وضوحًا: إنّها من دون كلّ إناث الثدييات تلك الأكثر استلابًا، وتلك التي ترفض هذا الاستلاب بعنفٍ أكبر؛ لم يكن خضوع الجسم لوظيفة التكاثر أكثر سيطرةً ولا أصعب قبولًا لدى أيٍّ منها: أزمة البلوغ وسنّ اليأس، «اللعنة» الشهريّة، والحمل الطويل والصعب غالبًا، والولادة المؤلمة والخطيرة أحيانًا، والحوادث، هي كلها مميّزةٌ للأنثى البشريّة، لكأنّما مصيرها أصعب بحيث تكون ثورتها عليه أكبر مؤكّدةً ذاتها كفردٍ. إذا قورِنت بالذكر، يظهر أنه يحظى بكثيرٍ من الامتيازات: فحياته الجنسيّة لا تعيق وجوده الشخصيّ؛ وهي تجري بشكلٍ مستمرٍّ، دون أزمةٍ ودون حوادث. تعيش النساء وسطيًّا بقدر الرجال لكنّهنّ يمرضن أكثر بكثيرٍ غالبًا وهناك فتراتٌ عديدةٌ لا يتمكنّ فيها من تنظيم أنفسهنّ.

هذه المعطيات البيولوجية شديدة الأهمّيّة؛ فهي تلعب دورًا أولويًّا في تاريخ المرأة، إنها عنصرٌ أساسٌ في وضعها: سنرجع إليها في كل وصفنا اللاحق. لأنّه باعتبار الجسد أداة تأثيرنا على العالم، يتغيّر مظهر العالم بتغيّر تأثيرنا عليه. ولهذا درسناها مطوّلًا؛ إنها إحدى المفاتيح التي تسمح بفهم المرأة. لكنّ ما نرفضه، هو فكرة أنها تشكّل للمرأة مصيرًا جامدًا. إنها لا تكفي لتحديد مراتب الجنسين؛ لا تفسّر لماذا تكون المرأة هي الآخر؛ وهي لا تحكم عليها بالبقاء في هذا الدور التابع إلى الأبد.

*

زعموا غالبًا أن الفزيولوجيا وحدها تسمح بالإجابة على هذه الأسئلة: هل للجنسين نفس الحظوظ في النجاح الفردي؟ أيّهما يلعب الدور الأهمّ بالنسبة للنوع؟ لكن المسألة الأولى لا تظهر البتة بنفس الطريقة بالنسبة للمرأة ولبقيّة الإناث، لأنّ الحيوانات تشكّل أنواعًا معطاةً من الممكن إعطاء أوصافٍ ثابتة عنها: يكفي أن نجمع ملاحظاتٍ لنقرّر إن كانت الفرس أسرع من الحصان أم لا، وإذا كان ذكر الشمبانزي ينجح في اختبارات الذكاء أكثر من أنثاه؛ بينما تتطوّر البشريّة باستمرارٍ. كان هناك علماءٌ مادّيّون زعموا أنهم طرحوا المسألة بطريقةٍ ثابتة بحتةٍ؛ مُشبَعين بنظريّة التوازي النفسي الفزيولوجي، فحاولوا إقامة مقارناتٍ

رياضيّةٍ بين أجسامٍ ذكريّةٍ وأنثويةٍ؛ وكانوا يتخيّلون أنّ هذه القياسات تحدّد فورًا قدراتها الوظيفيّة. وسأذكر مثالًا عن المناقشات التافهة التي أثارتها هذه المنهجيّة. بما أنهم كانوا يفترضون أن الدماغ يفرز الفكر، بطريقةٍ غامضةٍ، فقد بدا مهمًّا جدًّا أن يقرّروا إن كان متوسّط وزن دماغ المرأة أقل من مثيله لدى الرجل أم لا. ووجدوا أنّ الأوّل يزن في المتوسّط 1220 غرامًا والثاني 1350، بما أنّ وزن دماغ المرأة يتراوح بين 1000 إلى 1500 غرامًا ووزن دماغ الرجل بين 1150 إلى 1700. لكن الوزن المطلق لا يعني شيئًا؛ فقرّروا إذًا أخذ الوزن النسبي بالاعتبار. ووجدوا أنّه 48,4/1 لدى الرجل و 44,2/1 لدى المرأة. إذًا لديها امتيازٌ. كلا، علينا أن نصحّح أيضًا: بمثل هذه المقارنة، الجسم الأصغر هو الذي يبدو دائمًا ذا امتيازٍ؛ لكي نجري تجريدًا صحيحًا للجسم بمقارنة زمرتين من الأشخاص، يجب تقسيم وزن الدماغ على القوّة 0,56 من وزن الجسم إن كانا ينتميان إلى نفس النوع. يُعتَبَرُ أن الرجل والمرأة يمثّلان نمطين مختلفين. نصل بالتالي إلى النتائج التالية:

للرجل: الوزن × 0,56 = 498 $\frac{1360}{498} = 2,73$

للمرأة: الوزن × 0,56 = 446 $\frac{1220}{446} = 2,74$

نصل إلى المساواة. لكنّ الذي يقلّل كثيرًا من أهمّيّة هذه النقاشات الجادّة هو أنّنا لم نتمكّن من إقامة أيّة علاقةٍ بين وزن الدماغ وتطوّر الذكاء. لا يمكن أيضًا إعطاء تفسيرٍ نفسيٍّ للصيغ الكيميائيّة التي تعرّف الهرمونات الذكريّة والأنثويّة. بالنسبة لنا، نرفض قطعيًّا فكرة التوازي النفسي ـ الفزيولوجي؛ إنه مذهبٌ بطلت أسسه نهائيًّا ومنذ زمنٍ بعيدٍ. إذا كنت أشير إليها فلأنّها وإن أفلست من الناحية الفلسفيّة والعلميّة، ما تزال تراود عددًا لا بأس به من العقول، ورأينا أن بعض أقدم الأفكار الباقية ما تزال موجودةً لدى البعض. نرفض أيضًا كلّ نظام مرجعيّةٍ يتبنى وجود تراتبيّةٍ طبيعيّةٍ للقيم، كتراتبٍ تطوّريٍّ مثلًا؛ من التفاهة أن نتساءل عمّا إذا كان الجسم الأنثويّ أكثر طفوليةً أم لا قياسًا على جسم الرجل، إن كان يقترب أقلّ أو أكثر من جسد الأوّليات العليا، إلخ.. كلّ هذه الأبحاث التي تمزج طبيعيّةً مبهمةً

مع مبادئ أخلاقيّةٍ أو جماليّةٍ أكثر غموضًا ليست سوى هذرٍ. من منظورٍ إنسانيٍّ فقط يمكن مقارنة الذكر والأنثى ضمن النوع البشريّ. لكنّ تعريف الإنسان هو أنّه كائنٌ غير معطىً، يجعل نفسه ما هو عليه. وكما قال **مرلو- بونتي** بمنتهى الدقّة، الإنسان ليس نوعًا طبيعيًّا: إنه فكرةٌ تاريخيّةٌ. والمرأة ليست حقيقةً جامدةً، لكنها تطوّرٌ؛ يجب مواجهتها مع الرجل في تطوّرها، أي أنّه يجب تحديد قدراتها: ما يجعل كثيرًا من النقاشات مغلوطةً هو أنّه يُراد تصغيرها إلى ما كانت عليه، وما هي عليه اليوم، في الوقت نفسه الذي يطرحون فيه مسألة قدراتها؛ والواقع أنّ القدرات لا تتجلّى بوضوحٍ إلا عندما تتحقّق: لكن الواقع أيضًا أنّه عندما نأخذ بالاعتبار كائنًا هو تسامٍ وتفوّقٌ، لا يمكن إيقاف الحسابات أبدًا.

مع ذلك، قد يقال إنه ضمن المنظور الذي أتبنّاه ـ منظور **هيدغر**، و**سارتر**، و**مرلو- بونتي**، إذا كان الجسم ليس «شيئًا»، فهو وضعٌ: إنه تأثيرنا على العالم وباكورة مشاريعنا. المرأة أضعف من الرجل؛ وتملك قوةً عضليّةً أقلّ، وكريّاتٍ حمرًا أقلّ، وسعةً تنفسيّةً أقلّ؛ وتركض بسرعةٍ أقلّ، وتحمل أثقالًا أقلّ وزنًا، ولا يوجد تقريبًا أيّة رياضةٍ تستطيع أن تنافسه فيها؛ لا تستطيع مواجهة الذكر بالمصارعة. يضاف لهذا الضعف عدم الاستقرار، ونقص التحكّم والهشاشة التي تحدّثنا عنها: هذه وقائع. وبالتالي تأثيرها على العالم أضيق؛ فهي أقلّ حزمًا وصلابة في المشاريع التي هي أيضًا أقلّ قدرةً على تنفيذها. ما يعني أنّ حياتها الشخصيّة أقلّ غنىً من حياة الرجل.

في الحقيقة لا يمكن إنكار هذه الوقائع: لكنها لا تحوي معناها في حدّ ذاتها. حالما نَقبَلُ منظورًا إنسانيًّا، يُعَرِّف الجسد انطلاقًا من الوجود، وتصبح البيولوجيا علمًا مجرّدًا: حين يتّخذ المُعطى الفزيولوجي (الدونيّة العضليّة) معنىً، يظهر فورًا تابعًا لمفهومٍ بأكمله؛ لا يبدو «الضعف» ضعفًا إلا في ضوء الأهداف التي يطرحها الإنسان، والأدوات التي يستخدمها والقوانين التي يفرضها على نفسه. إذا لم يكن يريد التأثير في العالم، فلن يكون لفكرة التأثير على الأشياء معنىً؛ وعندما يكون استعمال القوة الجسديّة غير مطلوبٍ في هذا الضبط. فوق الحد الأدنى القابل للاستعمال، تُلغى الفوارق؛ هناك حيث يمنع العرفُ العنفَ، لا تستطيع قوة العضلات التأسيس للسيطرة: نحتاج لمراجع وجوديّةٍ واقتصاديّةٍ وأخلاقيّةٍ لكي يمكن تعريف مفهوم الضعف بشكلٍ محسوسٍ. قالوا إنّ النوع البشريّ مخالفٌ للطبيعة؛ هذا التعبير

ليس صحيحًا تمامًا لأن الإنسان لا يستطيع أن يناقض المسلّمات؛ ولكنّه يشكّل حقيقتها عبر الطريقة التي يضطلع بها فيها؛ لا تملك الطبيعة واقعًا من أجله إلا بقدر ما يؤثّر عمله عليها: ولا تشكّل طبيعته الذاتيّة استثناءً. ومثل تأثيره على العالم، لا يمكن بالمجرّد قياس العبء الذي تشكّله الوظيفة الإنجابيّة على المرأة: تنظّم علاقة الأمومة بالحياة الفرديّة لدى الحيوانات دورة النزو والفصول بالطبع؛ وهي غير محدّدةٍ لدى المرأة؛ المجتمع وحده هو من يقرّرها؛ حسبما يطلب ولاداتٍ أقلّ أو أكثر، وحسب الشروط الصحّيّة التي يتمّ ضمنها الحمل والولادة، يزيد خضوع المرأة للنوع أو ينقص. وهكذا، إن أمكن القول إنّ الوجود الفرديّ بين الحيوانات العليا يتأكّد حتمًا لدى الذكر أكثر منه لدى الأنثى، «فالإمكانيات» الفرديّة ضمن البشريّة تتعلّق بالوضع الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

وفي جميع الأحوال، لا يحدث دائمًا لامتيازات الذكر الفرديّة أن تمنحه التفوّق ضمن النوع؛ فالمرأة تعيد في الأمومة اكتساب شكلٍ آخر للاستقلال. يفرض سيطرته أحيانًا: تلك مثلًا حال القردة التي درسها **زوكرمان** Zuckermann؛ ولكن غالبًا ما يعيش الزوجان حياةً منفصلةً؛ ويتقاسم الأسد مع اللبوة بشكلٍ متساوٍ العناية بالمسكن. هنا أيضًا لا تُخَفَّض حالة النوع البشري إلى مرتبة أيّ نوعٍ آخر؛ لا يُعَرَّف الرجال كأفرادٍ أوّلًا؛ لم يحدث أبدًا أن تحدّى الرجال والنساء بعضهم بعضًا في معارك خاصّةٍ؛ الزوجان هما عيشٌ مشتركٌ أصليٌّ؛ وهو نفسه يبدو دائمًا كعنصرٍ ثابتٍ أو عابرٍ من جماعةٍ أوسع؛ مَن مِن الذكر أو الأنثى في هذه المجتمعات هو الأكثر ضرورةً للنوع؟ على مستوى المشيجات، وعلى مستوى الوظائف البيولوجيّة للإيلاج والحمل، العنصر المذكّر يَخلِق من أجل المحافظة، والعنصر المؤنّث يحافظ كي يخلِق: ماذا يصبح هذا التقسيم في الحياة الاجتماعيّة؟ بالنسبة للأنواع المحدّدة كعضويّاتٍ غريبةٍ أو كموضوعٍ أساسٍ، بالنسبة لتلك التي تكافئها الطبيعة بأغذيةٍ وفيرةٍ ودون جهدٍ، ينحصر دور الذكر في الإلقاح؛ وعندما يجب البحث عن الطعام، والصيد، والصراع من أجل تأمين الغذاء الضروريّ للصغار، يساهم الذكر غالبًا في الاهتمام بهم؛ وتصبح هذه المساهمة ضروريّةً حتمًا ضمن نوعٍ يظلّ فيه الأطفال غير قادرين على تأمين احتياجاتهم لفترةٍ طويلةٍ بعد أن تكفّ الأم عن إرضاعهم: عندها يأخذ عمل الذكر أهمّيّةً قصوى؛ فالأفراد الذين أوجدهم لا يستطيعون العيش دون عونه. يكفي ذكرٌ واحدٌ لتلقيح

العديد من الإناث كلّ عامٍ: ولكن الذكور ضروريّون كي يبقى الأطفال بعد ولادتهم على قيد الحياة، للدفاع عنهم ضدّ الأعداء، ولانتزاع كلّ ما يحتاجونه من الطبيعة. ويتحقّق توازن قوى الإنجاب وقوى التكاثر بشكلٍ مختلفٍ في مختلف الفترات الاقتصاديّة من التاريخ البشريّ وهو يتحكّم بعلاقة الذكر والأنثى بالأطفال وفيما بعد بينهم. لكننا نخرج عندئذٍ من مجال البيولوجيا: لا يمكن على ضوئها فقط تحديد أولويّة أحد الجنسين في الدور الذي يلعبه لاستمرار النوع.

وأخيرًا المجتمع ليس نوعًا: فالنوع يتحقّق فيه كوجودٍ؛ وهو يتصعّد نحو العالم ونحو المستقبل، ولا تُستَنبَط أعرافه من البيولوجيا؛ فالأفراد لا يُترَكون أبدًا لطبيعتهم، يطيعون هذه الطبيعة الثانية التي هي العادات والتي تنعكس فيها رغباتٌ ومخاوف تعبّر عن وضعها الأنطولوجي (الوجودي). تدرك الذات نفسها وتكتمل ليس كجسمٍ، بل كجسمٍ خاضعٍ لمحرّماتٍ وقوانينٍ: تقيّم نفسها باسم بعض القيم. ومرّةً أخرى ليست الفزيولوجيا هي التي تستطيع إقامة قيمٍ: تتّخذ المعطيات البيولوجيّة بالأحرى شكل القيم التي يسبغها عليها الواقع الراهن. إذا كان الاحترام أو الخوف اللّذين توحي بهما المرأة يمنعان من استخدام القوّة ضدّها، فتفوّق الذكر العضلي ليس مصدرًا للسلطة. وإن كانت الأعراف تقضي ـ كما في بعض القبائل الهنديّة ـ بأن تختار الشابات أزواجهنّ، أو إن كان الأب هو من يقرّر الزيجات، فعدوانيّة الذكر الجنسيّة لا تترك له أيّة مبادرةٍ، وأيّ امتيازٍ. وتصبح علاقة الأم الحميمة مع الطفل مصدر شرفٍ أو إهانةٍ بحسب القيمة المعطاة للطفل والتي هي مختلفةٌ جدًّا؛ هذه العلاقة بحدّ ذاتها، كما قيل، سيُعتَرَف بها أو لا حسب الأحكام الاجتماعية المسبقة.

وهكذا في ضوء سياقٍ أنطولوجيٍّ (وجوديٌّ)، واقتصاديٌّ واجتماعيٌّ ونفسيٌّ علينا إيضاح معطيات البيولوجيا. فخضوع المرأة للنوع، وحدود قدراتها الفرديّة هي وقائع غايةٌ في الأهمّيّة؛ فجسد المرأة هو أحد العناصر الأساسيّة للوضع الذي تحتلّه في هذا العالم. ولكنّه أيضًا لا يكفي لتعريفها؛ ليس لديه حقيقةٌ معاشةٌ إلا كما يتّخذه الشعور عبر أعمالٍ وضمن مجتمعٍ؛ ولا تكفي البيولوجيا لإعطاء إجابةٍ على السؤال الذي يشغلنا: لماذا تكون المرأة هي الآخر؟ يتعلّق الأمر بمعرفة كيف تمّ استرجاع الطبيعة فيها عبر التاريخ؛ يتعلّق الأمر بمعرفة ما فعلت البشريّة بأنثى الإنسان.

الفصل الثاني

وجهة نظر التحليل النفسي

لقد حقّق التحليل النفسي تقدّمًا هائلًا في ميدان علم النفس الفزيولوجي، وهو اعتبار أنّ أيّ عاملٍ لا يتدخّل في الحياة النفسيّة دون أن يكتسي معنىً إنسانيًّا؛ الموجود فعلًا ليس هو الجسم ـ الشيء الذي وصفه العلماء ولكن الجسم الذي تعيشه الذات. الأنثى هي امرأةٌ بقدر ما تشعر بنفسها كذلك. هناك معطياتٌ بيولوجيّةٌ أساسيّةٌ لا تعود إلى وضعها المُعاش: وبالتالي لا ينعكس فيها تركيب البويضة؛ وعلى العكس يلعب فيها دورًا في غاية الأهميّة عضوٌ لا أهمّيّة بيولوجيّةً له كالبظر. ليست الطبيعة ما تحدّد المرأةَ: هي من تحدّد نفسها آخذةً الطبيعة لحسابها ضمن وجدانها.

نشأت منظومةٌ كاملةٌ ضمن هذا المنظور: لا ننوي هنا نقدها بمجملها لكنّنا نودّ فقط أن ندرس مساهمتها في دراسة المرأة. ليس من السهل مناقشة التحليل النفسي. فهو يبدو مرنًا للغاية على أساسٍ من المفاهيم الجامدة، مثل كل الديانات ـ المسيحيّة والماركسيّة ـ تؤخذ الكلمات فيه أحيانًا بأضيق معانيها، فلفظة قضيبٍ التي تعني على وجه الدقة هذه النامية اللحميّة التي هي عضوٌ ذكريٌّ؛ تتّسع أحيانًا إلى ما لا نهايةٍ وتأخذ قيمةً رمزيّةً: فيصبح القضيب معبّرًا عن مجمل الصفة والوضع الذكوريّين. إذا هاجمنا فكر المذهب

يدّعي المحلّل النفسيّ أننا لا ندرك جوهره؛ وإن وافقنا على جوهره، يريد فورًا أن يسجنك ضمن الفكر. ويقول إنّ المذهب لا أهمّيّة له: فالتحليل النفسي منهجٌ؛ لكنّ نجاح المنهج يقوّي إيمان المذهبيّ. عدا عن ذلك أين نجد الوجه الحقيقي للتحليل النفسي سوى لدى المحلّلين النفسيّين؟ ولكنّ بينهم مهرطقين كما بين المسيحيّين والماركسيّين؛ وقد صرّح أكثر من محلّلٍ نفسيٍّ أنّ «المحلّلين النفسيّين هم ألدّ أعداء التحليل النفسيّ». ورغم الشروحات المدرسيّة المتحذلقة غالبًا، فكثيرٌ من الغموض لم ينجلِ. وكما يلمّح إليه **سارتر** و**مرلو-بونتي**، يمكن فهم عبارة «الجنس واسعٌ بقدر الوجود» بطريقتين مختلفتين جدًّا؛ إذ يمكن أن نقول إنّ كلَّ تحوّلٍ للوجود هو ذو معنىً جنسيٍّ، أو أنّ لكلِّ ظاهرةٍ جنسيّةٍ معنىً وجوديًّا: يمكن التوفيق بين هذين القولين؛ ولكنّنا نكتفي غالبًا بالانتقال من أحدهما للآخر. عدا عن أنّه ما إن نميّز «الجنسي» عن «التناسليّ» حتى يصبح مفهوم الجنس غامضًا. قال **دالبييز** Dalbiez: «الجنسيُّ لدى **فرويد** هو الأهليّة الجوهريّة لتفعيل التناسليّ». ولكن لا يوجد ما هو محيّرٌ أكثر من فكرة «الأهليّة» أي الممكن: وحده الواقع يثبت الإمكانيّة. بما أنّ **فرويد** Freud ليس فيلسوفًا فقد رفض أن يبرّر منظومته فلسفيًّا؛ ويدّعي أتباعه أنّه يتحاشى بذلك كل هجومٍ ذا طبيعةٍ ميتافيزيقيّةٍ. مع ذلك، هناك وراء كلّ تأكيداته مسلّماتٌ ميتافيزيقيّةٌ: فاستخدام لغته يعني اعتناقَ فلسفةٍ. هذا ما تفرضه هذه الالتباسات نفسها التي تجعل النقد مأزومًا.

لم يهتمّ **فرويد** كثيرًا بمصير المرأة: من الجليّ أنه اقتبس وصفه من مصير الرجل مكتفيًا بتعديل بعض خطوطه. قبله كان عالم الجنس **مارانيون** Marañon قد صرّح قائلًا: «باعتبار الشبق طاقةً متمايزةً، يمكن القول إنّه قوّةٌ بمعنىً ذكريٍّ. وكذا الرعشة». بحسب رأيه النساء اللواتي يبلغن الرعشة هنّ نساءٌ « مُشَبّهاتٌ بالذكور»؛ فالاندفاع الجنسيّ «وحيد الاتّجاه» والمرأة تبلغ فقط منتصف الطريق[26]. لا يذهب **فرويد** إلى هذا الحدّ؛ فهو يعترف بأنّ الجنس لدى المرأة نامٍ بقدر الجنس لدى الرجل: لكنّه لا يدرسه البتّة بحدّ ذاته. ويكتب: «الشبق ذو جوهرٍ ذكريٍّ بصورةٍ ثابتة ومنتظمةٍ، سواءً ظهر لدى الرجل أو لدى المرأة».

26- من الغريب أن نجد هذه النظريّة لدى د. هـ. لورنس D.H.Lawrence في «الأفعى ذات الريش»، يهتمّ دون سيبريانو بألّا تبلغ عشيقته النشوة أبدًا: عليها أن تتفاعل بالتوافق مع الرجل، وليس أن تنفرد في المتعة.

ويرفض أن يعتبر الشبق الأنثوي أصليًّا: يبدو له إذًا بالضرورة انحرافًا معقّدًا عن الشبق الإنساني عمومًا. وظنّ أنّ الشبق الإنساني ينمو أولًا بشكلٍ متماثلٍ لدى الجنسين: فيمرّ كلّ الأطفال بمرحلةٍ فمويّةٍ تجعلهم يركّزون على ثدي الأم، ثمّ بمرحلةٍ شرجيّةٍ وأخيرًا يبلغون المرحلة التناسليّة؛ وفي هذه اللحظة يتمايزون. وأوضح فرويد أمرًا لم تُعرَف أهمّيّته قَبلَه: تتوضّع الشهوانيّة الذكوريّة نهائيًّا في القضيب؛ بينما توجد لدى المرأة جملتان شهوانيّتان متميّزتان: إحداهما بظريّةٌ تنمو في المرحلة الطفوليّة والأخرى مهبليّةٌ لا تزدهر إلا بعد البلوغ؛ عندما يصل الصبيّ إلى المرحلة التناسليّة، يكون نموّه قد اكتمل؛ وعليه أن يمرّ من السلوك الشهواني الذاتي حيث تُقْصَد المتعة في ذاتيّتها، إلى سلوكٍ شهوانيٍّ مغايرٍ يربط المتعة بشيءٍ، بالمرأة عادةً. ويتمّ هذا العبور في لحظة البلوغ من خلال مرحلةٍ نرجسيّةٍ: لكنّ القضيب يبقى العضو الشهوانيّ المفضّل كما في الطفولة. على المرأة أيضًا عبر النرجسية أن توجّه شبقها نحو الرجل؛ لكنّ هذه العمليّة معقّدةٌ أكثر بكثيرٍ لأنّها يجب أن تنتقل من المتعة البظريّة إلى المتعة المهبليّة. لا توجد سوى مرحلةٍ تناسليةٍ بالنسبة إلى الرجل بينما هناك اثنتان لدى المرأة؛ إنها تخاطر أكثر بعدم بلوغ نهاية نموها الجنسيّ، وأن تبقى في المرحلة الطفوليّة وأن تصبح عصابيّةً في النهاية.

في مرحلة الشهوانيّة الذاتيّة، يتعلّق الطفل قليلًا أو كثيرًا بشيءٍ: فيركّز الصبيّ اهتمامه على أمّه ويريد أن يتماهى مع أبيه؛ ويخشى هذا الطلب، ويخاف أن يبتره أبوه عقابًا له على ذلك: وتولد «عقدة الإخصاء» من «عقدة أوديب»، فتنمو لديه عندئذٍ عدوانيّةٌ تجاه الأب ولكنّه في الوقت نفسه يستبطن سلطته: وهكذا تتشكّل الأنا العليا التي تمنع الميل إلى سفاح القربى؛ فيُزاحُ هذا الميل وتُصفَّى العقدة ويتحرّر الابن من الأب الذي أقامه في الواقع في نفسه على شكل قواعد أخلاقيّةٍ. وتزداد قوّة الأنا العليا بقدر ما كانت عقدة أوديب واضحةً أومُكافَحَةً بقوّةٍ. وصف فرويد أولًا بطريقةٍ مماثلةٍ تمامًا قصّة البنت؛ ثمّ أعطى للشكل الأنثوي من العقدة الطفوليّة اسم عقدة إلكترا؛ لكنّ من الجليّ أنّه عرّفه انطلاقًا من شكله الذكريّ أكثر ممّا عرّفه بحدّ ذاته؛ وأقرّ مع ذلك بوجود اختلافٍ كبيرٍ جدًّا بين الاثنين: فالبنت الصغيرة تركّز اهتمامها على أمّها أولًا بينما لا ينجذب الصبيّ جنسيًّا في أيّ فترةٍ إلى الأب؛ هذا التركيز هو من بقايا الطور الفمويّ؛ وتتماهى الطفلة عندئذٍ مع الأب؛ ولكنّها

تكتشف الفرق التشريحيّ بين الجنسين في حوالي عمر الخمس سنوات وترتكس لغياب القضيب بعقدة إخصاءٍ: إذ تتخيّل أنها قد بُتِرت وتتألم من ذلك؛ عليها بالتالي أن تتخلّى عن مطالباتها الذكوريّة، وتتماهى مع الأمّ وتحاول إغراء أبيها. وتقوّي عقدة الإخصاء وعقدة إلكترا بعضهما بعضًا؛ ويكون شعور الإحباط لدى الفتاة أكثر إيلامًا بقدر ما تودّ التشبّه بأبيها الذي تحبّه؛ وبالعكس يقوّي هذا الأسف حبّها: ويمكنها أن تعاوض دونيّتها عبر الحنان الذي تولّده لدى الأب. وتشعر البنت تجاه أمّها بمنافسةٍ وعدائيّةٍ. ثمّ تتشكّل الأنا العليا لديها، وتزيح الميل إلى سفاح القربى؛ لكنّ الأنا العليا أكثر هشاشةً وعقدة إلكترا أقلّ وضوحًا من عقدة أوديب، لأنّ التركيز الأول كان أموميًّا؛ وبما أنّ الأب كان هو نفسه موضع هذا الحبّ الذي كان يدينه، تكون نواهيه أضعف منها في حالة الابن المنافس. ونرى أنّ مجمل المأساة الجنسيّة لدى الفتاة هي مثل تطوّرها التناسليّ أكثر تعقيدًا ممّا هي لدى إخوتها. قد ترغب في الردّ على عقدة الإخصاء برفض أنوثتها، وبرغبةٍ ملحّةٍ في قضيبٍ والتماهي مع الأب؛ ويقودها هذا السلوك إلى أن تبقى في المرحلة البظريّة، وتصبح باردةً أو تتحوّل نحو الجنسيّة المثليّة.

يأتي الانتقادان الأساسيّان اللذان يمكن توجيههما لهذا الوصف من أنّ فرويد نسخه عن النمط الذكريّ. إنّه يفترض أن المرأة تشعر أنّها رجلٌ مبتورٌ: لكنّ فكرة البتر تتطلّب مقارنةً وتقييمًا؛ ويقرّ اليوم العديد من المحلّلين النفسيين بأنّ الفتاة الصغيرة تأسف لغياب القضيب دون أن تفترض مع ذلك أنّها جُرِّدتْ منه؛ هذا الأسف ليس عامًّا لهذه الدرجة؛ ولا يولَد من مقارنةٍ تشريحيّةٍ بسيطةٍ؛ فالعديد من البنات لا يكتشفن التكوين الذكريّ إلا بصورةٍ متأخّرةٍ؛ وإن اكتشفنه فبالنظر فقط؛ للصبيّ تجربةٌ حيّةٌ مع قضيبه، تسمح له بأن يفخر به، لكنّ هذا الفخر ليس له متلازمه الفوري في إذلال أخواته لأن هاته الأخوات لا يعرفن العضو الذكريّ إلّا ضمن خارجانيّته (extériorité)، يمكن ألا توحي إليهنّ هذه النامية، هذا الجذع اللحميّ الهشّ سوى بعدم الاكتراث وحتى بالاشمئزاز؛ عندما تظهر رغبة البنت، تنجم عن تقييمٍ مسبقٍ للذكورة: ويأخذها فرويد على أنّها مُعطاةٌ بينما يجب تحليلها[27]. من جهةٍ أخرى، مفهوم عقدة إلكترا غائمٌ جدًّا في غياب الاستلهام من وصفٍ أصليٍّ للشبق

27- سنتناول هذا النقاش بشكلٍ مطوّلٍ أكثر بكثيرٍ في الجزء الثاني، الفصل الأوّل.

الأنثوي. وجود عقدة أوديب من النمط التناسليّ البحت لدى الصبيان ليس عامًّا أصلًا؛ ولكن فيما عدا استثناءاتٍ نادرةٍ للغاية، لا نقبل أنّ الأب مصدر إثارةٍ تناسليّةٍ لابنته. إحدى أكبر مشاكل الشهوانيّة الأنثويّة هي أنّ المتعة البظريّة تنعزل فقط حوالي البلوغ، وارتباطًا بالشهوانيّة المهبليّة، تتطوّر في جسد المرأة العديد من المناطق المثيرة للشهوة؛ لا معنى في غالبيّة الحالات لقولنا إنّ قبلات ومداعبات الأب لطفلةٍ في العاشرة من عمرها ذات «قابليّةٍ أصليّةٍ» لإثارة الشهوانيّة البظريّة. إذا قبلنا أنّ «عقدة إلكترا» ليس لها سوى شكلٍ عاطفيٍّ واسع الطيف، عندئذٍ نطرح للنقاش مسألة العاطفة كلّها التي لا تعطينا الفرويديّة وسائل تعريفها ما إن نميّزها عن الجنس. على كلّ حالٍ ليس الشبق الأنثوي ما يمجّد الأب: والأم ليست ممجَّدَةً عبر المتعة التي توحي بها إلى الابن؛ كون الرغبة الأنثويّة تتوجّه نحو شخصٍ مسيطرٍ يعطيها صبغةً أصليّةً؛ لكنها ليست من مكوّناته الجوهريّة، إنّها تخضع له. سيادة الأب شيءٌ اجتماعيٌّ: وفرويد يفشل في تحليلها؛ ويعترف بنفسه أنّ من المستحيل معرفة أيّ سلطةٍ قرّرت في لحظةٍ من التاريخ أنّ يفوز الأب على الأم: هذا القرار يمثّل في رأيه تطوّرًا لا نعرف أسبابه. وقد كتب في كتابه الأخير[28]: «لا يمكن أن يكون ذلك سلطة الأب بما أنّ هذه السلطة لم تُمنَح للأب تحديدًا إلا عبر التطوّر».

انفصل آدلر عن فرويد لأنّه فهم قصور نظامٍ يجعل تطوّر الحياة البشريّة قائمًا على الجنس وحده: إنه يريد إرجاعه إلى الشخصيّة كاملةً؛ بينما تبدو كلّ التصرّفات لدى فرويد محرّضةً بالرغبة أي البحث عن المتعة، يبدو الإنسان لـ آدلر طامحًا لبعض الأهداف؛ للمتغيّر، إنّه يبدّل أسبابًا، وغائيّةً، ومخطّطاتٍ؛ ويجعل للذكاء مكانًا كبيرًا لدرجة أنّ الجنس لا يأخذ غالبًا بالنسبة له إلّا قيمةً رمزيّةً. وتبعًا لنظريّاته تنقسم المأساة الإنسانيّة إلى ثلاثة أزمنةٍ: لدى كلّ فردٍ إرادة قوّةٍ لكنّها تترافق بعقدة نقصٍ؛ يقوده هذا الصراع إلى استخدام ألف ذريعةٍ ليتفادى تجربة الواقع الذي يخشى ألّا يستطيع التغلّب عليه؛ تقيم الذات مسافةً بينها وبين المجتمع الذي تخشاه: من هنا تأتي العُصابات التي هي اضطرابٌ في الإدراك المجتمعي. تأخذ عقدة النقص لدى المرأة شكل رفضٍ مُخجِلٍ لأنوثتها: يثير هذه العقدة مجمل الوضع وليس غياب القضيب؛ فالفتاة لا تحسد القضيب إلا كرمزٍ للامتيازات المعطاة

28- راجع «موسى وشعبه»، ترجمة أ. برمان A.Bermann، ص177.

للصبيان؛ كلّ شيءٍ يؤكّد لها فكرة التفوّق الذكوري: المكان الذي يشغله الأب في الأسرة، والتفوّق العام للذكور، والتربية. فيما بعد، حتّى وضعيّة الإيلاج التي تضع المرأة تحت الرجل خلال العلاقة الجنسيّة هي إذلالٌ جديدٌ. تقاوم «باحتجاجٍ ذكريٍّ»؛ أو تحاول أن تتشبّه بالذكور، أو تبدأ الصراع ضدّ الرجل بأسلحةٍ مؤنّثةٍ. تستطيع بواسطة الأمومة أن تجد في الطفل معادلًا للقضيب. لكنّ هذا يفترض أن تبدأ بقبول نفسها بشكلٍ كاملٍ كامرأةٍ، وتتحمّل بالتالي مسؤوليّة دونيّتها. وهي منقسمةٌ على نفسها أعمق بكثيرٍ من الرجل.

لا مجال للتأكيد هنا على الاختلافات النظريّة التي تفرّق آدلر عن فرويد ولا على إمكانيات التوفيق بينهما: لا يكفي أبدًا التفسير عبر المتغيّر ولا عبر السبب: كلّ متغيّرٍ يضع سببًا، لكنّ السبب لا يُضبَطُ أبدًا إلا من خلال متغيّرٍ؛ بالتالي يبدو جمع الأدلريّة والفرويديّة ممكنًا. في الواقع بإدخال مفاهيم الهدف والغائيّة يحتفظ آدلر بشكلٍ كاملٍ بفكرة سببيّةٍ نفسيّةٍ؛ وبالمقارنة مع فرويد يكون نوعًا ما ضمن علاقة الطاقة بالآليّة: سواءً تعلّق الأمر بالدفع أو بقوّة الشدّ، يقبل الفيزيائيّ دائمًا مبدأ الحتميّة. تلك هي المسلّمة المشتركة لدى كلّ المحلّلين النفسيّين: يمكن تفسير التاريخ البشريّ حسب رأيهم بمجموعةٍ من العناصر المحدّدة. كلّ شيءٍ يحدّد للمرأة نفس المصير. وتعود مأساتها إلى الصراع بين ميولها «المشبّهة بالذكورة» و«المؤنّثة»؛ تتحقّق الأولى في الجملة البظريّة، والثانية في الشهوانيّة المهبليّة؛ وتتماهى طفوليًّا مع الأب؛ ثم تشعر بشعورٍ بالنقص تجاه الرجل وتوضع بين خيارين إمّا الحفاظ على استقلاليّتها، أن تتشبّه بالذكر، ما يثير على أرضيّةٍ من عقدة النقص توتّرًا ينذر بإحداث عُصاباتٍ؛ أو أن تجد في الخضوع الغراميّ اكتمالًا سعيدًا لذاتها، وهو حلٌّ يسهّله لها الحبّ الذي تكِنّه للأب السيّد؛ وهو الذي تبحث عنه في العشيق أو الزوج، ويترافق الحبّ الجنسيّ لديها بالرغبة في الخضوع. وتكافئها الأمومة التي تعيد إليها نوعًا جديدًا من الاستقلال. تبدو هذه المأساة مؤهّلةً بديناميكيّةٍ خاصّةٍ؛ فتحاول أن تتمّ من خلال كلّ الحوادث التي تشوّهها، وتخضع لها كلّ امرأةٍ بسلبيّةٍ.

لحسن حظّ المحلّلين النفسيين أنهم وجدوا تأكيداتٍ لنظريّاتهم التجريبية: نعرف أنّه إن طوّرنا بمزيدٍ من الدقّة منظومة بطليموس، لاستطعنا التأكّد من أنّها تعطي وصفًا صحيحًا عن وضع الكواكب؛ وإن وضعنا لـ أوديب أوديبًا معكوسًا، بإظهار رغبةٍ ضمن كلّ قلقٍ، سننجح في

أن ندمج مع الفرويدية الأمور التي تناقضها نفسها. لا يمكننا أبدًا أن ندرك شكلًا إلا انطلاقًا من أساسٍ والطريقة التي ندرك فيها هذا الشكل تُبرز هذا الأساس بصفاتٍ إيجابيّةٍ؛ وهكذا، إن أصررنا على وصف قصّةٍ خاصّةٍ من منظورٍ فرويديٍّ، سنجد خلفها التصوّر الفرويدي؛ ولكن من المفضَّل أن نتخلّى عن الأطر القديمة عندما يُجبِرنا مذهبٌ على تعدّد التفاسير الثانويّة بطريقةٍ غير محدّدةٍ واعتباطيّةٍ، وعندما تكشف الملاحظة كمًّا من الشذوذات يوازي الحالات الطبيعيّة. اليوم أيضًا ينهمك كلّ محلّلٍ نفسيٍّ بطريقته في جعل المفاهيم الفرويديّة مرنةً؛ ويحاول التوفيق بين عدة أمورٍ؛ مثلًا كتب محلّلٌ نفسيٌّ معاصرٌ ما يلي: «بما أنّ هناك عقدةً، فهناك بالتعريف عدة مكوّناتٍ.. تتكوّن العقدة في اجتماع هذه العناصر المتفرّقة وليس بتقديم أحدها من قِبَل البقيّة»[29]. لكنّ فكرة تجمّعٍ بسيطٍ للعناصر غير مقبولةٍ: فالحياة النفسيّة ليست فسيفساء؛ إنّها كلٌّ متكاملٌ في كلّ لحظاتها ويجب احترام هذه الوحدة. وهذا غير ممكنٍ إلا إن وجدنا القصديّةَ الأصليّة للوجود من خلال الوقائعِ المتفرّقةِ. إن لم نصل إلى هذا المنشأ، يبدو الإنسان كساحة معركةٍ بين دوافع ونواهٍ طارئةٍ ومجرّدةٍ من المعنى. لدى جميع المحلّلين النفسيّين رفضٌ مطلقٌ لفكرة الاختيار ومفهوم القيمة المتعلّق به؛ وذلك ما يشكّل ضعف المنظومة الجوهريّ. فباقتطاع الدوافع والنواهي من الخيار الوجوديّ، يفشل **فرويد** في أن يشرح لنا أصلها: ويأخذها كمعطياتٍ. لقد حاول إحلال مفهوم السلطة محلّ مفهوم القيمة لكنّه يعترف في «*موسى وشعبه*» أنّه لا يملك أيّة وسيلةٍ لشرح هذه السلطة. سفاح القربى مثلًا ممنوعٌ لأنّ الأب منعه: ولكن لماذا هذا المنع؟ هذا غامضٌ. وتستبطن الأنا العليا أوامر ودفاعاتٍ آتيةً من طغيانٍ تعسّفيٍّ؛ ولا نعلم لماذا توجد الميول الغريزيّة؛ هاتان الحقيقتان متنافرتان لأنّنا وضعنا الأخلاق كأمرٍ غريبٍ عن الجنس؛ وتبدو الوحدة الإنسانية محطّمةً، ولا يوجد عبورٌ من الفرد إلى المجتمع: وفرويد مرغمٌ كي يجمعهما على اختراع رواياتٍ غريبةٍ[30]. ورأى **آدلر** أنّه لا يمكن تفسير عقدة الإخصاء إلا ضمن سياقٍ اجتماعيٍّ؛ فتناول مشكلة التقييم، لكنّه لم يذهب إلى المصدر الأنطولوجي للقيم التي يعترف المجتمع بها ولم يفهم أنّ هذه القيم كانت مرتبطةً بالجنس بالذات، ما قاده إلى الجهل بأهمّيّتها.

29- بودوان Baudouin، الروح الطفولية والتحليل النفسيّ.

30- فرويد Freud، الطوطم والمحرّم.

يلعب الجنس بالتأكيد دورًا هامًا في الحياة البشريّة: ويمكن القول إنّه يخترقها بكاملها؛ لقد أظهر لنا علم الفزيولوجيا أنّ حياة الخصيتين وحياة المبيض تختلطان مع حياة الجسم. فالكائن جسدٌ جنسيٌّ؛ الجنس إذًا مُنخَرطٌ دومًا في علاقاته بالكائنات الأخرى التي هي أيضًا أجسامٌ جنسيّةٌ؛ ولكن إذا كان الجسم والجنس تعبيرين ملموسين عن الوجود، فيمكن أن نفهم معناهما انطلاقًا من هذا الوجود: من غير هذا المنظور يأخذ التحليل النفسيّ وقائع غير مُفسَّرةٍ على أنّها مُعطاةٌ. مثلًا، يُقال لنا إنّ الفتاة تخجل من التبوّل مقرفصةً عارية المؤخّرة: ولكن ما هو العار؟ وكذلك، قبل أن نتساءل إن كان الذكر فخورًا لأن لديه قضيبًا أم إن كان غروره يتجلّى في القضيب علينا أن نعرف ما هو الغرور وكيف يمكن يمكن لادّعاء الذات أن يتجسّد في شيءٍ. يجب ألّا نأخذ الجنس كمعطىً لا يُختَزل؛ يوجد لدى الكائن «بحثٌ عن الوجود» أصليٌّ أكثر؛ والجنس ليس سوى أحد هذه المظاهر. هذا ما يظهره **سارتر** في «*الوجود والعدم*»؛ وهذا ما يقوله أيضًا **باشلار Bachelard** في مؤلّفاته حول الأرض والهواء والماء: يَعتبِر المحلّلون النفسيّون أنّ الحقيقة الأولى للإنسان هي علاقته بجسده وجسد نظرائه ضمن المجتمع؛ لكنّ الإنسان يبدي اهتمامًا أوليًّا بجوهر العالم الطبيعي المحيط به والذي يحاول أن يكتشفه في العمل واللّعب وكلّ خبراته عن «الخيال الديناميكي»؛ يدّعي الإنسان الالتحاق بالوجود بشكلٍ محسوسٍ من خلال العالم بأكمله، المُدرَك بكلّ الأساليب الممكنة. جَبْلُ التراب وحفر حفرةٍ هي أنشطةٌ أصليّةٌ بقدر العناق والإيلاج: نخطئ إذ نرى فيها فقط رموزًا جنسيّةً؛ فالحفرة، واللّزج، والفَرضَة، والصلابة، والنزاهة هي حقائق أوليّةٌ؛ واهتمام الإنسان بها لا يمليه الشبق لكنّ الشبق يصطبغ بالأحرى بالأسلوب الذي انكشفت به له. تسحر الطهارة الرجل ليس لأنّها ترمز إلى العذريّة الأنثويّة: لكنّ حبه للطهارة هو ما يجعل العذريّة ثمينةً بالنسبة له. يُعبّر العمل والحرب واللّعب والفنّ عن طرق كينونةٍ في العالم لا تُختَزَل إلى أيّة طرقٍ أخرى؛ إنّها تكشف صفاتٍ تتداخل مع تلك التي يكشفها الجنس؛ من خلالها ومن خلال هذه الخبرات الشهوانيّة معًا يختار الفرد نفسه. لكن فقط وجهة نظرٍ أنطولوجيّةٍ تسمح بإعادة وحدة هذا الخيار.

مفهوم الخيار هذا هو ما يرفضه المحلّلون النفسيّون بشدّةٍ باسم الحتميّة و«اللاوعي الجمعيّ»؛ فيقولون إنّ هذا اللاوعي يعطي الإنسان صورًا جاهزةً ورمزيّةً عامّةً؛ وهو الذي

يفسّر مماثلات الأحلام والأفعال الناقصة والهذيانات والاستعارات والمصائر الإنسانيّة؛ والحديث عن الحرّيّة يعني رفض إمكانيّة تفسير هذه التلازمات المحيّرة. لكنّ فكرة الحرّيّة لا تتنافر مع وجود بعض الثوابت. وإذا كان المنهج التحليلي النفسي مثمرًا غالبًا رغم أخطاء النظريّة، فلأنّ في كلّ قصّةٍ خاصّةٍ مُعطَياتٍ لا يفكّر أحدٌ في إنكار شموليّتها: فالأوضاع والسلوكيّات تتكرّر؛ وتنبع لحظة القرار ضمن الشموليّة والتكرار. كان فرويد يقول: «التشريح هو المصير»؛ وكرّر مرلو بونتي هذه الفكرة قائلًا: «الجسد هو الشموليّة». يكون الوجود من خلال افتراق الكائنات: ويتجلّى في أجسامٍ متماثلةٍ؛ بالتالي قد تكون هناك ثوابت في صلة الأنطولوجي بالجنسيّ. في حقبةٍ معيّنةٍ، تكشف تقنيّات مجموعةٍ ما وهيكلها الاقتصاديّ والاجتماعيّ لجميع أعضائها عالمًا موحّدًا: قد تكون هناك أيضًا علاقةٌ ثابتةٌ للجنس بالأشكال الاجتماعيّة؛ فالأفراد المتماثلون الموضوعون في ظروفٍ متماثلةٍ يدركون نفس المعاني ضمن المعطى؛ لا يقيم هذا التماثل شموليّةً مطلقةً، لكنّه يسمح بإيجاد أنماطٍ عامّةٍ ضمن القصص الفرديّة. ولا يبدو لنا الرمز استعارةً صنعها لاوعيٌ غامضٌ: إنّه إدراك معنىً عبر مُماثلاتٍ للموضوعِ المُعبِّر؛ وتنكشف المعاني بنفس الطريقة للعديد من الكائنات بسبب هويّة الوضع الوجوديّ من خلال كلّ الكائنات وهويّة الزيف الذي عليهم مواجهته؛ لم تسقط الرمزيّة من السماء ولا انبثقت من أعماق الأرض: لقد نشأت كما اللّغة من الواقع الإنسانيّ الذي هو عيشٌ مشتركٌ وافتراقٌ في الوقت نفسه؛ وهذا يفسّر أنّ للاكتشاف الخاصّ له مكانه فيه أيضًا: فالمنهج التحليلي النفسي مرغمٌ عمليًّا على قبوله، سواءً سمح المذهب بذلك أم لا. يسمح لنا هذا المنظور مثلًا بفهم القيمة العامّة المعطاة للقضيب[31]. من المستحيل إعطاء فكرةٍ عنه دون الانطلاق من حدثٍ وجوديٍّ: ميل الذات إلى الاستلاب؛ فقلق حرّيّتها يقودها إلى أن تبحث عن نفسها في الأشياء، وهذه وسيلةٌ للهروب من النفس؛ إنّه ميلٌ أساسٌ بحيث يبذل الطفل، فورًا بعد الفطام عندما ينفصل عن كلّ شيءٍ، جهدًا لإدراك وجوده المغترب في المرايا، وفي نظرات أبويه. يُستَلَب البدائيّون ضمن قوّة الطبيعة، في الطوطم[32]؛ ويُستَلَب المتحضّرون في روحهم الفرديّة وفي أناهم واسمهم وملكيّتهم وعملهم: تلك هي

31- سنعود بشكلٍ مطوّلٍ إلى هذا الموضوع في الجزء الثاني، الفصل الأول.

32- الطوطم هو الحيوان الذي تتّخذه القبيلة رمزًا لها. (المترجمة)

أوّل نزعةٍ للّاأصالة. القضيب مختصٌّ للعب دور «المزدوج» بالنسبة للصبيّ الصغير: إنه بالنسبة له شيءٌ غريبٌ وهو نفسه في آنٍ معًا؛ إنّه لعبةٌ، دميةٌ، وجسده الخاصّ؛ ويعامله الأهل والمربّيات كشخصٍ صغيرٍ. يُفهَم عندئذٍ أن يصبح بالنسبة للطفل «أنا أخرى أكثر مكرًا في العادة وأكثر ذكاءً وأكثر حذقًا من الفرد»[33]؛ بما أنّ وظيفة التبوّل ـ والانتصاب فيما بعد ـ هي مرحلةٌ وسطى بين العمليّات الإراديّة والعمليّات التلقائيّة، وبما أنّ القضيب مصدرٌ نزويٌّ شبه غريبٍ لمتعةٍ يُشعَر بها ذاتيًّا، فتعتبره الذات كأنه هي وكأنه آخر مختلفٌ؛ ويتجسّد التسامي النوعي فيه بطريقةٍ واضحةٍ وهو مصدر فخرٍ؛ ولأنّ القضيب منفصلٌ، يستطيع الرجل أن يدمج بفرديّته الحياة التي تتجاوزه. نفهم إذًا أن يصبح طول القضيب بالنسبة له معيار قيمته الخاصّة[34]، وكذا قوّة رشق البول والانتصاب والقذف. وهكذا من الثابت أنّ القضيب يجسّد التسامي جسديًّا؛ وبما أنّ من الثابت أيضًا أن يشعر الطفل بنفسه ممنوعًا من تساميه، إذ يسمو به الأب، فنجد بالتالي فكرة فرويد عن «عقدة الإخصاء». لا تُستَلَب الفتاة الصغيرة المحرومة من هذه الأنا الأخرى ضمن شيءٍ ملموسٍ، ولا تُعوِّض: بذلك تُدفَع إلى أن تجعل من نفسها كلّها شيئًا، أن تضع نفسها كآخر؛ مسألة معرفة إن كانت مُقارَنةً بالصبيان أم لا هي مسألةٌ ثانويّةٌ؛ المهمّ هو أنّه حتّى لو لم تكن تعرف ذلك، فغياب القضيب يمنعها من أن ترى نفسها كجنسٍ؛ ينجم عن ذلك عدة نتائج. ولكن مع ذلك فهذه الثوابت التي نشير إليها لا تحدّد مصيرًا: يأخذ القضيب كلّ هذه الأهمّيّة لأنّه يرمز إلى سيادةٍ تتحقّق في مجالاتٍ أخرى. لو كانت المرأة تنجح في تأكيد نفسها كذاتٍ، كانت لتبتكر مُعادِلاتٍ للقضيب: يمكنها أن تكون للدمية التي يتجسّد فيها أمل الطفلة قيمةٌ أكثر من القضيب[35]. هناك مجتمعاتٌ ذات نسبٍ أموميٍّ حيث النساء يمسكن بالأقنعة التي تُستَلب الجماعة فيها؛ يفقد القضيب عندئذٍ كثيرًا من مجده. يكون الامتياز الجسديّ امتيازًا بشريًّا حقيقيًّا ضمن الوضع المُدرَك بكلّيّته فقط. ولا يستطيع المحلّل النفسيّ إيجاد حقيقته إلا ضمن السّياق التاريخي.

33- Alice Balint، أليس بالنت، حياة الطفل الحميمة، ص101.

34- ذُكرت لي حالة فلاحين صغارٍ كانوا يتسلّون بإقامة مسابقاتٍ للبراز: ذلك الذي تكون كميّة البراز لديه أكبر وأكثر قساوةً كان ينال حظوةً لا يمنحه إياها أيّ نجاحٍ آخر، في الألعاب أو حتّى في المصارعة. كان البراز يلعب هنا نفس دور القضيب: كان في ذلك استلاب أيضًا.

35- سنعود إلى هذه الأفكار في الجزء الثاني؛ سنشير إليها فقط من باب منهجيّ.

وكما لا يكفي أن نقول إنّ المرأة هي أنثى فلا يمكن أن نعرّفها عبر إدراكها لأنوثتها: إذ أنّها تدرك ذلك ضمن المجتمع الذي هي جزءٌ منه. باستبطان اللاوعي والحياة النفسيّة بمجملها، تقترح لغة التحليل النفسيّ أنّ مأساة الفرد تجري في داخله: تستتبع ذلك كلمات عقدةٍ وميلٍ إلخ.. ولكنّ الحياة هي علاقةٌ بالعالم؛ ويتعرّف الفرد باختياره لنفسه من خلال العالم؛ وعلينا أن نلتفت نحو العالم كي نجد إجاباتٍ على الأسئلة التي تقلقنا. يفشل التحليل النفسيّ خصوصًا في تفسير كون المرأة هي الآخر. لأن فرويد نفسه يقبل أن امتياز القضيب يُفَسَّر بسيادة الأب ويعترف أنّه لا يعرف أصل التفوّق الذكوريّ.

سنرفض إذًا منهجيّة التحليل النفسيّ التي يكون بعضها مثمرًا دون أن نرفض كامل إسهاماته. أولًا لن نقتصر على تناول الجنس كمعطىً: إن كان هذا الموقف قصيرًا، فذلك ما يظهره فقر النصوص التي تصف الشبق الأنثوي؛ قلت آنفًا إنّ المحلّلين النفسيّين لم يدرسوه أبدًا مباشرةً، ولكن فقط انطلاقًا من الشبق الذكريّ؛ ويبدو أنّهم يتجاهلون التجاذب الوجدانيّ للجاذبيّة التي يمارسها الذكر على المرأة. يفسّر أنصار فرويد وآدلر القلق الذي تشعر به المرأة تجاه العضو الذكريّ بأنّه انعكاسٍ لرغبةٍ مقموعةٍ. ورأى ستيكل فيه ردّ فعلٍ أصليٍّ؛ لكنّه قاربه بطريقةٍ سطحيّةٍ: فالمرأة برأيه تخاف من فضّ البكارة، والاختراق، والحمل، والألم، ويكبح هذا الخوف رغبتها؛ وهذا التفسير عقلانيٌّ أكثر مما يجب. بدل أن نقبل أنّ الرغبة تتخفّى بالقلق أو يحاربها القلق، كان يجب أن نعتبر هذا النوع من النداء الملحّ والخائف في آنٍ معًا والذي هو الرغبة الأنثويّة معطىً أصليًّا؛ ما يميّزها هو التركيب غير القابل للفصم بين الجاذبيّة والنفور. من الملاحظ أنّ كثيرًا من إناث الحيوانات تهرب من الإيلاج في اللحظة التي تطلبه فيها: يوصف ذلك بالغنج، والرياء؛ لكنّ من غير المنطقي أن ندّعي تفسير تصرّفاتٍ بدائيّةً مقارنين إيّاها بسلوكيّاتٍ معقّدةٍ: فهي على العكس أصل التصرّفات التي نسمّيها لدى المرأة غنجًا ورياءً. فكرة «الشبق السلبيّ» غريبةٌ لأنّ الشبق عُرِّف انطلاقًا من الذكر كنزوةٍ وطاقةٍ؛ ولكنّنا لا نتصوّر كذلك أنّه يمكن للضوء أن يكون أصفر وأزرق في آنٍ واحدٍ: يجب أن يكون لدينا إحساسٌ بدهيٌّ بالأخضر. سنحيط بالحقيقة أكثر إذا قمنا بدلًا من تعريف الشبق بكلماتٍ مبهمةٍ مثل «طاقةٍ» بمقابلة معنى الجنس بمعنى سلوكيّاتٍ بشريّةٍ أخرى: أخذَ، التقطَ، أكلَ، فعلَ، تحمّل... إلخ؛ لأنّه إحدى الطرق الخاصّة

لإدراك شيءٍ؛ تجب أيضًا دراسة خصائص الموضوع الشهوانيّ كما يبدو ليس فقط في العمل الجنسيّ ولكن في الإدراك عمومًا. هذا الفحص يخرج عن إطار التحليل النفسيّ الذي يضع الشهوانيّة كأمرٍ لا يُختَزَل.

من جهةٍ أخرى، سنطرح بشكلٍ مختلفٍ مسألة قدر الأنثى: سنضع المرأة ضمن عالمٍ من القيم ونعطي لتصرّفاتها بُعدَ حرّيّةٍ. نظنّ أنّ عليها الاختيار بين تأكيد تساميها واستلابها كموضوعٍ؛ إنّها ليست لعبة دوافع متناقضةٍ؛ فهي تبتكر حلولًا يوجد بينها ترتيبٌ أخلاقيٌّ. يقترح التحليل النفسيّ بديلًا للأخلاق، واضعًا السلطة مكان القيمة، والدافع مكان الاختيار: إنّها فكرة الاستواء. هذه الفكرة بالتأكيد مفيدةٌ جدًّا في المعالجة؛ لكنّها أخذت في التحليل النفسيّ عمومًا امتدادًا يثير القلق. فالمخطّط الوصفيّ يطرح نفسه كقانونٍ؛ وبالتأكيد لن يقبل علم النفس الإواليّ Psychologie mécaniste مفهوم الابتكار الأخلاقيّ؛ يمكنه عند اللزوم عرض الأقل وليس الأكثر أبدًا؛ ويقبل الفشل عند اللزوم، ولا يقبل الإبداع أبدًا. إذا لم تُعِد ذاتٌ في كلّيّتها إنتاج التطوّر المعتبَر عاديًّا سيقال إنّ التطوّر توقّف في الطريق، وسيفَسَّر هذا التوقّف كنقصٍ وسلبيّةٍ وليس كقرارٍ إيجابيٍّ. هذا ـ من بين أسباب أخرى ـ ما يجعل التحليل النفسيّ للرجال العظماء صادمًا: يقال لنا إنّ هذا التحويل أو ذاك التصعيد لم يتمّ لديهم؛ لا يُفترض أنّهم ربّما رفضوه وأنّه كانت لديهم أسبابٌ وجيهةٌ لذلك؛ ولا نودّ اعتبار سلوكهم مدفوعًا من غاياتٍ اختاروها طوعًا؛ يمكن شرح الفرد دومًا ضمن علاقته بالماضي وليس تبعًا لمستقبلٍ يندفع نحوه. كذلك لا يعطوننا عنه أبدًا سوى صورةٍ غير أصليّةٍ ولا يمكن مع غير الأصليّ إيجاد معايير سوى الاستواء. من وجهة النظر هذه يصبح وصف القدر الأنثويّ مدهشًا. «التماثل» مع الأم أو الأب، بالمعنى الذي يقصده المحلّلون النفسيّون، هو الاستلاب ضمن نموذجٍ، تفضيل صورةٍ غريبةٍ على الحركة التلقائيّة لوجود الفرد، هو تمثيل دور الوجود. يظهرون لنا أنّ المرأة يتجاذبها نمطا استلابٍ؛ من الجليّ أنّ الفشل سيكون حليفها إن لعبت دور الرجل؛ ولكن إن لعبت دور المرأة سيكون ذلك فخًّا أيضًا: أن تكون امرأةً يعني أن تكون الشيء، الآخر؛ والآخر يبقى ذاتًا ضمن تنازله. المشكلة الحقيقيّة بالنسبة للمرأة هي اكتمالها كتسامٍ، رافضةً هذا التهرّب: يتعلّق الأمر عندئذٍ برؤية الاحتمالات التي يفتحها لها ما يسمّى السلوك الذكريّ والسلوك الأنثويّ؛ عندما يتبع طفلٌ الطريق الذي حدّده

أحد الأبوين أو الآخر، يمكن أن يكون ذلك لأنّه يتبع طوعًا مشاريعهما: يمكن أن يكون سلوكه نتيجة خيارٍ تحفزه غاياتٌ. حتّى إرادة القوّة لدى **آدلر** ليست سوى نوعٍ من الطاقة العبثيّة، ويسمّي كلّ مشروعٍ يتجسّد فيه التسامي «احتجاجًا ذكريًّا»؛ عندما تتسلّق بُنيّةٌ الأشجار فهي برأيه تتشبّه بالصبيان: إذ لا يتصوّر أنّها تحبّ تسلّق الأشجار؛ الطفل بالنسبة للأمّ شيءٌ آخر غير «معادل القضيب»؛ الرسم والكتابة وممارسة السيّاسة ليست فقط «تصعيداتٍ جيّدةً»: بل هي غاياتٌ مطلوبةٌ بذاتها. وإنكار ذلك هو تزويرٌ للتاريخ البشريّ بأجمعه. يمكن أن نلاحظ بعض التوازي بين وصفنا ووصف المحلّلين النفسيّين. لأنّه من وجهة نظر الرجال ـ والتي يتبنّاها المحلّلون النفسيّون الذكور والإناث ـ يُعتبر كلّ سلوك استلابٍ أنثويًّا، وكلّ سلوكٍ تضع فيه الذات تساميها ذكريًّا. وقد لاحظ **دونالدسون** Donaldson، وهو مختصٌّ بتاريخ المرأة، أن تعاريف «الرجل هو إنسانٌ مذكرٌ، والمرأة هي إنسانٌ مؤنّثٌ» كانت قد بُتِرَت بشكلٍ غير عادلٍ؛ خصوصًا لدى المحلّلين النفسيّين يعَرَّف الرجل بأنّه إنسانٌ والمرأة بأنّها أنثى فقط: وكلّما تصرّفت كإنسانٍ يقال إنّها تقلّد الذكر. يصف لنا المحلّل النفسي الطفلة والشابة التي تتوق إلى تقمّص شخصيّة الأمّ أو الأب، موزّعةً بين ميولها «الشبيهة بالذكر» و«الأنثويّة»؛ بينما نراها محتارةً بين دور الشيء، الآخر، الذي يقترحونه عليها وبين مطالبتها بحرّيّتها؛ وهكذا يحدث أن نتّفق على بعض الوقائع: وخصوصًا عندما نأخذ بالاعتبار طرق الهروب غير الأصليّة المقدَّمة للنساء. لكنّنا لن نعيرها نفس الأهمّيّة التي يعطيها إياها أنصار **فرويد** وآدلر. بالنسبة لنا تُعرَّف المرأة ككائنٍ بشريٍّ باحثٍ عن قيمٍ ضمن عالمٍ من القيم، عالمٍ لا بدّ من معرفة هيكليته الاقتصاديّة والاجتماعيّة؛ وسندرسه ضمن منظورٍ وجوديٍّ من خلال وضعه الكامل.

الفصل الثالث

وجهة نظر المادّية التاريخيّة

ألقت نظريّة المادّية التاريخية الضوء على حقائق شديدة الأهمّيّة. فالبشريّة ليست نوعًا حيوانيًا: إنّها حقيقةٌ تاريخيّةٌ. المجتمع البشريّ مضادٌّ للطبيعة (anti-physis): لا يخضع لوجود الطبيعة بشكلٍ سلبيٍّ، إنه يعيد أخذها لحسابه. وهذا الأخذ ليس عمليّةً داخليّةً وذاتيّةً: إنه يتمّ بشكلٍ موضوعيٍّ في العمل. بالتالي لا يمكن اعتبار المرأة فقط جسدًا جنسيًا: من بين المعطيات البيولوجيّة هناك أهمّيّةٌ فقط لتلك التي تأخذ في العمل قيمةً ملموسةً؛ ولا يتحدّد إحساس المرأة بذاتها بجنسها فقط: إنه يعكس وضعًا يتعلّق بتركيب المجتمع الاقتصاديّ، هذا التركيب الذي يعبّر عن درجة التطوّر التقني الذي بلغته البشريّة. رأينا أنّ السمتين الأساسيّتين اللتين تميّزان المرأة بيولوجيًا هما التاليتان: تأثيرها على العالم أقل انتشارًا من تأثير الرجل؛ وهي مُسَخَّرةٌ أكثر للنوع. لكنّ هذه الوقائع تأخذ قيمةً مختلفةً للغاية تبعًا للسياق الاقتصاديّ والاجتماعيّ. في التاريخ البشريّ لا يتحدّد التأثير على العالم أبدًا بالجسد العاري: تتجاوز اليد نفسها، بإبهامها القابض، إلى الأداة التي تتعدّد قدراتها؛ ويبدو لنا الإنسان مسلّحًا دائمًا منذ أقدم وثائق ما قبل التاريخ. في الوقت الذي كانوا يلوّحون فيه بهراواتٍ ثقيلةٍ، ويتغلّبون على الحيوانات المتوحّشة، كان ضعف المرأة الجسديّ يشكّل

دونيّةً صارخةً: يكفي أن تتطلّب الأداة قوّةً أعلى بقليلٍ ممّا لدى المرأة حتّى تبدو عاجزةً كليًّا. لكن يمكن أن يحدث على العكس أن تلغي التقنيّة الاختلاف العضليّ الذي يفصل الرجل عن المرأة: إذ لا تخلق الوفرة فوقيّةً إلا ضمن منظور الحاجة؛ أن يكون لديك ما يكفي أفضل من أن يكون لديك أكثر مما يلزم. وهكذا لا يتطلّب استعمال عددٍ كبيرٍ من الآلات الحديثة إلا جزءًا من الموارد الذكريّة: فإذا لم يكن الحدّ الأدنى المطلوب أعلى من قدرات المرأة تصبح مساويةً للرجل في العمل. في الواقع يمكن التحكّم بطاقةٍ هائلةٍ فقط بضغط زرٍّ. أمّا بالنسبة إلى عبوديّة الأمومة فهي تأخذ أهمّيّةً متنوّعةً جدًّا حسب الأعراف. فهي مُجهِدةٌ إذا فُرِضت على المرأة ولاداتٌ متعدّدةٌ وكان عليها أن تعيل هؤلاء الأطفال وتربّيهم دون معينٍ؛ أمّا إذا كانت لديها حرّيّة الإنجاب، وساعدَها المجتمع خلال الحمل واهتمّ بالطفل، فستصبح أعباء الأمومة خفيفةً ويمكنها تحويل جهدها بسهولةٍ إلى ميدان العمل.

بحسب هذا المنظور يرسم إنجلز Engels تاريخ المرأة في «أصل العائلة»: يتعلّق هذا التاريخ أساسًا بتاريخ التقنيّات. في العصر الحجريّ، عندما كانت الأرض مشاعًا لكلّ أفراد القبيلة، وكان الشكل البدائيّ للمِعزَقة والمِجرَفة البدائيّتين يحدّ الإمكانيّات الزراعيّة: كانت القوى النسائيّة تكفي العمل المطلوب لاستثمار الحدائق. كان الجنسان يشكّلان نوعًا ما طبقتين في تقسيم العمل البدائيّ هذا ؛ وكانت هناك مساواةٌ بين هاتين الطبقتين؛ بينما الرجل يصيد ويقنص، تبقى المرأة في المنزل؛ ولكن كانت المهام المنزليّة تشمل عملًا منتجًا: صنع الأواني الخزفيّة، والحياكة، والبستنة؛ وبذلك كان لها دورٌ كبيرٌ في الحياة الاقتصاديّة. باكتشاف النحاس، والقصدير، والبرونز، والحديد، وظهور المحراث، اتّسعت رقعة الزراعة: واشتدّت الحاجة إلى عملٍ مكثّفٍ لإزالة الغابات، واستثمار الحقول. عندئذٍ لجأ الرجل إلى خدمات رجالٍ آخرين جعلهم عبيدًا. وظهرت الملكيّة الفرديّة: فأصبح الرجل، سيّد العبيد والأرض، مالكًا أيضًا للمرأة. كانت تلك «الهزيمة الكبرى التاريخيّة للجنس المؤنّث». وتجلّت بالاضطراب الذي حدث في تقسيم العمل إثر اختراع أدواتٍ جديدةٍ. نفس السبب الذي أمّن للمرأة سلطتها السابقة في المنزل، أي إبقاؤها في الأعمال المنزليّة، هذا السبب نفسه أصبح يؤمّن الآن تفوّق الرجل؛ منذئذٍ لم يعد يظهر عمل المرأة المنزليّ إلى جانب عمل الرجل المنتج؛ كان الثاني كلّ شيءٍ، والأوّل ملحَقًا غير مهمٍّ». بالتالي حلّ

حقّ الأب محلّ حقّ الأمّ: وأصبح انتقال الأملاك من الأب إلى الابن وليس من المرأة إلى عشيرتها. وظهرت العائلة الأبويّة القائمة على الملكيّة الفرديّة. وكانت المرأة مُضطهَدةً في هذه العائلة. وكان الرجل المهيمن كسيّدٍ يسمح لنفسه بنزواتٍ جنسيّةٍ وسواها: فيضاجع العبدات والمحظيّات، وأصبح متعدّد الزوجات. وما إن جعلت العادات التبادليّة ممكنةً حتّى انتقمت المرأة بالخيانة: فاكتمل الزواج بالطبع بالخيانة. إنها دفاع المرأة الوحيد ضدّ الاستعباد المنزلي الذي هي واقعةٌ فيه: فالاضطهاد الاجتماعيّ الذي تخضع له هو نتيجة اضطهادها الاقتصاديّ. لا يمكن تحقيق المساواة إلا عندما يكون للجنسين حقوقٌ قانونيّةٌ متساويةٌ؛ لكنّ هذا التحرّر يتطلّب دخول كلّ الجنس المؤنّث في الصناعة العامّة. «لا يمكن أن تتحرّر المرأة إلا عندما يمكنها المساهمة ضمن إمكانيّةٍ اجتماعيّةٍ كبيرةٍ في الإنتاج ولا يحتاج إليها العمل المنزليّ إلا بقدرٍ بسيطٍ. ولم يصبح ذلك ممكنًا إلا في الصناعات الكبيرة الحديثة، التي لا تقبل فقط عمل المرأة على صعيدٍ كبيرٍ ولكنّها تطلبه قطعًا...».

وهكذا يرتبط قدَر المرأة وقدَر الاشتراكيّة بشكلٍ وثيقٍ كما نراه أيضًا في المؤلَّف الكبير الذي كرّسه بيبل Bebel للمرأة. فهو يقول: «المرأة والعامل مضطهدان كلاهما». ونفس تطوّر الاقتصاد انطلاقًا من الانقلاب الذي أحدثته المكننة هو من سيحرّرهما الواحد والآخر. تُختَزَل مشكلة المرأة إلى مشكلة قدرتها على العمل. فهي قويّةٌ عندما تكون التقنيّات ملائمةً لإمكانيّاتها، مُطاحٌ بها عندما تصبح غير قادرةٍ على استغلالها، وتجد من جديدٍ في العالم الحديث مساواتها بالرجل. مقاوَمات الأبويّة القديمة الرأسماليّة هي التي تمنع هذه المساواة من أن تكتمل بشكلٍ محسوسٍ في معظم البلدان: وتؤكّد الدعاية السوفييتيّة أنّها اكتملت في الاتّحاد السوفييتي. وعندما سيتحقّق المجتمع الاشتراكي في العالم بأسره لن يعود هناك رجالٌ ونساءٌ ولكن فقط عمّالٌ متساوون فيما بينهم.

مع أنّ التركيب الذي بدأه إنجلز متقدّمٌ على التركيبات التي درسناها سابقًا، فهو يخيّب أملنا: فقد تجنّب أهمّ المشاكل. محور كلّ التاريخ هو الانتقال من نظام المشاع إلى الملكيّة الفرديّة: ولا يُقال لنا أبدًا كيف تمّ؛ يعترف إنجلز حتّى أنّنا «لا نعرف شيئًا عن ذلك حتّى الآن»[36]؛ إنّه لا يجهل فقط تفاصيله التاريخيّة لكنّه لا يقترح أيّ تفسيرٍ له. وبنفس الطريقة

36- أصل العائلة، ص209-210.

ليس من الواضح أنّ الملكيّة الفرديّة أدّت حتمًا إلى استعباد المرأة. وتأخذ الماديّة التاريخيّة الوقائع التي يجب شرحها على أنّها مسلّماتٌ: تضع دون أن تشرحها صلة المصلحة التي تربط الرجل بالملكيّة؛ ولكن أين مصدر هذه المصلحة، التي هي أصل المؤسّسات الاجتماعيّة؟ وهكذا يبقى مؤلَّف إنجلز سطحيًّا وتبدو الحقائق التي يكشفها طارئةً. لأنّ من المستحيل تعميقها دون تجاوز الماديّة التاريخيّة. لا يستطيع إعطاء حلولٍ للمشاكل التي أشرنا إليها لأنّها تخصّ الرجل بكامله وليس هذا التجريد الذي هو *الرجل الاقتصاديّ*.

من الواضح مثلًا أنّ لا معنى حتّى لفكرة التملّك الفرديّ إلا انطلاقًا من ظروف الكائن الأصليّة. ولكي تظهر، يجب أن يكون لدى الذات ميلٌ للتوضّع ضمن فرديّتها الجذريّة، تأكيدٌ لوجودها كمستقلّةٍ ومنفصلةٍ. نفهم أنّ هذا الادّعاء ظلّ ذاتيًّا، داخليًّا، دون حقيقةٍ، طالما لم يكن لدى الفرد الإمكانيّات العمليّة لتلبيته موضوعيًّا: فلم يكن يشعر في البداية بسلطته على العالم لعدم وجود أدواتٍ مناسبةٍ، كان يشعر أنّه ضائعٌ في الطبيعة وضمن الجماعة، سلبيّ، مُهدَّدٌ، لعبةٌ لقوىً غامضةٍ؛ جرؤ على أن يدرك نفسه فقط عندما تماثل مع العشيرة بكاملها: كان الطوطم وقوّة الطبيعة والأرض حقائق مشتركةً. وسمح اكتشاف البرونز للرجل باكتشاف نفسه كمُبدِعٍ ضمن امتحان عملٍ شاقٍّ ومنتجٍ، وبسيطرته على الأرض، لم يعد خائفًا منها، فلديه الجرأة أمام مقاوماتٍ قهرها ليملك نفسه كفعّاليّةٍ مستقلّةٍ، وليكتمل ضمن خصوصيّته[37]. لكنّ هذا الاكتمال لم يكن ليتحقّق أبدًا لو لم يُرِده الرجل في الأصل؛ درس العمل لم يلقَّن لذاتٍ سلبيّةٍ: الذات نفسها صنعت نفسها وقهرتها صانعةً أدواتها وكاسبةً الأرض. من جهةٍ أخرى، لا يكفي تأكيد الذات لتفسير الملكيّة: في التحدّي والصراع والمعركة الفرديّة، يستطيع كلّ شعورٍ أن يحاول الارتقاء إلى السيادة. ولكي يأخذ التحدّي شكل قربانٍ، أي منافسةٍ اقتصاديّةٍ، وانطلاقًا من ذلك لكي يطالب الزعيم أولًا ثم أعضاء القبيلة بممتلكاتٍ خاصّةٍ، يجب أن يكون لدى الرجل ميلٌ آخر جوهريٌّ: قد قلنا في فصلٍ سابقٍ أنّ الكائن لا ينجح في امتلاك نفسه إلا حين يُستَلَب؛ فيبحث عن نفسه عبر العالم في شكلٍ

37- غاستون باشلار Gaston Bachelard في «الأرض وهواجس الإرادة» يقوم بدراسةٍ عمل الحدّاد. يُظهر كيف يؤكّد الرجل نفسه بالمطرقة والسندان ويفترق. «الأمر المُلِحُّ للحدّاد هو ضرورةٌ معزولةٌ ومُضخَّمةٌ في الوقت نفسه. تُمكّن العامل من التحكّم بالزمن، بعنف الضرورة». ص142؛ وبعد قليلٍ: «الكائن الحدّاد يقبل تحدّي الكون القائم ضدّه».

غريبٍ يجعله شكله. تواجه العشيرة وجوده المُستَلَب في الطوطم وقوّة الطبيعة، في الأرض التي يحتلّها؛ عندما يفترق الفرد عن الجماعة، يطالب بتجسّدٍ خاصٍّ: تصبح قوّة الطبيعة فرديّةً لدى الزعيم، ثم لدى كلّ فردٍ؛ وفي الوقت نفسه يحاول كلّ واحدٍ أن يمتلك قطعةً من الأرض، وأدوات عملٍ، ومحاصيل. يجد الرجل نفسه في هذه الثروات التي يملكها لأنّه تاه فيها: نفهم بالتالي أن يستطيع إعطاءها أهمّيّةً جوهريّةً توازي حياته نفسها. عندئذٍ يصبح اهتمام الرجل بملكيّته علاقةً مفهومةً. لكنّنا نرى أنّنا لا نستطيع تفسيرها بالأداة وحدها: يجب إدراك كلّ وضع الرجل المسلّح بالأداة، وهو وضعٌ يتطلّب بنيةً تحتيّةً أنطولوجيّةً.

كذلك لا يمكن استنتاج أنّ سبب اضطهاد المرأة هو الملكيّة الفرديّة. هنا أيضًا يتجلّى عدم كفاية وجهة نظر إنجلز. لقد فهم جيّدًا أنّ ضعف المرأة العضليّ لم يصبح دونيّةً ملموسةً إلّا ضمن علاقتها بالأداة البرونزيّة والحديديّة: لكنّه لم يرَ أنّ حدود قدراتها على العمل لم تكن تشكّل هي نفسها حالة نقصٍ ملموسٍ إلّا ضمن منظورٍ معيّنٍ. لأنّ الرجل تسامٍ وطموحٌ فهو يصدر عبر كلّ أداةٍ جديدةٍ مطالب جديدةً؛ وعندما اخترع أدواتٍ برونزيّةً لم يعد يكتفي باستغلال الحدائق، فأراد استصلاح وزراعة حقولٍ واسعةٍ: لم تأت هذه الإرادة من البرونز نفسه. وأدّى عدم قدرة المرأة إلى إفلاسها لأنّ الرجل سجنها عبر مشروع إثراءٍ وتوسّعٍ. وهذا المشروع لا يكفي بعدُ لتفسير كونها اضطُهِدت: كان يمكن أن يكون تقسيم العمل حسب الجنس شراكة صداقةٍ. لو كانت علاقة الرجل الأصليّة مع أقرانه علاقة صداقةٍ فقط، لما كان بإمكاننا تفسير أيّ نمطٍ من الاسترقاق: هذه الظاهرة هي نتيجة تسلّط الشعور البشريّ الذي يحاول مواكبة سيادته بشكلٍ موضوعيٍّ. إن لم تكن فيه فئة الآخر الأصليّة، وطموحٌ أصليٌّ إلى السيطرة على الآخر، لما أمكن أن يؤدّي اكتشاف أداة البرونز إلى اضطهاد المرأة. كذلك لا يفسّر إنجلز الصفة الخاصّة لهذا الاضطهاد. وحاول أن يختزل تعارض الجنسين إلى صراعٍ طبقيٍّ: وقام بذلك دون كبير اقتناعٍ؛ فلا يمكن الدفاع عن هذه الفرضيّة. صحيحٌ أنّ تقسيم العمل حسب الجنس وما ينجم عنه من اضطهادٍ يذكّر في بعض نقاطه بالتقسيم الطبقيّ: ولكن لا يمكن الخلط بينهما؛ لا يوجد في الانفصال بين الطبقات أيّ أساسٍ بيولوجيٍّ؛ في العمل يدرك العبد نفسه في مواجهة السيّد؛ لقد شعر العامل دومًا بوضعه ضمن الثورة، عائدًا بذلك إلى الأساس، مُشكّلًا تهديدًا لمُستغِلّيه؛ وما يهدف إليه

هو زواله كطبقةٍ. قلنا في المقدّمة كم هو مختلفٌ وضع المرأة، وخصوصًا بسبب مجموعة الحياة والمصالح التي تجعلها متضامنةً مع الرجل، ومن خلال التواطؤ الذي يجده فيها: إذ لا تسكنها أيّة رغبةٍ بالثورة، ولا تستطيع إلغاء نفسها كجنسٍ: تطلب فقط إزالة بعض نتائج الخصوصيّة الجنسيّة. ما هو أكثر أهمّيّةً أيضًا، هو أنّنا لا نستطيع دون سوء نيّةٍ اعتبار المرأة عاملةً فقط؛ فوظيفتها الإنجابيّة هامّةٌ كقدرتها الإنتاجيّة، في الاقتصاد الاجتماعي كما في الحياة الفرديّة؛ هناك حقبٌ يكون فيها إنجاب الأطفال أهمّ من تشغيل المحراث. لقد تجنّب إنجلز المشكلة؛ واكتفى بالتصريح بأنّ الجماعة الاشتراكيّة ستزيل العائلة: وهو حلٌّ عبثيٌّ للغاية؛ نعرف كم اضطر الاتّحاد السوفييتي لأن يغيّر غالبًا وجذريًّا سياسته الأسريّة حسبما كان يختلف توازن حاجات الإنتاج والتكاثر السكّاني الفوريّة؛ عدا عن أنّ إلغاء الأسرة لا يعني بالضرورة تحرير المرأة: مثال اسبارطة والنظام النازيّ يثبتان أنّها بارتباطها مباشرةً بالدولة، يمكن أن تكون مضطهَدةً كما كانت مع الذكور. بسبب المشاكل التي يطرحها وضع المرأة، سترتبك الأخلاقيّات الاشتراكيّة الحقيقيّة جدًّا، أي التي تبحث عن العدالة دون إلغاء الحرّيّة، والتي تفرض على الأفراد أعباءً دون إلغاء الفرديّة. من المستحيل تشبيه الحمل ببساطةٍ بخدمةٍ كالخدمة العسكريّة. نقتحم حياة المرأة حين نطلب منها أطفالًا بشكلٍ أعمق ممّا نفعل حين ننظّم اهتمامات المواطنين: لم تجرؤ أيّة دولةٍ على تشريع الإيلاج الإجباريّ. في العمل الجنسيّ، وفي الأمومة، تنخرط المرأة ليس فقط بالزمن والقوى ولكن بالقيم الأساسيّة. عبثًا تدّعي الماديّة العقلانيّة عدم معرفة صفة الجنس الدراماتيكيّة هذه: أنّه لا يمكن تنظيم الغريزة الجنسيّة، من غير المؤكّد أنّها لا تحمل ضمنها رفضًا لإشباعها، كما كان فرويد يقول؛ ما هو مؤكّدٌ هو أنّها لا تنساق إلى الاندماج بالاجتماعيّ لأنّ في الشهوانيّة ثورةً للغريزة على الزمن، وللفرديّ على العامّ؛ نخاطر بقتلها حين نرغب في توجيهها واستغلالها لأنّه لا يمكن التصرّف بالتلقائيّة الحيّة كما نفعل بالمادّة الخامدة؛ وكذلك لا يمكننا إرغامها كما نرغم حرّيّةً. لا يمكننا إرغام المرأة مباشرةً على الإنجاب: كلّ ما يمكننا فعله هو سجنها في أوضاعٍ تكون الأمومة فيها المخرج الوحيد بالنسبة لها: فيفرض عليها القانون أو العادات الزواج، وتُمنع وسائل منع الحمل والإجهاض، ويمنع الطلاق. هذه هي تمامًا الإعاقات القديمة الأبويّة البطريركية التي أعاد الاتّحاد السوفييتي إحياءها؛ لقد أحيا نظريّات الزواج الأبويّة؛

ومن خلال ذلك، بلغ به الأمر أن يطلب من المرأة من جديدٍ أن تكون شيئًا شهوانيًّا: فقد دعا خطابٌ حديثٌ المواطنات السوفيتيّات إلى الاعتناء بهندامهنّ، والتزيّن، وأن يصبحن أنيقاتٍ للاحتفاظ بزوجهنّ وإذكاء رغبته. من المستحيل، كما نرى ضمن هذا المثال، اعتبار المرأة قوّةً إنجابيّةً فقط: إنّها شريكةٌ جنسيّةٌ للرجل، ومُنجِبةٌ، وموضوعٌ شهوانيٌّ، «أخرى» يبحث من خلالها عن نفسه. اتّفقت الأنظمة الاستبداديّة أو المتسلّطة على منع التحليل النفسي وإعلان أنّ المآسي الفرديّة غير موجودة بالنسبة للمواطنين المندمجين بالجماعة بشكلٍ قانونيٍّ، وأنّ الشهوانيّة هي تجربةٌ تعيد فيها الفرديّة تملّك العموميّة دومًا. وتحتفظ مسألة المصير الفرديّ بكامل أهمّيّتها من أجل اشتراكيّةٍ ديموقراطيّةٍ تُزال فيها الطبقات وليس الأفراد. العلاقة الجنسيّة التي توحّد المرأة بالرجل ليست هي نفس العلاقة التي يقيمها معها؛ الرباط الذي يجمعها بالطفل لا يُختَزلُ إلى أيّة صلةٍ أخرى. لم تخلق بواسطة أداة البرونز وحدها: ولا تكفي الآلة لإلغائها. المطالبة بكلّ الحقوق من أجلها، وكلّ فرص الكائن البشريّ عمومًا، لا تعني أنّه يجب إغماض العين عن وضعها الخاصّ. ولمعرفتها يجب تجاوز الماديّة التاريخية التي لا ترى في الرجل والمرأة إلا كياناتٍ اقتصاديّةً.

وهكذا نرفض لنفس السبب أحاديّة فرويد الجنسيّة وأحاديّة إنجلز الاقتصاديّة. يفسّر المحلّل النفسيّ كلّ مطالب المرأة الاجتماعيّة على أنّها ظاهرة «احتجاجٍ ذكوريٍّ»؛ وعلى العكس ترى الماركسيّة أنّ الجنس لديها يعبّر بمواربات معقّدةٍ كثيرًا أو قليلًا عن وضعها الاقتصاديّ؛ لكنّ الفئات «البظريّة» أو «المهبليّة» كالفئات «البورجوازيّة» أو «العمّاليّة» هي أيضًا عاجزةٌ عن احتواء امرأةٍ محسوسةٍ. اعتمادًا على التأثّرات الفرديّة كتاريخ البشريّة الاقتصادي هناك بنيةٌ تحتيّةٌ وجوديّةٌ تسمح وحدها بفهم هذا الشكل الخاصّ الذي هو الحياة بوحدته. تأتي قيمة الفرويديّة من أنّ الكائن هو جسمٌ: الطريقة التي يشعر بنفسه بها كجسمٍ أمام أجسامٍ أخرى تعبّر بشكلٍ ملموسٍ عن وضعه الوجوديّ. وكذلك ما هو صحيحٌ في الفرضيّة الماركسيّة هو أنّ مطالب الكائن الأنطولوجيّة تأخذ شكلًا ملموسًا حسب الإمكانيّات الماديّة المقدَّمة له، وخصوصًا حسب تلك التي تفتح له التقنيّات. ولكن إن لم تُدمَج بكامل الواقع البشريّ، فلا يمكن للجنس والتقنيّة وحدهما تفسير أيّ شيءٍ. ولهذا يرى فرويد أن النواهي التي تضعها الأنا العليا ودوافع الأنا تبدو كوقائع عارضةٍ؛ وفي أطروحة إنجلز حول

تاريخ العائلة، تبدو أهم الأحداث ناشئةً فجأةً طبقًا لصدفةٍ غامضةٍ. كي نكتشف المرأة، لن نرفض بعض مساهمات البيولوجيا والتحليل النفسيّ والمادّيّة التاريخيّة: ولكنّنا سنعتبر أن الجسد، والحياة الجنسيّة، والتقنيّات لا توجد بشكلٍ ملموسٍ للرجل إلّا بمقدار ما يدركها ضمن المنظور العام لوجودها. لا يمكن تحديد قيمة القوّة العضليّة، والقضيب، والأداة إلّا ضمن عالمٍ من القيم: يتحكّم بها المشروع الأساسيّ للكائن المتسامي نحو الإنسان.

القسم الثاني

التاريخ

- 1 -

لقد كان هذا العالم على الدوام عالم الذكور: لا تبدو لنا أيٌّ من أسباب ذلك التي اقترحوها علينا كافيةً. إذا تناولنا معطيات ما قبل التاريخ وعلم الأجناس الوصفي على ضوء الفلسفة الوجوديّة سيمكننا أن نفهم كيف تمّ ترتيب الجنسين على درجاتٍ. قلنا سابقًا إنّه عندما توجد زمرتان بشريّتان معًا تريد كلٌّ منهما بسط سيطرتها على الأخرى؛ فإذا أصرّت الاثنتان على هذا المطلب، تنشأ بينهما علاقة تبادلٍ وتوتّرٍ مستمرٌّ، سواءً ضمن العدائيّة أو الصداقة؛ وإذا كانت لإحداهما امتيازاتٌ، تتغلّب على الأخرى وتعاملها باضطهادٍ. نفهم إذًا أنّ الرجل أراد أن يسيطر على المرأة: ولكن ما هو الامتياز الذي سمح له بإنجاز رغبته؟

المعلومات التي يعطيها علماء الأجناس حول أشكال المجتمع البشري البدائيّة متناقضةٌ بشكلٍ رهيبٍ، بالأحرى لأنّ لديهم معلومات أكثر ولكن منهجيّة أقلّ. من الصعب خصوصًا تكوين فكرةٍ عن وضع المرأة في الحقبة التي سبقت حقبة الزراعة. لا نعرف حتّى، في ظروف الحياة المختلفة للغاية عن الظروف الحاليّة، فيما إذا كان الجهاز العضليّ والجهاز التنفّسيّ ناميين لدى المرأة بقدر الرجل. لقد أوكِلت إليها أعمالٌ شاقّةٌ وكانت هي من يحمل الأثقال خصوصًا؛ ولا نجد تفسيرًا لهذا: إن كانت هذه الوظيفة قد أوكِلت إليها فمن المحتمل أنّ ذلك حدث لأنّ الرجل ضمن القافلة كان يبقي يديه خاليتين للدفاع ضدّ المعتدين، حيواناتٍ أو رجالًا؛ وبالتالي كان دوره الأكثر خطرًا والذي يتطلّب قوّةً أكبر. مع ذلك يبدو أنّ النساء كنّ في حالاتٍ عديدةٍ قويّاتٍ بما يكفي ومقاوِماتٍ بحيث شاركن في حملات المحاربين.

طبقًا لروايات هيرودوت، وما نُقِل عن نساء الأمازون في داهومي وشهاداتٌ كثيرةٌ أخرى قديمةٌ وحديثةٌ، فقد حدث أن شاركت نساءٌ في حروبٍ داميةٍ؛ كنّ يظهرن فيها من البسالة والقسوة ما يظهره الرجال: نذكر منهنّ من كنّ يعضضن بأسنانهنّ أكباد أعدائهنّ. رغم كلّ شيءٍ، يبدو آنذاك كما اليوم أنّ الرجال كانوا يمتازون بالقوّة البدنيّة؛ ولا بدّ أنّ هذا التفوّق كان بغاية الأهمّية في عصر الهراوة والحيوانات المفترسة عندما كانت مقاومات الطبيعة في حدّها الأعظميّ والأدوات بدائيّةٌ للغاية. على كلّ حالٍ، مهما كانت النساء قويّاتٍ عندئذٍ، كانت عبوديّة الإنجاب تمثّل لهنّ إعاقةً فظيعةً ضمن الصراع ضدّ العالم العدائيّ: يروى أنّ الأمازونيّات كنّ يقطعن أثداءهنّ، ما يعني أنهنّ يرفضن الأمومة، على الأقلّ خلال فترة حياتهنّ المحاربة. أمّا بالنسبة للنساء العاديّات، فكان الحمل والولادة والطمث تنقص من قدرتهنّ على العمل وتحكم عليهنّ بفتراتٍ طويلةٍ من العجز؛ وكي يدافعن عن أنفسهنّ تجاه الأعداء، وليؤمّنّ احتياجاتهنّ واحتياجات صغارهنّ كنّ بحاجةٍ إلى حماية المحاربين، وإلى نتاج الصيد والقنص اللّذين اختصّ بهما الذكور؛ وبما أنّه لم يكن هناك بالطبع تحديدٌ للنسل، بما أنّ الطبيعة لم تمنح المرأة فترات عقمٍ كباقي إناث الثدييات، فلا بدّ أنّ الإنجاب المتكرّر كان يمتصّ القسم الأكبر من قواهنّ ووقتهنّ؛ لم يكنّ قادراتٍ على تأمين قوت الأطفال الذين ينجبنهم. وهنا أول أمرٍ مثقلٍ بالنتائج: كانت بدايات النوع البشريّ صعبةً؛ لم تكن الشعوب الجامعة والصيادة والقانصة تنتزع من الأرض إلا ثرواتٍ هزيلةً لقاء جهدٍ فائقٍ؛ كان يولد أطفالٌ أكثر ممّا يجب بالنسبة لموارد العشيرة؛ وكانت خصوبة المرأة العبثيّة تمنعها من المساهمة بشكلٍ فعّالٍ في زيادة هذه الموارد بينما كانت تخلق حاجاتٍ جديدةً باستمرارٍ. وكونها ضروريّةً لإبقاء النوع، فقد كانت تفرط في ذلك: وكان الرجل هو من يؤمّن التوازن بين الإنجاب والإنتاج. وبالتالي لم يكن إبقاء الحياة امتيازًا للمرأة أمام الذكر الخلّاق؛ لم تكن تلعب دور البويضة تجاه النطفة، والرحم تجاه القضيب؛ كان لديها فقط جزءٌ من جهد النوع البشريّ في البقاء، وبفضل الرجل نجح هذا الجهد بشكلٍ ملموسٍ.

مع ذلك بما أنّ التوازن بين الإنجاب والإنتاج ينجح دائمًا، ولو بسبب وفيات الأطفال والقرابين والحروب، فالرجال والنساء أيضًا ضروريّون من وجهة نظر بقاء المجموعة؛ يمكننا حتّى افتراض أنّه في مرحلةٍ ما من الوفرة الغذائيّة، ألحَق الذكر بالمرأة ـ الأم دوره

الحامي والمعيل؛ وهناك إناث حيواناتٍ ينلن بالأمومة استقلالًا كاملًا؛ لماذا لم تنجح المرأة في التربّع على عرش الأمومة؟ حتّى في الأوقات التي كانت فيها البشريّة تطلب بشدّةٍ مزيدًا من الولادات، وكانت الحاجة إلى اليد العاملة تتغلّب على الحاجة إلى موادٍ أوّليّةٍ لاستغلالها، حتّى في الفترات التي كانت فيها الأمومة أكثر إجلالًا من أيّ وقتٍ آخر، لم يُسمح للنساء باحتلال الموقع الأوّل[38]. وسبب ذلك أنّ البشريّة ليست نوعًا طبيعيًّا بسيطًا: فهي لا تحاول البقاء كنوعٍ؛ ومشروعها ليس الخمود: إنها تميل إلى التفوّق على نفسها.

لم تكن المجموعات البدائيّة تهتمّ البتّة بازدهارها. بما أنّها لم تكن مستقرّةً في أرضٍ، لا تملك شيئًا، ولا تتجسّد بأيّ شيءٍ مستقرٍّ، لم يكن بإمكانها تشكيل أيّة فكرةٍ ملموسةٍ عن الاستمرار؛ لم يكن يشغلها البقاء ولا تجد نفسها في نسلها؛ لم تكن تخشى الموت ولم تكن تطالب بورَثَةٍ؛ كان الأطفال يشكّلون بالنسبة لها عبئًا وليس ثروةً؛ والدليل أنّ قتل الأطفال كان دومًا شائعًا لدى الشعوب الرحّل؛ وكان الكثير من المولودين حديثًا الذين لم يُقتَلوا يموتون بنقص الشروط الصحّيّة الناجم عن اللامبالاة العامّة. بالتالي لم تكن المرأة التي تنجب تشعر بزهوّ الإنجاب؛ كانت تشعر أنّها لعبةٌ سلبيّةٌ لقوىً مجهولةٍ، والولادة المؤلمة هي حادثٌ غير مُجدٍ ومتعبٌ حتّى. فيما بعد، أُعطيت للطفل أهمّيّةٌ أكبر. ولكن على كلّ حالٍ، الولادة والإرضاع ليسا «نشاطًا»، إنّهما وظيفتان طبيعيّتان؛ لا تتضمّنان أيّ مشروعٍ؛ ولهذا لا تجد المرأة فيهما باعثًا لتأكيد وجودها؛ وتخضع بصورةٍ سلبيّةٍ لقدرها البيولوجيّ. تحبسها الأعمال المنزليّة التي تُكرَّس لها ضمن التكرار والمُلازَمة، لأنّها الوحيدة الممكنة مع أعباء الأمومة؛ فتتكرّر يومًا بيومٍ بشكلٍ متماثلٍ يستمرّ دون تغيّرٍ من قرنٍ لقرنٍ؛ ولا تنتج شيئًا جديدًا. ويختلف وضع الرجل جذريًّا؛ فهو لا يغذّي المجموعة بطريقة النحلات العاملة عبر سياقٍ بسيطٍ حيويٍّ ولكن عبر أعمالٍ ترتقي بوضعها الحيوانيّ. الرجل الخلّاق L'homo faber مخترعٌ منذ بدء الزمن: فالعصا، والهراوة التي يتسلّح بها ليخبط شجر الفاكهة، ويقتل الحيوانات هما أداتان وسّع بهما تأثيره على العالم؛ ولا يكتفي بنقل الأسماك الملتقطة من البحر إلى البيت: يجب أولًا أن يسيطر على المجال المائي حافرًا قوارب في جذوع الأشجار؛ يُلحِق العالم ذاته به كي ينال ثرواته. بهذا العمل يشعر بقدرته؛ ويضع غاياتٍ، ويشقّ طرقًا

38- لم يعد علم الاجتماع اليوم يؤكّد أبدًا هذر باشوفن Bachoffen.

إليها: فيحقّق ذاته ككائنٍ. يَخلق لكي يحافظ؛ ويتجاوز الحاضر، ويفتح المستقبل. ولهذا تتّخذ رحلات الصيد والقنص طابعًا مقدّسًا. ويُستقبَل نجاحها بأعيادٍ واحتفالاتٍ؛ ويشعر الرجل فيها بإنسانيّته. ما زال حتّى اليوم يُظهِر هذا الفخر عندما يبني سدًّا، وناطحة سحاب، ومفاعلًا ذرّيًّا. لم يعمل فقط ليحافظ على العالم المُعطى: لقد أزال حدوده، ووضع أسس مستقبلٍ جديدٍ.

ولنشاطه بُعدٌ آخر يعطيه عزّته الكبرى: إنّه خطيرٌ غالبًا. لو لم يكن الدم سوى غذاءٍ، لما كانت له قيمةٌ أعلى من قيمة الحليب؛ لكنّ الصيّاد ليس جزّارًا: إنّه يتعرّض لأخطارٍ ضمن الصراع ضدّ الحيوانات المتوحّشة. ولكي يزيد المحارب من هيبة المجموعة، العشيرة التي ينتمي إليها، يعرّض حياته للخطر. وبذلك يشعر بعظمةٍ أنّ الحياة ليست القيمة العليا بالنسبة للرجل بل أنّها يجب أن تخدم غاياتٍ أهمّ منها. اللعنة الأسوأ التي تثقل على المرأة هي أنّها مستثناةٌ من هذه الغزوات الحربيّة؛ ويرتقي الرجل إلى مرتبةٍ أعلى من الحيوان ليس بمنحه الحياة إنّما بالمخاطرة بحياته؛ ولهذا يُعطى التفوّق في البشريّة ليس للجنس الذي ينجب بل لذلك الذي يَقتل.

نمسك هنا بمفتاح كلّ الغموض. على مستوى البيولوجيا، يبقى النوع فقط عندما يجدّد نفسه؛ لكنّ هذا الخلق ليس سوى تكرارٍ لنفس الحياة بصورٍ مختلفةٍ. يؤمّن الإنسان تكرار الحياة عندما يُسميها بالوجود: بهذا التفوّق يخلق قيمًا تُنكر كلّ قيمةٍ للتكرار البحت. تبقى المجّانيّة وتنوّع الأنشطة الذكريّة لدى الحيوان دون فائدةٍ لأنّها لا تشتمل على أيّ مشروعٍ؛ لا قيمة لما يفعله عندما لا يخدم النوعَ؛ بينما عندما يخدم الذكر البشريّ النوعَ فهو يشكّل وجه العالم، ويخلق أدواتٍ جديدةً، ويخترع، ويصنع المستقبل. عندما يطرح نفسه كسيّدٍ يلاقي تواطؤ المرأة ذاتها: لأنّها هي أيضًا كائنٌ، يسكنها التسامي ومشروعها ليس التكرار ولكن التجاوز نحو مستقبلٍ آخر؛ وتجد في داخلها تأكيدًا للادّعاءات الذكوريّة. وتنضمّ إلى الرجال في الأعياد التي تحتفل بنجاحات الذكور وانتصاراتهم. حظّها السيّئ هو أنّها كُرِّسَت بيولوجيًّا لتكرار الحياة، بينما لا تحمل الحياة بذاتها في نظرها أسباب وجودها، وأنّ هذه الأسباب أهمّ من الحياة نفسها.

يمكن تطبيق بعض مقاطع الجدليّة (الديالكتيك) التي يعرّف بها هيجل علاقة السيّد

بالعبد بشكلٍ أفضل على علاقة الرجل بالمرأة. فهو يقول إنّ امتياز الرجل يأتي من أنّه يؤكّد العقل مقابل الحياة لأنّه يخاطر بحياته: ولكن في الواقع لقد عرف العبد المقهور نفس هذه المخاطرة؛ بينما المرأة أصلًا كائنٌ يهب الحياة ولا يخاطر بحياته؛ لم تكن هناك أبدًا معركةٌ بينها وبين الذكر؛ وينطبق تعريف هيجل بصورةٍ خاصّةٍ عليها. «الشعور الآخر هو الشعور التابع الذي يكون الواقع الأساسيّ بالنسبة له هو الحياة الحيوانيّة، أي الكائن المُعطى عبر جوهرٍ آخر». لكنّ هذه العلاقة تختلف عن علاقة الاضطهاد لأنّ المرأة هي أيضًا تهدف إلى القيم التي بلغها الذكور بشكلٍ ملموسٍ وتقرّ بها؛ هذه العلاقة هي التي تفتح المستقبل الذي تتسامى نحوه هي أيضًا؛ في الحقيقة لم تضع النساء أبدًا قيمًا أنثويّةً مقابل القيم الذكوريّة: من اخترع هذا التقسيم هم رجالٌ راغبون في الأبقاء على الامتيازات الذكوريّة؛ لم يطالبوا بخلق مجالٍ أنثويٍّ ـ قواعد الحياة والمُلازَمة ـ إلّا كي يسجنوا المرأة داخله؛ ولكن من الجانب الآخر لكلّ خصائص جنسيّةٍ يبحث الكائن عنها في حركة تساميه ما يبرّرها: خضوع النساء نفسه هو الدليل على ذلك. ما يطالبن به اليوم هو الاعتراف بهنّ ككائناتٍ بنفس مرتبة الرجال وليس بإخضاع الوجود للحياة، والرجل لحيوانيّته.

سمح لنا منظورٌ وجوديٌّ إذًا بأن نفهم كيف أدّى الوضع البيولوجيّ والاقتصاديّ للمجموعات البدائيّة إلى تفوّق الذكور. فالمرأة فريسة النوع أكثر من الرجل؛ كانت البشريّة تحاول دومًا الهروب من مصيرها النوعيّ؛ وباختراع الأداة، أصبحت صيانة الحياة بالنسبة للرجل عملًا ومشروعًا بينما بقيت المرأة ضمن الأمومة محدودةً بجسدها كالحيوان. ولأنّ البشريّة تطرح ذاتها للنقاش ضمن وجودها أي تفضّل أسباب الحياة على الحياة نفسها فقد طرح الرجل نفسه كسيّدٍ في مواجهة المرأة؛ مشروع الرجل ليس في أن يتكرّر عبر الزمن: إنّه يكمن في أن يسود في الحاضر ويصنع المستقبل. شكّل عملُ الرجل ـ بخَلقه قيمًا ـ الوجودَ نفسه كقيمةٍ؛ وسخّر الطبيعة والمرأة. علينا الآن أن نرى كيف دام هذا الوضع وتطوّر عبر القرون. ما هو المكان الذي صنعته البشريّة لهذا الجزء منها الذي عرّف نفسه ضمنها كالآخر؟ ما هي الحقوق التي أُعطيت له؟ وكيف عرّفه الرجال؟

- 2 -

رأينا للتوّ أنّ وضع المرأة في الجماعات البدائيّة صعبٌ للغاية؛ فوظيفة الإنجاب لدى إناث الحيوانات محدودةٌ بشكلٍ طبيعيٍّ وعندما تتمّ يُعفى الفرد بشكلٍ كاملٍ أو غير كاملٍ من المجهودات الأخرى؛ قد يستغلّ سيّدٌ متطلّبٌ أحيانًا الإناث المدجّنة فقط حتّى إنهاك قواها الإنجابيّة وطاقاتها الفرديّة. كان ذلك حال المرأة دون شكٍّ في زمنٍ كان فيه الصراع مع العالم المعادي يتطلّب استعمال كافّة موارد الجماعة؛ فتُضاف مشقّة الأعمال المنزليّة المنهكة إلى مشقّة إنجاب غير منظّمٍ لا يتوقّف. مع ذلك يدّعي بعض المؤرّخين أنّ تفوّق الذكر كان في مستواه الأدنى في هذه المرحلة؛ ما يجب قوله بالأحرى هو أنّه يعيش هذا التفوّق آنيًّا، ولم يَطرَحه ويرغب به بعدُ؛ لم يُبذل أيّ جهدٍ لتعويض الإجحاف القاسي الذي يعيق المرأة؛ ولكن لم يحاول أحدٌ كذلك معاكستها كما سيحدث لاحقًا في الأنظمة الأبويّة. لم يُثبت أيّ تشريعٍ عدم المساواة بين الجنسين؛ لم تكن هناك تشريعاتٌ أصلًا: لا ملكيّة، ولا إرث، ولا قانون. وكانت الديانة محايدةً: فقد كانوا يعبدون بعض رموز الحيوانات اللاجنسيّة (الطوطم).

وعندما استقرّ الرُحَّل على الأرض وأصبحوا مزارعين ظهرت التشريعات والقانون. لم يعد الرجل يكتفي بالتعارك بقسوةٍ مع القوى المعادية؛ بل بدأ يعبّر عن نفسه بشكلٍ محسوسٍ عبر الصورة التي يفرضها على العالم، ويفكّر بهذا العالم وبنفسه؛ في هذه اللحظة يعكس تركيب المجموعة التمايز الجنسيّ؛ الذي يأخذ طابعًا خاصًّا: في المجموعات الزراعيّة تنال

المرأة غالبًا إجلالًا فائقًا. يفَسَّر هذا الإجلال بصورةٍ أساسيّةٍ بالأهمّيّة التي اكتسبها الطفل في حضارةٍ تقوم على العمل والأرض؛ ثمّ تملّك الرجال الأرض باستقرارهم فيها؛ وظهرت الملكيّة بصورة مشاعٍ؛ وتطلّبت من مالكيها وجود سلالةٍ؛ وأصبحت الأمومة وظيفةً مقدّسةً. ويعيش كثيرٌ من القبائل ضمن نظامٍ عشائريٍّ، وهذا لا يعني أنّ النساء ملكٌ لجميع رجال العشيرة؛ لا نصدّق اليوم بتاتًا أنّ الزواج المختلط قد مورس ذات يومٍ؛ لكنّ لم يكن لدى الرجال والنساء وجودٌ دينيٌّ ولا اجتماعيٌّ ولا اقتصاديٌّ إلّا كمجموعةٍ: ظلّت فرديّتهم أمرًا بيولوجيًّا صرفًا؛ ومهما كان شكل الزواج، مفردًا أو متعدّد الزوجات أو متعدّد الأزواج، فهو أيضًا لم يكن سوى حدثٍ دنيويٍّ لا يخلق أيّ رباطٍ روحانيٍّ. وهو ليس مصدر أيّ عبوديّةٍ بالنسبة للزوجة، إذ تبقى مندمجةً بعشيرتها. وتملك العشيرة المتجمّعة حول نفس الطوطم كلّها روحانيًّا نفس المانا[39]، وتستمتع مادّيًّا بنفس الأرض بصورةٍ مشتركةٍ. وحسب سياق الاستلاب الذي تحدّثت عنه، تدرك العشيرة نفسها في هذه الأرض بصورةٍ موضوعيّةٍ ومحسوسةٍ؛ وبالتالي ببقاء الأرض تتحقّق وحدةٌ تبقى هويّتها على مرّ الزمن. هذا الإجراء الوجودي وحده يسمح بفهم التماثل الذي بقي حتّى أيّامنا بين العشيرة، والناس، والأسرة، والملكيّة. وبدل مفهوم القبائل المتنقّلة التي لا يوجد بالنسبة لها سوى الآني، أوجدت المجموعة الزراعيّة مفهوم حياةٍ تتجذّر في الماضي وتُلحِق المستقبل بها: يُعبّد الجدّ الأكبر الطوطميّ الذي يعطي اسمه لأعضاء العشيرة؛ وتعطي العشيرة أهميّةً عميقةً لسلالته: فيظلّ حيًّا عبر الأرض التي يورثهم إيّاها والتي يستغلّونها. وتفكّر الجماعة بوحدتها وتريد وجودها إلى ما بعد الحاضر: وتجد نفسها في الأطفال، فتتعرّف عليهم كأفرادٍ يخصّونها، وتكتمل بهم وتتجاوز نفسها.

لكنّ كثيرًا من البدائيّين يجهلون دور الأب في إنجاب الأطفال؛ ويعتبرونهم تجسّد أطياف الجدود التي تهوم حول بعض الأشجار وبعض الصخور، وبعض الأماكن المقدّسة، والتي تنزل في جسد المرأة؛ ويعتقدون أحيانًا أنّها يجب ألّا تكون عذراء لكي يصبح هذا الاندخال ممكنًا، لكنّ شعوبًا أخرى تعتقد أنّها تتوالد كذلك من المنخرين أو من الفم، على أيّة حالٍ، فضّ البكارة ثانويٌّ هنا، ولأسباب رمزيّةٍ نادرًا ما يكون من نصيب الزوج. والأم ضروريّةٌ بالطبع

39- المانا هي قوى الطبيعة الخفيّة. (المترجمة)

لولادة الطفل؛ فهي التي تحفظ البذرة وتغذّيها في أحشائها وبالتالي من خلالها تتكاثر حياة العشيرة في العالم المرئيّ. وهكذا تجد نفسها تلعب الدور الأهمّ. وينتمي الأطفال غالبًا لعشيرة أمّهم، ويحملون اسمها، ويشتركون في حقوقها وخصوصًا التمتّع بالأرض التي تملكها العشيرة. وبالتالي تنتقل ملكيّة المجموعة عبر النساء: من خلالهنّ تُؤَمَّن الحقول والأرباح لأعضاء العشيرة وبالعكس من خلال أمهات هؤلاء تتاح لهم هذه الملكيّة أو تلك. نستطيع إذًا اعتبار أنّ الأرض تعود روحيًّا للنساء: فلديهنّ سيطرةٌ دينيّةٌ وشرعيّةٌ على الأرض المزروعة وثمارها. والصلة التي تجمعهنّ وثيقةٌ أكثر من الانتماء؛ يتميّز نظام القانون الأموميّ بمقارنةٍ حقيقيّةٍ بين المرأة والأرض؛ في كلتيهما يتمّ استمرار الحياة من خلال تحوّلاتها، الحياة التي هي النشوء. ولا يبدو الإنجاب لدى الرحّل إلّا حدثًا وتبقى ثروات الأرض مجهولةً؛ لكنّ أعجوبة الخصوبة التي تزدهر ضمن الأخاديد وفي بطن الأمّ تدهش المُزارع؛ ويعرف أنّه وُلِد مثل الحيوانات والحصاد، ويريد أن تنجِب عشيرته رجالًا آخرين يبقونها مستمرّةً بابقاء خصوبة الحقول؛ وتبدو له الطبيعة بكاملها كأمٍّ؛ فالأرض امرأةٌ؛ وتسكن المرأة نفس القوى الغامضة التي تسكن الأرض[40]. لهذا السبب جزئيًّا أُنيط بها عمل الزراعة: فهي قادرةٌ على استحضار أطياف الجدود في أحشائها، ولديها أيضًا القدرة على استخراج الفواكه والسنابل من الحقول المزروعة. المسألة في الحالتين رقيةٌ سحريّةٌ وليست عمليّة خلقٍ.

في هذه المرحلة لم يعد الرجل يكتفي بجمع منتوج الأرض: لكنّه لا يعرف بعدُ قوّته؛ يتردّد بين التقنيّة والسحر؛ يشعر أنّه سلبيٌّ، تابعٌ للطبيعة التي توزّع الوجود والموت بمحض الصدفة. ويعترف بالتأكيد قليلًا أو كثيرًا بفائدة العمل الجنسيّ والتقنيّات التي تدجّن الأرض: لكنّ الأطفال والحصاد يبدون كهبةٍ فوق الطبيعة؛ والأريج المنبعث من الجسد الأنثوي هو الذي يجتذب في هذا العالم الثروات المدفونة في منابع الحياة الغامضة. ما تزال مثل هذه المعتقدات قائمةً اليوم بين العديد من قبائل الهنود والأوستراليين والبولينيزيين[41]؛

40- يقول انجليزيٌّ قديمٌ: «أهلًا أيّتها الأرض، أمّ الرجال، كوني خصبةً بمحبّة الله، وامتلئي بالفواكه التي يستخدمها الإنسان».

41- في أوغندا، ولدى البانتا في الهند، تُعتبر المرأة العاقر ذات خطرٍ على الحديقة. في نيكوبار يظنّون أنّ الحصاد يكون أكثر وفرةً إذا قامت به امرأةٌ حاملٌ. في بورنيو، تختار النساء البذور ويحفظنها. «يبدو أنّ لديهنّ صلةً طبيعيّةً بالبذور الّتي يشعرن أنّها في حالة حملٍ. أحيانًا تمضي النسوة الليل في حقول الأرزّ عندما ينمو» (هوز وماك دوغال Hose et Mac Dougall). في الهند القديمة كانت نساءٌ عارياتٌ يدفعن المحرات ليلًا حول الحقل. وكان هنود الأورينوك =

واكتسبت أهميّةً أكبر بقدر انسجامها مع مصالح المجموعة العمليّة. وتكرّس الأمومة المرأة لوجودٍ مستقرٍّ؛ فمن الطبيعي أن تبقى في المنزل بينما يصيد الرجل ويقنص ويحارب. ولكن الشعوب البدائيّة لا تزرع إلا حدائق متواضعة المساحة وتقع داخل حدود القرية؛ واستغلالها هو مهمّةٌ منزليّةٌ؛ كما أنّ أدوات العصر الحجريّ لا تتطلّب جهدًا مكثّفًا؛ وقد اتّفق الاقتصاد والخرافة على ترك العمل الزراعيّ للمرأة. وتُرِكت الصناعة في بداياتها أيضًا لها: فهي تنسج السجّاد والأغطية، وتصنع الفخّار. وغالبًا ما يقمن هنّ بمقايضة البضائع: فالتجارة بين أيديهنّ. من خلالهنّ إذًا تستمرّ حياة العشيرة وتنتشر؛ ويرتبط الأطفال والقطعان والحصاد والأدوات وكل ازدهار المجموعة التي هنّ روحها بعملهنّ وفضائلهنّ السحريّة. توحي كلّ هذه القدرة للرجال باحترامٍ مشوبٍ بالخوف الذي يتجلّى في ديانتهم. فتُختَصَر كلّ الطبيعة الغريبة فيهنّ.

قلنا سابقًا إنّ الرجل لا يفهم نفسه أبدًا إلا عندما يفهم الآخر؛ فيدرك العالم تحت شعار الثنائيّة؛ وليس لهذه أولًا صبغةٌ جنسيّةٌ. ولكن بالطبع بما أنّ المرأة مختلفةٌ عن الرجل الذي يعتبر نفسه الذات فهي توضع في خانة الآخر؛ الآخر يغلّف المرأة؛ فهي أولًا ليست مهمّةً بما يكفي لتُمثّله وحدها، بحيث يقوم في قلب الآخر تقسيمٌ ثانٍ: في النظريّات القديمة لنشأة الكون هناك عنصرٌ واحدٌ له تجسيدٌ مذكّرٌ ومؤنثٌ معًا؛ وهكذا فالمحيط والبحر لدى البابليّين هما التجسيد المزدوج للسديم الكوني. عندما كبر دور المرأة، امتصّت منطقة الآخر بأكملها تقريبًا. عندئذٍ ظهرت الآلهة المؤنّثة التي عبدوا الخصوبة من خلالها. وجدوا في سوز Suse[42] أقدم صورةٍ للآلهة العظيمة، الأمّ الكبيرة ذات الثوب الطويل، والعَمرَة العالية، التي تُظهرها لنا تماثيل أخرى متوّجةً بالأبراج: وقد أظهرَت تنقيبات جزيرة كريت عدّة أمثلةٍ لها. فأحيانًا هي ثقيلة الردفين جالسةً القرفصاء، وأحيانًا أكثر نحافةً وواقفةً، أحيانًا لابسةً وغالبًا عاريةً، ضامّةً ذراعيها تحت ثدييها المنتفخين. إنّها ملكة السماء، تُصوِّرها حمامةً؛ وهي أيضًا امبراطورة الجحيم، تخرج منه زاحفةً، تمثّلها الحيّة. وتتجلّى في الجبال

= Orénoque يتركون للنساء مهمّة البذار والغرس لأنّهنّ «يعرفن كيف يحملن ويضمن الأطفال، فالبذور والجذور تحمل ثمارًا أكثر وفرةً ممّا لو كانت قد غُرِست بيد الرجال». ونجد العديد من الأمثلة المشابهة لدى فرازر Frazer.

42- Suse موقع أثري في إيران. (المترجمة)

والغابات وفوق البحر وفي الينابيع. وتخلق الحياة في كلّ مكانٍ؛ وإن قتَلَت، تَبعث من جديدٍ. متقلّبة الأطوار فاسقةٌ، قاسيةٌ كالطبيعة، عطوفةٌ ومخيفةٌ في الوقت نفسه، تسود على كلّ بحر إيجة، وعلى آسيا الصغرى وسوريا والأناضول، وعلى كلّ غرب آسيا. تُسمّى **عشتار** في بابل، و**عشتروت** لدى الشعوب الساميّة و**جيا** أو **ريا** أو **سيبل** لدى الإغريق؛ ونجدها في مصر في ملامح **إيزيس**؛ والآلهة الذكريّة تابعةٌ لها. المرأة إلهةٌ عليا في مناطق السماء والجحيم البعيدة، وعلى الأرض محاطةً بالمحرّمات كجميع الكائنات المقدّسة، هي ذاتها محرّمٌ ـ تابو ـ؛ وبسبب القدرات التي تملكها نُظِر إليها على أنّها ساحرةٌ؛ وارتبطت بالصلوات، وأصبحت أحيانًا كاهنةً كالدرويديات[43] لدى السلتيّين القدامى؛ تساهم في بعض الحالات في حكم القبيلة، ويحدث حتّى أن تمارسه بمفردها. لم تترك لنا هذه العصور القديمة أيّة مراجع. لكنّ العصور الأبويّة الكبيرة تحتفظ في أساطيرها وآثارها وتقاليدها بذكرى زمنٍ كانت المرأة فيه تحتلّ مكانةً عاليةً للغاية. من وجهة نظرٍ نسويّةٍ، العصر البرهماني هو انكفاءٌ لعصر Rig Véda[44]، وهذا الأخير انكفاءٌ للمرحلة البدائيّة التي سبقته. كان وضع بدويّات الجاهليّة أعلى بكثيرٍ من ذاك الذي منحهنّ إيّاه القرآن. الصور الكبيرة لـ**نيوبيه** Niobé و**ميديه** Médée[45] تظهر عصرًا كانت فيه الأمّهات يفخرن بأطفالهنّ معتبراتٍ إيّاهم ملكهنّ الخاصّ. وفي أشعار **هوميروس**، لـ **أندروماك** و**هيكوب** أهمّيّةٌ لم تعد اليونان الكلاسّيكيّة توليها للنساء المختبئات في ظلّ الحريم.

دعت هذه الوقائع إلى افتراض أنّه كانت هناك في الأزمنة البدائيّة سيطرةٌ حقيقيّةٌ للنساء؛ هذه الفرضيّة التي اقترحها **باشوفن** Baschoffen وتناولها **إنجلز** ثانيةً؛ إذ رأى في الانتقال من الأموميّة إلى الأبويّة «الهزيمة التاريخية الكبرى للجنس الأنثويّ». لكنّ عصر المرأة الذهبيّ هذا في الحقيقة ليس سوى خرافةٍ. القول إنّ المرأة كانت الآخر يعني أنّه لم يكن هناك بين الجنسين علاقة تبادلٍ: الأرض، والأمّ، والإلهة، لم تكن شبيهةً للرجل؛ كانت قوّتها تتأكّد فيما وراء السلطة البشريّة: كانت إذًا خارج هذه السلطة. وكان المجتمع مذكّرًا

43- كاهنات الديانة الدرويدية التي كانت سائدةً في جزيرة كريت. (المترجمة)

44- أقدم النصوص السنسكريتية للهندوسيّة. (المترجمة)

45- من شخصيّات الميثولوجيا الإغريقيّة. (المترجمة)

على الدوّام؛ وكانت السلطة السياسيّة دومًا بيد الرجال. ويؤكّد **ليفي شتراوس Lévi-Straus** في نهاية دراسته حول المجتمعات البدائيّة أنّ «السلطة العامّة أو الاجتماعيّة فقط تعود دائمًا للرجال». الشبيه، الآخر، الذي هو نفسه أيضًا، الذي نقيم معه علاقاتٍ متبادلةً، هو دائمًا بالنسبة للذكر ذكرٌ آخر. والثنائيّة التي تتجلّى بصورةٍ أو بأخرى ضمن المجموعات تضع فئةً من الرجال في مواجهة فئةٍ من الرجال: والنساء جزءٌ من ممتلكات هؤلاء التي يتبادلونها فيما بينهم.

أتى الخطأ من الخلط بين صورتين للغيريّة تقصي إحداهما الأخرى بصرامةٍ. فبقدر ما تُعتبَر المرأة الآخر المطلق، أي غير الأساسيّ، مهما كان سحرها، من المستحيل تحديدًا أن ننظر إليها كذاتٍ أخرى[46]. إذًا لم تشكّل النساء أبدًا مجموعةً منفصلةً تُطرَح لذاتها ضمن علاقةٍ مباشرةٍ ومستقلّةٍ مع الرجال. يقول **ليفي شتراوس**[47]: «علاقة التبادليّة التي تؤسّس للزواج لا تقوم بين رجالٍ ونساءٍ، ولكن بين رجالٍ بواسطة نساءٍ هنّ فقط الباعث الأساسي لذلك». ولا يتأثّر الوضع الواقعيّ للمرأة بنمط النسب السائد في المجتمع الذي تنتمي إليه، إن كان النظام ذا نسبٍ أبويٍّ أو أموميٍّ، أو الاثنين معًا أو غير متمايزٍ (بما أنّ عدم التمايز لم يكن أبدًا صارمًا) فهي دومًا تحت وصاية الرجال؛ المسألة الوحيدة هي معرفة إن كانت ستبقى بعد الزواج خاضعةً لسلطة أبيها أو أخيها الأكبر ـ سلطةٌ تمتدّ أيضًا لتشمل أطفالها ـ أو إن كانت ستنتقل إلى سلطة الزوج. في جميع الأحوال: «المرأة ليست أبدًا سوى رمز ذرّيتها...النسب الأموميّ، هو يد والد المرأة أو أخيها التي تمتد حتّى قرية الأخ»[48]. هي ليست سوى وسيطةٍ للحقّ وليس المالكة له. في الحقيقة، يحدّد نظام النَسب علاقات المجموعتين الذكريّتين، وليس علاقة الجنسين. ولا يرتبط ظرف المرأة الواقعيّ عمليًا بطريقةٍ ثابتة بنمط الحقّ هذا أو ذاك. فقد تشغل في النظام الأموميّ منصبًا عاليًا جدًّا: مع ذلك يجب الانتباه إلى أنّ وجود امرأةٍ زعيمةٍ، ملكةٍ، على رأس قبيلةٍ لا يعني مطلقًا أنّ النساء فيها

46- سنرى أنّ هذا التمييز دام. العصور التي تنظر للمرأة على أنّها الآخر هي تلك التي ترفض بشدّةٍ إدخالها للمجتمع ككائنٍ بشريٍّ. لا تصبح كآخر شبيهٍ إلا إن فقدت هالتها الروحانيّة. لقد اعتمد معادو الحركة النسويّة دومًا على هذا التناقض يقبلون بطيب خاطرٍ بتمجيد المرأة كآخر بحيث تتشكّل غيريتها كمطلقٍ لا يتغيّر، ويرفضون إدخالها إلى العيش المشترك الإنسانيّ.

47- راجع ليفي شتراوس Lévy Strauss، التراكيب الأساسيّة للقرابة.

48-المرجع السابق نفسه.

سائداتٌ: لم يغيّر تنصيب **كاترين** قيصرة روسيا في شيءٍ مصير الفلّاحات الروسيّات؛ وكثيرًا ما عانت من أوضاعٍ مؤذيةٍ. عدا عن ذلك نادرةٌ جدًّا هي الحالات التي تبقى فيها المرأة في عشيرتها ولا يُسمح للرجل سوى بزيارتها بشكلٍ سريعٍ وخفيةً. تذهب لتسكن تحت سقف زوجها دائمًا تقريبًا: وهذا الأمر كافٍ لإظهار تفوّق الذكر. يقول **ليفي شتراوس**: «وراء تأرجح نمط النسب، يشهد بقاء الإقامة في منزل الزوج على علاقة عدم التناظر الأساسيّة بين الجنسين التي تميّز المجتمع البشري». وبما أنّها تبقي أطفالها بقربها، ينجم عن ذلك أنّ تنظيم أراضي القبيلة لا يتقاطع مع تنظيمها الطوطمي: فهذا مؤسّسٌ بشكلٍ صارمٍ، وذاك طارئٌ؛ ولكن للأولى الأهميّة الأكبر عمليًا لأنّ المكان الذي يعمل فيه الناس ويعيشون مهمٌّ أكثر من الانتماء الروحيّ. في الأنظمة الانتقالية الأكثر انتشارًا، هناك نوعان من الحقوق، أحدهما دينيٌّ، والأخر قائمٌ على إشغال الأرض والعمل بها، وهما أمران متداخلان. أمّا بالنسبة لكون الزواج مؤسّسةً علمانيّةً، فلم يمنعه ذلك من اكتساب أهمّيّةٍ اجتماعيّةٍ كبيرةٍ والأسرة الزوجيّة موجودةٌ بشكلٍ قويٍّ على الصعيد البشري رغم تجرّدها من أيّ معنىً دينيٍّ. حتى في المجموعات التي نصادف فيها حريّةً جنسيّةً كبيرةً، من المناسب أن تكون المرأة التي تنجب طفلًا متزوّجةً؛ ولم تنجح في تشكيل فئةٍ مستقلّةٍ لوحدها مع ذرّيتها؛ ولا تكفي حماية أخيها الدينيّة؛ فوجود زوجٍ أمرٌ مطلوبٌ. ولديه غالبًا مسؤوليّاتٌ كبيرةٌ تجاه الأطفال؛ ولا ينتمي هؤلاء إلى عشيرته، ولكنّه مع ذلك هو من يطعمهم ويربّيهم؛ وتنشأ بين الزوج والزوجة، والأب والابن، صلات تعايشٍ، وعملٍ، واهتمامٍ مشتركٍ، وحنانٍ. العلاقات بين هذه العائلة العلمانيّة والعشيرة الطوطميّة معقّدةٌ للغاية كما يشهد به تنوّع طقوس الزواج. يشتري الرجل في الأصل امرأةً من عشيرةٍ غريبةٍ، أو على الأقلّ هناك بين عشيرةٍ وأخرى تبادلٌ للخدمات، تعطي الأولى أحد أفرادها، وتعطي الثانية حيواناتٍ أو ثمارًا أو عملًا. ولكن بما أن الزوج يأخذ على عاتقه زوجته وأطفالها، يحدث أيضًا أن يتلقّى من أشقّاء الزوجة تعويضًا. لا يحدث التوازن بين الواقع الروحانيّ والاقتصاديّ. ويتعلّق الرجل غالبًا بأبنائه أكثر من أبناء أخيه؛ ويختار أن يؤكّد ذاته كأبٍ عندما يصبح مثل هذا التأكيد ممكنًا. ولهذا يميل كلّ مجتمعٍ إلى شكلٍ أبويٍّ عندما يدفع تطوره الرجلَ إلى أن يدرك ذاته ويفرض إرادته. لكنّ من المهمّ أن نشير إلى أنّه حتّى في الزمن الذي كان فيه حائرًا أمام خفايا الحياة والطبيعة

والمرأة لم يتخلَّ أبدًا عن سلطته؛ عندما كان خائفًا من السحر الكامن في المرأة، واعتبرها أساسًا، فهو من يعتبرها، وبذلك يحقّق ذاته كأساسٍ ضمن هذا الاستلاب الذي يقبله؛ رغم الفضائل المثمرة التي تملؤها، ظلّ الرجل سيّدها كما هو سيّد الأرض الخصبة؛ إنّها مكرّسةً لتكون خاضعةً، ممتلَكةً، مستغَلّةً كالطبيعة التي تمثّل هي خصوبتها السحريّة. و تتلقى المكانة التي تتمتّع بها في عيون الرجال منهم؛ إنّهم يركعون أمام الآخر، يعبدون الإلهة الأمّ. ولكن مهما بدت هذه قويّةً، فهي مُدرَكةٌ عبر مفاهيم خلقها الوعي الذكوريّ. كلّ الآلهة التي ابتدعها الرجل، مهما صنعها مخيفةً، هي في الواقع تابعةٌ له ولهذا سيكون بمقدوره تدميرها. هذه التبعيّة في المجتمعات البدائيّة غير مطروحةٍ أو معترفٍ بها، لكنّها موجودةٌ مباشرةً في النفس؛ وتُشهَر بسهولةٍ ما إن يعي الإنسان ذاته بشكلٍ أوضح، ما إن يجرؤ على تأكيد نفسه والمقاومة. وفي الواقع، حتّى عندما يدرك الإنسان نفسه كمعطىً، سلبيًّا، خاضعًا لصدف الأمطار والشمس، يحقّق ذاته أيضًا كتسامٍ، كمشروعٍ؛ ويتأكّد عنده الفكر والإرادة مقابل بلبلة الحياة وغموضها. الجد الطوطمي الذي تضطلع المرأة بمهمّة تجسّداته المتعدّدة هو بشكلٍ واضحٍ قليلًا أو كثيرًا مبدأٌ ذكرٌ تحت اسمه كحيوانٍ أو شجرةٍ؛ تديم المرأة وجوده الجسديّ، لكنّ دورها مُغذٍّ فقط وليس خالقًا؛ إنّها لا تخلق في أيّ مجالٍ كان؛ إنّها تعتني بحياة القبيلة مانحةً إيّاها أطفالًا وخبزًا، لا شيء آخر: تبقى مكرّسةً للمُلازَمة؛ تجسّد فقط الشكل الثابت للمجتمع، المنغلق على النفس. بينما يستمرّ الرجل في الاستئثار بالوظائف التي تفتح هذا المجتمع على الطبيعة وعلى مجمل المجموعة البشريّة؛ الأعمال الوحيدة التي تليق به هي الحرب والصيد والقنص، فيتغلّب على طرائد غريبةٍ ويلحقها بالقبيلة؛ تُمثّل الحرب والصيد والقنص توسّعًا للوجود، وتجاوزًا له نحو العالم؛ ويبقى الذكر التجسيد الوحيد للتسامي. ليست لديه بعدُ الوسائل العمليّة للسيطرة الكاملة على المرأة ـ الأرض، لا يجرؤ بعدُ على مواجهتها: ولكنّه يريد أن ينتزع نفسه منها. وأرى أنّنا يجب أن نبحث في هذه الرغبة عن السبب العميق لعادة الزواج الخارجي الشهيرة السائدة في المجتمعات ذات النسب الأمومي. حتى إن كان الرجل يجهل الدور الذي يلعبه في الإنجاب، فللزواج بالنسبة له أهمّيّةٌ كبرى: بواسطته يبلغ عزّته كبالغٍ ويتلقّى بالمقابل جزءًا من العالم؛ ويرتبط عبر أمّه بالعشيرة، وبالجدود، وبكلّ ما يشكّل جوهره؛ ولكنّه في كلّ وظائفه العلمانيّة، والعمل

والزواج، يسعى للانعتاق من هذه الحلقة، وتأكيد تساميه ضد المُثوليّة، وفتح مستقبلٍ مختلفٍ عن الماضي الذي يضرب فيه جذوره؛ ويأخذ تحريم سفاح القربى أشكالًا مختلفةً حسب نمط الانتماء المعروف في المجتمعات المختلفة، لكنّه يحافظ منذ العصور البدائيّة وحتّى أيّامنا هذه على نفس المعنى: يتمنّى الإنسان تملّك ما يختلف عنه؛ إنّه يرتبط بما يبدو له آخر مختلفًا عنه. بالتالي لا يجب أن تشترك الزوجة بمانا[49] الزوج، يجب أن تكون غريبةً عنه: وبالتالي غريبةً عن عشيرته. ويقوم الزواج البدائيّ أحيانًا على خطفٍ حقيقيٍّ أو رمزيٍّ: لأنّ العنف المُمارَس على الغير هو التأكيد الأكثر جلاءً على غيريّته. باكتساب زوجته بالقوّة، يثبت المحارب أنّه عرف كيف يستولي على ثروةٍ غريبةٍ ويمزّق حدود المصير الذي خطّته له ولادته؛ يبدي الشراء بمختلف أشكاله ـ كدفع ضريبةٍ أو أداء خدماتٍ ـ ألقًا أقلّ لنفس المعنى[50].

قليلًا قليلًا، جعل الرجل تجربته وسيطةً، وانتصر المبدأ الذكوريّ في تصوّراته كما في وجوده العمليّ. لقد تفوّق الفكر على الحياة، والتسامي على المُلازَمة، والتقنيّة على السحر والعقل على الوهم. يمثّل إنقاص قيمة المرأة مرحلةً ضروريّةً في تاريخ البشريّة: لأنّها كانت تأخذ مكانتها من ضعف الرجل وليس من قيمتها الإيجابيّة؛ كان غموض الطبيعة المقلق يتجسّد فيها: ويتملّص الرجل من قبضتها عندما يتحرّر من الطبيعة. سمح له الانتقال من الحجر إلى البرونز بتحقيق اكتساب الأرض بعمله واكتساب ذاته. ويخضع المُزارع لصُدَف الأرض والبذار والفصول، إنّه سلبيٌّ، يتضرّع وينتظر: ولهذا كانت الأرواح الطوطميّة تملأ العالم البشريّ؛ كان الفلّاح يخضع لأهواء هذه القوى التي كانت تحاصره. وعلى العكس

49- المانا هي قوى الطبيعة الخفيّة. (المترجمة)

50- نجد تأكيدًا لهذه الفكرة في أطروحة ليفي شتراوس المذكورة سابقًا، بشكلٍ مختلف قليلًا. ينتج عن دراسته أنّ تحريم سفاح القربى ليس هو الأمر البدئي الذي أنتج الزواج الخارجي؛ لكنّه يعكس بشكلٍ سلبيٍّ رغبةً إيجابيّةً بالزواج الخارجي. لا يوجد سبب مباشر لتكون المرأة غير صالحة للزواج بأبناء عشيرتها، لكن من المفيد اجتماعيًّا أن تكون جزءًا من المنتجات التي تقيم بها كل عشيرةٍ علاقات تبادلٍ مع العشيرة الأخرى بدل أن تنغلق على نفسها: «للزواج الخارجي قيمة إيجابية أكثر منها سلبية... فهو يمنع الزواج الداخلي... ليس لأن هناك أذىً من زواج الأقارب بالتأكيد، ولكن للزواج الخارجي فوائد تعود على المجتمع». يجب ألا تستهلك الجماعة النساء اللواتي يشكّلن أحد ممتلكاتها البيولوجية ولكن أن تجعل منهنّ أداة تواصلٍ؛ إذا كان الزواج بامرأةٍ من العشيرة ممنوعًا فذلك لأنها تكون عندئذٍ هي نفسها بدل أن تصبح «آخر»... قد تكون النساء المباعات في سوق النخاسة كتلك اللواتي كنّ يُقدَّمن في العصور البدائية. يلزمهنّ جميعًا «علامة الغيرية» الناتجة عن وضعٍ ضمن تركيبٍ وليس عن مواصفاتٍ فطريّةٍ؟

يقولب العامل الأداة حسبما يشاء؛ ويفرض عليها بيديه صورة مشروعه؛ يؤكّد ذاته كإرادةٍ حرّةٍ أمام الطبيعة الخامدة التي تقاومه ولكنّه ينتصر عليها؛ ينهال بضرباته على السندان، مسرّعًا إنجاز الأداة: بينما لا شيء بإمكانه تسريع نضج السنابل؛ يتعلّم مسؤوليّته من الشيء الذي يشكّله: يشكّله أو يخرّبه عمله الحاذق أو الأخرق، يصل به بحذره وبراعته إلى درجةٍ من الكمال يفخر بها: فلا يتعلّق نجاحه بمنّةٍ من الآلهة ولكن به شخصيًّا؛ ويتحدّى رفاقه، ويفخر بنجاحاته؛ تبدو له التقنيات الصحيحة أكثر أهمّيةً من الطقوس وإن كان ما يزال يراعيها؛ وتأتي المصالح العمليّة في المرتبة الأولى والقيم الروحانيّة في المرتبة الثانية؛ لم يتحرّر تمامًا من الآلهة: لكنّه يفصلها عنه بانفصاله عنها؛ يقصيها في سمائها الجليلة ويحتفظ لنفسه بالمجال الأرضي؛ تذوي السماء عندما تدوّي أولى ضربات المطرقة وتُفتَح مملكة الإنسان. يتعلّم قدرته. ويختبر السببيّة في علاقة ساعده الخلّاق بالشيء المصنوع: تنتش البذرة المزروعة أو لا تنتش بينما يتحوّل المعدن دائمًا بنفس الشكل بتأثير النار والتغطيس والعمل الآلي؛ ويُحتَجَز عالم الأدوات هذا ضمن مفاهيم واضحةٍ: يمكن عندئذٍ أن يظهر الفكر العقلاني والمنطق والرياضيّات. ويضطرب كلّ شكل الكون. كانت ديانة المرأة مرتبطةً بسيادة الزراعة، سيادة الزمن الذي لا يُختَزل، والاحتمال، والصدفة، والانتظار، والغموض؛ سيادة الرجل الفاعل هي سيادة الزمن الذي يمكن قهره كما الفضاء والضرورة والمشروع والعمل والعقل. حتّى عندما يواجه الرجل الأرض سيواجهها من الآن فصاعدًا كعاملٍ؛ فقد اكتشف أن بإمكانه إغناء الأرض، وأنّ من الجيّد تركها ترتاح، وأنّه يجب أن يعامل هذه البذرة بهذه الطريقة: إنّه هو من يُنبِت المحاصيل؛ فيحفر أقنيةً، ويروي الأرض أو يجفّفها، ويخطّ طرقًا، ويبني معابد: إنّه يخلق العالم من جديدٍ. والأقوام التي ظلّت تحت قبّة الآلهة الأمّ، تلك التي استمرّ فيها النسب الأمومي توقّفت كذلك عند مرحلةٍ من الحضارة البدائيّة. لأنّ المرأة لم تكن مقدّسةً إلا بقدر ما كان الرجل يجعل نفسه عبد مخاوفه الشخصيّة، شريك عجزه الخاصّ: كان يعبدها خوفًا وليس حبًّا. لم يستطع إكمال ذاته إلا حين بدأ بخلعها عن عرشها[51]. واتّخذ سيّدًا له الجوهر الذكريّ ذا القوّة الخلّاقة والنور والذكاء والنظام. إلى جانب الآلهة

51- هذا الشرط ضروريٌّ بالطبع ولكنّه غير كافٍ: هناك حضاراتٌ ذات نسبٍ أبويٍّ ثبتت في مرحلةٍ بدائيّةٍ؛ وأخرى، كحضارة المايا، انحدرت. لا يوجد تراتبٌ مطلقٌ بين المجتمعات ذات النسب الأموميّ وتلك ذات النسب الأبويّ: ولكن هذه الأخيرة فقط تطوّرت تقنيًّا وأيديولوجيًّا.

الأم يخرج إلهٌ، ابن، أو عشيقٌ، ما زال أقلّ منها ولكنّه يشبهها تمامًا ويشترك معها. هو أيضًا يجسّد جوهر الخصوبة: إنّه ثورٌ، المينوتور، وهو النيل الذي يخصب سهول مصر. يموت في الخريف ويولد من جديدٍ في الربيع بعد أن كرّست الزوجة ـ الأمّ المنيعة، ولكن الكئيبة، قواها للبحث عن جسده وإحيائه من جديدٍ. ونرى في «كريت» ظهور هذا الثنائيّ الذي نجده ثانيةً على كلّ شواطئ البحر الأبيض المتوسّط: في مصر **إيزيس** و**حورس**، وفي فينيقيا **عشتار** و**أدونيس**، وفي آسيا الصغرى **سيبل** و**آتيس**، وفي اليونان الهللنستيّة **ريا** و**زيوس**. ثم يتمّ خلع الأمّ الكبرى. في مصر، حيث يبقى وضع المرأة جيّدًا بصورةٍ استثنائيّةٍ، تبقى الإلهة **نوت** التي تمثّل السماء و**إيزيس** التي تمثّل الأرض المخصبة، زوجة النيل **أوزوريس**، ربّاتٍ ذوات أهمّيّةٍ قصوى؛ ولكنّ «رع»، الملك الشمس والنور والطاقة الذكوريّة هو الملك الأعلى مع ذلك. في بابل، لم تعد **عشتار** سوى زوجة **بل-مردوك**؛ وهو الذي يخلق الأشياء ويتكفّل بانسجامها. إله الساميّين ذكرٌ. عندما يسود **زيوس** في السماء، تتنحّى **جيا** و**ريا** و**سيبل**، وتبقى الإلهة **ديميتير** Déméter[52] عظيمةً ولكنّها ثانويّةٌ. لآلهة ديانة الفيدا الهندوسيّة véda زوجاتٌ ولكنّهنّ لا يُعبَدن بنفس مرتبتهم. وليس لـ**جوبيتر** الرومانيّ مثيلٌ[53].

وهكذا لم يكن انتصار الأبويّة وليد الصدفة ولا نتيجة ثورةٍ عنيفةٍ. منذ بدء البشريّة سمح امتياز الذكور البيولوجي لهم بتأكيد نفسهم وحدهم كذاتٍ سيّدةٍ؛ ولم يتنازلوا أبدًا عن هذا الامتياز؛ استُلبوا جزئيًّا في وجودهم للطبيعة والمرأة؛ لكنّهم استعادوه فيما بعد؛ وبذلك كانت المرأة، باضطرارها إلى لعب دور الآخر، لا تملك سوى قوّةٍ عابرةٍ: لم تختر مصيرها أبدًا لا كعبدةٍ ولا كربّةٍ. قال **فريزر** Frazer: «الرجال يصنعون الآلهة؛ والنساء يعبدنها»؛ هم من يقرّر فيما إذا كانت الآلهة العليا ذكورًا أم إناثًا؛ ويبقى مكان المرأة في المجتمع ما يخصّصونه لها؛ لم تفرض قانونها الخاص أبدًا.

52- ديميتير إلهة الزراعة لدى الإغريق. (المترجمة)

53- من المهمّ أن نشير (طبقًا لـ م. بغوين، M.Begouen، مجلّة علم النفس، عام 1934) إلى أنّه في الحقبة الأرينسيّة نصادف عددًا كبيرًا من التماثيل الصغيرة تمثّل نساءً ملحقاتهنّ الجنسيّة مضخّمة بشكلٍ مبالغ فيه: تلفت النظر سمنتهنّ وكبر فرجهنّ. عدا عن ذلك نجد أيضًا في المغاور فروجًا مفردةً، مرسومةً بشكلٍ فجٍّ. تختفي هذه الرسوم في العصر البلستوسيني والعهد المجدلي. في العهد الأرينسي نجد أيضًا تصويرًا لبعض الفروج ولكن بعددٍ قليلٍ وعلى العكس وجد عددٌ كبيرٌ من الأعضاء الذكريّة.

مع ذلك، فربّما لو ظلّ العمل المنتج بقدر قواها، لحقّقت المرأة مع الرجل انتصارًا على الطبيعة؛ لقد أكّد النوع البشريّ نفسه تجاه الآلهة بواسطة الأفراد الذكور والإناث؛ لكنّه لم يستطع أن يتملّك ما تعد به الأداة. لم يفسّر إنجلز انحطاطه بشكلٍ كاملٍ: لا يكفي القول إنّ اختراع البرونز والحديد غيّر كثيرًا توازن القوى المنتجة واكتملت بذلك دونيّة المرأة؛ لا تكفي هذه الدونيّة بحدّ ذاتها لشرح الاضطهاد الذي تعرّضت له. ما أضرّ بها هو أنّها أُقصيت من العيش المشترك البشري لأنّها لم تكن رفيقة عملٍ للعامل: لا يفسّر هذا الإقصاء كونُ المرأة ضعيفةً وذات قدرةٍ إنتاجيّةٍ أقلّ؛ ولم يرَ فيها الذكر شبيهًا له لأنّها لم تكن تشارك بطريقتها في العمل وفي التفكير، ولأنّها ظلّت عبدةً لخفايا الحياة؛ وبما أنّه لم يتبنّها، وبقيت في نظره تأخذ أبعاد الآخر، فلم يكن بإمكانه سوى أن يضطهدها. وحوّلت إرادتُه في التوسّع والسيطرة العجزَ الأنثويّ إلى لعنةٍ. وأراد استغلال الإمكانيات الجديدة التي فتحتها التقنيات الحديثة: فاستعان بيدٍ عاملةٍ مستعبَدةٍ، وحوّل شبيهه إلى عبدٍ. وبما أنّ عمل العبيد أكثر فعّاليّةً بكثيرٍ مما تستطيع المرأة تقديمه، فقد فقدت الدور الاقتصاديّ الذي كانت تقوم به في القبيلة. ووجد السيّد في علاقته بالعبد تأكيدًا لسيطرته الأكبر بكثيرٍ من السيطرة المخفّفة التي يمارسها على المرأة. ولأنّهم يجلّونها ويخشونها لخصوبتها، وباعتبارها آخر غير الرجل وتتحلّى بصفات الآخر المثيرة للقلق، فقد كانت المرأة تبقي الرجل تابعًا لها بصورةٍ ما وفي الوقت نفسه كانت تابعةً له؛ كانت علاقة السيد بالعبد المتبادلة موجودةً «حاليًا» بالنسبة لها وبذا أفلتت من العبوديّة. فالعبد غير محميٍّ بأي محرّمٍ (تابو)، وهو ليس سوى رجلٍ مستعبَدٍ، مشابهٍ إنّما أدنى: واحتاج الرهان الجدلي لعلاقته بالسيّد إلى قرونٍ كي يتفعّل؛ العبد ليس سوى حيوان تحميلٍ ذي وجهٍ بشريٍّ ضمن المجتمع الأبوي المنظّم: يمارس السيّد عليه سلطةً مستبدة؛ وبذلك يزداد غروره: ويحوّل ذلك ضد المرأة. فكلّ ما يكسبه، يكسبه ضدّها؛ وكلّما ازدادت قوّته، كلّما ضعفت هي. وخصوصًا عندما يصبح مالكًا للأرض[54] فيطالب أيضًا بملكية المرأة. فيما مضى كانت المانا والأرض تتملّكه: لديه الآن روحٌ، وأراضٍ؛ وتحرّر من المرأة وأصبح يطالب أيضًا بامتلاك امرأةٍ وذرّيةٍ. يريد أن يكون له كامل عمل الأسرة الذي يستخدمه لصالح حقوله ولهذا يجب أن يمتلك العمّال: فيستعبد

54- انظر الجزء الأول، الفصل الثالث.

زوجته وأولاده. كما يحتاج إلى ورثةٍ تستمرّ حياته على الأرض من خلالهم بما أنّه يورثهم أمواله ويردّون له التكريم الضروري لراحة نفسه بعد موته. تتطابق عبادة الآلهة المحلّيّة مع تأسيس الملكيّة الخاصّة ووظيفة الوريث اقتصاديّةً وروحيّةً في الوقت نفسه. وبالتالي منذ اليوم الذي كفّت فيه الزراعة عن أن تكون عمليّةً سحريّةً أساسًا وأصبحت أولًا عملًا خلّاقًا، ألفى الرجل نفسه قوّةً مولّدةً؛ فطالب بأطفاله كما يطالب بمحصوله[55].

لا توجد في الزمن القديم ثورةٌ إيديولوجيّةٌ أهمّ من تلك التي أحلّت قرابة العصب الأبويّة محلّ النسب الأموميّ؛ فأُنزِلت الأمّ إلى مصاف المربّية والخادمة وازدادت سيادة الأب؛ فهو من يملك الحقوق ويعطيها. ويعلن **أبولون** Apollon في كتاب «*أولينيد أشيل*» *les*[56] *Eulénides* d'Eschyle هذه الحقائق الجديدة: «ليست الأم من تنجب من يُسمّى طفلها: فهي ليست سوى المربّية للبذرة الموضوعة داخلها؛ الأب هو الذي ينجب. تتلقّى المرأة البذرة كمؤتمنةٍ غريبةٍ وتحتفظ بها إن شاءت الآلهة». من الجليّ أنّ هذه التأكيدات لا تنتج عن اكتشافٍ علميٍّ: فهي آراءٌ خاصّةٌ. وقد قادت الرجل خبرته السببيّة التقنيّة التي يستمدّ منها قدرته الخلّاقة إلى الاعتراف بأنّه ضروريٌّ للإنجاب كالمرأة. لقد قادت الفكرةُ الملاحظةَ؛ لكنّ هذه الأخيرة تكتفي بإعطاء الأب دورًا مساويًا لدور الأم: وقادت إلى افتراض أنّ شرط الحمل، على الصعيد الطبيعيّ، هو التقاء المني بالطمث؛ والفكرة التي يعبّر عنها **أرسطو** هي أنّ المرأة مادّةٌ فقط «الأفضل والأكثر روعةً هو مبدأ الحركة الذي هو الذكر لدى كلّ المخلوقات التي تولَد»، تعبّر هذه الفكرة عن إرادة قوّةٍ تفوق كلّ معرفةٍ. فعندما يستأثر الرجل بذرّيته، يتخلّص نهائيًا من سيطرة الأنوثة، ويكسب من المرأة السيطرة على العالم. فلا تعود المرأة تبدو سوى خادمةٍ، إذ كُرِّست للإنجاب ولمهام ثانويّةٍ، وجُرِّدت من أهميّتها العمليّة ومن مكانتها الروحيّة.

صوّر الرجال هذا الانتصار على أنّه نتيجة كفاحٍ عنيفٍ. تروي لنا إحدى أقدم نظريّات

55- كما كانت المرأة ممثّلةً بالأخاديد، تمثّل القضيب بالمحراث، وبالعكس. في رسمٍ من الحقبة الكاسيّة kassite يمثّل محراثًا رُسِمت رموز العمل الجنسيّ؛ ثم أعيد غالبًا تشكيل التماثل بين القضيب والمحراث. كلمة lak في بعض اللغات الأوسترالية ـ الآسيوية تعني القضيب والمعزقة. هناك صلاةٌ سريانيّةٌ موجّهةٌ إلى إلهٍ «خصّب محراثه الأرض».

56- من الميثولوجيا الإغريقيّة. (المترجمة)

نشأة الكون الآشوريّة ـ البابليّة انتصارهم ضمن نصٍّ يعود للقرن السابع يعيد إنتاج أسطورةٍ أقدم بكثيرٍ. فالمحيط والبحر، آتوم وتاميا، أنجبا عالم السماء، وعالم الأرض، وكلّ الآلهة العظيمة؛ ولكن عندما وجداها مشاغبةً أكثر مما يجب قرّرا إزالتها؛ وقادت تاميا، المرأة ـ الأم الصراع ضدّ أقوى أولادها وأجملهم، بل-مردوك وبعد أن تحدّاها هذا في معركةٍ رهيبةٍ، قتلها وشطر جسدها إلى نصفين؛ جعل من أحدهما القبّة السماويّة، ومن الثاني حامل العالم الأرضي؛ ثمّ نظّم الكون وخلق البشريّة.

في مأساة الأومنيد les Euménides التي تصوّر انتصار النظام الأبوي على الحقّ الأمومي، يقتل أورست أيضًا كليتمنستر. عبر هذه الانتصارات الدامية انتصرت القوّة الذكريّة، قوى النظام والنور الشمسيّة، على الفوضى الأنثوية. وبتبرئة أورست، تعلن محكمة الآلهة أنّه كان ابن أغاممنون قبل أن يكون ابن كليتمنستر. مات القانون الأمومي القديم، قتلته ثورة الذكر الجريئة. رأينا أنّ الانتقال إلى القانون الأبوي تمّ عبر انتقالٍ بطيءٍ في الحقيقة. كان الانتصار الذكري إعادة انتصارٍ: لم يفعل الرجل سوى امتلاك ما كان يمتلكه أصلًا؛ فوضع القانون انسجامًا مع الواقع. لم يكن هناك صراعٌ، ولا انتصارٌ، ولا هزيمةٌ. مع ذلك فلهذه الأساطير معنىً عميقٌ. في اللحظة التي أكّد الرجل فيها نفسه كذاتٍ وحرّيةٍ، حُدِّدت فكرة الآخر. منذ ذلك اليوم أصبحت علاقته بالآخر مأساويّةً: فوجود الآخر تهديدٌ وخطرٌ. أظهرت الفلسفة الإغريقية القديمة، التي يوافقها أفلاطون في هذه النقطة، أنّ الغيريّة هي نفس الإنكار وبالتالي الشرّ. وطرح الآخر يعني تحديد مانويّةٍ. ولهذا تعامل الديانات والتشريعات المرأة بكلّ هذه العدائيّة. في الحقبة التي ارتقى فيها الجنس البشريّ إلى كتابة أساطيره وقوانينه، استقر النظام الأبويّ نهائيًّا: فالذكور هم من يضع القوانين. ومن الطبيعيّ أن يعطوا للمرأة وضعًا تابعًا؛ وقد نتخيّل أنّهم ينظرون إليها بنفس العطف الممنوح للأطفال وللبهائم. ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث. يخشى المشرّعون المرأة بينما ينظّمون قمعها. و لم يحتفظوا من خصائصها المتجاذبة التي اكتسبتها سوى بالمظاهر السيّئة خصوصًا: فتحوّلت من مقدّسةٍ إلى دنسةٍ. أعطيت حوّاء لآدم لتكون رفيقته ففقدت انتماءها للنوع البشريّ؛ وعندما أرادت الآلهة الوثنيّة الانتقام من الرجال خلقت المرأة وأولى المخلوقات الأنثويّة، باندورا Pandore، هي من أطلقت كلّ الشرور التي تعاني منها البشريّة.

الآخر هو السلبية مقابل الفعّاليّة، والتنوّع الذي يكسر الوحدة، والمحتوى المعاكس للشكل، والفوضى التي تقاوم النظام. وهكذا تُكرّس المرأة للشرّ. ويقول **فيثاغورث** Pithagore: «هناك مبدأٌ جيّدٌ خلق النظام والنور والرجل؛ ومبدأٌ سيّئٌ خلق الفوضى والظلام والمرأة». وتعرّفها قوانين **مانو** Manou بأنّها كائنٌ شرّيرٌ من الملائم إبقاؤه في العبوديّة. وتشبّه في سفر اللاويين بحيوانات الركوب التي يملكها الأب. ولا تعطيها قوانين **سولون** Solon أيّ حقٍّ. ويضعها التشريع الروماني تحت الوصاية ويعلن أنّها «بلهاء». ويعتبرها قانون **كانون** Canon «مدخل الشيطان». ويعاملها القرآن باحتقارٍ مطلقٍ.

مع ذلك فالشرّ ضروريٌّ للخير، والمحتوى للفكرة، والليل للنور. يعرف الرجل أنّ المرأة ضروريّةٌ بالنسبة له، ولكي يشبع رغباته، ويديم وجوده؛ عليه أن يدخلها في المجتمع: و تتطهّر من دنسها الأصليّ بقدر ما تخضع للنظام الذي وضعه الذكور. وتعبّر قوانين **مانو** عن هذه الفكرة بقوّةٍ: «تكتسي المرأة بزواجها الشرعيّ نفس مزايا زوجها، كما يضيع النهر في المحيط، وتُقبَل بعد موتها في نفس الفردوس السماوي». وكذلك يرسم **الإنجيل** مادحًا صورة «المرأة القويّة». ورغم كره المسيحيّة للجسد، فهي تحترم العذراء المكرّسة والزوجة الطاهرة والمطيعة. بربط المرأة بالديانة، يمكن أن يكون لها دورٌ دينيٌّ هامٌّ: فالبراهمانيّة في الهند والفلامينيا في روما هما قدّيستان كزوجيهما؛ يسيطر الزوج ضمن الأسرة، لكنّ اتّحاد المبدأ الذكري بالأنثوي يبقى ضروريًّا لآليّة الخصوبة، والحياة، ونظام المجتمع.

تقابل الآخر والأنثى هذا، هو ما سينعكس فيما بعد على بقيّة تاريخها؛ وستظلّ حتّى أيّامنا هذه خاضعةً لإرادة الرجال. لكنّ هذه الإرادة ملتبسةٌ: فقد أُلحِقت المرأة تمامًا بمرتبة الشيء؛ غير أنّ الرجل يزعم أنّه يكسو بكرامته الخاصّة ما يكسبه ويملكه؛ ويحتفظ الآخر في نظره بشيءٍ من سحره البدائيّ؛ كيف يجعل من الزوجة خادمةً ورفيقةً في آنٍ معًا هو أحد المشاكل التي يحاول حلّها؛ وتطوّر موقفه عبر القرون، ما أدّى أيضًا إلى تطوّرٍ في قدر المرأة[57].

57- سندرس هذا التطوّر في الغرب. تاريخ المرأة في الشرق والهند والصين كان في الواقع تاريخ عبوديّةٍ طويلةٍ وثابتة. منذ العصور الوسطى وحتّى أيّامنا سنركّز هذه الدراسة على فرنسا ذات الوضع النموذجي.

- 3 -

ارتبط قدر المرأة عبر العصور بالملكيّة الفردية، بما أن قدوم هذه الملكية أنزلها من عرشها: ويمتزج تاريخها في قسمٍ كبيرٍ منه بتاريخ الإرث. نفهم الأهميّة القصوى لهذا الوضع إذا تذكّرنا أنّ المالك يستلب وجوده في الملكيّة؛ ويتمسّك بها أكثر من حياته ذاتها؛ إنّها تتجاوز الحدود الضيّقة لهذه الحياة الوقتيّة، فهي تستمرّ إلى ما بعد فناء الجسد، الذي هو التجسّد الأرضي والحساس للروح الخالدة؛ لكن هذا البقاء لا يتحقّق إلّا إن بقيت الملكيّة في يد مالكها: ولن تكون ملكه بعد الموت إلّا إن امتلكها أشخاصٌ يستمرّ عبرهم ويجد نفسه فيهم، يكونون ملكه. بالنسبة للوريث زراعة أرض الأب وعبادة روح الأب المتوفّى واجبٌ واحدٌ: يؤمّن بقاء الأجداد على الأرض وفي عالم ما تحت الأرض. بالتالي لن يقبل الرجل اقتسام أمواله ولا أولاده مع المرأة. لم ينجح في فرض مطالبه بشكلٍ كاملٍ وللأبد. ولكن عندما كان النظام الأبويّ قويًا، انتزع من المرأة كلّ حقوقها حول امتلاك الأموال ونقلها. عدا عن أنّه يبدو من المنطقيّ أن ينكرها عليها. فعندما نقبل أن أولاد امرأةٍ لم يعودوا أولادها، لا تعود لهم بالتالي أيّة صلةٍ بالمجموعة التي أتت الأمّ منها. لم تعد المرأة بعد الآن بالزواج مُعارةً من عشيرةٍ لأخرى: إنّها مقتلعةٌ جذريًا من المجموعة التي ولدت فيها ومُلحقةٌ بمجموعة زوجها؛ لقد اشتراها كما يشتري رأسًا من البهائم أو عبدًا، وفرض عليها آلهته المحلّيّة: وينتمي الأطفال الذين تنجبهم إلى عائلة الزوج. إن كانت وارثةً، سيستغلّونها بنقل ثروات أسرة أبيها إلى عائلة زوجها: لذا تُستثنى بعنايةٍ من التركة. وبما أنّها لا تملك شيئًا، لا تُرفع

إلى مكانة شخصٍ؛ وتصبح هي نفسها جزءًا من ممتلكات الرجل، أولًا والدها، ثم زوجها. وضمن النظام الأبوي الحصري، يستطيع الأب أن يقتل أولاده الذكور أو الإناث فور ولادتهم؛ ولكن في الحالة الأولى يحدّ المجتمع غالبًا من سلطته: يُقبل كلّ وليدٍ ذكرٍ طبيعي الخلقة؛ بينما عادة وأد البنات شائعةٌ جدًّا؛ كان هناك لدى العرب قتلٌ جماعيٌّ للأطفال: كان يلقى بالبنات فور ولادتهنّ في حفرٍ. قبول الطفلة الأنثى هو كرمٌ طوعيٌّ من الأب؛ ولا تُقبل المرأة في هذه المجتمعات إلا بنوعٍ من العفو الممنوح لها، وليس بصورةٍ شرعيةٍ كالذكر. على كلّ حال، يبدو دنس الولادة أكبر بالنسبة للأم عندما يكون المولود بنتًا: لدى العبريين يقرّر *سفر اللاويين* في هذه الحالة تطهيرًا أطول مرّتين مما لو كان المولود ذكرًا. وفي المجتمعات التي تسري فيها عادة «الديّة»، لا يطالبون سوى بمبلغٍ صغيرٍ عندما تكون الضحيّة امرأةً: فقيمتها بالنسبة للرجل مثل قيمة العبد بالنسبة للرجل الحرّ. وعندما تكون فتاةً يملك الأب جميع السلطات عليها؛ وينقلها بالزواج للزوج بكاملها. بما أنّها ملكه كالعبد وكحيوانات الركوب والأشياء فمن الطبيعي أن يكون للرجل من الزوجات ما يروق له؛ الأسباب الاقتصاديّة هي التي حدّت من تعدّد الزوجات؛ ويستطيع الزوج تطليق زوجاته حسب نزواته، ولا يمنحهنّ المجتمع تقريبًا أيّة ضمانةٍ. بالمقابل تخضع المرأة لعفافٍ صارم. وتسمح المجتمعات الأموميّة بتساهلٍ أخلاقيٍّ كبيرٍ رغم المحرّمات؛ فنادرًا ما يُطلب العفاف قبل الزواج، ولا ينظر إلى الخيانة بكثيرٍ من الصرامة. وعلى العكس، عندما أصبحت المرأة ملك الرجل، أرادها عذراء وطالبها بإخلاصٍ كاملٍ تحت طائلة أشدّ العقوبات؛ أكبر جريمةٍ هي المخاطرة بإعطاء حقّ الإرث لنسلٍ غريبٍ؛ ولهذا للأسرة الأبويّة الحق في قتل الزوجة المذنبة. وطول مدة استمرار الملكيّة الفرديّة، اعتبرت الخيانة الزوجيّة من طرف المرأة جريمة خيانةٍ عظمى. وتتعلّل كلّ الشرائع التي أبقت حتى أيامنا هذه على عدم المساواة في موضوع الخيانة بفداحة الخطأ الذي تقترفه المرأة التي تخاطر بإدخال ابن زنا إلى الأسرة. وإذا كان حقّ الشخص بأخذ ثأره بنفسه قد أبطل منذ أوغست Auguste، فتشريع **نابوليون** أيضًا يسمح للمحكمين بالتساهل مع الزوج الذي يثأر لنفسه. كانت المرأة تنجح في الاحتفاظ بحرّيةٍ كبيرةٍ بما يكفي عندما كانت ملك عشيرة الأب والعائلة الزوجيّة معًا، متنقلةً بين سلسلتي الصلات اللّتين كانتا تتداخلان وحتّى تتعاكسان، فكانت كل واحدةٍ من المجموعتين تدعمها

ضدّ الأخرى: كانت تستطيع مثلًا أن تختار زوجها حسب هواها غالبًا، بما أنّ الزواج لم يكن سوى حدثٍ علمانيٍّ لا يؤثّر على تركيب المجتمع العميق. حتّى في النظام الأبوي هي ملك والدها الذي يزوّجها على هواه؛ ثم عندما ترسل إلى منزل الزوج، لا تعود سوى شيئه وشيء الجماعة التي أُدخِلت إليها.

عندما تبقى الأسرة والملكيّة الفرديّة أسس المجتمع بلا منازعٍ، تبقى المرأة أيضًا مُستلَبةً بشكلٍ كاملٍ. وهذا ما جرى في العالم الإسلامي. فتركيبته إقطاعيّةٌ، أي أنّه لم تظهر دولةٌ قويّةٌ بما يكفي لتوحيد وإخضاع القبائل المختلفة: لم تعزل أيّة سلطةٍ سلطة الزعيم الأبوي. الديانة التي ظهرت في الوقت الذي كان فيه الشعب العربي محاربًا غازيًا أظهرت تجاه المرأة كلّ احتقارٍ. يقول *القرآن*: «الرجال قوّامون على النساء بما فضّلنا بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا». لم تملك أبدًا سلطةً حقيقيّةً ولا مكانةً روحيّةً. وتكدح البدويّة وتقود المحراث وتحمل الأثقال: فتقيم بذلك مع زوجها علاقة تبعيّةٍ متبادلةٍ، فتخرج بحرّيتها سافرة الوجه. وما زالت المسلمة المحجّبة والحبيسة اليوم في مختلف طبقات المجتمع نوعًا من العبدة. أذكر في قريّة كهوفٍ تونسيّةٍ مغارةً تحت الأرض كانت فيها أربع نساءٍ جالساتٍ القرفصاء: كانت الزوجة العجوز العوراء، بلا أسنانٍ، بوجهٍ أتلفه الزمن بشكلٍ فظيعٍ، تطهو عجائن على منقلٍ صغيرٍ وسط دخانٍ يدمع العيون؛ وكانت زوجتان أصغر سنًّا بقليلٍ ولكن مشوّهتا الوجه بنفس القدر تقريبًا تهدهدان أطفالًا بين ذراعيهما: كانت إحداهما ترضِع؛ وكانت شابةٌ مزيّنةٌ بشكلٍ رائعٍ بالحرير والذهب والفضة جالسةً أمام نول حياكةٍ تعقد خيوطًا من الصوف. عندما غادرت هذا الغار الكئيب ـ مملكة المثوليّة، والرحم، والقبر ـ صادفت في الممرّ الصاعد نحو الضوء الذكر مرتديًا الأبيض، ساطعًا بالنظافة، مبتسمًا، مضيئًا. كان عائدًا من السوق حيث تبادل الحديث مع رجالٍ آخرين عن أمور العالم؛ وسيمضي بضع ساعاتٍ في هذا المعزل الذي يخصّه في قلب الكون الواسع الذي ينتمي إليه والذي لم يكن مفصولًا عنه. بالنسبة للعجائز الذابلات، والعروس المكرّسة لنفس الانحطاط السريع، لم يكن هناك عالمٌ آخر سوى الكهف المدخن الذي لم يكنّ يخرجن منه إلّا ليلًا، صامتاتٍ محجّباتٍ.

وليهود الحقبة التوراتيّة تقريبًا نفس عادات العرب. فربّ العائلة متعدد الزوجات

ويستطيع تطليق زوجاته تقريبًا حسب هواه؛ ويُفرض تسليم العروس الشابة عذراء إلى زوجها تحت طائلة أشدّ العقوبات؛ وفي حالة الخيانة تُرجم؛ وتُحصر في الأعمال المنزليّة كما تثبته صورة المرأة القويّة: «تشتغل الصوف والكتّان.. وتنهض قبل أن يبزغ الفجر... ولا ينطفئ مصباحها ليلًا... ولا تعرف الكسل». وحتّى وإن كانت عفيفةً ومجتهدةً، فهي نجسةٌ، محاطةٌ بالمحرّمات؛ لا تُقبل شهادتها في المحكمة. ويتحدّث عنها سفر الجامعة بأكبر قدرٍ من الاشمئزاز: «المرأة التي قلبها فخٌّ وشبكةٌ والتي يداها قيودٌ أكثر مرارةً من الموت... وجدتُ رجلًا من بين ألفٍ لكنّي لم أجد امرأةً من بينهنّ جميعًا». عند موت زوجها، يفرض العرف أو القانون أن تتزوّج الأرملة شقيق المتوفّى. نصادف عادة زواج السلف هذه لدى كثيرٍ من شعوب الشرق. إحدى المشاكل المطروحة في جميع الأنظمة التي تخضع فيها المرأة للوصاية، هو الوضع المفروض على الأرامل. والحلّ الأكثر جذريّةً هو التضحية بهنّ على قبور أزواجهنّ. ولكن ليس صحيحًا أبدًا حتّى في الهند أنّ القانون فرض مثل هذه المحرقة؛ كانت قوانين **مانو** تقبل أن تحيا الزوجة بعد زوجها؛ لم تكن الانتحارات المذهلة ـ أمام الجميع ـ سوى عادةٍ أرستقراطيّةٍ. من الشائع أكثر بكثيرٍ أن توضع الزوجة تحت تصرّف ورثة زوجها. ويأخذ زواج السلف أحيانًا شكل تعدّد الأزواج؛ وللوقاية من مشاكل الترمّل تمنح المرأة جميع الأشقّاء في الأسرة أزواجًا، وهي عادةٌ تفيد أيضًا في حماية العائلة من العجز المحتمل للزوج. يبدو من نصٍّ لسيزار César أنّ كلّ رجال العائلة في مقاطعة بريتانيا الفرنسيّة كان لديهم بهذا الشكل عددٌ من النساء بشكلٍ مشتركٍ.

لم يستقرّ النظام الأبوي في كلّ مكانٍ بهذا الشكل الجذري. كانت قوانين **حمورابي** في بابل تعترف للمرأة ببعض الحقوق: فتأخذ حصةً من إرث الأب وعندما تتزوّج يعطيها والدها بائنةً. وتعدّد الزوجات عادةٌ شائعةٌ في فارس؛ وتتوجب على المرأة طاعةٌ تامّةٌ للزوج الذي يختاره لها والدها ما إن تبلغ الحيض؛ ولكنّها مكرّمةٌ أكثر من معظم شعوب الشرق؛ وسفاح القربى ليس ممنوعًا، وهناك حالات زواجٍ كثيرةٌ بين الأخ وأخته؛ ويعهد إليها بتربية الأطفال حتى سنّ السابعة إن كانوا صبيانًا، وبالنسبة للبنات حتّى زواجهنّ. وتستطيع المرأة أن تنال جزءًا من إرث زوجها إذا لم يكن الابن جديرًا به؛ وإذا كانت «زوجةً مميّزةً»، وإذا توفّي الزوج دون أن يترك ابنا بالغًا، يعهد إليها بالوصاية على الأطفال القصّر وبإدارة الأعمال. تبدي

قواعد الزواج بوضوحٍ أهمّية وجود ذرّيةٍ لربّ الأسرة. ويبدو أنّه كان هناك خمسة أشكالٍ للزواج[58]: 1. تتزوّج المرأة بموافقة أهلها، عندها تُدعى «زوجةً مميّزةً»، وينتمي أطفالها لزوجها، 2. عندما تكون المرأة وحيدةً لأهلها، يعطى أول أطفالها لأهلها ليعوضّهم عنها؛ ثم تصبح «زوجةً مميّزةً»، 3. إذا مات رجلٌ أعزب، تمنح أسرته بائنةً لامرأةٍ غريبةٍ وتُزوِّجها: وتسمّى زوجةً متبنّاةً؛ ويُنسَب نصف الأطفال إلى المتوفّى، والنصف الآخر للزوج الحيّ، 4. إذا تزوّجت أرملةٌ دون أولادٍ مرّةً ثانيةً تسمّى زوجةً خادمةً: وعليها أن تنسب نصف أولادها من زوجها الثاني إلى الزوج المتوفّى. 5. المرأة التي تتزوّج دون موافقة أهلها لا يمكنها أن ترثهم قبل أن يصبح ابنها البكر بالغًا ويعطيها «كزوجةٍ مميّزةٍ» لأبيه هو؛ وإذا مات زوجها قبل ذلك، تعتبر قاصرًا وتوضع تحت الوصاية. وضع الزوجة المتبنّاة والزوجة الخادمة يعطي كلّ رجلِ الحقّ في أن يستمرّ حيًّا عبر ذرّيّةٍ لا تربطه بها بالضرورة صلة دمٍ. وهذا يؤكّد ما كنا نقوله قبلًا: اخترع الرجل هذه الصلة نوعًا ما عندما أراد أن يمنح نفسه بعد مماته خلودًا فوق الأرض وتحتها.

كان وضع المرأة في مصر هو الأفضل. عندما أصبحت الآلهة ـ الأمهات زوجاتٍ احتفظن بهيبتهنّ؛ والوحدة الدينيّة والاجتماعيّة هي الأسرة؛ وتبدو المرأة حليفًا ومكمّلًا للرجل. سحرها قليل العدائيّة بحيث أنّه تمّ حتّى تجاوز سفاح القربى ولم يتردّدوا في الخلط بين الأخت والزوجة[59]. ولديها نفس حقوق الرجل، ونفس القوّة القانونيّة؛ وترث، وتملك الأموال. هذا الحظّ المتميّز ليس وليد الصدفة: إنّه آتٍ من أنّ الأرض في مصر القديمة كانت عائدةً إلى الملك وطبقة الكهنة والمحاربين العليا؛ بالنسبة للملّاكين الخاصّين كانت الملكيّة العقاريّة استثمارًا فقط وليس تملّكًا؛ وتبقى الأموال غير قابلةٍ للنقل، لم يكن للأموال المنتقلة بالوراثة قيمةٌ تذكر ولم يكن هناك أيّ مانعٍ لاقتسامها. وبغياب رأس المال الخاصّ احتفظت المرأة بكرامة شخصٍ. كانت تتزوّج بحرّيتها، وعندما تترمّل تستطيع أن تتزوّج ثانيةً حسب رغبتها. كان الذكر يمارس تعدّد الزوجات، ولكن رغم أنّ كلّ أولاده كانوا شرعيين لم تكن له سوى زوجةٍ حقيقيّةٍ واحدةٍ، الوحيدة المنضمّة لديانته والمرتبطة به

58- هذه الداسة مأخوذة من دراسة ك. هوارت C.Huart في «فارس القديمة والحضارة الإيرانيّة»، ص195-196.

59- في بعض الحالات على الأقلّ يجب على الأخ أن يتزوّج أخته.

شرعيًا: لم تكن الأخريات سوى عبداتٍ محروماتٍ من كلّ الحقوق. لم تكن الزوجة الرئيسة تغيّر وضعها عندما تتزوج: كانت تبقى سيدة أملاكها وحرّةً في توقيع العقود. عندما أقام الفرعون بوخاريس الملكيّة الفرديّة، كانت المرأة تحتل موقعًا عاليًا بحيث لا يمكن نزعها منه؛ افتتح بوخاريس عصر العقود وأصبح الزواج عقدًا. وكان هناك ثلاثة أنواع من العقود: الأول يتعلّق بالزواج الاستعبادي؛ كانت المرأة تصبح فيه متاع الرجل لكنّها كانت تشترط أحيانًا ألّا يكون هناك خليلةٌ أخرى سواها؛ مع ذلك كانت الزوجة الشرعية تعتبر مساويةً للرجل وكانت كلّ أموالهما مشتركةً؛ كان الزوج يتعهّد غالبًا بأن يدفع لها مبلغًا من المال في حالة الطلاق. قادت هذه العادة بعد قليلٍ إلى نوعٍ من العقود مفيدٍ للمرأة بشكلٍ خاصٍّ: كان لها على الزوج دينٌ صوريّ، وكانت هناك عقوباتٌ قاسيةٌ للخيانة الزوجيّة، لكنّ الطلاق كان حرًّا تقريبًا بالنسبة للزوجين. كانت العقود تحدّ كثيرًا من تعدّد الزوجات؛ فكانت الزوجات يستولين على الثروة وينقلنها لأولادهنّ ما أدّى إلى نشوء طبقة أثرياءٍ (بلوتوقراطيّةٍ). أقرّ بطليموس فيلوباتر أنّ النساء لا يستطعن التنازل عن أموالهنّ دون إذن الزوج، ما يجعل منهنّ قاصراتٍ للأبد. ولكن حتّى في الوقت الذي كان فيه لديهنّ وضعٌ مميّزٌ، فريدٌ في العالم القديم، لم يكنّ مساوياتٍ اجتماعيًّا للرجال؛ ولأنّهنّ كنّ مشتركاتٍ في الديانة والحكومة، كان باستطاعتهنّ أن يصبحن ملكاتٍ، ولكنّ الفرعون كان ذكرًا؛ وكان الكهنة والمحاربون ذكورًا؛ ولم يكنّ يتدخّلن في الحياة العامّة إلا بشكلٍ ثانويٍّ؛ وكان يُطلَب منهنّ في الحياة الخاصّة إخلاصٌ دون معاملةٍ بالمثل.

وتبقى عادات الإغريق قريبةً جدًّا من العادات الشرقيّة؛ مع ذلك لا نعرف تمامًا لماذا لم يمارسوا تعدّد الزوجات. في الواقع، كانت إعالة الحريم دائمًا عبئًا ثقيلًا: سليمان الباذخ، وسلاطين ألف ليلةٍ وليلةٍ، والملوك، والزعماء، والملّاكون الأغنياء هم من يستطيعون التمتّع بمثل هذا السراي الواسع؛ ويكتفي الرجل العادي بثلاث أو أربع نساءٍ؛ لم يكن الفلّاح يملك أبدًا أكثر من اثنتين. من جهةٍ أخرى ـ إلّا في مصر حيث لم يكن هناك ملكيّةٌ عقاريّةٌ خاصّةٌ ـ أدّى الاهتمام بابقاء الميراث كاملًا إلى إعطاء الابن البكر حقوقًا خاصّةً في الإرث الأبويّ؛ من هنا نشأت مراتب بين النساء، بما أنّ أمّ الوارث الرئيسيّ تكسب إجلالًا أكبر من بقيّة الزوجات. وإذا كانت المرأة تملك مالًا خاصًّا بها، أو لديها بائنةٌ، فهي بالنسبة لزوجها

شخصٌ: يرتبط بها ارتباطًا دينيًّا حصريًّا. وانطلاقًا من ذلك دون شكٍّ نشأت عادة عدم الاعتراف سوى بزوجةٍ واحدةٍ: في الحقيقة كان المواطن الإغريقي متعدّد الزوجات بما أنّه كان بإمكانه إشباع رغباته لدى عاهرات المدينة وخادمات الخدر. ويقول **ديموستين** Démosthène: «لدينا محظيّاتٌ لمتعة الفكر وخليلاتٌ لمتعة الحواس، وزوجاتٌ ليمنحننا أولادًا». كانت الخليلة تحلّ محل الزوجة في سرير السيّد عندما تكون هذه مريضةً أو في الحيض أو حاملًا أو ولدت حديثًا؛ بحيث أنّ الخلاف بين الخدر والحريم لم يكن كبيرًا. وكانت الزوجة في أثينا حبيسة مسكنها تمارس عليها القوانين ضغوطًا قاسيّةً وتراقبها محاكم خاصّةٌ. وتبقى طول حياتها ضمن أقلّيّةٍ دائمةٍ؛ تحت سيطرة وليّ أمرها: سواء كان والدها أو الزوج أو وريث الزوج، أو الدولة في حال عدم وجودهم، ممثّلةً بموظّفين؛ هؤلاء هم أسيادها ويتصرّفون بها كبضاعةٍ، وتمتد سلطة الوليّ على الشخص وأمواله؛ فيستطيع الولي نقل حقوقه على هواه: فالأب يعطي ابنته للتبنّي أو للزواج؛ ويستطيع الزوج عندما يطلّق زوجته إعطاءها لزوجٍ آخر. ويؤمّن القانون الإغريقيّ مع ذلك للمرأة بائنةً تستخدم لإعالتها ويجب إعادتها كاملةً إليها إن فسخ الزواج؛ ويسمح أيضًا في بعض الحالات النادرة جدًّا للزوجة بطلب الطلاق؛ لكنّ هذه هي الضمانات الوحيدة التي يمنحها إياها المجتمع. ويعطى كلّ الإرث بالطبع للابناء الذكور، ولا تمثّل البائنة مالًا مكتسبًا بالنسب ولكن نوعًا من الخدمة المفروضة على الوليّ. مع ذلك، بفضل استخدام البائنة لم تعد الأرملة ملكًا يورّث بين أيدي ورثة زوجها: إذ تعود تحت وصاية أهلها.

إحدى المشاكل التي تطرح في المجتمعات القائمة على قرابة النسب الأبويّ، هي مصير الإرث في حال غياب ذرّيةٍ من الذكور. وضع الإغريق عادة الوريثة الوحيدة l'épiclèrat: فعلى الوريثة أن تتزوّج من أكبر أقاربها من جهة أبيها سنًّا؛ بذلك تنتقل الأموال التي تركها لها أبوها لأبناءٍ ينتمون لنفس المجموعة، وتبقى الأراضي ملك العائلة؛ لم تكن الوريثة الوحيدة وريثةً فعليًّا، ولكن فقط آلةً لإنتاج وريثٍ؛ كانت هذه العادة تضعها كلها تحت رحمة الرجل بما أنّها كانت تُمنح بشكلٍ آليٍّ لأكبر ذكور أسرتها والذي كان غالبًا عجوزًا.

بما أنّ سبب اضطهاد المرأة كان الرغبة في استمرار العائلة وإبقاء الميراث كاملًا، فبقدر ما تفلت من العائلة تفلت إذًا أيضًا من هذه التبعيّة المطلقة؛ وإذا رفض المجتمع

العائلة بإنكاره الملكيّة الفرديّة، فسيتحسّن مصير المرأة كثيرًا. كانت اسبارطة التي يسود فيها نظامٌ مشتركٌ المدينة الوحيدة التي كانت المرأة فيها تعامل على قدم المساواة تقريبًا مع الرجل. كانت البنات يربّين كالصبيان؛ لم تكن الزوجة حبيسة منزل زوجها: ولم يكن يسمح له إلّا بزياراتٍ ليليّةٍ سريعةٍ؛ ولم تكن زوجته ملكه تمامًا فباسم تحسين النسل كان بإمكان رجلٍ آخر أن يطلب الارتباط بها: حتّى مفهوم الخيانة اختفى باختفاء الإرث؛ بما أنّ كلّ الأولاد ينتمون لكلّ المدينة، فالنساء لسن أيضًا مستعبداتٍ لسيّدٍ غيورٍ: أو بالعكس يمكن القول إنّ المواطن حين لا يملك مالًا خاصًّا به ولا ذرّيّةً خاصّةً لم يعد يملك امرأةً كذلك. وتتحمّل النساء استعباد الأمومة كما يتحمّل الرجال استعباد الحرب: ولكن عدا القيام بهذا الواجب المدني، لم تقيّد أيّ ضغوطٍ حرّيّتهنّ.

إلى جانب النساء الحرّات اللواتي تحدثنا عنهنّ والعبدات اللواتي يعشن داخل الخدر ـ اللواتي يمتلكهنّ زعيم العائلة بشكلٍ مطلقٍ ـ نصادف في اليونان عاهراتٍ، كانت الشعوب البدائيّة تعرف بيوت الدعارة، حيث تستسلم المرأة للضيف العابر، وكان لذلك أسباب روحانيّةٌ دون شكٍّ، والبغاء المقدّس يخدم الجماعة بتحريره قوى الخصوبة الغامضة. كانت هذه العادات موجودةً في العصور القديمة الكلاسّيكيّة. ويذكر **هيرودوت** أنّه في القرن الخامس قبل الميلاد كان على كلّ امرأةٍ في بابل أن تمنح نفسها مرّةً في حياتها لرجلٍ غريبٍ في معبد ميليتا لقاء قطعة نقودٍ تعطيها لصندوق المعبد؛ وكانت تعود بعد ذلك لبيتها لتعيش في العفّة. ودام البغاء الديني حتّى اليوم لدى «عوالم» مصر وراقصات البايادر الهنديّات اللواتي يشكّلن طبقةً محترمةً من الموسيقيّات والراقصات. لكن غالبًا، في مصر والهند، وغرب آسيا، حدث انزلاقٌ من البغاء المقدّس إلى البغاء الشرعي، فقد وجدت الطبقة الكهنوتيّة في هذه التجارة طريقةً إلى الإثراء. كان لدى العبريين حتّى بغايا يُشترَين. في اليونان، وخصوصًا على ساحل البحر، في الجزر والمدن التي يأتي إليها كثيرٌ من الأجانب كانت هناك معابد تلتقي فيها «شاباتٌ مضيفاتٌ بالأجانب» كما يسمّيهنّ **بينار Pinare**: وتعطى النقود التي يتلقينها للمعبد، أي للكهنة وبشكلٍ غير مباشر لإعالتهم. في الحقيقة، كانت حاجات البحّارة والمسافرين الجنسيّة تُستغَلّ في كورنت وسواها بشكلٍ منافقٍ؛ وهذه هي تجارة البغاء. وأسّسها **سولون**. إذ اشترى عبداتٍ آسيويّاتٍ وحبسهنّ في مواخير تابعةٍ

للدولة موجودةٍ في أثينا بقرب معبد **فينوس**، غير بعيدٍ عن الميناء، وأعطيت إدارتها إلى مدراء مكلّفين بالإدارة الماليّة للمؤسّسة؛ وكانت كلّ فتاةٍ تتقاضى راتبًا وتعود الأرباح إلى الدولة. فيما بعد فُتحت بيوت دعارةٍ خاصّةٍ سمّيت كاباليليا «kapaliléia»: وكانت اللافتة تحمل رسم قضيبٍ منتصبٍ أحمر. وسرعان ما دخلت إليها عدا العبدات نساءٌ يونانيّاتٌ فقيراتٌ. كانت المواخير تعتبر ضروريّةً لدرجة أنّها اعتُبرت أماكن لجوءٍ ذات حصانةٍ. مع ذلك كانت المحظيات موسوماتٍ بالعار، لم يكن لهنّ أيّ حقٍّ اجتماعيٍّ، وكان أولادهنّ ممنوعين من إعالتهنّ؛ كان عليهنّ ارتداء زيٍّ خاصٍّ من نسيجٍ مبرقشٍ مزيّنٍ بباقات الزهور وصبغ شعرهن باللون الأصفر البرتقاليّ. وعدا عن النساء المحبوسات في المواخير كان هناك أيضًا محظيّاتٌ حرّاتٌ يمكن تصنيفهن في ثلاث زمرٍ: الديكترياد les dictériades أي المومسات الرخيصات المماثلات لمومسات اليوم؛ والأوليتريد aulétrides اللواتي كنّ راقصاتٍ وعازفات ناي؛ والمحظيّات، الأشبه بسيدات مجتمعٍ آتياتٍ عمومًا من كورنت، كانت لهنّ علاقاتٌ رسميّةٌ مع أبرز رجال اليونان وكنّ يلعبن دور «سيّدات المجتمع» الحديثات. تُصادف الأوليّات بين المتحرّرات أو الفتيات اليونانيّات من الطبقات الدنيا؛ يستغلّهن قوّادون، ويحيين حياةً بائسةً. وكانت الثانيات ينجحن غالبًا في الإثراء بفضل مواهبهنّ الموسيقيّة: أشهرهنّ كانت «**لاميا**»، عشيقة **بطليموس** مصر، ثم ملك مقدونيا **ديمتريوس بوليورسيت** الذي قهره. أمّا الأخيرات، فنعرف اشتراك العديدات بمجد عشّاقهنّ. كنّ حرّات التصرّف بأنفسهنّ وأموالهنّ، ذكيّاتٍ، مثقّفاتٍ، فنّاناتٍ، عوملن كأفرادٍ من قِبل الرجال الذين كانوا مسرورين بعملهنّ. وبما أنّهنّ أفلتن من العائلة، وقبعن على هامش المجتمع، فقد أفلتن أيضًا من الرجل: بالتالي ظهرن له كمماثلاتٍ ومساوياتٍ تقريبًا. تؤكّد **أسبازيا** و**فرينيه** و**لاييس** تفوّق النساء المتحرّرات على الأمّ الشريفة.

ما عدا هذه الاستثناءات اللامعة، خُفضت مرتبة المرأة الإغريقيّة إلى نصف عبوديّةٍ؛ حتّى أنّه لم تكن لديها حرّية استنكار ذلك: بالكاد احتجّت **أسبازيا** قليلًا وبشكلٍ أكثر حماسةً **سافو**. تبقى لدى **هوميروس** ذكرى مبهمةٌ من الحقبة البطوليّة التي كان فيها للنساء بعض القوّة: مع ذلك كان المحاربون يطردونهنّ بقسوةٍ إلى مخادعهنّ. نجد نفس الاحتقار لدى الشاعر الإغريقي **هيزيود** Hésiode: «من وثق بامرأةٍ وثق بلصٍّ». في الحقبة الكلاسّيكيّة

الكبرى، حُصرت المرأة بعزمٍ في الخدر. كان **بركليس** يقول: «أفضل امرأةٍ هي من يتحدّث الرجال عنها أقلّ من سواها». **أفلاطون** الذي قصد قبول نصيحة السيّدات في إدارة الجمهوريّة ومنح الفتيات تعليمًا حرًّا هو استثناءٌ؛ أثار سخريّة **أرسطوفان** Aristophane؛ في «تمثيليّة ليزيستراتا» ردّ زوجٌ على سؤال زوجته التي سألته عن الأمور العامّة: «هذا لا يعنيك. اسكتي وإلا ضربتك... انسجي لوحتك». ويعبّر **أرسطو** عن الرأي العامّ عندما يعلن أنّ المرأة هي امرأةٌ بسبب نقصٍ، وأنّ عليها أن تعيش حبيسة منزلها تابعةً للرجل. ويؤكّد قائلًا: «العبد محرومٌ تمامًا من حرّيّة التشاور؛ والمرأة تملكها، ولكن ضعيفةً وغير فعّالةٍ». وحسب **كزينوفون** Xénophone: المرأة وزوجها غريبان للغاية عن بعضهما: «هل هناك أناسٌ تحادثهم أقلّ مما تفعل مع زوجتك؟ ـ قلائل...»؛ كلّ ما يُطلب من المرأة في الإيكونوميك L`Economique هو أن تكون ربّة منزلٍ متيقّظةً، حذرةً، اقتصاديّةً، مجتهدةً كالنحلة، مديرةً مثاليّةً. لم يمنع الوضع المتواضع الذي وضعت فيه المرأة الإغريق من معاداتها. في القرن السابع قبل الميلاد نقرأ لدى الشاعر الإغريقي **سيمونيد دامورغا** Simonide d'Amorga: «النساء أكبر شرٍّ خلقه الله: وإن بَدَون مفيداتٍ أحيانًا، فسريعًا ما يتحوّلن إلى مصدر قلقٍ لسادتهنّ». ولدى الشاعر **هيبوناكس** Hipponax: «لا يوجد في حياتك سوى يومين تسعدك زوجتك فيهما: يوم زفافها ويوم دفنها». ويبدو الأيونيون في تاريخ مدينة ميله Milet الأكثر فظاظةً: نعرف حكاية سيّدة إيفيز من بين حكايا أخرى. في هذه الحقبة ما يؤخذ خصوصًا على النساء هو أنّهنّ كسولاتٌ، مشاكساتٌ، مبذّراتٌ، أي تمامًا عكس ما يطلب منهنّ. كتب المؤلّف **ميناندر** Ménandre: «هناك وحوشٌ على الأرض وفي البحر، لكنّ أكبرها هي المرأة. إنّها عذابٌ لا يفارقك». عندما اكتسبت المرأة بعض الأهمّيّة بتشريع البائنة لاموها لغطرستها؛ وتلك إحدى مواضيع **أريسطوفان** و**ميناندر** المعتادة. «تزوّجت ساحرةً لديها بائنةٌ. تزوّجتها من أجل حقولها وبيتها وكان ذلك، يا أبولون، أكبر بلاءٍ!...» «ملعونٌ هو ذلك الذي اخترع الزواج والثاني والثالث والرابع وكلّ من قلّدوه». «إن كنتَ فقيرًا وتزوّجت امرأةً غنيّةً، تصبح عبدًا وفقيرًا في الوقت نفسه». كانت المرأة الإغريقيّة خاضعةً لسيطرةٍ وثيقةٍ بحيث لم تكن هناك فرصةٌ لانتقاد أخلاقيّاتها، ولم يكن الجنس موضع تحقيرٍ لديها. ما كان يثقل كاهل الرجال هي أعباء الزواج واستعباده: هذا يدعنا نفترض أنّه رغم صرامة وضع

المرأة، ومع أنّه لم تكن لديها أيّة حقوقٍ تقريبًا، فلا بدّ أنّها كانت تحتلّ في المنزل مكانةً هامّةً وتتمتّع ببعض الاستقلاليّة؛ كانت مكرّسةً للطاعة ولكن كان بإمكانها العصيان؛ وكانت تستطيع إرهاق زوجها بالمشاحنات والدموع والثرثرة والشتائم، وكان الزواج قيدًا أيضًا على الرجل بينما كان يُفترض أن يستعبد المرأة. وتتلخّص في شخصيّة **كزانتيب**[60] كل شكاوى المواطن اليوناني من الزوجة المشاكسة ومصائب الحياة الزوجيّة.

*

يحدّد تاريخ المرأة الرومانيّة صراع العائلة والدولة. كان الأتروريّون **les Etrusques** يشكّلون مجتمعًا ذا نسبٍ أموميٍّ ومن المحتمل أنّ روما في زمن الملكيّة كانت ما تزال تعرف الزواج الخارجيّ المرتبط بنظام الحقّ الأمومي: لم يكن ملوك اللاتين يتناقلون السلطة بالوراثة. والمؤكّد أنّ الحقّ الأبويّ تأكّد بعد موت **تاركين** Tarquin: فأصبحت الملكيّة الزراعيّة والممتلكات الخاصّة، وبالتالي العائلة، خليّة المجتمع. وغدت المرأة أسيرة الإرث بشكلٍ وثيقٍ وبالتالي مجموعة العائلة: وحرمتها القوانين حتّى من جميع الضمانات التي كان يُعتَرف بها للنساء الإغريقيّات؛ فأمضت حياتها في العجز والعبوديّة. وأقصيت بالطبع من الشأن العامّ، وحرّمت عليها بصرامةٍ كلّ «مصلحةٍ ذكوريّةٍ»؛ وظلّت قاصرًا إلى الأبد في حياتها المدنيّة. لا تمنع مباشرةً من تسلّم حصّتها في الإرث الأبوي، ولكنّها تمنع من أخذها بطريقةٍ غير مباشرةٍ: إذ تخضع لوصاية وصيٍّ. قال **غايوس** Gaiius: «وُضِعت الوصاية لمصلحة الأوصياء أنفسهم، كيلا تستطيع المرأة، التي هم ورثتها المحتَملون، أن تسلبهم إرثهم عبر وصيّةٍ، ولا أن تنقصها عبر هباتٍ أو ديونٍ». أوّل وصيٍّ على المرأة أبوها؛ وفي حال غيابه يحلّ محلّه الأنسباء من جهة الأب. وعندما تتزوّج المرأة، تصبح «بيد» زوجها؛ وهناك ثلاثة أشكالٍ للزواج: La conferratio أو الزواج الديني، حيث يقدّم الزوجان لـ**جوبيتر** روما حلوى بوجود كبار الكهنة؛ وCoemptio La وهو بيعٌ صوريٌّ يقوم الأب من خلاله ببيع ابنته صوريًّا للزوج؛ وL`usus أي حقّ الملكيّة التالي لمساكنةٍ لمدّة عامٍ؛ وجميعها «بوضع اليد» أي أن الزوج يحلّ محلّ الأب أو الأنسباء الأوصياء؛ وتُعامَل زوجته كإحدى بناته، فهو الذي يملك من الآن فصاعدًا كل سلطةٍ عليها وعلى أملاكها. ولكن منذ حقبة قانون الألواح الاثني عشر،

60- كزانتيب زوجة سقراط، حوّلت حياته جحيمًا. (المترجمة)

بما أنّ الرومانيّة كانت تنتمي لعشيرتي أبيها وزوجها في آنٍ معًا، نشأت صراعاتٌ أفضت إلى تحرّرها الشرعيّ. فالزواج «بوضع اليد» يجرّد الأنسباء الأوصياء بالفعل. ولحماية مصالح الأقارب من جهة الأب، ظهر الزواج دون وضع اليد؛ في هذه الحالة تبقى ممتلكات المرأة تحت تصرّف الأوصياء، ولا يعود للزوج حقٌّ إلا على شخصها؛ وهو يتقاسم هذه السلطة مع أبيها الذي يحتفظ بسلطةٍ مطلقةٍ على ابنته. وتكلّف المحكمة الأسرية بحلّ الخلافات التي قد تنشأ بين الأب والزوج: ويسمح مثل هذا التشريع للمرأة باللجوء من الأب إلى الزوج أو من الزوج إلى الأب؛ فهي لم تعد ملكًا لأحد. كما أنّه، رغم أنّ العشيرة قويّةٌ للغاية كما يثبته وجود هذه المحكمة ذاته المستقلّة عن المحاكم العامّة، فالأب الذي يرأس الأسرة هو مواطنٌ قبل كلّ شيءٍ: فسلطته لا محدودةٌ، ويتحكّم بزوجته وأطفاله بشكلٍ مطلقٍ؛ لكنّ هؤلاء ليسوا ملكه؛ بل يدير حياتهم بالأحرى للصالح العام؛ والمرأة التي تنجب الأطفال والتي يشمل عملها المنزليّ غالبًا مهامّ زراعيّةً هي مفيدةٌ جدًّا للبلاد ومحترمةٌ للغاية. نلاحظ هنا أمرًا بغاية الأهمّية نصادفه ثانيةً عبر التاريخ: لا يكفي القانون المجرّد لتحديد الوضع الفعلي للمرأة؛ فهو يتعلّق في جزءٍ كبيرٍ منه بالدور الاقتصاديّ الذي تلعبه؛ وغالبًا ما تتحوّل الحرّيّة المجرّدة والسلطة الفعليّة بالاتجاه العكسي. فالرومانيّة المستعبدة قانونًا أكثر من الإغريقيّة مندمجةٌ بالمجتمع بشكلٍ أعمق بكثيرٍ؛ مقرّها في المنزل الباحة الداخليّة التي هي مركز البيت، بدل أن تُبعَد إلى الخدر؛ وهي التي تدير عمل العبيد؛ وتربية الأطفال ويستمرّ تأثيرها عليهم غالبًا حتّى سنٍّ متقدّمةٍ؛ وتشارك زوجها أعماله وهمومه، وتعتبر شريكةً بأمواله. وصيغة الزواج «Ubi tu Gaius, ego Gaia»[61] ليست صيغةً جوفاء؛ وتسمّى السيّدة «Domina»[62]، وهي سيّدة المنزل، مشتركة في الديانة، وهي ليست عبدةً ولكن رفيقة الرجل؛ ما يربطها به مقدّسٌ بحيث أنّه لم يسجّل طلاقٌ واحدٌ خلال خمسة قرونٍ. ولا تسجن في جناحها: بل تشارك في وجبات الطعام، والأعياد، وتذهب إلى المسرح؛ ويفسح لها الرجال الطريق في الشارع، ويتنحّى القناصل والقضاة لدى مرورها. وتمنحها الأساطير في التاريخ دورًا بارزًا:

61- تعني: إن كنت أنت الخطيب فأنا الخطيبة، وأصل Gaius اسمٌ رومانيٌّ قديم بينما Gaia هو الاسم الإغريقي القديم للأرض. (المترجمة)

62- أي المسيطرة. (المترجمة)

نعرف أسطورة السابينيّات، ولوكريس وفيرجيني؛ واستسلم **كوريولان** لتضرّع أمّه وزوجته؛ وأوحت زوجة **ليسينيوس** إليه بالقانون الذي كرّس الديموقراطيّة الرومانيّة؛ و**كورنيلي** هي التي شكّلت روح الإغريق. كان **كاتون** Caton يقول: «في كلّ مكانٍ يحكم الرجالُ النساءَ، ونحن الذين نحكم كلّ الرجال تحكمنا نساؤنا».

وشيئًا فشيئًا تطابق الوضع القانوني للرومانيّة مع وضعها العمليّ. في فترة حكم أقلّية النبلاء الرومان، كلّ أب أسرةٍ هو ضمن الجمهوريّة سيّدٌ مستقلٌّ؛ ولكن عندما تأكّدت سلطة الدولة، كافحت تركّز الثروات، وغطرسة الأسر القويّة. وتلاشت المحكمة الأسريّة أمام العدالة العامّة. واكتسبت المرأة حقوقًا هامّةً أكثر فأكثر. كانت أربع سلطاتٍ تحدّ حرّيتها أصلًا: كان الأب والزوج يملكان شخصها، والوصيّ وواضع اليد أموالها. فقلّصت الدولة من حقوق الأب والزوج، وأصبحت حكومة الدولة هي التي تعالج حالات الخيانة الزوجيّة والطلاق إلخ... وبنفس الطريقة أُزيل وضع اليد والوصاية: فصلوا وضع اليد عن الزواج لمصلحة الوصيّ؛ ثم أصبح وضع اليد أمرًا استفادت منه النساء للتخلّص من الأوصياء، إمّا بإجراء زيجاتٍ صوريّةٍ، أو بالحصول من والدهن أو الدولة على أوصياء متسامحين. وبالتشريع الإمبراطوريّ، انتهت الوصاية تمامًا.

في الوقت نفسه حصلت المرأة على ضامنٍ إيجابيٍّ لاستقلالها: فقد أُرغِم والدها على الاعتراف ببائنةٍ لها؛ وهذه لا تعود إلى الأنسباء بعد فسخ الزواج ولا تعود أبدًا للزوج؛ وتستطيع المرأة في أيّة لحظةٍ أن تطالب بها في حالة طلاقٍ مفاجئٍ، ما يضع الزوج تحت رحمتها. ويقول **بلوت** Plaute: «بقبوله البائنة، كان يبيع سلطته». ومنذ نهاية الجمهوريّة حصلت الأم مساواةً بالأب على حقّ احترام أطفالها لها؛ وأعطيت الحضانة في حال الوصاية أو في حال سوء سلوك الزوج. وفي حكم **أدريان**، أعطاها مرسومٌ من مجلس الشيوخ حقًّا بالتركة عندما يكون لديها ثلاثة أطفالٍ ويكون المتوفّى دون ذرّيّةٍ وفي حال غياب وصيّةٍ لكلٍّ منهم. واكتمل تطوّر العائلة الرومانيّة في حكم **مارك أوريل**: فاعتبارًا من عام 178 ورث الأطفال أمّهم بدلًا من الأنسباء؛ وقامت العائلة من الآن فصاعدًا على قرابة الدم وغدت الأم مساويّةً للأب؛ وورثت الابنة مثل أشقّائها.

مع ذلك نلاحظ في تاريخ القانون الروماني حركةً تناقض تلك التي وصفناها للتوّ: بجعل

المرأة مستقلّةً عن العائلة، أصبحت تحت وصاية السلطة المركزيّة ذاتها؛ وخضعت لعدّة معوّقاتٍ قانونيّةٍ.

بالفعل، كانت لتأخذ أهميّةً تدعو للقلق لو كانت غنيّةً ومستقلّةً معًا؛ بالتالي سُحب منها بيدٍ ما أُعطيته بالأخرى. حين كان **هانيبعل** يهدّد روما تمّ التصويت على قانون أوبيا Oppia الذي كان يحرّم على الرومانيين مظاهر البذخ، وعندما زال الخطر طالبت النساء بإلغائه؛ وطالب **كاتون** في خطابٍ شهيرٍ بإبقائه: لكنّ مظاهرة السيّدات اللواتي تجمّعن في الساحة العامّة تفوّقت عليه. ثم طُرحت قوانين مختلفةٌ، ازدادت صرامةً بقدر ما ازدادت الأخلاق تراخيًا، ولكن دون نجاحٍ يذكر: فلم تنجح إلا في إثارة مخالفاتٍ. انتصر فقط المرسوم التشريعي الفليني الذي كان يمنع المرأة من أن «تتشفّع» للغير[63]، حارمًا إياها من كلّ كفاءةٍ مدنيّةٍ. وفي اللحظة التي كانت المرأة فيها الأكثر تحرّرًا أُعلِنت دونيّة جنسها، وهو مثالٌ واضحٌ على عمليّة التبرير الذكوري الذي تحدّثت عنه: بما أنّهم لم يعودوا يحدّون من حقوقها كابنةٍ وزوجةٍ وأختٍ، فقد رفضوا مساواتها بالرجل كجنسٍ؛ وتعلّلوا لإساءة معاملتها «ببلاهة جنسها وضعفه».

الواقع أنّ السيدات لم يستخدمن حريتهن الجديدة بشكلٍ جيّدٍ؛ ومنعن أيضًا من الاستفادة منها بشكلٍ إيجابيٍّ. ينتج من هذين التيّارين المتناقضين ـ تيّارٌ فردانيّ ينتزع المرأة من العائلة، وتيّارٌ حكوميٌّ يزعجها كفردٍ ـ أنّها فقدت التوازن. فهي وريثةٌ، ولديها الحقّ مساواةً بالأب في احترام أطفالها لها، وهي توصي، وتفلت من الضغط الزوجي بفضل تشريع البائنة، ويمكنها أن تطلّق وتتزوّج ثانيةً حسب مزاجها: ولكن ذلك ليس سوى تحرّرٍ سلبيٍّ بما أنّها لا تُدعى لأيّ استعمالٍ ملموسٍ لقواها. ويبقى الاستقلال الاقتصاديّ مجردًا بما أنه لا يمنح أيّة قدرةٍ سياسيّةٍ؛ ولهذا كانت الرومانيّات يتظاهرن عندما لا يكون بإمكانهنّ التصرّف: فينتشرن بصخبٍ في المدينة، ويحاصرن المحاكم، ويُحِكن المؤامرات، ويملين تعليماتٍ ويثرن الحروب الأهليّة؛ ويذهبن في موكبٍ إلى تمثال أمّ الآلهة ويواكبنه على طول نهر التيبر، مدخلاتٍ بذلك الآلهة الشرقيّة إلى روما؛ وثارت عام 114 فضيحة كاهنات

63- أي أن ترتبط بالغير بعقودٍ.

الفستال اللواتي ألغي معهدهنّ. وعندما جعل حلُّ العائلة الفضائل القديمة غير مفيدةٍ ومنتهية الصلاحية، وبقيت الحياة والمزايا العامّة موصدةً في وجههنّ، لم يعد هناك أيّ أخلاقٍ تُعرَض على النساء. وأصبح لديهنّ خياران: فإما الإصرار على احترام نفس قيم الجدود؛ أو عدم الاعتراف بأيٍّ منها. ورأينا أنّه في نهاية القرن الأوّل وبداية الثاني، ظلّ عددٌ من النساء رفيقات وشريكات أزواجهنّ كما في زمن الجمهوريّة: تقاسمت **بلوتين** مجد **تراجان** ومسؤوليّاته؛ وأصبحت سابين شهيرةً بأعمال الخير بحيث خلّدتها تماثيل في حياتها؛ وفي فترة حكم **تيبر**، رفضت **سكستيا** البقاء بعد **سكوروس أميليوس** **وباشيا** بعد **بومبونيوس لابوس**؛ وقطعت **بولين** أوردتها بنفس الوقت مع **سينيك**؛ **وبلين لوجون** جعل مقولة **آريا** «هذا غير مؤلمٍ يا **بويتوس** Poet non dolet» شهيرةً؛ ويُعجب **مارتيال** بـ**كلودين روفينا** **وفيرجينيا** **وسولبيسيا** كزوجاتٍ مثاليّاتٍ وأمّهاتٍ متفانياتٍ. لكنّ هناك العديد من النساء اللواتي يرفضن الأمومة ويطلّقن عدة مرّاتٍ؛ واستمرّت القوانين في منع الخيانة الزوجيّة: وبلغ الأمر ببعض السيّدات حدّ تسجيل أنفسهنّ كمومساتٍ كيلا يزعَجن في علاقاتهنّ[64]. حتّى ذلك الوقت كان الأدب اللاتيني دائمًا يحترم النساء، بعدئذٍ انفلت الكتاب الساخرون ضدّهنّ. لم يهاجموا المرأة عمومًا إنّما نساء عصرهنّ خصوصًا. انتقد **جوفنال** Juvenal فسقهنّ وشراهتهنّ، ولامهنّ لمطالبتهنّ بمشاغل الرجال: فهنّ يهتممن بالسياسة وينهمكن في ملفّات القضايا ويتناقشن مع النحويين وعلماء البلاغة، ويشغفن بالصيد، وسباق العربات، والمبارزة والمصارعة. والأمر أنّهن ينافسن الرجال حبًّا بالتسلية والرذيلة؛ وينقصهنّ التعليم الكافي للوصول لأهدافٍ أعلى؛ عدا عن أنّه لم تعرض عليهنّ أيّة غايةٍ؛ ويبقى الفعل ممنوعًا عليهنّ. للرومانيّة في الجمهوريّة القديمة مكانٌ فوق الأرض، لكنّها مقيّدةٌ فيه لغياب قوانين مجرّدةٍ، واستقلالٍ اقتصاديٍّ؛ والرومانيّة في زمن الانحطاط نموذجٌ للمتحرّرة المزيّفة التي لا تملك سوى حرّيّةٍ فارغةٍ، في عالمٍ يبقى الرجال فيه السادة الوحيدين: إنّها حرّةٌ «دون فائدةٍ».

64- تتساهل روما كما اليونان رسميًّا بموضوع البغاء. كانت هناك طبقتان من المحظيّات: كانت بعضهنّ يعشن حبيسات المواخير، والأخريات يمارسن مهنتهنّ بشكلٍ حرٍّ؛ لم يكن يسمح لهنّ بارتداء ملابس السيّدات المحترمات؛ وكان لديهنّ بعض التأثير في مجال الأزياء والعادات والفنّ ولكنّهنّ لم يحتللن مركزًا مرموقًا كمثيلاتهنّ في أثينا.

- 4 -

لم يستمرّ تطوّر الوضع النسويّ بصورةٍ متواصلةٍ. في الغزوات الكبيرة، أعيد النظر بكلّ الحضارة. وتعرّض القانون الروماني ذاته لتأثير إيديولوجيّةٍ جديدةٍ: المسيحيّة؛ وفي القرون التالية، ساد قانون البرابرة. واضطرب الوضع الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسياسيّ: وارتدّ ذلك على وضع المرأة.

لقد ساهمت الإيديولوجيّة المسيحيّة كثيرًا في قمع المرأة. في الإنجيل دون شكٌّ مسحةٌ من الرأفة مسّت النساء كما المجذومين والمساكين والعبيد، والنساء هن من تعلّق بشغفٍ أكبر بالقانون الجديد. في بداية المسيحيّة، عندما خضعت النساء لنير الكنيسة، كنّ مكرّماتٍ نسبيًّا؛ كنّ شهيداتٍ إلى جانب الرجال؛ مع ذلك لم يكن بإمكانهنّ المشاركة في العبادة إلا بصفةٍ ثانويّة؛ لم يكن مسموحًا «للراهبات الإنجيليّات» إلّا بأداء مهامّ دنيويّةٍ: العناية بالمرضى، ومساعدة للفقراء. وإن كان الزواج يعتبر مؤسّسةً تتطلّب الإخلاص المتبادل، فيبدو واضحًا أن على الزوجة أن تتبع الزوج بشكلٍ كاملٍ: وترسّخت التقاليد اليهوديّة المعادية للمرأة بشكلٍ عنيفٍ عن طريق القديس **بولس**. أمر القديس **بولس** النساء بالانطواء والتحفّظ؛ وأقام على أساس العهد القديم والعهد الجديد مبدأ تبعيّة المرأة للرجل. «لم يؤخذ الرجل من المرأة، بل المرأة من الرجل؛ ولم يُخلق الرجل من أجل المرأة، ولكن خُلقت المرأة من أجل الرجل». وفي مكانٍ آخر: «كما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك فلتخضع النساء لأزواجهنّ بكلّ شيءٍ». في ديانةٍ يُلعَن الجنس فيها، تبدو المرأة أكثر غوايات

الشيطان المرعبة. كتب **ترتليان** Tertullien: «أيتها المرأة، أنت بوابة الشيطان. أقنعتِ ذلك الذي لم يكن الشيطان يجرؤ على مهاجمته وجهًا لوجهٍ. بسببك مات ابن الربّ؛ عليك أن تسيري دائمًا مرتديةً أسمالًا سوداء». وكتب **سانت أمبرواز** saint Ambroise: «قادت حوّاء آدم إلى الخطيئة وليس آدم من قاد حوّاء. فمن العدل أن تعامل ذلك الذي قادته إلى الخطيئة كسيّدٍ». **ويوحنّا ذهبيّ الفم** saint Jean Chrysostome: «من بين كلّ الحيوانات المتوحشة، المرأة هي الأكثر ضررًا». عندما تشكّل القانون الكنسيّ في القرن الرابع، ظهر الزواج كتساهلٍ مع الضعف البشريّ، فهو غير مطابقٍ للمثاليّة المسيحيّة. كتب **سان جيروم** saint Gérome: «فلنمسك بالفأس ونقطع شجرة الزواج العقيمة من جذورها». اعتبارًا من فترة **غريغوار السادس**، عندما فرضت العزوبية على الرهبان، ترسّخت صبغة المرأة الخطيرة بشكلٍ أشدّ صرامةً: فأعلن كلّ آباء الكنيسة سفالتها. والتزم **القديس توما** بهذا التقليد عندما أعلن أنّ المرأة ليست سوى مخلوقٍ «عارضٍ» وغير كاملٍ، رجلٍ ناقصٍ نوعًا ما. وكتب: «الرجل رأس المرأة كما **المسيح** رأس الرجل. من الثابت أنّ قدر المرأة أن تعيش تحت سيطرة الرجل ولا تأخذ منه أيّة سلطةٍ». كما أنّ القانون الكنسيّ لا يقبل نظام زواجٍ إلّا نظام البائنة الذي يجعل المرأة قاصرةً وعاجزةً. لا تُمنَع فقط من الإدارات الذكوريّة، ولكن تُمنع من الادّعاء أمام المحكمة ولا قيمة لشهادتها. وتأثّر الأباطرة بصورةٍ مختلفةٍ بالآباء الكنسيّين؛ كرّم تشريع **جوستينيان** المرأة كزوجةٍ وأمٍّ، لكنّه جعلها عبدةً لهاتين الوظيفتين؛ وعجزها لا ينجم عن جنسها بل عن وضعها ضمن العائلة. والطلاق ممنوعٌ ويُفرض إشهار الزواج؛ وللأم على أطفالها سلطةٌ مماثلةٌ لسلطة الأب، ولديها نفس الحقوق في إرثهم؛ وتصبح الوصيّة الشرعيّة عليهم إذا مات زوجها. وتغيّر المرسوم التشريعي الفليني: من الآن فصاعدًا سيمكنها أن تتوسّط لمصلحة طرفٍ ثالثٍ، لكنّها لا تستطيع إبرام العقود نيابةً عن زوجها؛ ولم يعد بإمكانها التصرّف في بائنتها: إنّها ملك الأولاد وتمنع من التصرّف بها.

سادت التقاليد الجرمانيّة إلى جانب هذه القوانين في المناطق التي احتلّها البرابرة. كانت عادات الجرمانيين خاصّةً. ليس لديهم رئيسٌ إلا في فترات الحروب، في وقت السلم كانت العائلة مجتمعًا مستقلًا؛ ويبدو أنّها كانت في منزلةٍ وسطى بين العشيرة القائمة على النسب الأمومي والمجموعة الأبويّة؛ وكان للخال نفس نفوذ الأب وكان لكليهما على ابنة

الأخت والابنة نفس سلطة زوجها. كانت المرأة عاجزةً تمامًا في الواقع في مجتمعٍ كانت كلّ قدراته آتيّةً من القوّة العنيفة؛ ولكن كان يُعتَرَف لها بحقوقٍ كانت تضمنها لها ثنائيّة السلطات المنزليّة؛ وكانت محترَمةً رغم كونها مستعبَدةً؛ وكان زوجها يشتريها: لكنّ ثمن هذا الشراء كان يشكّل مهرًا مؤجّلًا يخصّها؛ عدا عن أنّ والدها كان يمنحها بائنةً؛ وكانت تتلقّى حصّتها من التركة الأبويّة وفي حال مقتل والديها جزءًا من الديّة التي يدفعها القاتل. لم يكن هناك تعدد زوجاتٍ وكانت الخيانة معاقبةً بشدّةٍ والزواج محترمًا. وكانت المرأة تبقى دومًا تحت الوصاية، لكنّها كانت وثيقة الصلة بزوجها، وقد كتب **تاسيت** Tacite: «تقاسمه مصيره في السلم والحرب، ومعه تعيش ومعه تموت». كانت تشارك بالمعارك، فتجلب الطعام للمحاربين وتشجّعهم بحضورها. وعندما تترمّل ينتقل إليها جزءٌ من قوّة زوجها المتوفى. لم يكن عجزها الناجم عن ضعفها الجسديّ يعتَبر دونيّةً معنويّةً. كانت هناك نساءٌ كاهناتٌ، ونبيّاتٍ، ما يجعلنا نفترض أنّهن كنّ متعلّماتٍ أكثر من الرجال. وأضيفت الحلي والكتب فيما بعد إلى الأشياء التي كان للنساء الحق فيها في التركة.

واستمر هذا التقليد خلال العصور الوسطى. كانت المرأة تابعةً بالمطلق للأب والزوج: في زمن **كلوفيس** Clovis، كان نظام الحماية يثقل عليها خلال حياتها كلها؛ لكنّ الفرنجة Francs تخلّوا عن العفّة الجرمانيّة: وفي حقبة الميروفينيين والكارولينيين[65] شاع تعدد الزوجات؛ وكانت المرأة تُزوّج دون موافقتها، وتُطلّق حسب نزوات الزوج الذي يملك حقّ حياتها وموتها؛ وتعامل كخادمةٍ. وتحميها القوانين، ولكن كملكٍ للزوج وأمٍّ لأطفاله. وإذا دُعيت «عاهرةً» دون إثباتٍ فتلك إهانةٌ ثمنها أكبر بخمس عشرة مرةً من أيّة إهانةٍ توجّه لرجلٍ؛ ويعادل اختطاف امرأةٍ متزوّجةٍ قتل رجلٍ حرٍّ؛ ويعاقَب شدّ يد أو ذراع امرأةٍ متزوّجةٍ بغرامةٍ قدرها بين خمسة عشر إلى ثلاثة وخمسين قرشًا؛ والإجهاض ممنوعٌ تحت طائلة غرامة مئة قرشٍ؛ وعقوبة قتل امرأةٍ حاملٍ تساوي أربع أضعاف قتل رجلٍ حرٍّ؛ والامرأة الخصبة تساوي ثلاثة أضعاف رجلٍ حرٍّ؛ لكنها تفقد كل قيمتها عندما لا يعود بإمكانها أن تصبح أمًّا؛ وإن تزوجت عبدًا توضع خارج القانون ويسمح لأهلها بقتلها. فليس لديها أيّ حقٍّ كشخصٍ. مع ذلك عندما أصبحت الدولة قويّةً بدأ التطوّر الذي رأيناه يكتمل في روما:

65- les mérovingiens et les Carolingien من ملوك الفرنجة. (المترجمة)

لم تعد الوصاية على العاجزين، أي الأطفال والنساء، حقًّا عائليًّا وأصبحت تكليفًا عامًّا؛ واعتبارًا من عهد **شارلمان** Charlemagne أصبحت الحماية التي تثقل على المرأة تعود إلى الملك؛ لم يتدخّل في البدء إلّا في الحالات التي تكون المرأة فيها مجرّدةً من أوصيائها الطبيعيين؛ ثم استولى شيئًا فشيئًا على سلطات العائلة؛ لكنّ هذا التغيير لم يأتِ للمرأة الفرنجية بالتحرّر. وأصبحت الحماية عبئًا على الوصيّ؛ فعليه حماية القاصر، ما جلب لها نفس العبودية القديمة.

عند الخروج من اضطرابات الفترة الأقدم من القرون الوسطى انتظمت الإقطاعيّة، وأصبح فيها وضع المرأة غير واضحٍ. ما ميّز القانون الإقطاعيّ هو أنّ هناك اختلاطًا بين قانون السيادة وقانون الملكيّة، بين الحقوق العامة والحقوق الخاصّة. هذا يفسّر أن المرأة تجد نفسها ترتفع تارةً وتنخفض تارةً أخرى بهذا النظام. فينكرون عليها أولًا كلّ حقوقها الخاصّة لأنها مجرّدة من كل قدرةٍ سياسيّةٍ. بالفعل قام النظام حتى القرن الحادي عشر على القوة الوحيدة، وملكية الأرض على سلطة السلاح. ويقول المشرّعون إنّ الإقطاعة هي «أرضٌ يُحافظ عليها بقوّة السلاح». ولا تستطيع المرأة امتلاك الأرض الإقطاعيّة لأنها عاجزةٌ عن الدفاع عنها. وتغيّر وضعها عندما أصبحت الإقطاعات وراثيّةً وحقًّا مملوكًا؛ رأينا استمرار بعض ملامح الحقّ الأمومي في القانون الروماني: بغياب ورثةٍ ذكورٍ، تستطيع الفتاة أن ترث. من ذلك أتى أنّ الإقطاعيّة قبلت أيضًا في حوالي القرن الحادي عشر توريث النساء. مع ذلك ظلّت الخدمة العسكريّة مفروضةً على المُقطعين[66]؛ ولم يتحسّن وضع المرأة عندما أصبحت وريثةً؛ فهي بحاجة إلى وصيٍّ ذكرٍ؛ ولعب الزوج هذا الدور: فهو من يتلقّى التكليف، ويدير الإقطاعة، ويأخذ الأرباح. ومثل الوريثة الوحيدة اليونانيّة، المرأة هي الأداة التي تنتقل الأرض عبرها، وليست مالكتها؛ ولم تتحرّر بذلك؛ لقد امتصّتها الإقطاعة نوعًا، وهي جزءٌ من الأموال غير المنقولة. لم تعد الأرض ملك العائلة كما في زمن الرومان: إنّها ملك الإقطاعي، والمرأة تعود أيضًا للإقطاعي. هو من يختار لها زوجًا؛ وعندما يصبح لديها أطفالٌ، تعطيه إياهم بدل أن تعطيهم لزوجها: سيكونون أتباعًا يدافعون عن أمواله. هي إذًا

66- المقطع شخص يقطعه الإقطاعي أرضًا لقاء تقديم خدمات له. (المترجمة)

عبدة الأرض وسيّد هذه الأرض من خلال «حماية» زوجٍ فرضوه عليها: كانت تلك من أسوأ الحقب التي عاشتها.

الوريثة هي أرضٌ وقصرٌ: ويتقاتل الخطّاب على هذه الطريدة وأحيانًا لا تكون الفتاة قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها وربما أقلّ أيضًا عندما يقدّمها والدها أو سيّدها هديّةً لأحد البارونات. ويعني تعدّد الزيجات بالنسبة للرجل تعدّد الملكيات؛ وتعدّدت الطلاقات أيضًا؛ وسمحت الكنيسة بها بنفاقٍ؛ وبما أنّ الزواج ممنوعٌ بين الأقارب حتّى الدرجة السابعة، وتحدَّد القرابة بعلاقاتٍ روحيّةٍ كعلاقة العرّاب والعرّابة، كما بعلاقات الدم، كانت هناك دائمًا أعذارٌ لفسخ الزواج؛ ونجد في القرن الحادي عشر كثيرًا من النساء اللواتي طُلّقن أربع أو خمس مراتٍ. وعندما تترمّل المرأة عليها قبول سيّدٍ آخر على الفور. في أغاني المآثر نرى شارلمان يزوّج ثانيةً دفعةً واحدةً كلّ أرامل باروناته الذين ماتوا في إسبانيا؛ وفي «*جيرار دوفيين*» تأتي دوقة بورغوني من تلقاء نفسها تطلب زوجًا جديدًا. «مات زوجي، ولكن ما نفع الحداد؟... جِد لي زوجًا يكون قويًّا لأنّي بحاجةٍ إليه لحماية أرضي»؛ وتُظهِر لنا كثيرٌ من الملاحم الملك أو الإقطاعي يتصرّف بتسلّطٍ مع الفتيات والأرامل. نجد فيها أيضًا أنّ الزوج كان يعامل بشكلٍ سيّئ المرأة التي منحوها له؛ فهو يسيء معاملتها ويصفعها ويشدّها من شعرها، ويضربها؛ كلّ ما يطالب به بومانوار Beaumanoir في عادات بوفيزي Beauvaisis هو أن «يعاقب الزوج زوجته بشكلٍ معقولٍ». لا تكِنُّ هذه الحضارة الحربيّة للمرأة سوى الاحتقار. لا يهتمّ الفارس بالنساء: يبدو له حصانه كنزًا ذا قيمةٍ أكبر بكثيرٍ؛ في أغاني المآثر تقوم الفتيات دومًا بالخطوة الأولى تجاه الشبّان؛ وعندما يتزوجن يطلب منهنّ الإخلاص غير المتبادل؛ فالرجل لا يشركهنّ بحياته. «ملعونٌ هو الفارس الذي يطلب نصيحة سيدةٍ عندما يكون عليه أن يتجوّل». وفي «*رينو دومونتوبان*» نقرأ هذا التأنيب: «ارجعن إلى أجنحتكنّ المدهونة والمذهّبة، اقبعن في الظلام، اشربن وكلن وطرّزن واصبغن الحرير ولكن لا تتدخّلن في شؤوننا. عملنا أن نناضل بالسيف والفولاذ. اصمتن!». تشاطر المرأة الذكور أحيانًا حياتهم الخشنة. عندما تكون شابةً، تمارس كلّ التمارين الجسديّة، فهي تمتطي الحصان، وتصيد بالصقور؛ ولا تتلقّى تقريبًا أيّ تعليمٍ وتربّى دون حياءٍ: هي من يستقبل ضيوف القصر، وتشرف على طعامهم، وحمّامهم، وتدلكهم لتساعدهم على

النوم؛ وعندما تصبح امرأةً يحدث لها أن تتبع الحيوانات البرّيّة، وتقوم برحلاتٍ طويلةٍ شاقّةٍ؛ وهي من يدافع عن الإقطاعة عندما يكون الزوج بعيدًا. يُعجب المرء بسيدات القصور هاته اللواتي يسمّين «فحلاتٍ» لأنّهنّ يتصرّفن كالرجال تمامًا. إنّهنّ عنيفاتٌ في فوزهنّ، خادعاتٌ، قاسياتٌ، يضطهدن أتباعهنّ. لقد ترك لنا التاريخ والأساطير ذكرى العديدات منهنّ: سيّدة قصر أوبي التي بنت برجًا أعلى من أيّ برجٍ رئيسيٍّ وقطعت فورًا رأس المهندس كي يبقى سرّه محفوظًا؛ وطردت زوجها من أملاكها: وعاد سرًّا وقتلها. و«**مابي**» زوجة **روجيه دومونغومري** التي كان يروق لها إفقار نبلاء إقطاعتها: وانتقموا بقطع رأسها. وجوليين الابنة غير الشرعيّة **لهنري الأول** ملك إنجلترا، التي منعت عنه قصر بروتوي واستدرجته إلى فخٍّ، الأمر الذي عاقبها عليه بقسوةٍ. مع ذلك تبقى مثل هذه الأحداث استثنائيّةً. فعادةً تمضي سيّدة القصر أيامها تغزل أو تصلّي، وتنتظر زوجها وتضجر.

كثيرًا ما زعموا أنّ الحبّ المجامل ـ الكورتوازي ـ الذي ولد في القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا أحدث تحسّنًا في وضع المرأة. وتتصارع عدة نظرياتٍ حول أصله: بعضها يقول إنّ «المجاملة» تأتي من علاقة سيّدة الإقطاعة بتابعيها الشبّان؛ ويربطها البعض الآخر بالهرطقات المانويّة أو بعبادة العذراء؛ ويجعل آخرون الحب الدنيويّ مشتقًّا من حبّ الله بشكلٍ عامٍّ. لسنا متأكدين تمامًا من أن «محاكم الحبّ» كانت موجودةً يومًا. ما هو مؤكّدٌ هو أنّ الكنيسة اضطرت إلى تمجيد أمّ المخلّص مقابل **حوّاء** الخاطئة: فغدا تقديسها كبيرًا لدرجة أنّهم قالوا في القرن الثالث عشر إنّ الله تجسّد في امرأةٍ؛ وتطوّر إيمانٌ بالمرأة على الصعيد الديني.

من جهةٍ أخرى سمحت أوقات الفراغ في حياة القصر للسيّدات النبيلات بتطوير ترف الحديث والتهذيب والشعر حولهنّ؛ نساءٌ مثقفاتٌ مثل **بياتريس دوفالنتينوا**، **وأليينور داكيتين** وابنتها **ماري دوفرانس**، **وبلانش دونافار**، وغيرهنّ، اجتذبن الشعراء وأنزلوهنّ لديهنّ؛ كان هناك ازدهارٌ ثقافيٌّ في الجنوب في البدء ثم في الشمال، أضفى على النساء إجلالًا جديدًا. وُصِف الحبّ المجامل غالبًا بالأفلاطونيّ؛ ألغى «**كرستيان دو تروي**» الخيانة الزوجيّة من قصصه، ليُعجِب راعيته دون شكٍّ: لم يكتب قصص حبٍّ آثمٍ إلّا قصّة «لانسلو وغنييفر»؛ ولكن في الواقع بما أنّ الزوج الإقطاعيّ كان وصيًّا ومستبدًّا، فقد كانت المرأة

تبحث عن عشيقٍ خارج إطار الزواج؛ كان الحبّ المجامل تعويضًا عن تخلّف الأعراف الرسميّة. ويلاحظ **إنجلز** أنّ «الحبّ بالمفهوم الحديث للكلمة لا يحدث في العصور القديمة إلّا خارج المجتمع الرسمي». توقّفت العصور القديمة عن الميل إلى الحبّ الجنسي عند النقطة التي انطلقت منها العصور الوسطى: «الخيانة الزوجيّة». وفعلًا هذا هو الشكل الذي اتّخذه الحبّ لفترةٍ طويلةٍ بقدر استمرار مؤسسة الزواج.

في الواقع، إن لطّف الغزل من مصير المرأة، فهو لم يغيّره تمامًا. وليست الأيديولوجيّات، الدين أو الشعر، ما يقود إلى تحرير المرأة؛ لقد نالت بعض المكاسب لأسبابٍ أخرى في نهاية العهد الإقطاعي. وعندما فُرِضت سلطة الملكيّة على الإقطاعيين، فقد الإقطاعي قسمًا كبيرًا من حقوقه: وبصورةٍ خاصّةٍ نُزِع منه تدريجيًّا حقّ تقرير زواج تابعاته؛ وانتُزِع في الوقت نفسه من الوصيّ الإقطاعيّ التمتّع بأموال القاصر؛ فسقطت المكاسب المرتبطة بالوصاية؛ وعندما اقتصرت مكاسب الإقطاعة على مخصّصاتٍ نقديّةٍ، اختفت الوصاية نفسها؛ كانت المرأة غير قادرةٍ على أداء الخدمة العسكريّة، لكنّها تستطيع كالرجل تأدية بدلٍ نقديٍّ؛ عندها لم تعد الإقطاعة سوى ملكيّةٍ بسيطةٍ ولم يعد هناك سببٌ كيلا يعامل الجنسان على قدم المساواة. في الواقع، ظلّت النساء في ألمانيا وسويسرا وإيطاليا خاضعاتٍ لوصايةٍ مستمرّةٍ؛ لكن فرنسا قبلت حسب قول **بومانوار** أنّ «الفتاة تساوي الرجل». كانت التقاليد الجرمانيّة تعطي المرأة بطلًا كوصيٍّ: وعندما لا تعود بحاجةٍ إلى بطلٍ، تستغني عن الوصيّ؛ ولم تعد توصم بالعجز. ولها كلّ حقوق الرجل عزباء كانت أو أرملةً؛ ومنحتها الملكيّة السيادة، فبامتلاكها إقطاعةً هي التي تديرها ما يعني أنّها تقيم العدل وتوقّع اتّفاقيّاتٍ وتفرض قوانين. حتّى أنّنا نراها تلعب دورًا عسكريًّا، فتقود الفرق، وتشارك في المعارك؛ كانت هناك قبل **جان دارك** نساءٌ مجنّداتٌ، وإن أثارت العذراء[67] الدهشة فهي لم تثر الفضيحة.

مع ذلك تضافرت عوامل عديدةٌ ضدّ استقلال المرأة لم يمكن إلغاؤها كلّها معًا: لم يعد الضعف الجسدي عاملًا: لكن تبعيّة المرأة ظلّت في صالح المجتمع في حال كانت المرأة متزوّجةً. وكذلك ظلّت قوّة الزوج بعد زوال النظام الإقطاعيّ. رأينا ترسّخ التناقض الذي

67- لقب يطلق على جاندارك. (المترجمة)

ما يزال قائمًا حتّى اليوم: فأكثر النساء اندماجًا بالمجتمع هي تلك التي تملك امتيازاتٍ أقلّ. احتفظ الزواج في الإقطاعيّة المدنيّة بنفس صورته في زمن الإقطاعيّة العسكريّة: فبقي الزوج وصيًّا على الزوجة. وعندما تشكّلت البورجوازيّة، تبعت نفس القوانين. لا يوجد تحرّرٌ إلّا خارج الزواج في القانون العادي كما في القانون الإقطاعي؛ وللفتاة والأرملة نفس إمكانيات الرجل؛ ولكن عندما تتزوج المرأة تقع تحت وصاية الزوج؛ فيستطيع أن يضربها؛ ويراقب تصرفاتها، وعلاقاتها، ومراسلاتها، ويتصرّف بثروتها ليس بفضل عقدٍ ولكن بفعل الزواج نفسه. يقول **بومانوار**: «إذا تمّ الزواج، تصبح أموالهما مشتركةً بفضل الزواج». لأنّ مصلحة الملكيّة لدى النبلاء والبورجوازيين تتطلّب أن يديرها سيّدٌ واحدٌ. وتُلحَق الزوجة بزوجها ليس لأنّهم يرون أنّها غير قادرةٍ: فعندما لا يوجد ما يعارض ذلك يُعتَرف للمرأة بقدراتها الكاملة. يُضحّى طوعًا بالمرأة المتزوجة منذ الإقطاع وحتّى أيّامنا هذه لصالح الملكيّة الخاصة. من المهم أن نشير إلى أن هذه التبعيّة صارمةٌ بقدر ما تكون الأموال التي يسيطر عليها الرجل كبيرةً: كانت تبعيّة المرأة دومًا ملموسةً أكثر في الطبقات الغنيّة؛ واليوم أيضًا تسود العائلة الأبويّة لدى ملّاكي الأراضي الأغنياء؛ كلّما شعر الرجل أنّه أقوى اجتماعيًّا واقتصاديًّا، كلّما لعب بتسلّطٍ دور الأب رب الأسرة. وعلى العكس، الفقر المشترك يجعل الرابطة الزوجيّة علاقةً متبادلةً. ليس الإقطاع ولا الكنيسة من حرّر المرأة. بل تمّ الانتقال من العائلة الأبويّة إلى عائلةٍ زوجيّةٍ أصليّةٍ بالأحرى انطلاقًا من العبوديّة. لا يملك العبد ولا زوجته شيئًا، كانا يستمتعان معًا بمنزلهما وأثاثهما والأدوات فقط: لم يكن لدى الرجل من داعٍ لأن يحاول أن يكون سيّدًا للمرأة التي لم تكن تملك شيئًا؛ بالمقابل، كانت روابط العمل والمصالح التي تجمعهما ترفع المرأة إلى مرتبة الرفيقة. عندما انتهى الرقّ، بقي الفقر؛ ونرى الزوجين يعيشان على قدم المساواة في المجتمعات الصغيرة الريفيّة ولدى الحرفيين؛ فالمرأة ليست شيئًا ولا خادمةً: ذلك هو ترف الرجل الغنيّ؛ يشعر الفقير بالصلة المتبادلة التي تجمعه بنصفه الآخر؛ وتحصل المرأة على استقلالٍ ملموسٍ في العمل الحرّ، لأنّها تجد دورًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا. وتعكس حكايات القرون الوسطى الشعبية والهزليّة مجتمع حرفيّين، وتجارٍ صغارٍ، وفلّاحين لا يملك فيه الزوج امتيازًا على زوجته سوى أن يضربها: لكنّها تقابل القوّة بالحيلة ويتساوى الزوجان. بينما تدفع المرأة الغنيّة خضوعها ثمنًا لبطالتها.

كانت المرأة في القرون الوسطى ما تزال تحتفظ ببعض الامتيازات: كانت تشارك في اجتماعات سكّان القرى؛ وكانت تشارك بالاجتماعات الأوّليّة لانتخاب النوّاب؛ ولم يكُن الزوج يستطيع بسلطته التصرّف إلّا بالأثاث: كانت موافقة المرأة ضروريّةً للتصرّف بالأملاك غير المنقولة. وفي القرن السادس عشر تمّ تشريع القوانين التي استمرت طيلة النظام القديم؛ في هذه الحقبة اختفت الأعراف الإقطاعيّة تمامًا ولم يحمِ النساء شيءٌ من مطالب الرجال الذين يريدون تقييدهنّ إلى المنزل. وظهر تأثير القانون الروماني الذي يحتقر المرأة للغاية، فكما في عصر الرومان، لم تكن الانتقادات العنيفة لحماقة وضعف الجنس أصل القانون ولكنّها بدت تبريرًا له؛ بعد ذلك يجد الرجال أسبابًا ليتصرّفوا كما يناسبهم. ونقرأ في «*حلم بستانٍ*»:

«من بين الأوضاع السيئة التي تعاني منها النساء، أجد بالفعل تسعة ظروفٍ سيّئةٍ، فأولًا المرأة بطبيعتها تؤذي نفسها... وثانيًا النساء بطبيعتهنّ بخيلاتٌ جدًا... وثالثًا رغباتهنّ مفاجئةٌ للغاية... ورابعًا النساء سيئاتٌ تلقائيًا... وخامسًا هنّ مخاتلاتٌ... ثمّ إنّ النساء معروفاتٌ بأنّهنّ كاذباتٌ وبالتالي حسب القانون المدني لا يمكن قبول شهادتهنّ على الوصيّة... كما تفعل المرأة دائمًا عكس ما يطلب منها... ثمّ إنّ هاته النساء يتعلّلن بأعذارٍ عن طيب خاطرٍ ويروين ما أصابهنّ من تعنيفٍ وهوانٍ. ثمّ إنّهنّ حذراتٌ وخبيثاتٌ». كان مونسينيور سانت أوغستان يقول: «المرأة حشرةٌ ليست قاسيةً ولا ثابتة؛ إنها مُبغِضةٌ بعكس زوجها، وهي مصدر السوء وبداية كلّ التوتّرات، ومنشأ الظلم».

كثرت النصوص المشابهة في هذا العصر. وأهمّية هذه الفترة هي أنّ الغرض من كلّ اتّهامٍ هو تبرير كلّ ترتيبٍ اتّخذه التشريع ضدّ النساء والوضع المتدنّي الذي أبقين فيه. وتُغلق في وجوههنّ بالطبع كلّ «مصلحةٍ ذكوريّةٍ»؛ كما أُعيد إقرار المرسوم التشريعي الذي يحرمهنّ من كلّ كفاءةٍ مدنيّةٍ؛ ويضعهم حقّ الابن البكر والامتيازات الذكوريّة في المرتبةِ الثانية لاستلام التركة الأبويّة. وتبقى الفتاة العازبة تحت وصاية الأب؛ وإن لم يزوّجها، فهو يحبسها غالبًا في الدير. ويسمح للأم العازبة بمحاولة إثبات الأبوّة لكنّ ذلك لا يعطيها حقًّا إلّا بنفقات الولادة وتغذية الطفل؛ وتنتقل المتزوجة إلى وصاية الزوج: فهو من يقرّر مكان الإقامة، ويدير حياة الأسرة، ويطلّق زوجته في حال االخيانة، ويحبسها في ديرٍ أو

يحصل فيما بعد على أمر اعتقالٍ ليرسلها إلى سجن الباستيل؛ ولا قيمة لأيّ عملٍ دون منحها الأهليّة؛ وكلّ ما تقدّمه المرأة للجماعة يُعتَبر بائنةً بالمعنى الروماني للكلمة؛ ولكن بما أنّه لا يمكن فسخ الزواج لا يعود للزوجة حقّ التصرّف بأموالها إلا عندما يموت الزوج؛ ومنه القول المأثور: «المرأة ليست شريكةً لكنّ لديها أمل في أن تصبح كذلك». وبما أنّها لا تدير مالها، حتّى وإن كانت تحتفظ بحقها فيه فهي غير مسؤولةٍ عنه؛ ولا يمنح أيّ معنىً لعملها: ليس لديها تأثيرٌ ملموسٌ على العالم. حتّى أطفالها، يُعتَبر أنّهم ينتمون للأب أكثر ممّا ينتمون إليها، كما في زمن الأومنيد les Euménides[68]: إنها «تمنحهم» لزوجها ذي السلطة الأعلى بكثيرٍ من سلطتها والذي هو سيّد ذرّيتها الحقيقي؛ حتّى أنّ هذه حجّةٌ استخدمها **نابوليون**، معلنًا أنّه كما تعود شجرة الإجاص إلى مالك الإجاص، فالمرأة هي ملك الرجل الذي تمنحه أطفالًا. وبقي وضع المرأة الفرنسيّة هكذا خلال النظام القديم كلّه؛ ثم ألغي القانون الفليني شيئًا فشيئًا من قِبَل اجتهاداتٍ قضائيّةٍ، ولكن تطلّب الأمر انتظار تشريع **نابوليون** لكي يختفي نهائيًّا. والزوج مسؤولٌ عن ديون الزوجة كما عن سلوكها وليس عليها تقديم حسابٍ لسواه؛ وليس لديها تقريبًا أيّة علاقةٍ مباشرةٍ مع السلطات العامة ولا علاقاتٌ مستقلّةٌ مع أشخاصٍ أغرابٍ عن عائلتها. وهي تبدو في العمل والأمومة كخادمةٍ أكثر منها شريكةً: فالأغراض والقيم والأشخاص الذين تخلقهم ليسوا ملكًا لها بل للأسرة، وبالتالي للرجل الذي يرأسها. ووضعها في البلدان الأخرى ليس أكثر تحرّرًا، على العكس؛ احتفظ بعضها بالوصاية؛ وفي جميعها كانت قدرات المرأة المتزوجة معدومةً والأعراف صارمةً. كُتبت كلّ التشريعات الأوروبية انطلاقًا من القانون الكنسي والقانون الروماني والقانون الجرماني التي كانت جميعها ضدّ مصلحة المرأة، وكانت كلّ البلدان تعرف الملكيّة الخاصّة والأسرة وتخضع لمتطلّبات هذه التشريعات.

في كلّ هذه البلدان، إحدى نتائج استعباد الأسرة «للمرأة الشريفة»، هي وجود البغاء. فبإبقاء المومسات على هامش المجتمع بشكلٍ منافقٍ يلعبن أحد أهمّ الأدوار. تثقلهنّ المسيحيّة باحتقارها لكنّها تقبلهنّ كداءٍ ضروريٍّ. يقول **سانت أوغستان**: «ألغوا المومسات، وسيموج المجتمع بالفسق». وفيما بعد أعلن **سان توما** ـ أو على الأقلّ اللاهوتي الذي وقّع

68- الرفيقات المطوفات في الميثولوجيا الإغريقيّة. (المترجمة)

بهذا الاسم الكتاب الرابع من De regimine principium: «أزيلوا المومسات من المجتمع، وسيغرقه ذلك بفوضىً من كلّ نوعٍ. فالمومسات في المدينة مثل المجرور في قصرٍ: ألغوا المجرور، وسيصبح القصر مكانًا موبوءًا». وفي العصور الوسطى العليا، ساد تساهلٌ أخلاقيٌّ بحيث لم تكن هناك حاجةٌ لبنات الهوى؛ ولكن عندما انتظمت الأسرة البورجوازيّة وأصبح الزواج الأحاديّ صارمًا، كان على الرجل أن يذهب بحثًا عن المتعة خارج المنزل.

وعبثًا منعه قرارٌ من **شارلمان** بشكلٍ صارمٍ، وعبثًا أمر **سان لويس** عام 1254 بطرد المومسات وعام 1269 بتدمير دور البغاء، يقول لنا **جوانفيل** Joinville: «كانت خيام المومسات في دمياط ملاصقةً لخيمة الملك». فيما بعد، فشلت أيضًا جهود **شارل التاسع** و**ماري تيريز** النمسويّة في القرن الثامن عشر. وجعل تنظيم المجتمع البغاءَ ضروريًّا. قال **شوبنهاور** Schopenhauer: «المومسات هنّ القرابين البشريّة على مذبح الزواج الأحادي». وقال مؤرّخٌ للأخلاق الأوروبيّة، «**لَكي** Lecky»، نفس الفكرة: «إنّهنّ نموذج الرذيلة الأعلى، والحارس الأنشط للفضيلة». وانتقدوا وضعهنّ ووضع اليهود الذين طالما شُبِّهن بهم[69]: فالربا وتهريب الأموال ممنوعةٌ من الكنيسة تمامًا كممارسة الجنس خارج إطار الزواج؛ لكنّ المجتمع لا يستغني عن المضاربين الماليين ولا عن الحبّ الحرّ، هذه الوظائف إذًا حكرٌ على الفئات الملعونة: وتحصر في معازل (غيتو Ghettos) أو في أحياءٍ منعزلةٍ. كانت المومسات في باريس يعملن ضمن جحورٍ يأتين إليها في الصباح ويغادرنها في المساء بعد بدء منع التجوّل؛ كنّ يسكنّ في بعض الشوارع لم يكن يُسمح لهنّ بالابتعاد عنها، في معظم بقيّة المدن كانت بيوت الدعارة تقع خارج الأسوار. وكاليهود كانوا يرغمونهنّ على ارتداء إشاراتٍ مميّزةٍ فوق ملابسهنّ. كانت أكثرها استخدامًا في فرنسا شريطٌ من لونٍ معيّنٍ معلّقٌ على أحد الكتفين؛ وغالبًا ما كان ممنوعًا عليهنّ ارتداء الحرير والفراء وزينة النساء الشريفات. كانت المومس موصومةً بالعار، ولم يكن لديها أيّ ملاذٍ من الشرطة والقضاء، كان يكفي طلب أحد الجيران لطردها من مسكنها. كانت الحياة بالنسبة لمعظمهنّ صعبةً وبائسةً. كان بعضهنّ سجينات بيوت دعارةٍ. وقد ترك أحد السوّاح الفرنسيين، **أنطوان دولالين** Antoine

---

69- تينك اللواتي أتين من سيسترون عبر ممرّ بيبان كان عليهنّ كاليهود أن يدفعن بدل عبورٍ خمسة سول لصالح سيّدات سانت كلير de Sainte-Claire les dames. (باهوتو Bahutaud)

de Lalaing وصفًا لبيتٍ إسبانيٍّ في فالانس في نهاية القرن الخامس عشر. فقال إنّ المكان:

«كبيرٌ كمدينةٍ صغيرةٍ يحيط به سورٌ له بابٌ وحيدٌ. وأمام الباب مشنقةٌ للأشرار الذين قد يجدونهم في الداخل؛ وعلى الباب رجلٌ يأخذ عصي الراغبين بالدخول ويسألهم إن كانوا يريدون إعطاءه نقودهم ويردها إليهم بعد اقتطاع الأجر، وإن لم يسلّموه نقودهم وسرقت منهم خلال الليل فهو غير مسؤولٍ عنها. في هذا المكان ثلاثة أو أربعة شوارع مليئةٌ بالبيوت الصغيرة في كلٍّ منها فتياتٌ يرتدين المخمل والساتان. يتراوح عددهنّ بين مئتي وثلاثمئة فتاةٍ؛ لديهنّ بيوتهنّ الصغيرة وأثاثهنّ جيّدٌ. الأجر المفروض هو أربعة دراهم من عملتهم، ما يوازي مبلغًا كبيرًا بالنسبة لنا... وهناك حاناتٌ وملاهٍ ليليةٌ. لا يمكن تحمّل الحرّ إن أردنا ارتياد هذا المكان نهارًا بل نفعل ذلك مساءً أو ليلًا ويكنّ جالساتٍ وبقربهنّ مصباحٌ جميلٌ معلّقٌ لتمكن رؤيتهنّ جيدًا. في المدينة طبيبان موظفان ومخصّصان لزيارة الفتيات أسبوعيًا لكشف أيّ مرضٍ عادي أو سرّيّ لإخراجهنّ من المكان. وإن كانت هناك مريضة يسمح لها بالعمل لحسابها وترسل حيثما تشاء»[70].

كما أنّ الكاتب يتعجّب من نظامٍ بهذه الدقّة. كان كثيرٌ من المومسات حرّاتٍ؛ وكان بعضهنّ يكسبن الكثير. كما في زمن المحظيّات كانت العلاقات الغراميّة تفتح آفاقًا أمام الفرديّة النسائيّة أوسع من حياة «المرأة الشريفة».

وضع العازبة خاصٌّ في فرنسا؛ إذ أنّ الاستقلال القانوني الذي تتمتّع به الزوجة يتعارض بطريقةٍ صادمةٍ مع تبعيّتها؛ فهي شخصٌ فريدٌ؛ وكذلك حاولت الأعراف أن تسلبها كلّ ما يمنحها إياه القانون؛ لديها كلّ الكفاءات المدنيّة: لكنّها حقوقٌ مجرّدةٌ وفارغةٌ؛ فلا تملك استقلاليّةً اقتصاديّةً، ولا مركزًا اجتماعيًّا، وتبقى العانس عمومًا مخبأةً في ظلّ العائلة الأبويّة أو تنضمّ إلى مثيلاتها في أعماق الأديرة: بذلك لا تعرف شكلًا آخر للحريّة سوى التمرّد والخطيئة، وهكذا لم تكن الرومانيات في عصر الانحطاط يتحرّرن إلّا عبر الرذيلة. وتبقى السلبية قدر النساء طالما ظلّ تحرّرهنّ سلبيًا.

70- قاموس الحديث، ريفنبرغ. نساء وفتيات الحياة الصاخبة. Dict. De la Conversation. Riffenberg.Femmes et filles de folle vie

نرى في مثل هذه الأوضاع كيف أنّ من النادر أن تكون للمرأة إمكانيّة التصرّف أو أن تبرز: في الطبقات العمالية، يلغي الضغط الاقتصادي عدم تساوي الجنسين؛ ولكنّه يجرّد الفرد من كلّ فرصةٍ؛ لدى النبلاء والبورجوازيين تُضايَق المرأة لجنسها: ليس لها سوى وجودٍ متطفلٍ؛ وهي قليلة التعلّم؛ ويتطلب الأمر ظروفًا استثنائيّةً كي تستطيع تصوّر أيّ مشروعٍ ملموسٍ وتنفّذه. وتملك الملكات والوصيّات على العرش هذا الحظّ: فسيادتهنّ ترفعهنّ فوق جنسهنّ؛ وتمنع شريعة الإفرنج النساء من الوصول إلى العرش؛ ولكنّهنّ يلعبن أحيانًا دورًا كبيرًا إلى جانب زوجهنّ وبعد وفاته: ومنهنّ **سانت كلوتيلد**، **وسانت رادغوند**، **وبلانش دو كاستيَ**. حياة الرهبنة تجعل المرأة مستقلّةً عن الرجل: وتملك بعض رئيسات الأديرة نفوذًا كبيرًا؛ وقد اشتهرت **هيلويز** كرئيسة ديرٍ بقدر ما اشتهرت كعاشقةٍ. في العلاقة الصوفيّة، وبالتالي المستقلّة، التي تربط النساء بالله، يستمددن الإلهام والقوّة من روحٍ ذكوريّةٍ؛ ويسمح لهنّ الاحترام الذي يكسوهنّ به المجتمع بإتمام مهام صعبةٍ. في مغامرة **جان دارك** ما يشبه المعجزة: ولم تكن تلك سوى مغامرةٍ وجيزةٍ. لكنّ حكاية القديسة **كاترين دوسيين** ذات مغزىً؛ لقد خلقت لنفسها في سيينا من وجودٍ عاديٍّ للغاية سمعةً كبيرةً بفضل أعمالها الخيرية والرؤى التي كانت تُظهِر حياتها الداخليّة المحتدمة؛ بذلك اكتسبت السلطة الضرورية للنجاح والتي تفتقر إليها النساء عمومًا؛ وكانوا يستعينون بها لحثّ المحكومين بالإعدام على التوبة، وإعادة الضالّين، وتهدئة النزاعات بين الأسر والمدن. دعمتها الجماعة التي رأت فيها ذاتها، وبهذا استطاعت القيام بمهمتها السلمية، داعيةً من مدينةٍ لمدينةٍ إلى طاعة البابا، قائمةً بمراسلاتٍ واسعةٍ مع الأساقفة والملوك، وفي النهاية اختارتها فلورنسة كسفيرةٍ لتذهب وتأتي بالبابا من آفينيون. تجد الملكات، بحقّهنّ الإلهي، والقديسات، بفضيلتهنّ الساطعة، في المجتمع دعمًا يسمح لهنّ بالتساوي مع الرجال. وعلى العكس يُطلب من الأخريات تواضعٌ صامتٌ. نجاح **كريستين دو بيزان** هو حظٌّ مدهشٌ: لقد كانت أرملةً مثقلةً بالأطفال وقرّرت أن تكسب عيشها بقلمها.

وبوجه الإجمال رأي الرجال في القرون الوسطى ليس في صالح النساء. بالتأكيد لقد أشاد شعراء الغزل بالحب؛ ورأينا ظهور العديد من «فنون الحب»، ومن بينها قصيدة **أندريه لوشابلان** Andre`le Chapelain و«قصّة الوردة» الشهيرة حيث يشجّع **غيوم دو لوريس**

Guillaume de Lorris الشباب على تكريس أنفسهم لخدمة السيّدات. ولكن في مقابل هذه الأدبيات المتأثّرة بأدبيّات الشعراء الجوالين هناك كتاباتٌ من وحيٍ بورجوازيٍّ تهاجم النساء بخبثٍ: فقد راحت الحكايا الساخرة والهازئة والقصائد الشعبية تنتقد كسلهنّ وغنجهنّ وفجورهنّ. وألدّ أعدائهنّ رجال الدّين. فقد هاجموا الزواج الذي جعلته الكنيسة سرًّا مقدّسًا ومع ذلك حرّمته على الصفوة المسيحيّة: وفي ذلك تناقضٌ هو أصل «صراع النساء». لقد انتُقِدن بشدّةٍ في «مراثي ماثيولوس» التي نُشِرت بعد أول جزءٍ من «قصّة الوردة» بخمسة عشر عامًا، وتُرجِمت إلى الفرنسيّة بعد مئة عامٍ واشتُهِرت في زمنها. فقد طُرِد **ماثيو** من الإكليروس عندما تزوّج؛ لعن زواجه، ولعن النساء والزواج عمومًا.

لماذا خلق الله المرأة بما أن الزواج لا يتطابق مع الإكليروس؟ لا راحة في الزواج: لا بد أنّه من عمل الشيطان؛ أو أنّ الله لم يكن يدرك ما يفعل. يأمل **ماثيو** ألا تُبعَث المرأة يوم القيامة. لكنّ الله يجيبه بأن الزواج هو مَطهَرٌ بفضله نبلغ السماء؛ وانتقل **ماثيو** بالمنام إلى السماوات، فرأى فيلقًا من الأزواج استقبلوه بصيحات «عاش الشهيد الحقيقي!» ونرى لدى **جان دو مونج** Jean de Monge والذي هو رجل دينٍ أيضًا، وحيًا مشابهًا؛ يأمر الشباب بالتملّص من جور النساء؛ ويهاجم الحب في البداية:

الحبّ هو هذه البلاد الحقودة

الحبّ هو هذا البغض العاشق

ويُهاجم الزواج الذي يحوّل الرجل إلى عبدٍ ويجعله يتعرّض للخيانة؛ ويوجّه نقدًا لاذعًا للمرأة. ويجهد أنصار المرأة في الردّ مظهرين تفوّقها. وها هي بعض الحجج التي استقى منها حتّى القرن السابع عشر المدافعون عن الجنس الضعيف:

> **«المرأة أفضل من الرجل للأسباب التالية: ماديًا: لأن آدم صُنِع من طينٍ، وحوّاء من ضلع آدم. ومكانيًا: لأنّ آدم خُلِق خارج الجنّة، وحوّاء في الجنّة. وفي المفهوم: لأنّ المرأة حبلت بالله، وهذا شيءٌ لم يستطع آدم القيام به. وبالتجلّي: لأنّ المسيح بعد موته تجلّى لامرأةٍ، أي مادلين. وبالتمجيد: لأنّ امرأةً مُجِّدت فوق جوقة الملائكة، أي ماري السعيدة...».**

ويردّ الخصوم على ذلك بقولهم إنّه إذا كان **المسيح** قد ظهر أولًا للنساء فلأنّه يعرف أنّهنّ ثرثاراتٌ وكان يريد نشر خبر قيامته بسرعةٍ.

واستمرّ النزاع خلال القرن الخامس عشر. يصف مؤلف «*متع الزواج الخمس عشرة*» سوء طالع الأزواج البائسين. ويكتب **أوستاش ديشام** Eustache Deschamps بنفس الشأن قصيدةً طويلةً جدًّا. وبدأ بهذه الحقبة «نزاع قصّة الوردة». ونرى للمرة الأولى امرأةً تتناول قلمها لتدافع عن جنسها؛ فهاجمت **كريستين دوبيزان** رجال الدين بشدّةٍ في «*رسالة إلى إله الحبّ*». وهبّ رجال دينٍ حالًا للدفاع عن **جان دومونج**؛ لكنّ **جرسون** Gerson، وهو مستشارٌ في جامعة باريس، وقف إلى جانب **كريستين**؛ فحرّر بحثه بالفرنسيّة لتصل إلى الجمهور الواسع. وألقى **مارتان لوفران** Martin le Franc في ساحة المعركة بكتاب «*وصيفات النساء*» المشوّش الذي ظلّ يُقرأ مئتي سنةً. وتدخّلت **كريستين** من جديد. فطالبت خصوصًا بالسماح للنساء بالتعلّم: «إذا اعتدنا وضع البنات الصغيرات في المدرسة وتعليمهنّ العلوم كما الصبيان، فسيتعلّمن بنفس القدر وسيفهمن كلّ دقائق الفنون والعلوم كما يفعل الصبيان».

في الواقع لا تعني هذه المشاحنة النساء إلّا بصورةٍ غير مباشرةٍ. فلا أحد يفكّر بالمطالبة لهنّ بدورٍ مختلفٍ عمّا خُصّص لهنّ. المسألة بالأحرى مواجهةٌ بين رجال الدين ووضع الزواج؛ أي أنّ الأمر مشكلةٌ ذكوريّةٌ أثارها وضع الكنيسة المتناقض تجاه الزواج. إنّه هذا الصراع الذي حسمه **لوثر** Luther برفض عزوبيّة الكهنة. لم يتأثّر وضع المرأة بهذه الحرب الأدبيّة. لم يغيّره هجاء الهزء ولا السخرية التي طالت المجتمع كما هو: فهي تسخر من النساء لكنّها لا تحيك شيئًا ضدّهنّ. مجّد شعرُ الغزل الأنوثةَ: لكن مثل هذا التمجيد على العكس لا يفترض مساواة الجنسين. «المشاحنة» هي ظاهرةٌ ثانويّةٌ تعكس موقف المجتمع لكنّها لا تغيّره.

*

قيل إنّ وضع المرأة القانوني بقي دون تغييرٍ تقريبًا منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر؛ ولكن وضعها الفعليّ تغيّر في الطبقات ذات الامتيازات. وكان

عصر النهضة الإيطالي عصر الفرديّة التي بدت مواتيةً لتفتّح كلّ الشخصيات القويّة، دون تمييزٍ للجنس. فنجد فيه نساءً هنّ ملكاتٌ قويّاتٌ، مثل **جان داراغون**، **وجان دونابل**، **وإيزابيل ديسته**؛ وكانت غيرهنّ مغامراتٍ حملن السلاح كالرجال: وهكذا ناضلت زوجة **جيرولامو رياريو** من أجل تحرير «فورلي»؛ وقادت **هيبوليتا فيورامنتي** جيوش دوق ميلانو وقادت جماعةً من النساء المرموقات إلى الأسوار خلال حصار «بافي». وكي تدافع نساء سيينا عن مدينتهنّ في وجه «مونلوك»، شكّلن ثلاث فرقٍ تتألّف كلّ منها من ثلاثة آلاف امرأةٍ، تقودهنّ نساءٌ. وأصبحت إيطالياتٌ أخرياتٌ شهيراتٍ بثقافتهنّ أو مواهبهنّ: مثل **إيزورا نوغارا**، **فيرونيكا غامبارا**، **غاسبارا ستامبارا**، **فيتوريا كولونا** التي كانت صديقة **مايكل أنجلو**، وخصوصًا **لوكريس تومابيوني**، أم **لوران وجوليان دو ميديتشي**، التي كتبت فيما كتبت تراتيل وحياة القديس **يوحنا المعمدان والعذراء**. كان معظم هذه النساء المتميّزات محظيّاتٍ؛ جمعن بين حرّية الأخلاق وحرّية الفكر، وقد حصلن على أمانٍ اقتصاديٍّ بفضل مهنتهنّ، كان الرجال يعاملون كثيراتٍ منهنّ باحترامٍ وإعجاب؛ كنّ يحمين الفنون، ويهتممن بالأدب، والفلسفة، وغالبًا كنّ يكتبن أو يرسمن بأنفسهنّ: **إيزابيل دولونا**، **وكاتارينا دي سان سلسو**، **وأمبريا** التي كانت شاعرةً وموسيقيّةً، جمعن بين تقاليد أسبازيا وفرينيه. مع ذلك وبالنسبة للكثيرات لم تأخذ الحريّة حتى ذلك الحين سوى شكل التحلّل: ظلّت عربدة وجرائم السيدات الراقيات والمحظيات الإيطاليات أسطوريّةً.

هذا التحلّل هو أيضًا الحريّة الرئيسة التي نراها في القرون التالية لدى النساء اللواتي حرّرتهن طبقتهنّ أو ثروتهنّ من الأخلاق السائدة التي ظلّت في المجمل صارمةً كما في القرون الوسطى. أمّا بالنسبة للإنجازات الإيجابية فلم تكن بعدُ ممكنةً إلّا لعددٍ صغيرٍ للغاية: **فكاترين دو مديتشي وإليزابت** ملكة إنجلترا **وإيزابيل** الكاثولوكيّة ملكاتٌ عظيماتٌ. كما تمّ إجلال بعض القديسات العظيمات. يمكن تفسير القدر المدهش للقديسة **تيريز دافيلا** تقريبًا بنفس طريقة القديسة **كاترين**: لقد استمدّت من ثقتها بالله ثقةً متينةً بنفسها؛ رافعةً القيم التي تناسب وضعها إلى أرفع درجةٍ، وحصلت على دعم مرشديها والعالم المسيحي: فاستطاعت تجاوز الوضع العادي لراهبةٍ؛ وأسّست أديرةً وأدارتها، وسافرت وعملت وثابرت بنفس شجاعة الرجل المغامر؛ لم يضع المجتمع أمامها عراقيل؛ لم تكن الكتابة بحدّ ذاتها

جرأةً: فقد أمرها مرشدوها بذلك. وأظهرت بشكلٍ ساطعٍ أنّ بإمكان المرأة أن ترتقي إلى نفس مصاف الرجل عندما تنال فرص الرجل بطريق الصدفة.

لكنّ هذه الفرص تظلّ غير متكافئةٍ البتة؛ في القرن السادس عشر، ظلّت النساء قليلات التعلّم. دعت «**آن دوبروتاني**» نساءً عديداتٍ إلى البلاط حيث لم يكن يُرى هناك قبلًا سوى رجالٍ؛ وبذلت جهدًا في تشكيل حاشيةٍ من فتيات الشرف: لكنّها اهتمت بتدريبهنّ أكثر من اهتمامها بتثقيفهنّ. كان معظم النساء اللواتي تميّزن فيما بعد بفكرهنّ وتأثيرهنّ الفكري وكتابتهنّ سيّداتٍ نبيلاتٍ: دوقة ريتز، ومدام دولينيرول، ودوقة روهان وابنتها آن؛ الأكثر شهرةً كنّ أميراتٍ: الملكة **مارغو ومارغريت دونافار**. ويبدو أنّ **برنيت دو غيبه** كانت بورجوازيّةً؛ لكنّ **لويز لابيه** كانت دون شكٍّ محظيّةً: على أيّة حالٍ، كانت متحرّرةً جدًّا.

تابعت النساء تميّزهنّ في القرن السابع عشر في الميدان الفكري خصوصًا؛ فتطوّرت الحياة المدنيّة وانتشرت الثقافة؛ وأصبح الدور الذي تلعبه النساء في الصالونات معتبرًا؛ بما أنّهنّ لم يكنّ منخرطاتٍ في بناء العالم، فلديهن وقتٌ كافٍ للتفرّغ للمحادثات والفنون والآداب؛ لم يكن تعليمهنّ منظّمًا ولكنّهنّ توصّلن عبر حواراتٍ وقراءاتٍ وتعليم مدرّسين خاصّين أو محاضراتٍ عامةٍ إلى اكتساب معارف أعلى من معارف أزواجهنّ: في فرنسا تمتعت الآنسة **دو غورناي**، والسيدة **دو رامبوييه**، والآنسة **دو سكودري**، والسيدة **لافاييت**، والسيدة **دو سيفبنييه** بشهرةٍ واسعةٍ؛ وخارج فرنسا ارتبطت شهرةٌ مماثلةٌ باسم الأميرة **إليزابيث**، والملكة **كريستين**، والآنسة **شومان** التي كانت تتراسل مع كلّ أهل الفكر.

بفضل هذه الثقافة والمكانة التي تمنحهنّ إياها، نجحت النساء في الدخول إلى العالم الذكوري؛ وانزلق كثيرٌ من الطموحات من الأدب والأخلاقيّات الغرامية إلى المغامرات السياسية. عام 1623 كتب السفير البابوي: «في فرنسا تأتي كل الأحداث الهامة، وكلّ المكائد الكبيرة من النساء غالبًا». أثارت أميرة كونديه «مكائد النساء»؛ وكانت آن النمسويّة محاطةً بنساءٍ تصغي بطيب خاطرٍ إلى نصائحهنّ؛ وريشليو Richelieu يصغي بتواطؤٍ لدوقة **إيغيّون**؛ ونعرف أيّ دورٍ لعبت خلال حرب الفروند السيّدة **دومونبازون** ودوقة شيفروز والآنسة **مونبنسييه** ودوقة لونغفيل وآن **دوغونزاغ** وكثيراتٌ غيرهنّ. وأخيرًا، أعطت السيدة **دومانتنون** مثالًا ساطعًا على التأثير الذي يمكن لمستشارةٍ بارعةٍ ممارسته على شؤون

الدولة. أمّنت النساء لأنفسهنّ بطرقٍ ملتويةٍ الدور الأكثر فعاليةً منشطاتٍ، ومستشاراتٍ، ومتآمراتٍ: فحكمت أميرة الأورسين في إسبانيا بسلطةٍ أكبر لكنّ فترة حكمها كانت قصيرةً. وإلى جانب هاته السيّدات العظيمات، رسّخت بعض الشخصيّات نفسها في العالم الذي أفلت من الضغوط البورجوازيّة؛ وظهر نوعٌ غير معروفٍ: الممثّلة.

عام 1545 سُجّل للمرة الأولى وجود امرأةٍ على خشبة المسرح؛ وعام 1592 لم نكن نعرف إلّا واحدةً؛ في بداية القرن السابع عشر كان معظمهنّ زوجات ممثلين؛ ثم نلن استقلاليّةً في مهنتهنّ كما في حياتهنّ الخاصّة. أما المحظيّة، فبعد أن كانت **فرينيه**، **وإمبيريا**، تجسّدت بصورتها الأكمل في **نينون دو لانكلو**: بما أنّها استغلّت أنوثتها، فقد تجاوزتها؛ واكتسبت خصائص ذكريّةً لأنّها عاشت بين الرجال؛ ودفعها استقلالها الأخلاقي إلى الاستقلال الفكري: لقد حملت **نينون دولانكلو** الحرّيّة إلى أقصى نقطةٍ يُسمَح لامرأةٍ بحملها إليها.

في القرن الثامن عشر نمت حريّة المرأة واستقلالها أكثر. بقيت العادات قاسيةً مبدئيًا: فلا تتلقّى الفتاة سوى تعليمٍ بسيطٍ؛ وتُزوَّج أو تُرسَل إلى الدير دون طلب رأيها. وتفرض طبقة البورجوازيّة الصاعدة على الزوجة أخلاقًا صارمةً. ولكن بالمقابل سمح تفكّك طبقة النبلاء لنساء الأعيان بالتحرّر الأخلاقيّ وأصيبت البورجوازية بعدوى هذه الأمثلة؛ لم تنجح الأديرة ولا منازل الزوجيّة في صدّ المرأة. مرةً أخرى ظلّت هذه الحرّية سلبيّةً ومجرّدةً بالنسبة لغالبيتهنّ فاكتفين بالبحث عن المتعة. لكنّ الذكيّات والطموحات خلقن لأنفسهنّ إمكانيّاتٍ للعمل. وأخذت حياة الصالونات انطلاقةً جديدةً: ونعرف جيّدًا الدور الذي لعبته السيدة **جوفرين** والسيدة **دوديفو** والآنسة **دو لسبيناس** والسيدة **ديبيناي** والسيدة **تنسين**؛ شكّلت النساء الراعيات والملهمات جمهور الكتاب المفضّل؛ فاهتممن شخصيًّا بالأدب، والفلسفة، والعلوم: ومثل السيدة **دوشاتليه**، كان لديهن مكتبٌ للفيزياء، ومخابر للكيمياء، وقمن بالتجارب، والتشريح؛ وتدخّلن بشكلٍ فعّالٍ أكثر من أيّ وقتٍ آخر في الحياة السياسية: السيدة **دوبري** والسيدة **دومايي** والسيدة **دوشاتونوف** والسيدة **دوبومبادور** والسيدة **دو باري** حكمن **لويس الخامس عشر** كلّ بدورها؛ ولا يوجد وزيرٌ ليست له ملهمةٌ؛ لدرجة أنّ **مونتسكيو** Montesquieu يعتبر أنّ النساء يقمن بكلّ شيءٍ في فرنسا؛ ويقول إنّهنّ يشكّلن

«دولةً جديدةً ضمن الدولة»؛ وكتب **كوليه** Collé عشيّة 1789[71]: «لقد بلغن لدى الفرنسيين مكانةً عاليةً، لقد سحرنَهم بحيث أنّهم لا يفكّرون ولا يشعرون إلّا تبعًا لهنّ». وإلى جانب نساء المجتمع، هناك أيضًا ممثّلاتٌ ونساءٌ مستهتراتٌ يتمتّعن بشهرةٍ واسعةٍ: **صوفي أرنو وجوليا تالما وأدريين لوكوفرور**.

وهكذا خلال كلّ النظام القديم كان الميدان الثقافي أكثر مجالٍ استطاعت النساء دخوله كي يثبتن أنفسهنّ. مع ذلك لم تبلغ أيٌّ منهنّ القمة التي بلغها دانتي أو **شكسبير**؛ ويمكن تفسير هذا الأمر بضآلة وضعهنّ بشكلٍ عامٍّ. كانت الثقافة حكرًا على نخبةٍ من النساء، وليس الأغلبية؛ ومن الأغلبية خرجت العبقريات الذكوريّة غالبًا؛ حتّى أنّ المحظوظات منهنّ كنّ يجدن حولهنّ عقباتٍ تسدّ عليهن الطريق نحو القمّة. لا شيء كان يوقف انطلاقة القديسة **تيريز**، ولا **كاترين** قيصرة روسيا، ولكن كان ألف ظرفٍ يتّحد ضدّ المرأة الكاتبة. في كتاب **فيرجينيا وولف** Virginia Woolf الصغير «*غرفةٌ شخصيّةٌ*» تسلّت بتخيّل حياة أختٍ افتراضيّةٍ **لشكسبير**؛ وبينما كان يتعلّم في المدرسة الثانويّة قليلًا من اللغة اللاتينية، والقواعد، والمنطق، ظلّت هي في البيت في جهلٍ مطبقٍ؛ وبينما كان يصيد، ويجوب الأرياف، ويضاجع نساء الجوار، كانت ترتق المماسح تحت بصر والديها؛ ولو كانت قد ذهبت مثله بجرأةٍ لتبحث عن حظّها في لندن، ما كانت لتصبح ممثّلةً تكسب عيشها بحريّةٍ: فإمّا أنّها كانت ستُعاد إلى أسرتها التي ستزوجها قسرًا، أو أنّ أحدهم كان سيغويها، ويهجرها، وسيلحق بها العار وتنتحر يأسًا. يمكن أيضًا تخيّلها وقد غدت مومسًا مرحةً، مثل **مول فلاندر** كما شكّلها **دانييل ديفو** Daniel De Foe: ولكن بجميع الأحوال ما كانت لتقود فرقةً أو تكتب قصصًا. وتلاحظ **ف. وولف** أنّه كان هناك دومًا عداءٌ للنساء الكاتبات في إنجلترا. كان الدكتور **جونسون** Johnson يقارنهنّ «بكلبٍ يمشي على ساقيه الخلفيتين: هذا ليس أمرًا جيّدًا لكنه مدهشٌ». ويهتمّ الفنانون أكثر من أي شخصٍ آخر برأي الآخرين؛ وينطبق ذلك على النساء بشكلٍ وثيقٍ: يمكننا أن نتصوّر القوة التي تلزم المرأة الفنانة لتجرؤ فقط على تجاهل الأمر؛ فهي تستنفد قواها غالبًا في هذا النضال. في نهاية القرن السابع عشر، حاولت **الليدي وينيلسي** التي هي نبيلةٌ دون أطفالٍ أن تغامر بالكتابة؛ وتبدي بعض مقاطع

71- انطلاق الثورة الفرنسية. (المترجمة)

كتابها أنّها ذات طبيعةٍ حسّاسةٍ وشاعريّةٍ؛ لكنّها أفنت نفسها في الكره والغضب والخوف:

وا أسفاه! المرأة التي تمسك ريشةً

تُعتَبر مخلوقةً مغرورةً للغاية

ولا تملك وسيلةً لتكفّر عن جريمتها!

خصّصت كلّ كتابها تقريبًا لاستنكار وضع النساء. وحالة دوقة نيوكاسل مشابهةٌ؛ فهي أيضًا سيّدةٌ راقيةٌ، أثارت فضيحةً عندما كتبت. لقد كتبت ثائرةً: «تعيش النساء مثل حشرة بنت وردان أو مثل البومة، ويمتن مثل الدود». لقد شتموها واستهزأوا بها، واضطرت إلى الانكفاء في أملاكها؛ ورغم طبيعتها الخيّرة، أصبحت نصف مجنونةٍ، ولم تعد تنتج إلّا هذيانًا غريبًا. في القرن الثامن عشر عاشت امرأةٌ بورجوازيّةٌ أرملةٌ من ريشتها كرجلٍ، وهي السيّدة أفرا بين؛ وحذت أخرياتٌ حذوها؛ ولكن حتّى في القرن التاسع عشر كنّ مضطراتٍ غالبًا إلى التخفّي؛ لم يكن لديهنّ حتّى «غرفةٌ خاصّةٌ بهنّ» أي أنّهنّ لم يكنّ يتمتّعن بهذا الاستقلال المادي الذي هو شرطٌ ضروريٌّ للحريّة الداخليّة.

رأينا أنّ وضع الفرنسيّات كان أفضل بقليلٍ بسبب تطوّر الحياة المدنيّة وارتباطها الوثيق بالحياة الثقافيّة. إلّا أنّ الرأي العام هو في قسمٍ كبيرٍ منه معادٍ «للمثقفات». أثناء النهضة، أثارت سيّداتٌ نبيلاتٌ ونساءٌ مثقّفاتٌ حركةً في صالح جنسهنّ؛ فقد جعلت المذاهب الأفلاطونيّة المستوردة من إيطاليا الحب والمرأة روحيّين. وانخرط العديد من المثقّفين في الدفاع عنها. ورأينا ظهور «مركب النساء الفاضلات» و«فارس النساء» إلخ... يعطي إيراسم Erasme في «*مجلس الشيوخ الصغير*» الكلام لكورنيلي التي تعرض بحدّةٍ مخالب جنسها. «الرجال مستبدّون... يعاملوننا كلُعَبٍ... يجعلون منّا غسّالاتهم وطبّاخاتهم». ويطالب بأن يُسمح للنساء بالتعلّم. ويعمل كورنيليوس أغريبا Cornelius Agrippa على إبراز التفوّق الأنثوي في كتاب نال شهرةً واسعةً «الإشادة بنبل وتميّز الجنس الأنثوي». ويتناول ثانيةً الحجج القديمة: حوّاء تعني الحياة وآدم الأرض. والمرأة أكثر اكتمالًا من الرجل لأنّها خُلِقت بعده. لقد ولدت في الجنّة، وهو خارجها. وعندما تقع في الماء تطفو؛ والرجل يغرق. وهي مخلوقةٌ من ضلع آدم وليس من ترابٍ. وطمثها يشفي كلّ الأمراض. لم تفعل حوّاء الجاهلة سوى أن

تتنزّه؛ آدم هو من ارتكب المعصية؛ ولهذا صنع اللّه نفسه رجلًا: عدا عن أنّه بعد قيامته ظهر لنساءٍ. ثم يعلن أغريبا أنّ النساء أكثر فضيلةً من الرجال. ويذكر «السيدات النقيّات» اللواتي يستطيع جنسهنّ أن يفخر بهنّ، وهذا أيضًا مبتذلٌ في هذا الدفاع. وأخيرًا، يوجّه اتّهامًا للاستبداد الذكوريّ: «مخالَفةً لكلّ القوانين، وخرقًا للمساواة الطبيعيّة دون عقابٍ، حرم استبداد الرجل المرأةَ من الحرّية التي تكتسبها عند ولادتها». مع ذلك فهي تنجب أطفالًا، وهي ذكيّةٌ بقدر الرجل وأكثر منه؛ ومن المستنكَر الحدّ من فعالياتها، «الأمر الذي يتمّ ليس بأمرٍ من الله، ولا عن ضرورةٍ ولا منطقٍ، ولكن بقوّة الاستخدام، بالتعلّم، بالعمل، وبشكلٍ أساسيٍّ بالعنف والقمع». إنّه لا يطالب بالتأكيد بالمساواة بين الجنسين، ولكنّه يريد أن تُعامَل المرأة باحترامٍ. حاز الكتاب على نجاحٍ باهرٍ. وأيضًا «*الحصن المنيع*» وهو دفاعٌ آخر عن المرأة؛ و«آمي ديرويه المثالية»، المشوب بخرافةٍ أفلاطونيّة. وفي كتاب غريبٍ يعلن عن مذهب القديس **سمعان**، يعلن **بوستيل** Postel عن مجيء **حوّاء** جديدةٍ، الأمّ المجدِّدة للنوع البشري: حتّى أنّه يعتقد أنّه صادفها؛ لقد ماتت، وربّما تقمّصت فيه ثانيةً. وباعتدالٍ أكثر، تعلن **مارغاريت دو فالوا** في كتابها «*دراسةٌ علميّةٌ حاذقةٌ*» أنّ في المرأة شيئًا إلهيًّا. لكن الكاتبة التي خدمت قضيّة جنسها بشكلٍ أفضل، هي **مرغريت دو نافار** التي اقترحت مقابل تحلّل الأخلاق مثاليةً من التصوّف والعاطفة والعفّة دون تزمّتٍ، محاولةً الجمع بين الزواج والحب من أجل احترام النساء وسعادتهنّ. طبعًا لم يستسلم خصوم المرأة. نجد حجج العصور الوسطى القديمة في «جدل الجنسين المذكّر والمؤنث»، الذي يردّ على **أغريبا** من بين العديد من المؤلفات الأخرى. تسلّى **رابليه** Rablais في «*الكتاب الثالث*» بتهكّمٍ قويٍّ على الزواج مؤيّدًا رأي **ماتيو** ودوديشام: مع ذلك فالنساء هنّ من يفرض القوانين في دير تيليم Thèlème السعيد. وتأخذ معاداة النسويّة فوعةً جديدةً عام 1617 مع كتاب «*ألفباء النقص وخبث النساء*» لـ**جاك أوليفييه** Jacque Olivier؛ كان على الغلاف رسمٌ يمثّل امرأةً بيدي تنّينٍ، مغطاةً بريش الفسق، جاثمةً على قوائم دجاجةٍ، لأنّها مثل الدجاجة ربّة منزلٍ سيّئةٌ: وتحت كلّ حرفٍ من الألفباء دوّن أحد عيوبها. مرةً أخرى أحد رجال الكنيسة يذكي الصراع القديم؛ وردّت الآنسة **دوغورناي** بتساوي الرجال والنساء. عندها ظهرت كتبٌ فاسقةٌ «شعرٌ وحجراتٌ شهوانيّةٌ» تهاجم طبائع النساء بينما كان النسّاك يردّدون أقوال القديس **بولس**

وآباء الكنيسة وسفر الجامعة لتحقيرهنّ. كما كانت المرأة تشكّل موضوعًا لا ينضب لسخرية **ماتوران رينييه** Mathurin Régner وأصدقائه. في المعسكر الآخر، تناول المدافعون ثانيةً حجج **أغريبا** وتسابقوا في التعليق عليها. وطالب **الأب دوبوسك** في «*المرأة الشريفة*» بالسماح للنساء بالتعلّم. وأشادت قصّة L'Astrée وأدب غزلٍ مماثلٍ بفضائلهنّ في موشّحاتٍ وقصائد مؤثرة إلخ..

حتّى أنّ النجاح الذي بلغته النساء أثار ضدّهنّ هجومًا جديدًا؛ لقد أزعجت «المتأنّقات» الرأي العام: وصفّقوا «للمتأنّقات السخيفات» وبعدها «المتحذلقات». لم يكن **موليير** مع ذلك عدوًّا للنساء: فهو يهاجم بشدّةٍ الزيجات المفروضة، ويطالب بالحريّة العاطفيّة للشابات، وبالاحترام والاستقلال للمرأة المتزوّجة. وعلى العكس لم يكن **بوسويه** Bossuet رفيقًا بهنّ البتّة في مواعظه. فيعظ قائلًا إنّ المرأة الأولى لم تكن سوى «جزءٍ من آدم ونموذجٍ مصغّرٍ، وكذلك عقلها». سخرية **بوالو** Boileau من النساء ليست سوى تمرينٍ على الفصاحة لكنّها أثارت تمرّدًا: ردّ **باردون** Pardon، **ورنيار** Regnard، **وبيرو** Perrault غاضبين. وأبدى **لابروبير** La Bruyère وسان **إيفرمون** Saint-Evremond دعمًا للنساء. أكبر مؤيّدي الحركة النسويّة في ذلك العصر هو **بولان دولا بار** Poulain de la Barre الذي نشر عام 1673 كتابًا ذا صبغةٍ عقلانيّةٍ، «*تساوي الجنسين*». ويعتبر أنّ الرجال بما أنّهم الأقوى فقد منحوا جنسهم امتيازاتٍ في كلّ شيءٍ وأنّ النساء يقبلن هذه التبعيّة بحكم العادة. لم ينلن فرصهنّ أبدًا: لا الحريّة ولا التعلّم. وبالتالي لا يمكن الحكم عليهنّ تبعًا لما قمن به في الماضي. لا شيء يشير إلى أنّهن أدنى من الرجل. ويُظهِر التشريح اختلافاتٍ، لكنّ أيًّا منها لا يشكّل ميزةً للرجل. ويختم **بولان دولابار** مطالبًا بتعليمٍ جيّدٍ للنساء. كتب **فونتنيل** Fontenelle من أجلهنّ «*بحثٌ في تعدّديّة العوالم*». وإن بدا **فينيلون** Fénélon خجولًا للغاية في برنامجه التعليمي، وهو يتبع السيدة **مانتنون** Maintenon والأب **فلوري** Fleury، فالأستاذ الجامعي المتزمّت **رولان** Rollin يريد على العكس أن تتلقّى النساء تعليمًا جدّيًا.

القرن الثامن عشر منقسمٌ أيضًا. عام 1744 أعلن مؤلّف «*جدل حول روح المرأة*» في أمستردام أنّ «المرأة التي خُلِقت فقط من أجل الرجل ستزول في نهاية العالم لأنّها لن تعود مفيدةً للغرض الذي خُلِقت من أجله، يستتبع ذلك بالضرورة أنّ روحها ليست خالدةً».

وبطريقةٍ أقلّ جذريّةً كرّس **روسو** Rousseau، الذي جعل من نفسه هنا ممثّل البورجوازيّة، المرأة لزوجها وللأمومة. وأكّد قائلًا: «يجب أن يكون كلّ تعليم المرأة متعلّقًا بالرجال... خُلِقت المرأة لتخضع للرجل وتتحمّل ظلمه». مع ذلك فالمثال الديموقراطي والفردي في القرن الثامن عشر في مصلحة النساء؛ يبدون لمعظم الفلاسفة كائناتٍ بشريّةً مساويةً للجنس القويّ. واستنكر **فولتير** Voltaire الظلم الواقع عليهنّ. واعتبر **ديدرو** Diderot أنّ معظم دونيّتهنّ صنعها المجتمع. وكتب: «أرثي لحالكنّ أيتها النساء!». وهو يعتقد أنّ «قسوة القوانين المدنيّة في كلّ العادات اجتمعت مع قسوة الطبيعة ضدّ النساء. لقد عوملن كأشخاصٍ حمقى». واعتبر **مونتسكيو** بشكلٍ متناقضٍ أنّ على النساء أن يتبعن الرجل في الحياة العائليّة ولكنّ كلّ شيءٍ يؤهّلهنّ للعمل السياسيّ. «من المخالف للعقل وللطبيعة أن تكون النساء ربّاتٍ للمنزل... ولا يكون كذلك أن يحكمن إمبراطوريّةً». ويُظهر **هلفتيوس** Helvètius أنّ سوء تعليم المرأة هو سبب دونيّتها؛ ويشاطره الرأي **دالامبير** d'Alembert. وتبرز نسويّةٌ اقتصاديّةٌ خجولةٌ لدى امرأةٍ هي السيدة **دو سيراي** de Ciray. ولكنّ **ميرسييه** Mercier وحده في كتابه «*صورة باريس*» استنكر بؤس العاملات وتطرّق بذلك إلى المسألة الأساسيّة للعمل النسويّ. وأراد **كوندورسيه** Condorcet أن تدخل النساء الحياة السياسية. واعتبرهنّ مساوياتٍ للرجل ودافع عنهنّ ضدّ الهجوم الكلاسيكي: «قيل إنّ النساء... لا يملكن شعورًا بالعدالة، وأنّهنّ يتبعن مشاعرهنّ أكثر مما يتبعن ضميرهنّ... ولكنّ هذه ليست طبيعتهنّ بل تربيتهنّ، الوجود الاجتماعي هو الذي يسبّب هذا الاختلاف». وفي مكانٍ آخر: «كلّما استعبدت القوانين النساء أكثر، كلّما كان تسلّطهنّ أكثر خطرًا... كان ليقلّ لو لم تكن للنساء مصلحةٌ في الحفاظ عليه، لو لم يعد بالنسبة لهنّ الوسيلة الوحيدة للدفاع عن النفس والتملّص من الاضطهاد».

- 5 -

قد نتوقّع أنّ الثورة غيّرت مصير المرأة، لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث. احترمت هذه الثورة البورجوازيّة المؤسسات والقيم البورجوازية؛ وكانت مصنوعةً تقريبًا حصريًا للرجال. من المهمّ الإشارة إلى أنّ نساء الطبقة العاملة خلال النظام القديم كلّه هنّ اللواتي عرفن أكبر استقلاليّةٍ كجنسٍ. كان للمرأة حقّ إدارة تجارةٍ وكانت تملك كلّ الإمكانيّات الضروريّة لممارسة مهنتها بشكلٍ مستقلٌ. وكانت تساهم في الإنتاج كبائعةٍ للبياضات وغسّالةٍ وصاقلةٍ للمعادن وبائعةٍ إلخ.. وكانت تعمل إما في المنزل أو في مؤسساتٍ صغيرةٍ؛ وكان استقلالها الاقتصادي يسمح لها بحرّيةٍ أخلاقيّةٍ كبيرةٍ: إذ تستطيع امرأةٌ من العامّة أن تخرج وترتاد الحانات وتتصرّف بجسدها تقريبًا كالرجل؛ وهي شريكة زوجها ومساويةٌ له. لقد تعرّضت للاضطهاد على الصعيد الاقتصادي وليس على صعيد الجنس. وتشارك الفلاحة في الريف بشكلٍ كبيرٍ في العمل الريفي، وتعامل كخادمةٍ؛ ولا تأكل مع زوجها وأبنائها على نفس المائدة غالبًا، وتكدح بشكلٍ أكبر منهم وتضاف أعباء الأمومة لهذا الإجهاد. ولكن كما في المجتمعات الزراعية القديمة، بما أنها ضروريةٌ للرجل، فقد أكسبها ذلك احترامًا؛ وكانت أموالهما ومصالحهما وهمومهما مشتركةٌ؛ ومارست في المنزل سيطرةً كبيرةً. استطاعت هاته النساء تأكيد ذاتهن كأفرادٍ ضمن حياتهنّ الصعبة والمطالبة بحقوقٍ؛ لكن تقاليد الخجل والخضوع كانت تثقل عليهن: لا تُظهِر سجلّات المجالس النيابية سوى عددٍ ضئيلٍ من المطالب النسائيّة؛ تنحصر في التالي: «ألا يستطيع الرجال ممارسة المهن التي هي

من حصّة النساء». ونجد النساء إلى جانب رجالهنّ في المظاهرات والثورات؛ هنّ من ذهب إلى فرساي للمطالبة «بالخبّاز، والخبّازة، وصبي الخبّاز»[72]. ولكن ليس الشعب من قاد الثورة وليس من قطف ثمارها. أمّا بالنسبة للبورجوازيّات، فقد انضمّ بعضهنّ بحماسةٍ لقضيّة الحرّية: **مدام رولان، ولوسيل ديمولان وتيرواني دوميريكور**؛ وقد أثّرت إحداهنّ بشكلٍ عميقٍ على الأحداث: **شارلوت كورداي** عندما قتلت **مارا** Marat. وكانت هناك بعض الحركات النسويّة. فاقترحت **أوليمب دو غوج** عام 1789 «إعلانًا لحقوق المرأة» تطالب فيه بإزالة كلّ الامتيازات الذكوريّة. نجد نفس الأفكار عام 1790 في «اقتراح جاكوت المسكينة» وفي عرائض أخرى مماثلة؛ ولكن رغم دعم **كوندورسيه** أجهضت هذه الجهود وماتت **أوليمب** على المشنقة. وإلى جانب صحيفة «*لامباسيان* L`impatient» التي أسّستها ظهرت نشراتٌ أخرى، لكنها لم تدم طويلًا. واندمجت الأندية النسائيّة بالأندية الرجاليّة التي ابتلعتها. وعندما اقتحمت باب المجلس النيابي الممثلة **روز لاكومب** رئيسة جمعية النساء الجمهوريّات في 28 بروميير 1793، دوّى في المجلس صوت النائب **شوميت** بكلماتٍ بدت مستوحاةً من القديس **بولس** والقديس **توما**: «منذ متى يُسمح للنساء بالتخلّي عن جنسهنّ ليصبحن رجالًا؟... قالت الطبيعة للمرأة: كوني امرأةً. عملك هو العناية بالطفولة، وتفاصيل البيت، وهموم الأمومة المختلفة». ومنعوهنّ من دخول المجلس وبعدها من دخول المنتديات التي كنّ يتعلّمن السياسة فيها. وعام 1790 ألغي حقّ الابن البكر وامتيازات الذكورة؛ وأصبحت البنات والصبيان متساوين في التركة؛ وعام 1792 أقرّ قانونٌ الطلاق ومنه تراخت صرامة رباط الزوجيّة؛ ولكن لم تكن تلك سوى انتصاراتٍ بسيطةٍ. كانت نساء الطبقة البورجوازية مندمجاتٍ بالعائلة بحيث لم يجدن بينهنّ تعاضدًا ملموسًا؛ لم يكنّ يشكّلن فئةً منفصلةً قد تفرض مطالب: كانت حياتهنّ متطفّلةً اقتصاديًّا. وهكذا بينما مُنِعت النساء اللواتي شاركن رغم جنسهن بالأحداث من المطالبة بالحقوق كطبقةٍ، مُنِعت نساء الطبقة الفعّالة من ذلك بصفتهنّ نساءً. وعندما وقعت السلطة الاقتصاديّة بيد العمال أصبح ممكنًا للعاملة الحصول على مقدراتٍ لم تحصل عليها أبدًا المرأة الطفيلية، نبيلةً كانت أم بورجوازيةً.

72- شعار المظاهرة التي كان أغلبية المشاركين فيها من النساء، والتي ذهبت إلى القصر الملكي في فرساي للمطالبة بالخبز إبان الثورة الفرنسية. (المترجمة)

تمتّعت المرأة بحرّيةٍ فوضويّةٍ أثناء تصفية الثورة. ولكنّها استُعبدت ثانيةً بقسوةٍ عندما أعاد المجتمع تنظيم نفسه. من الناحية النسويّة، كانت فرنسا متقدّمةً على البلدان الأخرى؛ ولكن لسوء حظّ الفرنسيّة الحديثة، تقرّر مصيرها في زمن الديكتاتوريّة العسكريّة؛ وأخّر تحرّرها كثيرًا قانون **نابوليون** الذي حدّد مصيرها لقرنٍ. وككل العسكريين، لا يريد **نابوليون** أن يرى المرأة سوى أمٍّ؛ لكنّه كوارثٍ لثورةٍ بورجوازيّةٍ لا ينوي تقويض بنية المجتمع ولا إعطاء الأم تفوقًا على الزوجة: وهو يمنع إثبات الأبوة؛ ويعرّف بصرامةٍ وضع الأم العازبة والابن الطبيعي. مع ذلك لا تجد المرأة المتزوّجة نفسها عونًا في كرامتها كأمٍّ؛ ويستمر التناقض الإقطاعي. فالابنة والمرأة محرومتان من صفة المواطنة ويمنعهما ذلك من وظائف مثل مهنة المحاماة مثلًا والوصاية. لكن المرأة العازبة تتمتّع بكامل قدراتها المدنيّة بينما احتفظ الزواج بنظام الحماية. فالمرأة مطالبة بإطاعة زوجها؛ ويستطيع أن يحكم عليها بالسجن في حالة الخيانة الزوجية ويحصل على الطلاق؛ ويعذره القانون إذا قتل المذنبة إن فاجأها بالجرم المشهود؛ بينما يعاقب الزوج بغرامةٍ فقط إن أحضر عشيقته إلى منزل الزوجيّة وفي هذه الحالة فقط تستطيع الزوجة الحصول على الطلاق. والرجل هو من يقرر مكان بيت الزوجية، ولديه حقوقٌ على الأطفال أكثر بكثيرٍ من حقوق الأم؛ وموافقته ضروريّةٌ لتستطيع أن تلتزم بتعهّدٍ إلا في حال كانت تدير مؤسّسةً تجاريّةً. وتُمارس السلطة الزوجيّة بصرامةٍ على شخص الزوجة وأموالها.

خلال القرن التاسع عشر بأكمله، زاد القضاء من صرامة التشريع، حارمًا المرأة من كلّ حقٍّ في التصرّف وأشياء أخرى. عام 1826 ألغى الإصلاحُ الطلاقَ؛ ورفض المجلس النيابي لعام 1848 إعادته؛ ولم يظهر من جديدٍ إلّا عام 1884: وكان مع ذلك صعبًا جدًّا. لأنّ البورجوازيّة لم تكن يومًا أقوى مما كانت عليه وقتها، ومع ذلك فهي تدرك التهديد الذي تفرضه الثورة الصناعيّة التي تترسّخ بقوّةٍ تثير القلق. حريّة الفكر الموروثة من القرن الثامن عشر لا تمسّ الأخلاق الأسريّة؛ فهذه تظلّ كما عرّفها في بداية القرن التاسع عشر المفكّران الرجعيّان **جوزيف دو ميستر** Joseph de Maistre و**بونالد** Bonald. لقد أسّسا قيمة النظام على أساس الإرادة الإلهيّة وطالبا بصرامةٍ بمجتمعٍ طبقيٍّ؛ وتكون نواة هذا المجتمع الأسرة، الخليّة الاجتماعيّة غير القابلة للانحلال. يقول **بونالد**: «الرجل للمرأة كما المرأة للطفل؛

أو إنّ السلطة بالنسبة للوزير هي كالوزير بالنسبة للفرد». وهكذا فالزوج يحكم، والمرأة تدير، والأطفال يطيعون. والطلاق ممنوعٌ طبعًا؛ والمرأة قعيدة البيت. ويقول **بونالد** كذلك: «تنتمي النساء للعائلة وليس للمجتمع السياسي، لقد صنعتهنّ الطبيعة للأعمال المنزليّة وليس للوظائف العامة». تُحترَم هذه المراتب في الأسرة كما حدّدها **بلاي** Play في منتصف القرن تقريبًا.

وبطريقةٍ مختلفةٍ بعض الشيء، طالب أوغست **كومت** Auguste Comte أيضًا بسلسلة مراتب للجنسين؛ فبينهما «اختلافاتٌ جذريّةٌ جسديّةٌ ومعنويّةٌ تفصلهما بشكلٍ عميقٍ عن بعضهما لدى كلّ الأنواع الحيوانيّة وخصوصًا لدى العرق البشري». الأنوثة هي شكلٌ من «الطفولة المستمرّة» التي تبعد المرأة عن «نموذج العِرق المثالي». وتتجلّى هذه الطفوليّة البيولوجيّة بضعفٍ فكريٍّ؛ ودور هذا الكائن العاطفي البحت هو دور الزوجة وربة المنزل، ولا يمكنها الدخول في منافسةٍ مع الرجل: «لا تلائمها الإدارة ولا التعليم». وكما لدى **بونالد** المرأة محصورة في الأسرة، ويحكم الأب في هذا المجتمع المصغّر لأنّ المرأة «عاجزةٌ عن حكم أيّ شيءٍ حتّى المنزل»؛ فهي تدير وتنصح فقط. لا بدّ أن يكون تعليمها محدودًا. «لا يمكن للنساء والعمّال ولا ينبغي أن يصبحوا كتابًا، حتّى لو أرادوا ذلك». ويتنبأ **كومت** أنّ تطوّر المجتمع سيؤدي إلى إلغاءٍ كاملٍ لعمل النساء خارج الأسرة. في الجزء الثاني من كتاب **كومت**، تأثّرًا بحبّه **لكلوتيلد دو فو**، يشيد بالمرأة حتى ليجعل منها إلهةً تقريبًا، انبثاقًا للكائن العظيم؛ هي التي تقترحها الديانة الوضعيّة في معبد الإنسانيّة ليعبدها الشعب؛ ولكنّها تستحقّ هذه العبادة بسبب أخلاقيّاتها فقط؛ وبينما يعمل الرجل، هي تحبّ: فهي غيريّةٌ أكثر منه بكثيرٍ. ولكن تبقى مع ذلك حبيسة الأسرة حسب النظام الوضعي؛ وتمنع من الطلاق ويتمنّون حتّى ألّا تتزوّج ثانيةً في حال الترمّل؛ وليس لها أيّ حقٍّ اقتصاديٌّ أو سياسيٌّ؛ ليست سوى زوجةٍ ومربيةٍ.

وبطريقةٍ ساخرةٍ أكثر، عبّر **بلزاك** Balzac عن نفس المثال. فكتب في «*فيزيولوجيّة الزواج*»: «مصير المرأة ومجدها الوحيد هو جعل قلوب الرجال تخفق... المرأة ملكيّةٌ نكسبها بعقدٍ؛ وهي منقولةٌ لأنّ التملّك يحتاج إلى صكٍّ؛ فالمرأة بمعنى الكلمة ملحقةٌ بالرجل». ويجعل نفسه هنا ناطقًا باسم البورجوازية التي ازداد عداؤها للحركة النسويّة كردّ فعلٍ

على تساهل القرن الثامن عشر وعلى الأفكار التقدّميّة التي تهددها. بعد أن عرض بلزاك بجلاءٍ في بداية «*فيزيولوجية الزواج*» أنّ هذه المؤسّسة التي يُستبعد منها الحبّ تقود المرأة بالضرورة إلى الخيانة، وينصح الزوج بإبقائها ضمن التبعية الكاملة إن كان يريد تفادي سخرية الفضيحة. يجب منعها من التعلّم والتثقّف، ومنعها من كلّ ما يسمح لها بتطوير فرديّتها، وفرض ملابس غير مريحةٍ عليها، وتشجيعها على اتّباع حميةٍ تؤدّي إلى فقر الدم. وتتبع البورجوازيّة هذا البرنامج تمامًا؛ فالنساء مستعبداتٌ للمطبخ والتنظيف، ويخضعن لمراقبةٍ أخلاقيّةٍ صارمةٍ؛ ويحبسن ضمن طقوس قواعد سلوكٍ يعيق كلّ محاولةٍ للاستقلال. وللتعويض يُحتَرمن ويُحطن بكل التهذيب الرهيف. يقول بلزاك: «المرأة المتزوجة عبدةٌ يجب أن نجلسها على عرشٍ»، من المتفق عليه أن على الرجل أن يتنحّى أمامهنّ في كلّ الظروف التافهة، ويترك لهنّ المكان الأول؛ وبدل تحميلهنّ الأثقال كما في الأزمنة البدائيّة، يحاول تخليصهنّ من كلّ مهمّةٍ شاقّةٍ وكلّ همٍّ: وبذلك يحرّرهنّ من كلّ مسؤوليّةٍ. ويأمل إذ يخدعهنّ هكذا ويغريهنّ بسهولة وضعهنّ، أن يقبلن دور الأم وربّة المنزل اللّذين يريد حبسهنّ فيهما. والأمر أنّ معظم نساء البورجوازيّة يرضخن. وبما أنّ تربيتهنّ ووضعهنّ الطفيلي يجعلانهنّ تابعاتٍ للرجل، فهنّ لا يجرؤن حتّى على تقديم مطالب: واللواتي يملكن هذه الجرأة لا يجدن صدىً لمطالبهنّ. قال برنارد شو Bernard Shaw: «تكبيل الناس بالسلاسل أسهل من نزعها عنهم إن كانت السلاسل تضفي اعتبارًا». وتتمسك المرأة البورجوازيّة بسلاسلها لأنّها تتمسك بامتيازاتها الطبقيّة. يشرحون لها دون كللٍ ـ وهي تعرف ـ أنّ تحرّر النساء سيضعف المجتمع البورجوازيّ؛ فعندما تتحرّر من الذكر سيحكم عليها بالعمل؛ وقد تندم لأنّه ليس لها في الملكيّة الفردية حقوقٌ سوى تلك الملحقة بحقوق زوجها، وستأسف أكثر أيضًا لأنّ هذه الملكيّة أُلغيت؛ ولا تشعر بأيّ تضامنٍ مع المرأة من الطبقة العاملة: فهي أقرب بكثيرٍ إلى زوجها منها إلى عاملات النسيج. وتجعل مصالحه مصالحها.

مع ذلك لا تستطيع هذه المقاومات العنيدة إيقاف عجلة التاريخ؛ فقد قوّض مجيء الآلة الملكية العقاريّة، وحرّض على تحرّر الطبقة العاملة وبالتالي تحرّر المرأة. كلّ اشتراكيّةٍ تنتزع المرأة من العائلة تساعد في تحرّرها: عندما كان **أفلاطون** يحلم بنظامٍ جماعيٍّ كان يعد النساء فيه باستقلاليّةٍ شبيهةٍ بتلك التي كنّ يتمتّعن بها في اسبارطة. وولدت طوباويّة

«المرأة الحرّة» بالاشتراكيات المثاليّة لـ سان **سيمون** Saint-Simon، **وفورييه** Fourie، **وكابيه** Cabet. وتتطلّب فكرة سان **سيمون** عن شراكةٍ عالميّةٍ إلغاء كلّ عبوديّةٍ: عبودية العامل وعبوديّة المرأة؛ ولأنّ النساء بشرٌ كالرجال طالب سان **سيمون** بتحريرهنّ وبعده **لورو** Leroux **وبيكو** Pecqueux **وكارنو** Carnot. للأسف لم تجد هذه الفرضيّة العقلانيّة آذانًا صاغيةً في المدرسة. فهي تمجّد المرأة باسم أنوثتها، وهي الطريقة الأكيدة لإعاقتها. بحجّة أن الزوجين هما الوحدة الاجتماعيّة، أراد الأب **أنفانتان** Enfantin إدخال امرأةٍ ضمن كلّ ثنائيٍّ مديرٍ أسماه الثنائي ـ الكاهن؛ انتظر امرأةً مخَلِّصةً تجعل العالم أفضل وانطلق «رفاق المرأة» نحو الشرق للبحث عن هذه الأنثى المنقذة. وتأثّر بـ**فورييه** الذي يخلط بين تحرير المرأة وإعادة تأهيل الجسد؛ ويطالب **فورييه** بحريّة كل شخصٍ في تلبية نداء الانجذاب العاطفي؛ ويريد إحلال الحب محل الزواج؛ إنه ينظر إلى المرأة لا ضمن شخصها ولكن ضمن وظيفتها الغراميّة. يَعِد **كابيه** أيضًا أن تحقّق الشيوعيّة الإيكاروسيّة[73] تساويًا كاملًا للجنسين، مع أنّه لا يمنح المرأة سوى مشاركةٍ ضيّقةٍ في الحياة السياسية. في الواقع لا تحتل النساء سوى موقعٍ ثانويٍّ في حركة سان **سيمون**: فقط **كلير بازار** Claire Bazard التي أسّست لفترةٍ وجيزةٍ الصحيفة المسماة «*المرأة الجديدة*» لعبت دورًا هامًّا للغاية. ظهرت بعدئذٍ كثيرٌ من المجلات الصغيرة الأخرى لكن مطالبها كانت خجولةً؛ فطالبت بتعليم النساء أكثر من تحريرهنّ؛ واهتم **كارنو** وتبعه **لوغوفيه** Legouvè برفع مستوى تعليم المرأة. ظلّت فكرة المرأة الشريكة، المرأة المجدّدة، خلال القرن التاسع عشر كلّه؛ ونجدها ثانيةً لدى **فيكتور هيغو** Victor Hugo. لكنّ قضيّة المرأة فقدت اعتبارها بالأحرى بسبب هذه المذاهب التي تضعها في مواجهة الرجل بدل أن تجعلها شبيهًا له، وتعترف لها بالحدس والشعور وليس بالعقل. فقدت اعتبارها أيضًا بسبب رعونة أنصارها. عام 1848، أسّست النساء أنديةً وصحفًا ساهم فيها **كابيه**. ذهب وفدٌ نسائيٌّ إلى دار البلديّة للمطالبة «بحقوق المرأة» لكنّه لم يحصل على شيءٍ. وعام 1849، رشّحت **جان دوكوان** Jeanne Decoin نفسها للنيابة، وأقامت معركةً انتخابيّةً غدت مهزلةً. قتلت المهزلة أيضًا حركة «الفيزوفيات Vésuviennes والبلومريستيات bloomeristes» اللواتي كنّ يتجوّلن بملابس غريبةٍ. بقيت أكثر نساء تلك

73- نسبةً لإيكاروس الأسطوري الذي تخلّص من سجنه بصنع جناحين طار بهما. (المترجمة)

الحقبة ذكاءً بمعزلٍ عن هذه الحركات: ناضلت **مدام دو ستايل** Mme de Staël من أجل قضيّتها الخاصة أكثر من قضايا أخواتها؛ وطالبت **جورج صاند** George Sand بحقّ الحب الحرّ لكنّها رفضت التعاون مع «صوت النساء»؛ كانت مطالبها عاطفيّةً بالأحرى. واعتقدت **فلورا تريستان** Flora Tristan بخلاص الشعب على يد المرأة؛ لكنّها اهتمّت بتحرّر الطبقة العمالية أكثر من تحرّر جنسها. وانضمّ **دافيد ستيرن** David Stern، **ومدام دو جيراردان** Mme de Girardin إلى الحركة النسويّة.

بوجه الإجمال ساعدت الحركة الإصلاحيّة التي تطوّرت في القرن التاسع عشر الحركة النسويّة بما أنّها تبحث عن العدالة ضمن المساواة. هناك استثناءٌ لافتٌ: وهو **برودون** Proudhon. فهو يرتكس بعنفٍ ضدّ غموضية سان **سيمون** بسبب أصوله القرويّة دون شكٍّ؛ ويظلّ مناصرًا للملكيّة الصغيرة وبذلك يحبس المرأة في المنزل. يحبسها في خيار «ربة منزلٍ أو محظيّةٌ». حتّى ذلك الحين، كان المحافظون الذين يكافحون الاشتراكيّة بشدّةٍ يقودون الهجوم على الحركة النسويّة: من بين صحفٍ أخرى كانت صحيفة «*شاريفاري* Le Charivari» تجد في ذلك معينًا لا ينضب للسخرية؛ **برودون** هو من فصل الحركة النسويّة عن الاشتراكيّة؛ فقد احتجّ على احتفال النساء الاشتراكيات الذي ترأسه **لورو**، وانفجر ضدّ **جان دوكوان**. في الكتاب المسمى «العدالة»، يقول إنّ على المرأة البقاء تابعةً للرجل؛ فهو وحده المهمّ كفردٍ اجتماعيٍّ؛ لا يوجد اشتراكٌ ضمن الثنائي، وهو ما يفترض المساواة، ولكن يوجد اتّحاد؛ فالمرأة أدنى من الرجل أولًا لأنّ قوّتها الجسديّة ليست سوى 3/2 من قوّة الرجل، ثم لأنّها فكريًّا ومعنويًّا أدنى بنفس النسبة: قيمتها في المجمل 2×2×2 مقابل 3×3×3، أي 27/8 من قيمة الجنس الأقوى. ردّت عليه امرأتان، السيدة آدم والسيدة **إيريكور**، إحداهما بصرامةٍ، والأخرى بهيجانٍ، وردّ **برودون** بكتاب «*نفوذ الغواني أو المرأة في الأزمنة الحديثة*». مع ذلك ككلّ أعداء الحركة النسويّة، وجّه رجاءً حارًّا «للمرأة الحقيقيّة»، عبدة الذكر ومرآته؛ ورغم هذا التفاني اضطرّ هو نفسه إلى الاعتراف بأنّ الحياة التي يفرضها عليها لم تجعل زوجته نفسها سعيدةً: فرسائل السيدة **برودون** ليست سوى نحيبٍ طويلٍ.

لم تكن هذه المناظرات النظريّة ما أثّر على مجرى الأحداث: بل شكّلت متردّدةً بالأحرى انعكاسًا لها. استعادت المرأة أهمّيةً اقتصاديّةً كانت قد فقدتها منذ عصور ما قبل التاريخ

لأنّها أفلتت من المنزل وأخذت في المعمل حصّةً في الإنتاج. وسمحت الآلة بهذا الانقلاب لأنّ تفاوت القوّة الجسديّة بين العمال الذكور والإناث ألغي في كثيرٍ من الحالات. وبما أنّ انطلاق الصناعة المباغت يتطلّب يدًا عاملةً أكثر من تلك التي يؤمّنها العمال الذكور، فمشاركة النساء ضروريّةٌ. تلك كانت الثورة الكبرى التي غيّرت في القرن التاسع عشر مصير المرأة وفتحت لها أبواب عصرٍ جديدٍ. أدرك **ماركس** و**انجلز** مداها ووعدا النساء بتحريرٍ يفرضه تحرير الطبقة العمّالية. في الواقع، يقول **بيبل**: «ما يجمع بين المرأة والعامل هو الاضطهاد». وسيتخلّص كلاهما من الاضطهاد بفضل الأهمّية التي يكتسبها عملهما المنتج من خلال التطوّر التقني. ويُظهِر **إنجلز** أنّ مصير المرأة مرتبطٌ بشكلٍ وثيقٍ بتاريخ الملكيّة الفردية؛ لقد استبدلت كارثةٌ نظام الحقّ الأمومي بالنظام الأبوي وسخّرت المرأة للملكيّة؛ لكنّ الثورة الصناعيّة كانت الردّ على هذا الانحطاط وأدّت إلى التحرّر النسوي. وكتب: «لا يمكن أن تتحرّر المرأة إلّا عندما تساهم على نطاقٍ اجتماعيٍّ كبيرٍ بالإنتاج ولا تعود أسيرة العمل المنزليّ إلّا بقدرٍ بسيطٍ. ولم يصبح هذا ممكنًا إلّا في الصناعة الكبيرة الحديثة التي لا تقبل فقط على صعيدٍ كبيرٍ عمل المرأة، بل وتطلبه بصورةٍ قاطعةٍ».

في بداية القرن التاسع عشر كانت المرأة مُستغَلّةً بشكلٍ مخجلٍ أكثر من العمال من الجنس الآخر. كان العمل في المنزل يشكّل ما يسميه الإنجليز استغلالًا Sweating system[74]؛ رغم العمل المستمرّ، لم تكن العاملة تكسب ما يكفي للقيام بأودها. واستنكر هذا الاستغلال البغيض **جول سيمون** Jules Simon في كتابه «*العاملة*» وحتّى المحافظ **لروا بوليو** Leroy- Beaulieu في «*عمل النساء في القرن التاسع عشر*» الذي نُشر عام 1873؛ وأعلن هذا الأخير أنّ أكثر من مئتي ألف عاملةٍ فرنسيّةٍ لم يكنّ يكسبن خمسين سنتيمًا في اليوم. ونفهم لماذا سارعن إلى الهجرة إلى المصانع؛ عدا عن أنّه لم يبق خارج المشاغل سوى مهن الأبرة، والغسيل، والأعمال المنزليّة، وهي جميعًا مهن استعبادٍ لا تغني ولا تسمن من جوعٍ؛ حتى الدنتيلا، وحياكة الجوارب إلخ.. استولى عليها المصنع؛ بالمقابل كانت هناك عروض عملٍ كثيرةٌ في صناعة القطن، والصوف، والحرير؛ واستُخدِمت النساء خصوصًا في مشاغل الغزل والنسيج، وفضلهنّ أرباب العمل غالبًا على الرجال. «إنّهنّ يقدّمن أفضل

74- وتعني استغلال رب العمل للعمال بتشغيلهم ساعاتٍ طويلةً بأجرٍ بخسٍ في ظروفٍ سيّئةٍ. (المترجمة)

عملٍ بأقلّ أجرٍ». تلقي هذه الجملة المتهكّمة الضوء على مأساة عمل النساء. لأنّ المرأة نالت كرامتها كإنسانٍ من خلال العمل؛ ولكنّ ذلك كان انتصارًا صعبًا وبطيئًا بشكلٍ خاصٍّ. وكانت صناعة الغزل والنسيج تجري في شروطٍ صحّيّةٍ يرثى لها. كتب **بلانكي** Blanqui: «في ليون، في مشاغل العِقادة بعض النساء مرغماتٌ على العمل معلّقاتٍ تقريبًا بأحزمةٍ مستخدماتٍ أقدامهنّ وأيديهنّ في آنٍ معًا». عام 1831 كانت عاملات الحرير يعملن صيفًا من الساعة الثالثة صباحًا وحتى الحادية عشرة مساءً، أي سبع عشرة ساعةً يوميًّا. قال **نوربر تروكين** Norbert Truquin: «في مشاغل سيّئةٍ صحّيًّا غالبًا لا تدخلها أشعة الشمس أبدًا. تصبح نصف هاته الشابات مسلولاتٍ قبل نهاية تدريبهنّ. وعندما يتشكّين يُتّهمن بأنّهن يبدين استياءهنّ»[75]. عدا عن ذلك استغلّ الموظّفون العاملات الشابات. ويقول المؤلف المجهول لكتاب «*حقيقة أحداث ليون*»: «كي ينتهوا من ذلك، كانوا يستعملون أكثر الوسائل إثارةً للاستنكار، الحاجة والجوع». يحدث أن تجمع النساء بين العمل الزراعي والمصنع. وهنّ مُستغَلّاتٌ بشكلٍ فاضحٍ. يروي **ماركس** في ملاحظةٍ في «*رأس المال*»: «أعلمني صناعيٌّ هو السيد «م.و» أنّه لم يكن يستخدم سوى نساءٍ لآلات النسيج الآلي، وكان يعطي الأفضلية للمتزوجات ومن بينهنّ تينك اللواتي لديهنّ في المنزل أسرةٌ يجب إعالتها لأنّهن كنّ يبدين انتباهًا وطاعةً أكثر بكثيرٍ من العازبات وكنّ مضطراتٍ للعمل حتى إنهاك قواهنّ ليؤمّنّ لأسرتهنّ قوتها الضروري؛ ويضيف **ماركس** قائلًا: «وهكذا تُشَوَّه خصائص المرأة بشكلٍ يُضِرّ بها وتصبح كلّ عناصر طبيعتها الأخلاقيّة والدقيقة وسائل لاستعبادها وجعلها تتألّم». كتب ج. **درفيل** G. Derville ملخّصًا «*رأس المال*» ومعلّقًا على **بيبل**: «تنحصر المرأة اليوم بين حيوان ترفٍ أو حيوان ركوبٍ تقريبًا. يعيلها الرجل عندما لا تعمل، ويظلّ يعيلها عندما تفني نفسها في العمل». كان وضع العاملة مثيرًا للشفقة بحيث طالب **سيسموندي وبلانكي** بمنع النساء من دخول المشاغل. ويعود سبب ذلك جزئيًّا إلى أنّ النساء لم يعرفن في البداية كيف يدافعن عن أنفسهنّ وينتظمن في نقاباتٍ. ويعود تاريخ «الجمعيّات» النسويّة إلى 1848 وكانت في البداية جمعيّاتٍ إنتاجيّةً. تطوّرت الحركة ببطءٍ شديدٍ كما نرى من الأرقام التالية:

عام 1905 بلغ عدد النساء 69405 من مجموع 781392 نقابيًّا؛

75- ن. توركين، يوميات عاملٍ ومغامراته. أوردها دوليان E.Dolèans في تاريخ الحركة العمالية، ج 1.

عام 1908 بلغ عدد النساء 88906 من أصل 957120 نقابيًا؛

عام 1912 بلغ عدد النساء 92336 من مجموع 1064413 نقابيًا؛

عام 1920 بلغ عدد العاملات والمستخدمات النقابيات 239016 من أصل 1580967 عاملًا ولدى العاملات الزراعيات فقط 36193 نقابيّةً من أصل 1083957، أي بمجموعٍ قدره 292000 امرأةً نقابيّةً من مجمل 3076585 عاملًا نقابيًا. يتركهنّ دون دفاعٍ أمام الإمكانيات الجديدة التي تُفتح أمامهنّ تقليد استكانةٍ وخضوعٍ ونقص التضامن والإدراك الجمعي. نجم عن هذا الوضع أنّ عمل المرأة لم ينتظم سوى ببطءٍ وبشكلٍ متأخّرٍ. تطلّب الأمر انتظار عام 1874 كي يتدخّل القانون؛ وكذلك رغم الحملات التي قامت في ظلّ الامبراطوريّة، لم يوجد سوى تدبيرين يخصّان المرأة: أحدهما يمنع عمل القاصرين ليلًا ويفرض إعطاءهم عطلةً يوم الأحد وأيام العطل والأعياد؛ ويُحدَّد عملهم باثنتي عشرة ساعةً؛ أمّا بالنسبة للنساء اللواتي تجاوزن سنّ الواحدة والعشرين، فيكتفي بمنعهنّ من العمل تحت الأرض في المناجم والمقالع. تعود أوّل شرعةٍ لعمل المرأة إلى 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1892: منعت العمل ليلًا وحدّت طول يوم العمل بالمصنع؛ لكنّها تركت الباب مفتوحًا لكلّ التحايلات. ثم حُدِّد يوم العمل بعشر ساعاتٍ عام 1900؛ وأصبحت الراحة الأسبوعية إجباريّةً عام 1905؛ وحصلت العاملة على حقّ التصرف الحرّ براتبها عام 1907؛ ومُنِحت النساء عطلةً مدفوعة الأجر عند الولادة عام 1909؛ واستُرجِعت تدابير 1892 حتميًا عام 1911؛ ونُظِّمت الترتيبات المتعلّقة باستراحة النساء قبل الولادة وبعدها عام 1913، فمُنِعن من الأعمال الخطرة أو المجهدة. وشيئًا فشيئًا تشكّل تشريعٌ اجتماعيٌّ وأحيط عمل المرأة بضماناتٍ صحيّةٍ: ففُرِضت كراسي للبائعات، ومُنِع الوقوف المديد وراء منصّات البيع الخارجيّة، إلخ... وتوصّل مكتب العمل العالمي لاتفاقياتٍ دوليةٍ تتعلّق بالظروف الصحيّة لعمل النساء والعطل الممنوحة في حال الحمل إلخ..

نتيجةٌ ثانيةٌ لجمود العاملات المستكين، هي الرواتب التي اضطررن للاكتفاء بها. لماذا حُدِّدت رواتب النساء في مستوىً متدنٍّ بهذا القدر؟ إنّها ظاهرةٌ قُدِّمت لها تفاسير مختلفةٌ وتتعلّق بمجموعةٍ من العوامل. لا يكفي القول إنّ احتياجات النساء أقلّ من احتياجات الرجل؛ فليس ذلك سوى تبريرٍ لاحقٍ. بالأحرى لم تعرف النساء كيف يدافعن عن أنفسهنّ

تجاه مستغِلّيهم كما رأينا؛ كان عليهنّ مواجهة منافسة السجون التي كانت تلقي في السوق بمنتوجاتٍ مصنوعةٍ دون كلفة اليد العاملة؛ كانا يتنافسان معًا. عدا عن ذلك يجب ملاحظة أنّ المرأة تبحث عن التحرّر عبر العمل في مجتمعٍ بقيت فيه المؤسّسة الزوجيّة: فهي بارتباطها بمنزل أبيها وزوجها، تكتفي غالبًا بالمساهمة في احتياجات الأسرة؛ تعمل خارجها ولكن من أجلها؛ ولا تحمل عبء الأسرة المالي كلّه، فهي تقبل بأي أجرٍ يقلّ بكثيرٍ عما يطلبه الرجل. ويكتفي عددٌ كبيرٌ من النساء برواتب مخفّضةٍ، ويسري ذلك بالطبع على مجمل الرواتب النسائيّة التي تبقى بهذا المستوى الذي يناسب رب العمل.

طبقًا للتحقيق الذي تمّ عام 1889-1893، من أجل يوم عملٍ مساوٍ ليوم الرجل، لم تحصل العاملة سوى على نصف راتب الذكر. وتبعًا للتحقيق الذي تم عام 1908، لم يكن أعلى أجرٍ ساعيٍّ للعاملات في المنزل يتجاوز عشرين سنتيمًا في الساعة ويهبط إلى خمس سنتيماتٍ: كان من المستحيل بالنسبة للمرأة المستغَلّة بهذا الشكل أن تعيش دون صدقةٍ أو معيلٍ. في أمريكا، عام 1918، كانت المرأة تنال نصف راتب الرجل. في حوالي هذه الفترة من أجل نفس كميّة الفحم المستخرجة من المناجم كانت المرأة تكسب تقريبًا حوالي 25% أقلّ من الرجل. بين 1911 و1943 ارتفعت الأجور النسائيّة في فرنسا أسرع بقليلٍ من أجور الرجال، لكنّها ظلّت أدنى بشكلٍ واضحٍ.

إذا كان أرباب العمل قد استقبلوا النساء باهتمامٍ بسبب الأجور المنخفضة التي يقبلنها، فقد أثار هذا الأمر ذاته مقاومةً من جهة العمال الذكور. لم يحدث تضامنٌ فوريٌّ بين قضية الطبقة العاملة وقضية النساء كما كان يدّعي بيبيل وإنجلز. تجلّت المشكلة تقريبًا كما في الولايات المتحدة بالنسبة إلى اليد العاملة السوداء. تُستَخدَم الأقلّيات الأكثر اضطهادًا في مجتمعٍ ما عن طيب خاطرٍ من قِبَل المضطهِدين كسلاحٍ ضدّ مجمل الطبقة التي تنتمي إليها؛ وبنفس الوقت تبدو في البدء عدوّةً ويتطلّب الأمر وعيًا أعمق بالموقف كي تنجح مصالح السود والبيض، العمال والعاملات، في التحالف، بدل من أن يعارض بعضها بعضًا. نفهم أنّ العمال الذكور رأوا في البدء في منافسة هذه الأجور المنخفضة تهديدًا مخيفًا وبدوا عدائيين. عندما أُدمِجت النساء في الحياة النقابية فقط استطعن الدفاع عن مصالحهنّ الخاصّة والكفّ عن تعريض مصالح الطبقة العمالية بمجملها للخطر.

واستمرّ تطوّر العمل النسويّ رغم كلّ هذه المصاعب. عام 1900 كان ما يزال في فرنسا 900000 عاملةٍ في المنزل يصنعن ملابس، وأشياءً من الجلد، وأكاليل جنائزيّةً، وحقائب، ومصنوعاتٍ زجاجيّةً، وسلعٍ باريسيّةٍ؛ لكنّ هذا العدد انخفض بشكلٍ معتبرٍ. عام 1906، كان 42% من النساء في سنّ العمل (بين الثامنة عشرة والستين) يشتغلن في الزراعة، والصناعة، والتجارة، والمصارف، وشركات التأمين، والمكاتب، والأعمال الحرة. وتسارعت هذه الحركة في العالم بأكمله بين 1914-1918 بسبب أزمة اليد العاملة وأزمة الحرب العالمية الأخيرة. وقرّرت البورجوازية الصغيرة والمتوسطة اللحاق بها واجتاحت النساء أيضًا المهن الحرّة. وتبعًا لأحد آخر الإحصاءات قبل الحرب الأخيرة نجد أنّ حوالي 42% من مجموع النساء من سن الثامنة عشرة إلى الستين كنّ يعملن في فرنسا، و37% في فنلندا، و 34.2% في ألمانيا، و27.7% في الهند، و26.9% في إنجلترا، و19.2% في هولندا، و17.7 % في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن ضخامة العمل الريفي هي سبب ارتفاع الأرقام في فرنسا.

نجد في فرنسا عام 1940 حوالي 500000 رئيسة مؤسّسةٍ، ومليون مستخدمةٍ، ومليوني عاملةٍ، ومليونًا ونصف من المنفردات أو العاطلات عن العمل. من بين العاملات هناك 650000 منزليّةً؛ و1200000 يعملن في الصناعات التحويلية من ضمنهنّ 440000 في صناعة النسيج، و315000 في الملابس، و380000 في المنزل كخياطاتٍ. بالنسبة للتجارة والمهن الحرة والخدمات العامة، تأتي فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة تقريبًا في نفس المرتبة.

إحدى المشاكل الأساسيّة المطروحة بالنسبة للمرأة كما رأينا هي التوفيق بين دورها الإنجابي وعملها الإنتاجي. السبب الأساس الذي كرّس المرأة للعمل المنزلي منذ الأزل والذي منعها من المشاركة في بناء العالم هو استعباد وظيفتها الإنجابيّة لها. لدى إناث الحيوانات هناك نظمٌ للنزو وفصولٌ تؤمّن لها استعادة قواها؛ وعلى العكس لا تحدّ الطبيعة من إمكانيّة الحمل لدى المرأة بين البلوغ وسنّ اليأس. بعض الحضارات تمنع الزواج المبكّر؛ وهناك قبائل هنديّةٌ تفرض على النساء استراحةً مدتها سنتان على الأقلّ بين ولادتين؛

ولكن خلال قرونٍ عديدةٍ لم تكن خصوبة المرأة منظّمةً بوجه الإجمال. كانت هناك طرائق لمنع الحمل منذ العصور القديمة[76]، مخصّصةٌ للنساء عمومًا؛ جرعاتٌ، وتحاميل، وسداداتٌ مهبليّةٌ؛ لكنّها ظلّت سرًّا تتناقله المومسات والأطبّاء؛ وربما عرفت هذا السرَّ رومانيات عصر الانحطاط اللواتي كان الساخرون ينتقدون عقمهنّ. لكنّ العصور الوسطى لم تعرفها؛ فلا نجد لها أثرًا حتّى القرن الثامن عشر. بالنسبة للعديد من النساء كانت الحياة في هذه الفترة حمولًا متتابعةً دون توقّفٍ؛ حتى النساء المتساهلات أخلاقيًّا كنّ يدفعن ثمن تحلّلهن الغرامي ولاداتٍ عديدةً. في بعض الفترات شعرت البشرية بالحاجة إلى خفض أعداد السكان؛ ولكن في الوقت نفسه كانت الأمم تخشى أن تضعف؛ في فترات الأزمات والبؤس تحقّق تخفيضٌ للولادات عبر رفع سنّ الزواج لدى العازبين. وظلّت القاعدة هي الزواج المبكر والإنجاب بقدر ما تستطيع المرأة، وحدها وفيات الأطفال كانت تخفض عدد الأطفال الأحياء. في القرن السابع عشر احتج الأب بور Pure[77] على «الاستسقاء الغرامي» الذي كانت النساء محكوماتٍ به؛ وأوصت مدام دو سيفينييه Mme de Sèvignè ابنتها بتفادي الحمول المتكرّرة. ولكن في القرن الثامن عشر ساد في فرنسا الاتجاه المالتوسي[78]. فلدى الطبقات الموسرة أولًا، ثم مجمل الشعب، وجدوا أنّ من المنطقي تحديد عدد الأطفال تبعًا لموارد الأهل، وبدأت طرق منع الحمل تدخل في العرف العام. عام 1778 كتب الديموغرافي مورو Moreau: «النساء الثريّات لسن الوحيدات اللواتي يرين في التكاثر البشري خدعةً من الزمن القديم؛ لقد دخلت الأرياف هذه الأسرار الخطيرة التي لا يعرفها أيّ حيوانٍ عدا الإنسان؛ نخدع الطبيعة حتّى في القرى». انتشرت ممارسة «إيقاف الإيلاج» لدى البورجوازية أولًا، ثم لدى سكان الريف والعمال. وأصبح الواقي الذكري الذي كان موجودًا وقتها للوقاية من الأمراض

76- «أقدم ذكرٍ معروفٍ لطرق منع الحمل في ورقة بردي مصريةٍ من الألف الثاني قبل الميلاد، توصي بوضع خليطٍ غريبٍ في المهبل مؤلّفٍ من براز التمساح، والعسل، والنطرون (كربونات الصوديوم) ومادةٍ صمغيّةٍ». (ب. آرييس P.Ariès، تاريخ الشعوب الفرنسيّة). يعرف أطباء الفرس في العصور الوسطى إحدى وثلاثين وصفةً تسعٌ منها فقط مخصّصةٌ للرجل. ويشرح سورانوس Soranos في عصر أدريان أنّ على المرأة الّتي لا تريد أطفالًا أن «تحبس أنفاسها، وتسحب جسدها قليلًا إلى الوراء لحظة القذف كيلا يستطيع المني دخول عظمة الرحم، وتنهض حالًا، وتجلس القرفصاء وتثير العطاس».

77- في: الثمينة La Prècieuse، عام 1656.

78- الذي يقول بتحديد النسل لينسجم مع الموارد الغذائيّة. (المترجمة)

التناسليّة مانعًا للحمل وانتشر خصوصًا بعد اكتشاف طبخ المطّاط حوالي 1840[79]. في البلدان الأنجلوساكسونيّة سُمِح رسميًا «بتحديد النسل» واكتُشِفت طرقٌ عديدةٌ تسمح بفصل هاتين الوظيفتين اللتين كانتا متلازمتين: الوظيفة الجنسيّة والوظيفة الإنجابيّة. اكتشفت أبحاث الطب في فيينا بشكلٍ دقيقٍ آليّة الحمل والشروط المواتية له واقترحت بالتالي طرق تجنّبه. وفي فرنسا مُنِعت الدعاية لمنع الحمل وبيع الكعكة التي تقحم في المهبل لمنع الحمل والسدادات المهبليّة إلخ...؛ لكن «تحديد النسل» انتشر رغم ذلك.

أمّا بالنسبة للإجهاض، فلم تسمح به القوانين في أيّ مكانٍ. لم يمنح القانون الروماني حمايةً خاصّةً للحياة الجنينية إذ لم يكن يعتبر الجنين إنسانًا ولكن جزءًا من جسم الأم. «الطفل قبل أن يولد هو جزءٌ من المرأة، نوعٌ من الأحشاء». في عصر الانحطاط غدا الإجهاض ممارسةً عاديّةً وعندما أراد المشرّع تشجيع الولادات لم يجرؤ على منعه. يستطيع الزوج أن يعاقب امرأته إذا رفضت الطفل ضدّ إرادته: ولكن عدم طاعتها كانت هي التي تُعتبر جنحةً. ولدى مجمل الحضارات الشرقيّة والإغريقية الرومانيّة كان القانون يبيح الإجهاض.

في هذه النقطة قلبت المسيحية الأفكار الأخلاقيّة بإعطاء الجنين روحًا؛ فأصبح الإجهاض عندئذٍ جريمةً ضدّ الجنين نفسه. ويقول **سانت أوغستان**: «كلّ امرأةٍ تقوم بما يمنعها من إنجاب ما تستطيع من الأطفال مذنبةٌ بجرائم قتلٍ بعدد هؤلاء الأطفال، وينطبق الشيء نفسه على المرأة التي تحاول جرح نفسها بعد الحمل». في بيزنطة، لم يكن الإجهاض يستدعي سوى عقابٍ مؤقّتٍ؛ ولدى البرابرة الذين كانوا يمارسون قتل الأطفال لم يكن الإجهاض مستنكَرًا إلّا إن تمّ بعنف ورغمًا عن الأم: وكانت العقوبة دفع ديّةٍ. لكنّ المجامع الدينية الأولى شرّعت أقصى العقوبات ضدّ «جريمة القتل» هذه مهما كان عمر الجنين المفترض. مع ذلك طُرحت مسألةٌ ظلّت موضع نقاشاتٍ لا تنتهي: متى تدخل الروح الجسد؟ حدّد القديس **توما** ومعظم المؤلّفين الحركة باليوم الأربعين بالنسبة للأطفال الذكور واليوم الثمانين بالنسبة للأطفال الإناث؛ بالتالي حصل تمييزٌ بين الجنين المتحرّك وغير المتحرّك. خلال العصور الوسطى، يعلن كتاب العقوبات ما يلي: «إذا قتلت امرأةٌ حاملٌ

79- «حوالي 1930 باعت شركةٌ أمريكيةٌ تبيع عشرين مليون واقيًا ذكريًا خلال سنةٍ. كان خمسة عشر معملاً أمريكيًا تصنّع منه مليونًا ونصف باليوم» (ب. آرييس P. Ariès).

جنينها قبل اليوم الخامس والأربعين، تنال عقوبةً لمدة عامٍ. وإن كان ذلك بعد ستين يومًا تصبح العقوبة ثلاث سنواتٍ. وأخيرًا إذا كان الطفل قد تحرّك، يصبح الأمر جريمة قتلٍ». مع ذلك يضيف الكتاب: «هناك فرقٌ كبيرٌ بين المرأة الفقيرة التي تقتل طفلها لعدم قدرتها إعالته، وتلك التي ليس لها غايةٌ سوى إخفاء جريمة الزنا». وأصدر **هنري الثاني** عام 1556 مرسومًا شهيرًا حول تصريف الحمل؛ بما أنّ تصريف المسروقات البسيط يعاقب عليه بالموت، ينتج عن ذلك بالأحرى أن تطبق العقوبة على محاولات الإجهاض؛ في الواقع كان المرسوم يستهدف قتل الأطفال، ولكن تمّ استغلال ذلك لتطبيق عقوبة الموت على القائمين بالإجهاض والمشاركين فيه. واختفى التمييز بين الجنين المتحرّك وغير المتحرّك في حوالي القرن الثامن عشر. وفي نهاية القرن، دافع **بيكاريا**[80] Beccaria، الذي كان ذا تأثيرٍ كبيرٍ في فرنسا، عن المرأة التي ترفض الطفل. وعذرها قانون 1791 لكنّه عاقب شركاءها «بالسجن عشرين عامًا». ثم اختفت في القرن التاسع عشر فكرة أنّ الإجهاض جريمة قتلٍ: واعتُبِر بالأحرى جريمةً ضدّ الدولة. ومنعه قانون 1810 قطعيًّا تحت طائلة عقوبة السجن والأعمال الشاقة للمجهضة وشركائها؛ ومارسه الأطباء في الواقع دومًا عندما كان الأمر يتعلّق بإنقاذ حياة الأم. وبما أنّ القانون صارمٌ للغاية، كفّ المحلّفون عن تطبيقه، لم يكن هناك سوى عددٍ قليلٍ من الاعتقالات وكانوا يخلون سبيل 5/4 من المتّهمات. عام 1923 شرّع قانونٌ جديدٌ أيضًا الأشغال الشاقة لشركاء ومنفذّي العمليّة، ولكنّه عاقب المرأة فقط بالسجن أو بغرامةٍ؛ وعام 1939 استهدف قرارٌ جديدٌ التقنيين بشكلٍ خاصٍّ؛ لم ينالوا بعد ذلك أيّ إيقافٍ للتنفيذ. وعام 1941 اعتُبر الإجهاض جريمةً ضدّ أمن الدولة، وفي البلدان الأخرى جنحةً تعاقب بعقوبة الجنحة؛ مع ذلك هو في إنجلترا جريمةٌ يعاقب عليها بالسجن أو الأعمال الشاقة. بوجه الإجمال، تساهلت القوانين والقضاة مع المُجهَضة نفسها أكثر بكثيرٍ مما فعلت مع شركائها. مع ذلك لم تتخلّ الكنيسة عن موقفها الصارم بهذا الشأن. أعلن تشريع القانون الكنسي الصادر في 27 آذار/ مارس 1917 ما يلي: «يتعرّض الذين يقومون بالإجهاض دون استثناء الأم للطرد من الكنيسة». لا توجد أيّ أسباب مخفّفةٍ ولا حتّى تعرّض الأم لخطر الموت. أعلن البابا أيضًا مؤخّرًا أنّه بين حياة الأم وحياة الطفل، يجب

80- Beccaria بيكاريا: مفكر وباحث إيطالي في القانون و شؤون الجريمة في القرن الثامن عشر. (المترجمة)

التضحية بالأولى: وبالفعل الأم تستطيع بلوغ السماء لأنّها معمّدة ـ الأمر الغريب أنّ الجحيم لا يدخل أبدًا في هذه الحسابات ـ بينما يظلّ الجنين خارجها إلى الأبد[81].

سُمِح بالإجهاض رسميًّا فقط لفترةٍ وجيزةٍ، في ألمانيا قبل النازيّة، وفي الاتّحاد السوفييتي قبل 1936. ولكنّه ظلّ يحتلّ في كلّ البلدان موقعًا معتبَرًا رغم الدين والقوانين. في فرنسا، أحصوا كل عامٍ ما بين 800000 ومليون حالة إجهاضٍ، أي ما يساوي عدد الولادات، وبما أنّ ثلثي عدد المجهضات كنّ متزوّجاتٍ فقد كان لكثيراتٍ منهنّ طفلٌ أو اثنان. رغم الأحكام المسبقة، والممانعات، وبقاء أخلاقيّاتٍ بائدةٍ، رأينا تحقّق الانتقال من خصوبةٍ حرّةٍ إلى خصوبةٍ موجّهةٍ من قِبَل الدولة أو الأفراد. وقلّل تطوّر الطب النسائيّ إلى حدٍّ كبيرٍ مخاطر الولادة؛ وأصبحت آلام الولادة في طريقها إلى الزوال؛ وصدر هذه الأيام آذار/ مارس 1949 في إنجلترا مرسومٌ يقضي بالاستعمال الإجباري لبعض طرائق التخدير؛ وهي مطبّقةٌ بشكلٍ عامٍ في الولايات المتحدة الأمريكية وبدأت تنتشر في فرنسا. وبالإلقاح الصناعي اكتمل التطوّر الذي سمح للبشرية بالسيطرة على الوظيفة الإنجابية. لهذه التغيرات خصوصًا أهميّةٌ هائلةٌ بالنسبة للمرأة؛ فقد استطاعت إنقاص عدد حمولها، ودمجها في حياتها بشكلٍ عقلانيٍّ بدل أن تكون عبدةً لها. وبدورها تحرّرت المرأة خلال القرن التاسع عشر من الطبيعة؛ وكسبت السيطرة على جسدها. وبتخلّصها إلى حدٍّ كبيرٍ من عبودية الإنجاب استطاعت الاضطلاع بالدور الاقتصادي المطروح عليها والذي سيؤمّن لها السيطرة على ذاتها بشكلٍ كاملٍ.

يُفسَّر تطور وضع المرأة باجتماع هذين العاملين: المساهمة في الإنتاج، والتحرّر من عبوديّة الإنجاب. كان على وضعها الاجتماعي والسياسي أن يتحوّل حتمًا كما تنبأ **إنجلز**. الحركة النسوية التي بدأها في فرنسا **كوندورسيه**، وفي إنجلترا **ماري وولستونكرافت**

81- سنعود في الجزء الثاني إلى مناقشة هذا الوضع. نشير فقط إلى أن الكاثوليكيين لا يتبعون مذهب سانت اوغستان حرفيًّا. يهمس المعرّف بأذن الشابة المخطوبة، عشية عرسها، أنّ بإمكانها أن تفعل ما تشاء مع زوجها بحيث يتم الإيلاج «كما يجب»؛ أساليب تحديد النسل ـ بما فيها إيقاف الإيلاج ـ ممنوعةً؛ ولكن لدى الزوجين الحق في استخدام التقويم الشهري الذي وضعه علماء الجنس في فيينا والقيام بالاتصال الجنسي الذي يُعتَرَف بأنّ هدفه الوحيد هو الإنجاب في الأيام التي لا تحمل المرأة خلالها. هناك مرشدون يعطون هذا التقويم لرعاياهم. في الواقع، هناك العديد من «الأمهات المسيحيات» ليس لديهن سوى طفلين أو ثلاثة ولم يوقفن مع ذلك الملاقة الزوجية بعد. آخر ولادةٍ.

Mary Wollstonecraft في كتابها «*دفاعٌ عن حقوق النساء*»[82] وتابعها في بداية القرن أتباع **سان سيمون** لم تؤدّ إلى نتيجةٍ لافتقارها لأسسٍ ثابتة. الآن أصبحت مطالب المرأة قويّةً. وأسمعت صوتها حتّى للبورجوازيّة. نتيجةً للتطوّر السريع للحضارة الصناعية، وتراجعت الملكية العقارية بالنسبة للملكية المنقولة؛ وفقد مبدأ وحدة المجموعة الأسريّة قوّته. وسمحت قابلية رأس المال للحركة لمالكه أن يملك ثروته دون تبادلٍ وأن يستطيع التصرّف بها بدلًا من أن يصبح أسيرًا لها. لقد ارتبطت المرأة جوهريًّا بالزوج عبر الملكيّة، وعندما ألغيت هذه الملكية عادا متجاورين وحتى الأطفال لا يشكّلون رباطًا متينًا مقارنةً برباط المصلحة. وهكذا يؤكّد الفرد نفسه تجاه المجموعة؛ هذا التطوّر لافتٌ خصوصًا في أمريكا حيث انتصر الشكل الحديث للرأسماليّة: فقد انتشر الطلاق هناك ولم يعد الرجل والمرأة يبدوان سوى شريكين مؤقّتين. كان التطور بطيئًا في فرنسا، حيث عدد سكان الريف كبيرٌ، وحيث وضع قانون **نابوليون** المرأة المتزوّجة تحت الوصاية. وأُعيد الطلاق عام 1884 واستطاعت المرأة الحصول عليه في حال اقتراف الزوج للخيانة؛ مع ذلك على الصعيد الجزائي، ظلّ اختلاف الجنسين: فالخيانة ليست جنحةً إلّا إذا اقترفتها المرأة. و لم يُكتَسَب حق الوصاية المعطى مع التضييق عام 1907 بشكلٍ كاملٍ إلّا عام 1917. في عام 1912 سُمِح بمحاولة إثبات الأبوّة الطبيعيّة. واستدعى الأمر انتظار عامي 1938 و1942 ليتغيّر وضع المرأة المتزوّجة: فأُلغي واجب الإطاعة، رغم أنّ الأب بقي ربّ الأسرة؛ يحدّد مقرّ المسكن ولكن تستطيع المرأة معارضة خياره إن أبدت أسبابًا وجيهةً؛ وتزايدت إمكانياتها؛ مع ذلك ففي الصيغة المبهمة: «للمرأة كافّة الأهلية القانونيّة. لا يحدّ من هذه الأهلية سوى الزواج والقانون»، يعاكس الجزء الأخير من البند الجزء الأول. لم يتحقّق بعد تساوي الجنسين.

أمّا بالنسبة للحقوق السياسية، فقد تم اكتسابها بصعوبةٍ في فرنسا وإنجلترا وأمريكا. عام 1867، قدّم **ستيوارت ميل** Stuart Mill أمام البرلمان الإنجليزي أوّل مرافعةٍ لصالح اقتراع النساء الذي لم يكن مسموحًا رسميًّا أبدًا. طالب بإلحاحٍ في كتاباته بتساوي المرأة والرجل ضمن الأسرة والمجتمع. «أنا مقتنعٌ أنّ العلاقات الاجتماعيّة للجنسين التي تُلحِق جنسًا بآخر باسم القانون سيّئةٌ بحدّ ذاتها وتشكّل إحدى العقبات الرئيسة التي أعاقت

82- الكتاب ترجمته دار الرحبة.

تقدّم البشريّة؛ أنا مقتنعٌ بأنّ عليها أن تترك المجال لمساواةٍ كاملةٍ». تلا ذلك أن انتظمت الإنجليزيات سياسيًا بقيادة السيدة **فاوست** Mrs Fawcett؛ واصطفّت الفرنسيات خلف **ماريا دوريسم** Maria Deraismes التي درست وضع المرأة عبر سلسلةٍ من المحاضرات العامة بين عام 1868 وعام 1871؛ فدخلت في مجادلةٍ عنيفةٍ مع **ألكسندر دوماس** الابن الذي كان ينصح الزوج الذي تعرّض لخيانة زوجته قائلًا: «اقتلها». كان **ليون ريشييه** Léon Richier مؤسّس الحركة النسويّة الحقيقي؛ فوضع عام 1869 «حقوق النساء» ونظّم المؤتمر العالمي لحقوق النساء عام 1878. لم تُبحث مسألة حق الانتخاب بعدُ؛ واكتفت النساء بالمطالبة بحقوقٍ مدنيّةٍ: خلال ثلاثين سنةً ظلّت الحركة خجولةً للغاية في فرنسا كما في إنجلترا. مع ذلك بدأت امرأةٌ، **أوبيرتين أوكلير** Hubertine Auclert حملة حقّ الاقتراع؛ فأنشأت تجمّعًا اسمه «اقتراع النساء» وصحيفةً اسمها «*لاسيتوايين* La Citoyenne». تشكّلت جمعيّاتٌ عديدةٌ تحت تأثيرها لكنّ عملها لم يكن فعّالًا أبدًا. نجم ضعف الحركة النسوية هذا عن انقسامها؛ في الحقيقة، كما أشرنا سابقًا، النساء لسن متضامناتٍ كجنسٍ: إنّهنّ مرتبطاتٌ بطبقتهنّ أوّلًا؛ ولا تتقاطع مصالح البورجوازيات مع مصالح النساء العاملات. تناولت الحركة النسويّة الثوريّة من جديدٍ مبادئ **سان سيمون** والماركسيّة؛ غير ذلك تجب الإشارة أنّ **لويز ميشيل** Louise Michel أعلنت أنّها ضدّ الحركة النسويّة لأنّ هذه الحركة تحرف قوىً كان يجب أن تُوَظَّف في النضال الطبقي؛ وبإلغاء رأس المال، سينتظم مصير المرأة.

عام 1879 أعلن المؤتمر الاشتراكي تساوي الجنسين ومنذ ذلك الحين لم يعد ائتلاف الحركة النسوية والاشتراكية مستنكرًا ولكن بما أنّ النساء انتظرن الحرّية من تحرّر العمال عمومًا، فلم يرتبطن بقضيتهنّ الخاصّة إلّا بطريقةٍ ثانويّةٍ. وعلى العكس طالبت البورجوازيات بحقوق جديدةٍ ضمن المجتمع كما هو، ورفضن أن يكنّ ثوريّاتٍ؛ أردن إدخال الإصلاحات الأخلاقيّة في الأعراف: إلغاء الكحوليّة والأدبيّات الفاسقة والبغاء. عام 1892 اجتمع المؤتمر الذي سمي المؤتمر النسويّ والذي أعطى اسمه للحركة؛ ولم يفض إلى شيءٍ ذي بالٍ. مع ذلك عام 1897 أُقرّ قانونٌ يسمح للمرأة أن تكون شاهدةً في المحكمة، ولكنّ طلبت دكتورة في الحقوق أن تتسجّل في سجلّ المحامين فرُفِض طلبها. وعام 1898 حصلن على حقّ الترشيح والانتخاب في المحكمة التجاريّة والمجلس الأعلى للعمل، وقُبِلن

في المجلس الأعلى للمساعدة الاجتماعية ومدرسة الفنون الجميلة. وعام 1900، جمع مؤتمرٌ جديدٌ أنصار الحركة النسوية؛ لكنّه لم يفضِ كذلك إلى نتائج كبيرةٍ. مع ذلك وللمرة الأولى عام 1901 طرح **فيفياني** على مجلس النوّاب مسألة اقتراع النساء: على أنّه اقترح حصر الاقتراع بالعازبات والمطلّقات. في هذه اللحظة، ازدادت أهميّة الحركة النسويّة. وتأسّس الاتّحاد الفرنسي من أجل اقتراع النساء عام 1909 وكانت مديرته السيدة **برنشويغ** Mme Brunschwig، فنظّمت محاضراتٍ واجتماعاتٍ ومؤتمراتٍ ومظاهراتٍ. وفي عام 1909 وضع **بويسون** Buisson تقريرًا حول اقتراحٍ من **ديسوزوا** Dussausoy يمنح النساء حق التصويت في المجالس المحلّية. وعام 1910، قدّم **توما** Thomas اقتراحًا لصالح اقتراع النساء؛ وجُدِّد عام 1918، وفاز عام 1919 أمام مجلس النواب؛ لكنّه أخفق عام 1922 أمام مجلس الشيوخ. كان الوضع معقّدًا للغاية. وانضمّت حركةٌ نسويّةٌ مسيحيّةٌ إلى الحركة النسويّة الثوريّة وحركة السيدة **برنشويغ** النسويّة المدعوة بالمستقلّة: وأعلن **بنوا** الخامس عشر عام 1919 تأييده لاقتراع النساء، وقام مونسينيور **بودريار** Baudrillart والأب **سرتيانج** Sertillange بدعايةٍ كبيرةٍ في هذا الاتجاه؛ وبالفعل فكّر الكاثوليكيون أنّ النساء يمثّلن في فرنسا عنصرًا محافظًا ومتديّنًا؛ وهذا ما كان يخشاه الراديكاليون: سبب معارضتهم الحقيقي هو أنّهم يخشون تغيّر نتائج التصويت فيما إذا سمحوا للنساء بالتصويت. أيّد اقتراع النساء عديدٌ من الكاثوليكيين في مجلس الشيوخ، ومجموعة الاتّحاد الجمهوري، ومن جهةٍ أخرى أحزاب أقصى اليسار: لكنّ أغلبيّة المجلس كانت معارضةً. فلجأ حتى عام 1932 إلى أساليب تسويفيّةٍ ورفض مناقشة الاقتراحات المتعلّقة باقتراع النساء؛ وأقرّ مجلس النوّاب عام 1932 بأغلبية ثلاثمئة وتسعة عشر صوتًا مقابل واحدٍ التعديل الذي يعطي النساء حقّ الترشيح والانتخاب: لقد رُفِض التعديل. التقرير الذي ظهر في مجلّة «*لوفيسييل* l`Officiel» معبّرٌ للغاية؛ ونجد فيه كلّ الحجج التي نمّاها معارضو الحركة النسويّة خلال نصف قرنٍ في مؤلفاتٍ كثيرةٍ جدًا. تأتي في المقدّمة الحجج المُلاطِفة، من نمط: نحن نحب المرأة إلى درجة أننا لن ندع النساء يصوّتن؛ ويُشاد على طريقة **برودون** «بالمرأة الحقيقيّة» التي تقبل الخيار الصعب «محظيّة أو ربّة منزلٍ»: قد تفقد المرأة سحرها حين تصوّت، إنّها مرفوعةٌ على نُصُبٍ، وعليها ألّا تنزل عنه؛ ستفقد كلّ شيءٍ ولن تكسب شيئًا عندما تصبح ناخبةً، إنها

تحكم الرجال دون أن تحتاج إلى بطاقة اقتراعٍ، إلخ... وبشكلٍ أخطر يعترضون طارحين مصلحة العائلة: مكان المرأة في المنزل؛ وستكون النقاشات السياسية مبعث خلافٍ بين الزوجين. يعترف البعض بأنهم معادون للحركة النسويّة باعتدالٍ. والنساء مختلفاتٌ عن الرجل. فهنّ لا يؤدّين الخدمة العسكريّة. هل تصوّت المومسات؟ ويؤكّد آخرون تفوّقهم الذكوري بصلافةٍ: التصويت تكليفٌ وليس حقًّا، والنساء غير جديراتٍ به. إنّهنّ أقل ذكاءً وأقلّ تعليمًا من الرجل. وإن اقترعن، فسيتخنّث الرجال. لم يحصلن على تدريبٍ سياسيٍّ. فسيصوّتن حسبما يأمرهنّ زوجهنّ. إن أردن الحريّة، فليتحرّرن أوّلًا من خيّاطتهنّ. كما يضعون هذه الحجّة المغرقة في السذاجة: في فرنسا نساءٌ أكثر من الرجال. رغم فقر كل هذه الاعتراضات، تطلّب الأمر انتظار 1945 لكي تحصل الفرنسيّة على أهليّتها السياسيّة.

كانت نيوزيلندا قد منحت المرأة كامل حقوقها منذ عام 1893؛ وتلتها أوستراليا عام 1908. ولكنّ الانتصار كان صعبًا في إنجلترا وأمريكا. كانت إنجلترا العصر الفيكتوري تحصر المرأة قهرًا في المنزل، فكانت **جين أوستن** Jane Austen تختبئ كي تكتب؛ كان الأمر يتطلّب الكثير من الشجاعة أو حظًّا استثنائيًا ليصبح المرء **جورج إيليوت** George Eliot أو **إميلي برونتي** Emily Brontë ؛ وعام 1888، كتب عالمٌ إنجليزيٌّ: «ليس فقط أنّ النساء لسن العرق، إنّهنّ لسن حتّى نصف العرق ولكنّهنّ «تحتُ نوعٍ» مخصّصٌ فقط للإنجاب». ثم أسّست السيدة **فاوست** في حوالي نهاية القرن حركة الاقتراع ولكنّها كانت حركةً خجولةً كمثيلتها في فرنسا. اتّخذت مطالب النساء حوالى 1903 منعطفًا خاصًّا. أسّست عائلة **بانكورست** Pankhurst في لندن «اتّحاد المرأة الاجتماعي والسياسي» الذي انضمّ إلى حزب العمال والذي قام بعملٍ نضاليٍّ مقدامٍ. لأوّل مرةٍ في التاريخ نرى النساء يحاولن بذل جهدٍ كنساءٍ: وهذا ما يعطي أهمّيةً خاصّةً لمغامرة المناديات بحقّ التصويت في إنجلترا وأمريكا. لقد مارسن لمدة خمس عشرة سنةً سياسة ضغطٍ تُذَكّر من بعض النواحي بموقف **غاندي**: فهنّ رافضاتٌ للعنف، واخترعن ببراعةٍ بدائل له. اقتحمن قاعة ألبرت هول أثناء اجتماعٍ لحزب الأحرار رافعاتٍ يافطاتٍ من القماش كُتِبت عليها كلمات: «الاقتراع للنساء»؛ ودخلن بالقوّة إلى مكتب **اللورد آسكيث** Asquith، وأقمن اجتماعاتٍ في هايد بارك وفي ساحة ترافالغارد، وقمن بمسيراتٍ في الشوارع حاملاتٍ يافطاتٍ، ونظّمن محاضراتٍ؛

خلال المظاهرات كنّ يشتمن رجال الشرطة أو يرمينهم بالحجارة بطريقةٍ عرّضتهنّ للمثول أمام المحكمة؛ اتّبعن في السجن خطّة الإضراب عن الطعام؛ وجمعن أموالًا، وجمّعن حولهنّ ملايين النساء والرجال؛ وأثّرن في الرأي العام لدرجة أنّه في عام 1907 شكّل مئتا عضوٍ في البرلمان لجنةً من أجل اقتراع النساء؛ من حينها، كان مئاتٌ منهم يطرحون كلّ عامٍ مشروع قانونٍ لصالح اقتراع النساء، يُرفَض كلّ عامٍ بنفس الحجج. وعام 1907 نظّم اتّحاد النساء الاجتماعي والسياسي W.S.P.U أوّل مسيرةٍ إلى البرلمان شارك فيها العديد من عاملات الشالات وبعض نساءٍ من الطبقة الأرستوقراطيّة؛ أرجعتهنّ الشرطة؛ ولكن في العام التالي، بما أنّه تم التهديد بمنع النساء المتزوّجات من العمل في بعض أروقة المناجم، دعا اتّحاد النساء الاجتماعي والسياسي عاملات لانكشاير إلى إقامة اجتماعٍ كبيرٍ في لندن. وتم إيقاف بعضهنّ وردّت السجينات المناضلات من أجل التصويت بإضرابٍ طويلٍ عن الطعام. وبعد إطلاق سراحهنّ، نظّمن مواكب جديدةً: فامتطت إحداهنّ حصانًا دُهِن بالكلس ممثّلةً الملكة إليزابيث. في 18 تموز/ يوليو عام 1910، اليوم الذي من المفروض أن يُطرح فيه قانون اقتراع النساء على مجلس النوّاب، انتشرت مسيرةٌ طولها تسعة كيلومتراتٍ في لندن؛ ورُفِض القانون، وأُقيمت اجتماعاتٌ جديدةٌ، وجرت اعتقالاتٌ جديدةٌ. وتبنّين عام 1912 خطّةً أكثر عنفًا: فأحرقن منازل غير مأهولةٍ، ومزّقن لوحاتٍ، ودسن مسكبات الزهور، وقذفن رجال الشرطة بالحجارة؛ في الوقت نفسه، أرسلن بعثاتٍ متكرّرةً إلى **لويد جورج** Lloyd George، والسير **إدموند غراي** Edmond Grey؛ واختبأن في قاعة ألبرت هول وتدخّلن بصخبٍ أثناء خطابات **لويد جورج**. ثم قطعت الحرب نشاطاتهنّ. من الصعب للغاية معرفة كم ساهم هذا العمل في تسريع الأحداث. مُنِحت الإنجليزيات حقّ الاقتراع أوّلًا عام 1918 بشكلٍ محصورٍ، ثم عام 1928 دون حصرٍ: كانت الخدمات التي قدّمنها خلال الحرب السبب الأكبر في هذا النجاح.

وجدت المرأة الأمريكيّة نفسها في البدء متحرّرةً أكثر من الأوروبية. في بداية القرن التاسع عشر، اضطرّت النساء إلى المساهمة بعمل الروّاد الشاقّ الذي قام به الرجال، كافحن من جهتهنّ؛ كنّ أقلّ عددًا بكثيرٍ منهم وبذلك نلن قيمةً عاليةً جدًّا. ولكن شيئًا فشيئًا اقترب وضعهنّ من وضع النساء في العالم القديم؛ ظللّن يتلقين المجاملات؛ واحتفظن

بامتيازاتٍ ثقافيّةٍ ووضعٍ مسيطرٍ داخل الأسرة؛ كانت القوانين تمنحهنّ بطيب خاطرٍ دورًا دينيًّا ومعنويًّا؛ لكن قيادة المجتمع ظلّت مع ذلك بيد الذكور. بدأت بعضهنّ حوالي 1830 بالمطالبة بحقوقهنّ السياسيّة. كما أقمن أيضًا حملةً لصالح السود. وبما أنّ المؤتمر المضاد للرقّ الذي أقيم في لندن عام 1840 أغلق في وجوههنّ، فقد أسّست البروتستانتيّة **لوكريسيا موت** Lucretia Mott جمعيّةً نسويّةً. في 18 تموز/ يوليو عام 1840 وفي مؤتمرٍ عُقِد في سينيكا فولس وضعن بيانًا يبدو فيه التأثير البروتستنتي ويضبط إيقاع كلّ الحركة النسويّة الأمريكيّة. «خُلِق الرجل والمرأة متساويين، ومنحهما الخالق حقوقًا غير قابلةٍ للتغيير... والحكومة موجودةٌ للحفاظ على هذه الحقوق... يجعل الرجل المرأة المتزوّجة ميّتةً مدنيًّا... وينتحل سلطات «*يهوى* Jéhova» الذي يستطيع وحده تعيين مجال عمل الرجال». بعد ثلاث سنواتٍ، كتبت السيّدة **بيشر-ستويه** Beecher-Stowe «*كوخ العم توم*» الذي أثار الرأي العام لصالح السود. ودعم **إيمرسون** Emerson **ولنكولن** Lincoln الحركة النسويّة. وعندما اندلعت حرب الانفصال ساهمت فيها النساء بحماسةٍ؛ ولكن عبثًا طالبن بأن تكون صيغة التعديل الذي يمنح السود حقّ التصويت كالتالي: «اللون والجنس... ليسا عقبةً أمام حقّ الاقتراع». مع ذلك بما أنّ أحد بنود التعديل كان ملتبسًا، فقد اتّخذته الآنسة **أنتوني** Anthony، الزعيمة النسويّة الكبيرة، حجّةً كي تصوّت في روشستر مع أربع عشرة من زميلاتها؛ فحُكِم عليها بغرامةٍ قدرها مئة دولارٍ. عام 1869، أسّست الجمعيّة الوطنيّة لاقتراع النساء وفي نفس السنة أعطت ولاية ياومينغ حقّ الاقتراع للنساء. ولكن لم تحذُ حذوها كولورادو إلّا عام 1893، ثم إيداهو وأوتاه عام 1896. فيما بعد كان التطوّر بطيئًا للغاية. ولكن على الصعيد الاقتصادي نجحت النساء أفضل بكثيرٍ من مثيلاتهنّ في أوروبا. عام 1900، كان هناك في الولايات المتحدة الأمريكيّة 5 ملايين امرأةٍ تعمل، منهنّ 1300000 في الصناعة، و500000 في التجارة؛ وأُحصي عددٌ كبيرٌ منهنّ في التجارة والصناعة والأعمال وكلّ المهن الحرّة. كان هناك محامياتٌ وطبيباتٌ و3373 امرأةً قسّيسةً. أسّست **ماري بيكر إدي** Marie Baker Eddy الشهيرة الكنيسة المسيحيّة العلميّة. واعتادت النساء على التجمّع في أنديةٍ ضمّت عام 1900 مليوني عضوٍ.

في هذه الأثناء منحت تسع ولاياتٍ فقط النساء حقّ التصويت. عام 1913، انتظمت

حركة المطالبات بحق التصويت حسب نموذج الحركة المناضلة الإنجليزية. أدارتها امرأتان: **الآنسة ستيفنز** Miss Stevens، وبروتستانتيّةٌ شابةٌ، هي **أليس بول** Alice Paul. حصلن من **ويلسون** Wilson على الإذن بالمسير في موكبٍ كبيرٍ مع يافطاتٍ وشعاراتٍ؛ نظّمن بعدها حملةً من المحاضرات والاجتماعات والمسيرات والمظاهرات من كلّ نوعٍ. ذهبت النساء الناخبات في مجموعاتٍ ضخمةٍ من الولايات التسع التي أُجيز فيها تصويت النساء إلى الكابيتول، مطالباتٍ بمنح حقّ التصويت للأمة كلها. في شيكاغو رأينا للمرّة الأولى نساءً يتجمّعن في حزبٍ كي يحرّرن جنسهنّ: أصبح هذا التجمّع «حزب النساء». عام 1917، اخترعت المُطالبات بحقّ التصويت طريقةً جديدةً: وقفن على أبواب البيت الأبيض بالبنطال، وبأيديهنّ الشعارات، مقيّداتٍ أنفسهنّ غالبًا إلى الأسوار كيلا يكون بالإمكان طردهنّ. بعد ستّة أشهرٍ، اعتُقِلن وأُرسِلن إلى إصلاحيّة أوكسكاكوا؛ فقمن بإضرابٍ عن الطعام وانتهى بهنّ الأمر إلى إطلاق سراحهنّ. وأدّت مسيراتٌ جديدةٌ إلى بداية عصيانٍ. وانتهى الأمر بالحكومة إلى قبول تسمية لجنةٍ للاقتراع في مجلس النوّاب. وعقدت اللجنة التنفيذية لحزب النساء مؤتمرًا في واشنطن؛ ولدى الخروج منه كان التعديل لصالح اقتراع النساء مقدّمًا للمجلس وتم التصويت عليه يوم 10 كانون الثاني/ يناير 1918. بقي انتزاع تصويت مجلس الشيوخ. وبما أنّ **ويلسون** لم يَعِد بممارسة ضغطٍ كافٍ، فقد عادت المناضلات من أجل التصويت إلى التظاهر؛ وعقدن اجتماعًا على أبواب البيت الأبيض. وقرّر الرئيس توجيه نداءٍ إلى مجلس الشيوخ لكنّ التعديل رُفِض بأغلبية صوتين. وصوّت على التعديل مؤتمر الجمهوريين في حزيران/ يونيو 1919. ثم استمرّ النضال من أجل المساواة الكاملة بين الجنسين عشر سنواتٍ. في مؤتمر الجمهوريين السادس الذي عقد في هافانا عام 1928، حصلت النساء على تشكيل لجنةٍ أمريكية للنساء. وعام 1933، رفعت اتفاقيات مونتفيديو وضع المرأة باتّفاقٍ عالميٍّ. وقّعت تسع عشرة جمهوريةً أمريكيةً الاتّفاقيّة التي تمنح النساء المساواة في كلّ الحقوق.

هناك أيضًا في السويد حركةٌ نسويّةٌ هامّةٌ للغاية. باسم التقاليد القديمة طالبت السويديات بحق «التعليم، والعمل، والحرية». وقادت المعركة النساء المثقفات خصوصًا، وكان الجانب المعنوي للمشكلة هو ما يهمّهنّ في البداية؛ ثم لمّا اجتمعن في جمعيّاتٍ قويّةٍ

كسبن الأحرار لكنّهنّ اصطدمن بعدائية المحافظين. ونالت النروجيات حقّ التصويت عام 1907 والفنلنديات عام 1906 لكنّ السويديات بقين ينتظرنه سنواتٍ عديدةً أخرى.

تضطهد البلدان اللاتينية المرأة، كبلدان المشرق، بقوّة الأعراف أكثر منها بقوّة القوانين. كما كبحت الفاشية بطريقةٍ منهجيّةٍ تطور النسويّة في إيطاليا. جعلتها إيطاليا الفاشية مستعبَدَةً بشكلٍ مزدوجٍ: للسلطات العامة ولزوجها رغبةً في الاتّحاد بالكنيسة، واحترامًا للأسرة واستمرارًا لتقاليد استعباد المرأة. كان الوضع صعبًا جدًّا في ألمانيا. عام 1790، ألقى الطالب **هيبل** Hippel أوّل بيانٍ عن الحركة النسوية الألمانية. في بداية القرن التاسع عشر ازدهرت حركةٌ نسويّةٌ عاطفيّةٌ مشابهةٌ لتلك التي قامت بها **جورج صاند**.

عام 1848، طالبت أوّل ناشطةٍ نسويّةٍ ألمانيةٍ، **لويز أوتّو** Louise Otto، بحقّ النساء في المساعدة في تحويل بلادهنّ: كانت نسويّتها قوميّةً بشكلٍ أساسيٍّ. وأسّست عام 1865 «الجمعيّة العامة للنساء الألمانيات». مع ذلك طالب الاشتراكيون الألمانيون مع **بيبل** بالمساواة للجنسين. ودخلت **كلارا زتكين** Clara Zetkin عام 1892 إلى مجلس الحزب. وظهرت جمعيّاتٌ عمّاليّةٌ نسائيّةٌ واتّحادات نساءٍ اشتراكيّاتٍ متجمّعةٌ في فدراليّة. فشلت الألمانيات عام 1914 في إنشاء جيشٍ وطنيٍّ من النساء لكنّهنّ شاركن بحماسةٍ في المجهود الحربي. بعد هزيمة ألمانيا، حصلن على حقّ التصويت وساهمن في الحياة السياسية: ناضلت **روزا لوكسمبورغ** Rosa Luxemburg ضمن مجموعة سبارتاكوس إلى جانب **ليبكنيشت** Liebknecht وماتت مقتولةً عام 1919. كان معظم الألمانيّات إلى جانب حزب النظام؛ وأقامت عديداتٌ منهنّ في الرايخشتاغ. إذًا فرض **هتلر** من جديدٍ على نساءٍ متحرّراتٍ قيم **نابوليون**: «Küche, Kirche, Kinder»[83]. وصرّح أنّ «وجود امرأةٍ في الرايخشتاغ يدنّسه». وبما أنّ النازيّة كانت ضدّ الكاثوليكية والبورجوازيّة، فقد أعطى الأمّ منزلةً مميّزةً؛ وحرّرت حماية الأمهات العازبات والأطفال الطبيعيين المرأة بقدرٍ كبيرٍ من الزواج؛ وكما في اسبارطة، كانت تعتمد على الدولة أكثر بكثيرٍ من اعتمادها على أيّ شخصٍ آخر، ما أعطاها في الوقت نفسه استقلاليّةً أكبر من بورجوازيّةٍ تعيش في نظامٍ رأسماليٍّ.

83- أي مطبخ، كنيسة، أطفال. (المترجمة)

كانت الحركة النسويّة الأكثر أهمّيّةً في الاتّحاد السوفييتي. بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، بين طالبات الطبقة المثقفة؛ فهنّ أقلّ ارتباطًا بقضيّتهنّ الشخصيّة منهنّ بالعمل الثوريّ عمومًا؛ «اتّجهن إلى الشعب» وناضلن ضدّ جهاز الأمن السياسي القيصري حسب الأساليب العدميّة: قتلت **فيرا زاسوليش** Vera Zassoulich مدير الشرطة **تريبوف**. وخلال الحرب الروسية اليابانية حلّت النساء محلّ الرجال في كثيرٍ من المهن؛ فأدركن ذاتهنّ وطالب الاتّحاد الروسي لحقوق المرأة بالمساواة السياسية بين الجنسين؛ وفي أوّل جمعيّةٍ وطنيّةٍ ـ دوما Douma ـ تشكّلت مجموعةٌ برلمانيّةٌ لحقوق المرأة، ولكن دون فعّاليّةٍ. أتت الثورة بالتحرّر للعاملات. وكنّ أصلًا قد شاركن عام 1905 بشكلٍ واسعٍ في الإضرابات السياسيّة الواسعة التي قامت في البلاد، وتسلّقن الحواجز. وتظاهرن عام 1917، قبل الثورة بأيّامٍ، بمناسبة يوم النساء العالمي (8 آذار/ مارس) بشكلٍ غفيرٍ في شوارع بطرسبرغ مطالباتٍ بالخبز والسلام وعودة أزواجهنّ. وساهمن في ثورة أكتوبر؛ ولعبن بين 1918 و1920 دورًا كبيرًا اقتصاديًّا وحتى عسكريًّا في نضال الاتّحاد السوفييتي ضد الغزاة. وربط **لينين** تحرّر النساء بتحرّر العمّال إيمانًا بالتقاليد الماركسيّة؛ ومنحهنّ المساواة السياسية والاقتصاديّة.

يقول البند 122 من دستور 1936: «تتمتّع المرأة في الاتّحاد السوفييتي بنفس حقوق الرجل في كلّ مجالات الحياة الاقتصاديّة والرسميّة والثقافيّة والعامّة والسياسيّة». وحدّدت الشيوعية العالميّة هذه المبادئ. فطالبت: «بالمساواة الاجتماعيّة بين المرأة والرجل أمام القانون وفي الحياة العمليّة، وبتغييرٍ جذريٍّ لقانون الزواج وتشريع الأسرة، والاعتراف بالأمومة كوظيفةٍ اجتماعيّةٍ، وبتحمّل المجتمع أعباء العناية بالأطفال والمراهقين وتعليمهم، والنضال المنظّم الممدّن ضدّ الإيديولوجيّة والتقاليد التي تجعل من المرأة عبدةً».

كانت مكاسب المرأة في الميدان الاقتصادي ساطعةً، فحصلت على المساواة في الأجور مع العمال الذكور وساهمت بشكلٍ كثيفٍ بالإنتاج؛ فاكتسبت بذلك أهمّيةً سياسيّةً واجتماعيّةً كبيرةً. ورد في الكتيّب الذي أصدرته مؤخّرًا الجمعية الفرنسية السوفييتية أنّه كان هناك 457000 امرأةٍ نائبةٍ في مجالس السوفييت في المناطق والدوائر والمدن والقرى في انتخابات عام 1939 العامة، و1480 امرأةً في مجلس السوفييت الأعلى للجمهوريات الاشتراكيّة، و227 امرأةً في مجلس السوفييت الأعلى للاتّحاد السوفييتي. وقرابة 10 ملايين

منتسباتٍ لنقاباتٍ، يشكّلن 40% من مجموع العمال والمستخدمين في الاتّحاد السوفييتي؛ وكان هناك عددٌ كبيرٌ من العاملات من بين الذين طبّقوا الأسلوب الستاخانوفي[84] في العمل. ونعرف قدر مساهمة المرأة الروسيّة في الحرب الأخيرة؛ فقد قدّمن عملًا هائلًا حتّى في فروع الإنتاج حيث كانت المهن الذكوريّة سائدةً: الحديد والصلب والمناجم وتعويم الحطب والسكك الحديديّة إلخ... وبرزن كطيّاراتٍ ومظلّيّاتٍ، وشكّلن جيوش أنصارٍ.

أبرزت مشاركة المرأة هذه في الحياة السياسية مشكلةً صعبةً، هي دورها في الحياة الأسريّة. فخلال فترةٍ بأكملها حاولوا تحريرها من الضغوط المنزليّة: في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1924، أعلن المجلس العام للأمميّة الشيوعية الثالثة Komintern أنّ «الثورة عاجزةٌ طالما ظلّ مفهوم الأسرة والعلاقات الأسريّة قائمًا». كان احترام الزواج الحرّ، وتسهيل الطلاق، وإباحة الإجهاض تؤمّن حرّية المرأة تجاه الرجل؛ وخفّفت أعباءَ الأمومة قوانينٌ حول إجازة الحمل ودور الحضانة ورياض الأطفال. من الصعب معرفة ماذا كان وضعها الفعلي من خلال الشهادات المتحمّسة والمتناقضة؛ المؤكّد هو أنّ متطلّبات إعادة التعمير أدّت إلى سياسةٍ أسريّةٍ مختلفةٍ: فظهرت الأسرة كخليّة المجتمع الأساس وأصبحت المرأة عاملةً وربّة منزلٍ معًا[85]. كانت الأخلاق الخاصّة بالجنس صارمةً للغاية؛ الإجهاض ممنوعٌ منذ قانون حزيران/ يونيو 1936 الذي أكّده قانون 7 حزيران/ يونيو 1941، والطلاق ملغىً تقريبًا؛ والخيانة مدانةٌ في العرف. والمرأة الروسيّة ملحقةٌ بالدولة بشكلٍ وثيقٍ ككلّ العمال، وبمنزلها كذلك، لكنّها وصلت إلى الحياة السياسية وإلى الكرامة التي يمنحها العمل المنتج، وبذلك وضعها خاصٌّ ربما كان من المفيد دراسته عن قربٍ ضمن خصوصيّته؛ الأمر الذي لا تسمح لي الظروف به للأسف.

طالبت لجنة وضع المرأة في الدورة التي عقدتها مؤخّرًا في الأمم المتّحدة باعتراف

84- Stakhanovisme الستاخانوفية هي أسلوبٌ ابتدعه ستاخانوف لزيادة الإنتاج بمبادرةٍ من العمال. (المترجمة)

85- أعلنت أولغا ميشاكوفا Olga Michakova، سكرتيرة اللجنة المركزيّة في منظّمة الشباب الشيوعي، عام 1944 في مقابلةٍ: «على النساء السوفييتيات أن يحاولن أن يكنّ جذّاباتٍ بقدر ما تسمح به الطبيعة والذوق السليم. بعد الحرب عليهنّ أن يرتدين ملابس النساء ويمشين مشية النساء...وسيقال للفتيات أن يتصرّفن ويمشين كفتياتٍ ولهذا السبب سيرتدين تنانير ضيّقةً ربما ستجبرهنّ على المشي بطريقةٍ رشيقةٍ».

جميع الأمم بالمساواة في الحقوق بين الجنسين ووافقت على عدّة اقتراحاتٍ تهدف إلى جعل هذا الوضع القانوني واقعًا محسوسًا. يبدو إذًا أنّ الجولة قد كُسِبَت. وسيؤدّي المستقبل حتمًا إلى دمجٍ أعمق فأعمق للمرأة في المجتمع الذي كان فيما مضى ذكوريًّا.

*

إذا ألقينا نظرةً شموليّةً على هذا التاريخ، نستنتج منه عدة خلاصاتٍ. فأوّلًا: كلّ تاريخ النساء صنعه الرجال. وكما أنّه لا توجد في أمريكا مشكلةٌ سوداء ولكن مشكلةٌ بيضاء[86]؛ وكما أن «معاداة الساميّة ليست مشكلةً يهوديّةً: إنّها مشكلتنا»[87]؛ كذلك كانت مشكلة المرأة دائمًا مشكلة الرجال. رأينا الأسباب التي جعلتهم ينالون في البدء بالقوّة العضليّة مكانةً معنويّةً؛ لقد أوجدوا القيم والأعراف والديانات؛ ولم تنازعهم النساء أبدًا هذه الإمبراطوريّة. لقد احتجّت نساءٌ قلائل على قسوة مصيرهنّ: **سافو**، **وكريستين دو بيزان**، **وماري وولستونكرافت**، **وأوليمب دو غوج**؛ وحصلت أحيانًا مظاهراتٌ جماعيّةٌ: لكنّ السيدات الرومانيات المحترمات باتّحادهنّ ضدّ قانون أوبيا Oppia أو المناضلات من أجل حقّ التصويت في إنجلترا لم ينجحن في ممارسة ضغطٍ إلّا لأنّ الرجال كانوا مستعدّين لتحمّله. هم الذين أمسكوا بأيديهم دائمًا مصير المرأة؛ ولم يتصرّفوا به حسب مصلحتها؛ لقد راعوا مشاريعهم الخاصة، ومخاوفهم، واحتياجاتهم. عندما احترموا الآلهة الأم، كان ذلك لأنّ الطبيعة كانت تخيفهم، وما إن سمحت لهم أداة البرونز بتأكيد ذاتهم ضدّها، حتّى أقاموا النظام الأبوي؛ صراع الأسرة والدولة إذًا هو الذي حدّد وضع المرأة؛ لقد انعكس موقف المسيحي أمام الله والعالم وجسده في الوضع الذي فرضه عليها؛ وما دُعي في العصور الوسطى «معركة النساء» كان شجارًا بين رجال دينٍ وعلمانيين بشأن الزواج والعزوبيّة؛ إنّ النظام الاجتماعي القائم على الملكية الخاصّة هو ما أدّى إلى الوصاية على المرأة المتزوّجة، والثورة التقنيّة التي قام بها الرجال هي ما حرّر نساء اليوم. وتطوّر الأخلاق الذكريّة هو ما أدّى إلى إنقاص الأسر العديدة «بتحديد النسل» وحرّر المرأة جزئيًّا من عبوديّة الأمومة. ولم تكن الحركة النسويّة ذاتها أبدًا حركةً مستقلّةً: كانت في جزءٍ منها

86- راجع ميردال Myrdall، الخيار الأمريكي الصعب.

87- راجع ج. ب. سارتر، أفكارٌ حول المسألة اليهوديّة.

أداةً في يد السياسيين، وفي جزءٍ آخر ظاهرةً عارضةً تعكس مأساةً اجتماعيّةً أكثر عمقًا. لم تشكّل النساء أبدًا طبقةً منفصلةً: وفي الحقيقة لم يحاولن كجنسٍ لعب دورٍ في التاريخ. والمذاهب التي تطالب بارتقاء المرأة بصفتها جسدًا، حياةً، مثوليّةً، بصفتها الآخر، هي إيديولوجياتٌ ذكوريّةٌ لا تعبّر البتّة عن المطالب النسائيّة. وتقنع أغلبيّة النساء بمصيرهن دون أن يحاولن القيام بأيّ عملٍ؛ تينك اللواتي حاولن التغير لم يطمحن إلى البقاء ضمن خصوصيّتهنّ وجعلها تزدهر ولكن إلى التغلّب عليها. وعندما تدخّلن في مجرى العالم، كان ذلك بالاتّفاق مع الرجال، وضمن مناظير ذكوريّةٍ.

كان هذا التدخّل بوجه الإجمال ثانويًّا ومتقطّعًا. وكانت الطبقات التي تتمتع فيها النساء بنوعٍ من الاستقلال الاقتصادي ويساهمن في الإنتاج هي الطبقات المسحوقة وكنّ أيضًا مستعبَداتٍ كعاملاتٍ أكثر من العمّال الذكور. كانت المرأة متطفّلةً في الطبقات الحاكمة وبالتالي مُستَعبَدةً للقوانين الذكوريّة: وفي الحالين كان العمل مستحيلًا بالنسبة لها تقريبًا. لم تكن القوانين والأعراف تتوافق دومًا: وكان التوازن بينها يتمّ بحيث لم تكن المرأة حرّةً أبدًا. في الجمهوريّة الرومانيّة القديمة أعطت الظروف الاقتصاديّة السيّدة سلطاتٍ ملموسةً: ولكن دون أيّ استقلالٍ قانونيٍّ؛ وكان الأمر كذلك في الحضارات الريفيّة، وفي البورجوازيّة الصغيرة التجاريّة؛ المرأة قاصرٌ اجتماعيًّا، سيّدةٌ وخادمةٌ داخل المنزل. وبالعكس، في العصور التي تفكّك فيها المجتمع، تحرّرت المرأة؛ ولكنّها ما إن تكفّ عن أن تكون تابعةً للرجل حتّى تفقد منطقة نفوذها؛ ليس لديها سوى حرّيةٍ سلبيّةٍ لا تجد لها تجلّيًا سوى بالفسق والفجور: وهكذا كان خلال الانحطاط الروماني، وعصر النهضة، والقرن الثامن عشر، وحكومة المديرين بعد الثورة الفرنسية. فإمّا أن تجد ما يشغلها لكنّها مُستعبَدةٌ؛ أو أنّها متحرّرةٌ ولكن لم يعد لديها ما تفعله. من اللافت من بين أشياء أخرى أنّ لدى المرأة المتزوّجة مكانها في المجتمع لكنّها لم تتمتّع فيه بأيّ حقٍّ؛ بينما كان للعازبة كامل أهليّة الرجل سواءً كانت فتاةً شريفةً أم مومسًا؛ ولكن كانت حتّى عصرنا هذا مقصاةً عن الحياة الاجتماعية في كثيرٍ أو قليلٍ. نتج تناقضٌ غريبٌ عن هذا التضاد بين القانون والأعراف: فالقانون لا يمنع الحب الحرّ، بينما الخيانة جنحةٌ؛ مع ذلك فغالبًا عندما «تخطئ» الشابة يكسوها العار بينما يُنظَر إلى سلوك الزوجة الشائن بتسامحٍ: كان العديد من الشابات من

القرن السابع عشر وحتّى أيامنا هذه يتزوّجن كي يستطعن اتّخاذ عشّاقٍ بحريّةٍ. هذا النظام البارع ضيَّق الخناق على جماهير النساء: فلكي تنجح شخصيّةٌ نسائيّةٌ في إثبات ذاتها تحتاج إلى ظروفٍ استثنائيّةٍ بين هاتين السلسلتين من الضغوط، المجرّدة أو الملموسة. والنساء اللواتي قمن بأعمالٍ مشابهةٍ لأعمال الرجال هنّ تينك اللواتي مجدتهنّ قوة المؤسسات الاجتماعية متجاوزةً التمييز الجنسي. لم تكن **إيزابيل** الكاثوليكية **وإليزابيث** ملكة إنجلترا **وكاترين** قيصرة روسيا ذكورًا ولا إناثًا: كنّ سادةً. ومن اللافت أنّ أنوثتهنّ لم تعد تشكّل دونيّةً بعد أن ألغيت اجتماعيًّا: نسبة الملكات اللواتي كان لديهن حكمٌ عظيمٌ أعلى بكثيرٍ من نسبة الملوك. وتقوم الديانة بنفس التحويل: **كاترين** من سيينا والقديسة **تيريز** هما روحان مقدّستان فوق كلّ وضعٍ فزيولوجيٍّ؛ ترتقي حياتهما العريقة وحياتهما الصوفيّة وأعمالهما وكتاباتهما إلى مستوياتٍ ساميةٍ لم يبلغها أبدًا سوى قلّةٍ من الرجال. يحقّ لنا أن نظنّ أنّه إن فشلت بقيّة النساء في ترك بصمةٍ عميقةٍ في العالم فذلك لأنّهنّ حُصِرن ضمن وضعهنّ. لم يستطعن البتّة التدخّل إلّا بطريقةٍ سلبيّةٍ أو مواربةٍ. قَتلت **جوديث وشارلوت كورداي وفيرا زاسوليش**؛ وتآمرت متمرّدات حرب الفروند[88]؛ وناضلت نساءٌ إلى جانب الرجال ضد النظام القائم أثناء الثورة وأثناء الكومونة؛ يُسمَح لحرّيّةٍ بلا حقوقٍ ولا سلطةٍ أن تنخرط بالرفض والثورة بينما تمنع من المشاركة في بناءٍ إيجابيٍّ؛ وفي أفضل الحالات تنجح في التدخّل في المؤسّسات الذكوريّة عبر طرقٍ ملتويةٍ. وكانت **أسبازيا** والسيدة **منتنون** والأميرة **ديزورسان** مستشاراتٍ تُسمع نصيحتهنّ: ولحسن الحظّ أنّه كان يُصغى إليهنّ. يبالغ الرجال بطيب خاطرٍ في تقدير حجم هذا التأثير عندما يريدون إقناع المرأة أنّ لها النصيب الأكبر؛ ولكنّ الأصوات النسائيّة في الواقع تصمت عندما يبدأ العمل الجدّي؛ لقد استطعن إثارة حروبٍ، دون اقتراح خطّة معركةٍ؛ لم يوجّهن السياسة أبدًا إلّا عندما يتعلّق الأمر بالدسائس: لم يكن التحكّم في العالم في أيدي النساء أبدًا؛ لم يتصرّفن بالتقنيّات ولا بالاقتصاد، لم يصنعن دولًا ولم يقوّضنها، ولم يكتشفن عوالم. أُثيرت بعض الأحداث من خلالهن: لكنّهنّ كنّ حجّةً أكثر بكثيرٍ من كونهنّ عاملًا. لم يكن لانتحار **لوكريس** Lucrèce سوى قيمةٍ رمزيّةٍ. يُسمَح للمُضطهَد بأن يستشهد؛ فخلال اضطهاد المسيحيّة وغداة الهزائم الاجتماعيّة أو الوطنيّة،

88- La Fronde هي اضطرابات في عهد لويس الرابع عشر، سمّيت أحيانا حرب اللورين. (المترجمة)

لعبت نساءٌ دور الشاهد هذا؛ ولكن لم يغيّر شهيدٌ أبدًا وجه العالم. حتّى المظاهرات والمبادرات النسائيّة لم تنل قيمةً إلّا عندما تلاها قرارٌ ذكوريٌّ فعّالٌ. أثارت الأميركيات المتجمعات حول السيدة **بيشر ستوي** الرأي العام بعنفٍ ضدّ الرقّ؛ لكن الأسباب الرئيسة لحرب الانفصال لم تكن عاطفيّةً. ربما سرّع «يوم النساء» في 8 آذار/ مارس 1917 حدوث الثورة الروسيّة: مع ذلك لم يكن سوى إشارةٍ. ومعظم البطلات النسائيّات هنّ من نمطٍ غير عاديٍّ، مغامراتٌ، ومبتكَراتٌ متميّزاتٌ بتفرّد حياتهن أكثر من تميّزهنّ بأهمّيّة أعمالهنّ؛ وهكذا إن قارنّا **جان دارك**، ومدام **رولان** و**فلورا تريستان** بـ **ريشليو** و**دانتون** Danton و**لينين**، نرى أنّ عظمتهنّ ذاتيّةٌ خصوصًا: فهنّ مثلٌ عليا أكثر من كونهنّ مؤثّراتٍ تاريخيّاتٍ.

ينبثق الرجل العظيم من الجماهير وتحمله الظروف: بينما جماهير النساء على هامش التاريخ، والظروف بالنسبة لكلٍّ منهنّ عقبةٌ وليست واسطةً. ولتغيير وجه العالم، ينبغي أوّلًا أن يكون المرء راسخًا فيه بقوّةٍ؛ لكنّ النساء المتجذّرات بقوّةٍ في المجتمع هنّ تينك الخاضعات؛ بالتالي تبدو الطموحة والبطلة وحوشًا غريبةً، إلّا إن اختارتهما إرادةٌ إلهيّةٌ للعمل، وفي هذه الحالة تُظهران مقدرةً كالرجال. فقط منذ أن بدأت النساء يشعرن أنّهنّ في موطنهنّ على هذه الأرض ظهرت **روزا لوكسمبرغ** و**مدام كوري** Mme Curie. لقد أثبتن بشكلٍ ساطعٍ أنّ دونيّة النساء ليست سبب تفاهتهنّ التاريخيّة: لكنّ تفاهتهنّ التاريخيّة هي التي كرّست دونيّتهنّ[89].

الواقع صارخٌ في الميدان الثقافي، وهو الذي نجحن في إثبات أنفسهنّ فيه بالشكل الأفضل. فارتبط مصيرهنّ بعمقٍ بمصير الآداب والفنون؛ وكانت النساء أصلًا لدى الشعوب الجرمانيّة يتولّين وظائف النبيّات والكاهنات؛ ولأنّهنّ على هامش العالم، يلتفت الرجال نحوهن عندما يبذلن جهدًا بواسطة الثقافة لعبور حدود عالمهن والوصول إلى ما هو شيءٌ آخر. أدّت الصوفيّة المجامِلة، والفضول الإنساني، وتذوّق الجمال الذي ازدهر في عصر النهضة الإيطاليّة، وتكلّف القرن السابع عشر، والمثاليّة التقدّميّة للقرن الثامن عشر،

89- من اللافت أنّ في باريس، من أصل حوالي ألف تمثالٍ (إن استثنينا الملكات اللواتي يشكّلن لسببٍ معماريٍّ بحتٍ تيجان أعمدة اللوكسمبورغ)، لا يوجد سوى عشرةٍ مخصّصةٍ لنساء. ثلاثة لجان دارك. والبقيّة هنّ مدام دو سيفور، وجورج صاند، وسارة برنارد، ومدام بوسيكو، والبارونة دو هيرش، وماريا دريم، وروزا بونور.

إلى تمجيدٍ للأنوثة بأشكالٍ مختلفةٍ. فالمرأة إذًا هي القطب الرئيس للشّعر، ومادّة العمل الفنّي؛ و تسمح لها أوقات الفراغ التي تملكها بتكريس نفسها لمتَع الفكر: فهي ملهِمة الكاتب، وحَكَمه، وجمهوره، وتصبح منافسته؛ وهي غالبًا من ترجّح نمطًا من الحساسيّة، وأخلاقًا تغذّي القلوب المذكّرة، وبالتالي تتدخّل في مصيرها هي: وتعليم النساء انتصارٌ أنثويٌّ. ومع ذلك، إذا كان هذا الدور الجماعي الذي تلعبه النساء المثقفات هامًّا، فمساهماتهنّ الفرديّة ذات قيمةٍ أقلّ بوجه الإجمال. ولأنّ المرأة ليست منخرطةً في العمل فلديها مكانٌ مميّزٌ في مجالات الفكر والفنّ؛ لكنّ المنبع الحيوي للفنّ والفكر هو العمل. لا يلائم من ترغب بإعادة خلق العالم أن توضع على هامشه: هنا أيضًا لكي تبرز إلى ما بعد المعطى، يجب أوّلًا أن تكون متجذّرًا بعمقٍ. فالإنجازات الفرديّة مستحيلةٌ تقريبًا في الفئات البشرية الموضوعة بشكلٍ جماعيٍّ في وضعٍ أدنى. كانت **ماري بشكيرتشيف** تسأل: «أين تريدون أن نذهب بتنانير؟». **وستندال**: «كلّ العباقرة الذين يولدون نساءً ضاعوا لسوء حظّ الجمهور». في الحقيقة، لا يولد المرء عبقريًّا: بل يصبح كذلك؛ وقد فقد وضع المرأة حتّى الآن هذه الإمكانيّة المستحيلة.

ويستخرج أعداء الحركة النسويّة من مثال التاريخ حجّتين متناقضتين: أولًا لم تصنع النساء أبدًا شيئًا عظيمًا؛ وثانيًا لم يمنع وضع المرأة أبدًا ازدهار شخصيّاتٍ نسائيّةٍ عظيمةٍ. هناك خبثٌ في هاتين الحجّتين؛ فنجاح بعض ذوات الامتيازات لا يعوّض ولا يعذر الانحطاط المنهجي للمجموعة؛ وكون هذه النجاحات نادرةً ومحدودةً يبرهن تحديدًا على أنّ الظروف غير مؤاتيةٍ لها. وكما أكّدت **كريستين دو بيزان وبولان دولابار وكوندورسيه وستيوارت ميل وستندال**، لم تنل المرأة فرصها في أيّ مجالٍ. ولهذا يطالب عددٌ كبيرٌ منهنّ اليوم بوضعٍ جديدٍ؛ ومرّةً أخرى، لا يطالبن بتمجيدهنّ ضمن أنوثتهنّ: يرغبن في أن يتفوق التسامي على المثوليّة في ذاتهنّ كما في مجمل الإنسانيّة؛ يرغبن أن يُمنحن أخيرًا الحقوق المعنويّة والإمكانيّات الملموسة التي لا تكون الحريّة دون تضافرها سوى خدعةٍ[90].

هذه الإرادة في طريقها للاكتمال. لكنّ الفترة التي نجتازها فترةٌ انتقاليّةٌ؛ هذا العالم

90- هنا أيضًا يستغلّ معادو الحركة النسويّة الغموض. أحيانًا يعتبرون الحرية المجردة لا شيء، ويتحمسون للدور الكبير الملموس الذي تستطيع المرأة المستعبَدة أن تلعبه في هذا العالم: بماذا تطالب إذًا؟ وأحيانًا يتجاهلون أن التساهل السلبي لا يفتح أيّة إمكانيةٍ ملموسةٍ ويأخذون على النساء المتحررات بشكلٍ مجرّدٍ أنّهنّ لم يقمن بإثبات إمكاناتهنّ.

الذي كان دومًا للرجال ما يزال بين أيديهم؛ ما تزال معظم تشريعات الحضارة الأبويّة وقيمها قائمةً. لم يُعترَف بعدُ في كلّ مكانٍ بكامل الحقوق المعنويّة للنساء: في سويسرا، لا يقترعن بعدُ؛ وفي فرنسا يحافظ قانون 1942 على امتيازات الزوج بشكلٍ مُخفَّفٍ. وذكرنا للتوّ أنّ الحقوق المعنويّة لم تكن أبدًا كافيةً لتؤمّن للمرأة تأثيرًا ملموسًا على العالم: ما زالت المساواة الحقيقية بين الجنسين اليوم غير موجودةٍ.

فأولًا، ظلّت أعباء الزواج أكبر على المرأة بكثيرٍ منها على الرجل. رأينا أنّه تمّ تخفيف عبوديّة الأمومة باستعمال «تحديد النسل» بشكلٍ علنيٍّ أو مستترٍ؛ لكن لم تنتشر ممارسته عالميًّا ولم يطبّق بشكلٍ دقيقٍ؛ بما أنّ الإجهاض ممنوعٌ رسميًّا، فالعديد من النساء إمّا يؤذين صحّتهنّ بأساليب إجهاضٍ غير منضبطةٍ، أو ترهقهنّ الأمومة المتكرّرة. وما تزال المرأة تتحمّل وحدها تقريبًا عبء العناية بالأطفال والاهتمام بالمنزل. في فرنسا بشكلٍ خاصٍّ، التقاليد المعارضة للحركة النسويّة عنيدةٌ بحيث يعتقد الرجل أنّ قدره انحطّ إذا ساهم في مهامٍ كانت حصرًا على النساء. ينتج عن ذلك أنّ المرأة تستطيع التوفيق بين حياتها الأسريّة ودورها كعاملةٍ بشكلٍ أصعب مما يفعل الرجل. وعندما يطلب منها المجتمع هذا الجهد تكون حياتها صعبةً أكثر بكثيرٍ من حياة زوجها.

لنأخذ بالاعتبار مثلًا وضع الفلّاحات. فهنّ يشكّلن في فرنسا غالبية النساء اللواتي يساهمن في العمل المنتج، وهنّ على الأغلب متزوجاتٌ. في الواقع تظلّ العازبة غالبًا خادمةً في المنزل الأبويّ أو في منزل أخٍ أو أختٍ؛ ولا تصبح ربة منزلٍ إلّا بقبولها سيطرة زوجٍ؛ وتعطيها الأعراف والتقاليد أدوارًا تختلف من منطقةٍ لأخرى: فالفلّاحة النورمندية تترأس المائدة بينما الفلّاحة الكورسيكية لا تجلس إلى المائدة مع الرجال؛ ولكنّها على كلّ حالٍ تلعب دورًا هامًا للغاية في اقتصاد المنزل، فتشارك في مسؤوليات الرجل، وتشترك معه في مصالحه، وتتقاسم الملكية معه؛ وهي محترَمةٌ وهي التي تحكم فعليًّا غالبًا: يذكّرنا وضعها بالوضع الذي كانت عليه في المجموعات الزراعيّة القديمة. ولديها غالبًا نفس مكانة زوجها المعنويّة؛ لكنّ وضعها الواقعي أشدّ قساوةً بكثيرٍ. فالعناية بالبستان، وخمّ الدجاج، وحظيرة الأغنام، والخنازير، مفروضةٌ عليها حصرًا؛ وتساهم في الأشغال الكبيرة: العناية بالإصطبل، وفرش الأسمدة، والبذار، والفلاحة، والعزق، والحصاد؛ إنّها تعزق، وتنتزع

الأعشاب الضارة، وتحصد، وتقطف العنب، وتساعد أحيانًا في تحميل وتفريغ عربات القش، والعلف، والحطب، والعيدان، والحليب، إلخ... عدا عن ذلك تُعدّ الطعام، وتعتني بالمنزل: الغسيل، والترقيع، إلخ... وتحمل أعباء الأمومة الشاقة والعناية بالأطفال. فتنهض في الفجر، وتضع الغذاء للدواجن والحيوانات الصغيرة، وتقدّم الوجبة الأولى للرجال، وتعتني بالأطفال وتذهب للعمل في الحقول أو في الغابات أو في بستان الخضار؛ وتملأ الماء من النبع، وتقدّم الوجبة الثانية، وتغسل الأطباق، وتعمل في الحقول ثانيةً حتى العشاء، وبعد الوجبة الأخيرة تقضي الأمسية ترتق، وتنظف، وتفرط الذرة، إلخ.. وبما أنّها لا تملك فرصةً للاهتمام بصحتها حتى أثناء الحمل، يتشوّه شكلها بسرعةٍ، وتذوي قبل أوانها وتُستَهلَك، وتنهشها الأمراض. والتعويضات البسيطة التي يحصل عليها الرجل بين الفينة والأخرى في الحياة الاجتماعية ممنوعةٌ عليها: فهو يذهب للمدينة يوم الأحد وأيام الأعياد الشعبية ويلتقي برجالٍ آخرين، ويرتاد المقهى، ويشرب، ويلعب الورق، ويصيد ويقنص. وتبقى هي في المزرعة ولا تعرف أيّة تسليةٍ. الفلّاحات الموسرات فقط اللواتي يستعنّ بخادماتٍ، أو المعفيّات من العمل في الحقول، يعشن حياةً متوازنةً لحسن الحظ: فهنّ محترماتٌ اجتماعيًّا ويتمتعن بسطوةٍ كبيرةٍ في المنزل دون أن يسحقهنّ العمل. لكن العمل الريفي يجعل المرأة معظم الوقت بمنزلة حيوانات الركوب.

كانت هناك على مرّ الزمان امتيازاتٌ للتاجرة وربة العمل التي تدير مؤسّسةً صغيرةً؛ هنّ الوحيدات اللائي منحهنّ التشريع أهليّةً مدنيّةً منذ العصور الوسطى؛ فالبقّالة، وبائعة اللبن، وصاحبة الفندق، وبائعة التبغ، لديهنّ مكانةٌ مساويةٌ لمكانة الرجل؛ عازباتٍ كنّ أم أرامل، هنّ بمفردهنّ مبرّرٌ اجتماعيٌّ؛ وتملك المتزوجات نفس استقلال أزواجهنّ. وهنّ محظوظاتٌ لأنّ عملهنّ يقع في نفس مكان سكنهنّ ولا يأخذ كلّ وقتهنّ. يختلف الأمر بالنسبة للعاملة، والمستخدمة، والسكرتيرة، والبائعة، اللواتي يعملن خارجًا. من الصعب عليهن للغاية التوفيق بين مهنتهنّ وأعباء المنزل (يحتاج التسوّق وإعداد الطعام والتنظيف والاعتناء على الأقلّ إلى ثلاث ساعاتٍ ونصفٍ من العمل اليومي وست ساعاتٍ يوم الأحد؛ وهو رقمٌ كبيرٌ عندما يضاف إلى عدد ساعات المعمل أو المكتب). أما بالنسبة إلى الأعمال الحرة، فحتى لو كان لدى المحاميات أو الطبيبات أو المدرّسات من يساعدهنّ بعض الشيء في المنزل،

فالبيت والأطفال يمثّلون أيضًا بالنسبة لهنّ أعباءً وهمومًا هي إعاقةٌ كبيرةٌ. أصبح عمل المنزل في أمريكا أسهل باستعمال التقنيات الحديثة؛ لكن مظهر العاملة والأناقة المطلوبة منها يفرضان عليها عبوديّةً أخرى؛ وتبقى مسؤولةً عن المنزل والأطفال. من جهةٍ أخرى، لدى المرأة التي تبحث عن استقلاليتها عبر العمل فرصٌ أقلّ بكثيرٍ من منافسيها الذكور. وراتبها أقلّ من راتب الرجال في كثيرٍ من المهن؛ ومهامّها أقلّ تخصّصًا وبالتالي أقلّ أجرًا من أجر العامل المتخصّص؛ وعند تساوي المهام يكون أجرها أقلّ. وبما أنها حديثة التواجد في عالم الذكور فلديها إمكانياتٌ أقل منهم في النجاح. وينفر الرجال والنساء أيضًا من الخضوع لأوامر امرأةٍ؛ إذ يثقون بالرجل دائمًا أكثر؛ أن يكون المرء امرأةً لهو أمرٌ خاصٌّ إن لم يكن عيبًا. ومن المفيد للمرأة الاعتماد على دعمٍ ذكوريٍّ إن أرادت «الوصول». فالرجال الذين يحتلون أكثر المناصب ميزةً هم الذين يمسكون بالوظائف الأهمّ. من المهمّ أن نشير إلى أنّ الرجال والنساء يشكّلون اقتصاديًّا فئتين[91].

يتحكّم بوضع المرأة بقاء تقاليد مغرقةٍ في القِدم بإصرارٍ في الحضارة الحديثة التي هي في طور التشكّل. وهذا ما يتجاهله المراقبون المتعجّلون الذين يعتبرون المرأة أدنى من الفرص المقدّمة لها اليوم، أو الذين لا يرون في هذه الفرص سوى محاولاتٍ خطيرةٍ. الحقيقة أنّ وضعها غير متوازنٍ، ولهذا السبب من الصعب جدًّا عليها التأقلم معه.

نفتح للمرأة المصانع والمكاتب والكلّيات ولكننا نستمر في اعتبار الزواج بالنسبة لها أفضل مهنةٍ مشرّفةٍ تعفيها من كلّ مساهمةٍ في الحياة الجماعيّة. وكما في الحضارات البدائية، عملية الحب بالنسبة لها خدمةٌ لها الحق في أن تتقاضى عنها أجرًا بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ.

وما عدا في الاتّحاد السوفييتي[92]، يسمح للمرأة الحديثة في كلّ مكانٍ أن تنظر إلى جسدها

91- في أمريكا، تنتهي الثروات الكبيرة غالبًا للوقوع بين يدي النساء، الأصغر سنًا من أزواجهنّ، فيعشن بعدهم ويرثنهم؛ لكنهنّ يكنّ عندئذٍ مسناتٍ ونادرًا ما يأخذن المبادرة للقيام باستثماراتٍ جديدةٍ؛ فيتصرفن كمنتفعاتٍ أكثر منهن كمالكاتٍ. في الواقع الرجال هم الذين يتصرفون برؤوس الأموال. على كل حالٍ، لا يشكّل هؤلاء الأغنياء أصحاب الامتيازات سوى أقلّيةٍ صغيرةٍ. في أمريكا أكثر منه في أوروبا، من المستحيل تقريبًا بالنسبة لامرأةٍ أن تصل إلى مركزٍ مرتفعٍ كمحاميةٍ أو طبيبةٍ إلخ...

92- تبعًا للمذهب الرسمي على الأقلّ.

كرأس مالٍ للاستثمار. يتساهلون مع البغاء[93]، ويشجعون الغزل. ويُسمح للمرأة المتزوجة أن يعيلها زوجها؛ عدا عن ذلك تُضفى عليها مهابةٌ اجتماعيةٌ أكثر من التي تمنح للعازبة. ولا تمنح الأعراف هذه الأخيرة إمكانياتٍ جنسيةً مماثلة لتلك الممنوحة للعازب؛ وتمنع من الأمومة تقريبًا بشكلٍ خاصٍّ، فتبقى الأم العازبة مثار فضيحةٍ. كيف لا تحتفظ أسطورة سندريلا[94] بكل قيمتها؟ كلّ شيءٍ يشجّع الشابة على انتظار الثروة والسعادة من «أمير الأحلام» بدل أن تحاول وحدها اكتسابهما بشكلٍ صعبٍ وغير أكيدٍ. يمكنها بشكلٍ خاصٍّ أن تأمل في الوصول بفضله إلى طبقةٍ أعلى من طبقتها، وهي معجزةٌ لا يمنحها إياها عملها مدى الحياة. لكنّ مثل هذا الأمل ضارٌّ لأنّه يوزّع قواها واهتماماتها[95]؛ ربما كان هذا التوزيع أكبر إعاقةٍ للمرأة. ما يزال الأبوان يربيان ابنتهما بغرض الزواج بدل أن يشجّعا تطوّرها الشخصي؛ وترى في ذلك ميزاتٍ بحيث تتمناه هي نفسها؛ ينجم عن ذلك أن تصبح غالبًا أقلّ تخصّصًا، وأقلّ تأهيلًا من إخوتها، وتنخرط في مهنتها أقلّ منهم؛ وبذلك تكرّس نفسها لأن تكون أدنى؛ وتُغلق الدارة المعيبة: فتقوّي هذه الدونيّة رغبتها في إيجاد زوجٍ. وهناك كلفةٌ مقابل كلّ فائدةٍ؛ لكنّ إذا كانت الكلفة ثقيلةً جدًا، لا تعود الفائدة تبدو سوى عبوديةٍ؛ بالنسبة لغالبية العمال، العمل اليوم مشقّةٌ بغيضةٌ: وبالنسبة للمرأة لا يعوّضها اكتساب ملموسٌ لكرامتها الاجتماعية، وحرية سلوكها، واستقلاليتها الاقتصادية؛ من الطبيعي أن عددًا من العاملات والموظّفات لا يرين في حقّ العمل سوى فرضٍ سيحرّرهنّ الزواج منه. مع ذلك بما أنّ المرأة وعت ذاتها واستطاعت التحرّر أيضًا من الزواج بالعمل، فهي كذلك لا تقبل الخضوع طائعةً. ما تتمناه هو أن تستطيع التوفيق بين حياتها الأسرية ومهنتها دون أن ترهق نفسها في سبيل ذلك. حتّى أنّه، طالما ظلّت إغراءات السهولة موجودةً ـ بسبب عدم المساواة الاقتصادية التي تمنح

93- في البلدان الأنغلوساكسونية لم يقنّن البغاء أبدًا. حتى عام 1900 لم يكن «القانون العام» الإنجليزي والأمريكي يعتبره جنحةً عندما كان يثير فضيحةً ويخلق فوضىً. منذ ذلك الحين تم قمعه بصرامةٍ متفاوتةٍ، دون نجاحٍ مؤكدٍ، في إنجلترا وفي مختلف ولايات الولايات المتحدة الأمريكية التي تتفاوت تشريعاتها بهذا الشأن. في فرنسا إثر حملةٍ طويلةٍ تهدف إلى إلغائه قضى قانونٌ 13 نيسان/ أبريل 1946 بإغلاق بيوت الدعارة وتشديد مكافحة القوادة: «باعتبار وجود هذ البيوت لا يتوافق مع المبادئ الأساس للكرامة الإنسانية والدور الموكل للمرأة في المجتمع الحديث...». مع ذلك ظلّ البغاء يمارس. لا يمكن بالطبع تغيير الوضع عبر إجراءاتٍ سلبيّةٍ ومنافقةٍ.

94- راجع فيليب ويلي Philipp Willie، جيل الأفاعي.

95- سنعود مطوّلاً إلى هذه النقطة في الجزء الثاني.

بعض الأشخاص امتيازاتٍ والحقّ الممنوح للمرأة ببيع نفسها لأحد أصحاب الامتيازات هؤلاء ـ فهي بحاجةٍ لجهدٍ أخلاقيٍّ أكبر من الذكر لتختار طريق الاستقلال. لم يُفهم كما يجب أنّ الإغراء أيضًا هو عقبةٌ، وإحدى أخطر العقبات أيضًا. يضاف إليها هنا خدعةٌ بما أنّه في الواقع سيكون هناك رابحةٌ واحدةٌ من ضمن آلافٍ في يانصيب صفقة الزواج الجيّدة. يدعو العصر الحالي النساء إلى العمل ويرغمهنّ عليه حتّى؛ لكنه يلوّح لهنّ بفراديس من البطالة والمتع: ويشيد باللواتي نلن هذا الحظّ أكثر من تينك اللواتي بقين في هذا العالم الأرضي.

كلّ شيءٍ يجعل النساء يرغبن بحرارةٍ في أن يعجبن الرجال: الامتياز الاقتصادي الذي يملكه الرجال، وقيمتهم الاجتماعيّة، ومكانة الزواج، وفائدة الدعم الذكوري. ما زلن بالمجمل في وضع التبعيّة. ينتج عن ذلك أنّ المرأة تعرف وتختار نفسها ليس لأنّها موجودةٌ لذاتها ولكن كما يحدّدها الرجل. علينا إذًا أن نصفها أوّلًا كما يحلم بها الرجال بما أنّ «كونها من أجل الرجال» هو أحد العوامل الأساس لوضعها الملموس.

القسم الثالث

الأساطير

الفصل الأول

أظهر لنا التاريخ أن الرجال أمسكوا دومًا بجميع السلطات الفعليّة؛ ووجدوا منذ بداية الزمن الأبوي أنّ من المفيد إبقاء المرأة في وضع التبعيّة؛ فوُضِعت شرائعهم ضدّها؛ وهكذا غدت فعليًا الآخر. كان هذا الوضع يخدم مصالح الذكور الاقتصادية؛ لكنه كان مناسبًا أيضًا لادّعاءاتهم الأنطولوجيّة والأخلاقيّة. عندما يحاول الفرد تأكيد ذاته، يكون الآخر الذي يحدّه وينكره ضروريًا له مع ذلك: فلا يبلغ ذاته إلّا من خلال هذه الحقيقة المختلفة عنه. ولهذا فحياة الرجل ليست أبدًا إشباعًا وراحةً، إنّها نقصٌ وحركةٌ، إنها صراعٌ. يصادف الرجل الطبيعة أمام ذاته؛ يؤثّر عليها، يحاول امتلاكها. لكنّها لا تشبعه. فإمّا أنّها لا تتحقّق إلّا كمعارضةٍ معنويّةٍ بحتةٍ، إذ هي عقبةٌ وتظلّ غريبةً؛ أو أنّها تخضع بشكلٍ سلبيٍّ لرغبة الرجل وتتركه يستوعبها؛ فلا يملكها إلّا حين يستهلكها، أي حين يخرّبها. وفي الحالين، يبقى وحيدًا؛ إنّه وحيدٌ حين يمسك حجرًا، وحيدٌ عندما يهضم ثمرةً. ليس هناك وجودٌ *للآخر* إلّا عنما يكون *الآخر* ذاته موجودًا لنفسه: أي أنّ الغيريّة الحقيقية هي غيرية إدراكٍ *منفصلٍ* عن إدراكي ومماثلٍ له. وجود رجالٍ آخرين ينتزع كلّ رجلٍ من مثوليته ويسمح له بإكمال حقيقة وجوده، وبأن يكتمل كتسامٍ، وكانفلاتٍ نحو الموضوع، كمشروعٍ. لكنّ هذه الحرية الغريبة، التي تؤكد حرّيتي، تدخل أيضًا في صراعٍ معها: إنّها مأساة الوعي التعيس؛ كلّ وعي يريد أن يضع نفسه وحده كذاتٍ سيّدةٍ. كلّ وعيٍ يحاول أن يكتمل بجعل الآخر عبدًا. لكن العبد ضمن العمل والخوف يشعر أنّه هو أيضًا أساسٌ، وبانعكاسٍ جدليٍّ، يبدو السيّد غير أساسٍ. يمكن تجاوز

المأساة بأن يتعرّف كلّ مخلوقٍ بحريّةٍ على نفسه في *الآخر*، واضعًا نفسه و*الآخر* كموضوعٍ وذاتٍ معًا في حركةٍ متبادلةٍ. لكنّ الصداقة والكرم اللذين يحقّقان هذا التعرّف فعلًا ليسا فضيلتين سهلتين؛ إنهما بالتأكيد أعلى اكتمالٍ للإنسان، بذلك يجد نفسه في حقيقته: لكنّ هذه الحقيقة هي حقيقة صراعٍ يبدأ وينتهي دون توقّفٍ؛ إنها تفرض على الإنسان أن يتغلب على نفسه في كلّ لحظةٍ. يمكن القول أيضًا بلغةٍ أخرى إنّ الإنسان يبلغ موقفًا أخلاقيًّا أصليًّا عندما يتخلّى عن أن «يكون» كي يضطلع بوجوده؛ بهذا التحوّل يتخلّى أيضًا عن كلّ تملّكٍ، لأنّ التملّك هو نمطٌ من البحث عن الكيان؛ لكنّ التحوّل الذي يبلغ الحكمة الحقيقيّة عبره لا يتمّ أبدًا، يجب القيام به باستمرارٍ، وهو يتطلّب توتّرًا مستمرًّا. بحيث أن الإنسان غير القادر على أن يكتمل ضمن الوحدة هو في خطرٍ مستمرٍّ في علاقاته مع أقرانه: فحياته عمليّةٌ شاقّةٌ نجاحها غير مؤكّدٍ أبدًا.

لكنه لا يحب الصعوبة؛ ويخشى الخطر. ويطمح بشكلٍ متناقضٍ إلى الحياة وإلى الراحة، إلى الوجود والكينونة؛ يعرف جيّدًا أنّ «قلق الروح» هو ثمن تطوّره، وأنّ بعده عن الموضوع هو ثمن وجوده نفسه؛ لكنه يحلم بالطمأنينة ضمن القلق وباكتمالٍ يسكنه الشعور مع ذلك. هذا الحلم المتجسّد، هو المرأة تحديدًا؛ إنّها الوسيط المُشتَهى بين الطبيعة الغريبة عن الرجل والشبيه الذي يماثله كثيرًا[96]. إنها لا تواجهه بالصمت عدوّ الطبيعة، ولا بإصرارٍ على اعترافٍ متبادلٍ؛ وميزتها الفريدة هي أنّها شعورٌ ومع ذلك يبدو امتلاكها جسديًا أمرًا ممكنًا. بفضلها، هناك وسيلةٌ للإفلات من الجدليّة المحتومة للسيّد والعبد النابعة من تبادليّة الحرّيات.

رأينا أنّه لم يكن هناك أوّلًا نساءٌ متحرّراتٌ استعبدهنّ الذكور وأنّ تقسيم الجنسين لم يؤسّس تقسيمًا إلى طبقاتٍ. مماثلة المرأة بالعبد خطأٌ؛ كان هناك نساءٌ بين العبيد، ولكن كانت هناك دومًا نساءٌ حرّاتٌ، أي لديهنّ مهابةٌ دينيةٌ واجتماعيةٌ: كنّ يقبلن سيادة الرجل ولم يكن هذا يشعر أنّه مهدّدٌ بثورةٍ قد تحوّله بدوره إلى موضوعٍ. بذلك كانت المرأة

96- كتب ميشيل كروج Michel Carrouges: «... المرأة ليست تكرارًا عبثيًّا للرجل لكن المكان المسحور الذي يكتمل فيه الاتحاد الحيوي للرجل بالطبيعة. إن اختفت سيبقى الرجال وحيدين، غريبين دون جواز سفرٍ في عالمٍ باردٍ. هي الأرض نفسها مرفوعةً إلى قمة الحياة، الأرض التي أصبحت حساسةً ومرحةً؛ ومن دونها، تصبح الأرض بالنسبة للرجل خرساء ميّتةً». (سلطات المرأة، كاييه دي سود Cahiers du Sude، العدد 292).

تبدو غير الأساس الذي لا ينقلب أبدًا إلى أساسٍ، كالآخر المطلق، دون تبادليّةٍ. تعبّر كلّ أساطير الخلق عن هذه القناعة التي تهمّ الذكور ومن بينها أسطورة التكوين، التي استمرّت في الحضارة الغربيّة عبر المسيحية. لم تُشكَّل حواء في الوقت نفسه مع الرجل؛ لم تُصنع من مادةٍ مختلفةٍ، ولا من نفس الطين الذي صُنع منه آدم: بل سُحِبت من ضلع الذكر الأوّل. حتى ولادتها لم تكن مستقلّةً؛ لم يختر الله تلقائيًا أن يخلقها من أجل ذاتها وكي تعبده بالمقابل: كرّسها للرجل؛ أعطاها لـ آدم كي ينقذه من وحدته، فأصلها وغايتها زوجها؛ هي تكمّله بشكل غير الأساس. وهكذا تبدو غنيمةً مميّزةً. إنّها الطبيعة التي ارتقت إلى شفافيّة الشعور، إنّها وعيٌ خاضع بشكلٍ طبيعيٍّ. وهذا هو الأمل الرائع الذي طالما وضعه الرجل في المرأة. إنّه يأمل أن يكتمل ككائنٍ بامتلاك كائنٍ آخر جسديًا، مؤكّدًا ذاته ضمن حرّيته عبر حرّيةٍ مطيعةٍ. لن يقبل أي رجلٍ أن يكون امرأةً، لكنّ الجميع يتمنّون وجود النساء. «لنشكر الله لأنّه خلق المرأة». «الطبيعة طيّبةٌ بما أنها أعطت الرجال المرأة». في هذه الجمل وجملٍ أخرى مماثلةٍ، يؤكّد الرجل مرّةً أخرى بسذاجةٍ متعجرفةٍ أنّ وجوده في هذا العالم هو أمرٌ محتّمٌ وحقٌّ، ووجود المرأة حادثٌ بسيطٌ: ولكنّه حادثٌ سعيدٌ. بظهورها كالآخر، تبدو المرأة في الوقت نفسه كاكتمالٍ للكينونة مقابل هذا الوجود الذي يشعر فيه الرجل بالعدم في ذاته؛ الآخر مطروحٌ بذاته، أي ككائنٍ بما أنه يُطرَح كموضوعٍ في نظر الذات. ويتجسّد في المرأة إيجابيًا النقص الذي يحمله الكائن في قلبه، ويأمل الرجل تحقيق ذاته بمحاولته إدراك نفسه عبرها.

مع ذلك لم تمثّل بالنسبة له التجسيد الوحيد للآخر، ولم تحتفظ على مرّ التاريخ بنفس الأهميّة دومًا. هناك أوقاتٌ تفوّقت عليها فيها أوثانٌ أخرى. عندما تبتلع المدينة والدولة المواطنَ، لا تعود لديه إمكانيّة الاهتمام بمصيره الخاصّ. للاسبارطيّة وضعٌ أعلى من وضع النساء الإغريقيات الأخريات، لأنّها مكرّسةٌ للدولة. ولكنّها أيضًا لم تعد موضع أيّ حلمٍ ذكوريٍّ. فعبادة الزعيم، سواءً كان نابوليون، أو موسوليني، أو هتلر، تقصي كلّ عبادةٍ أخرى. في الديكتاتوريّات العسكريّة، والأنظمة الشموليّة، لا تعود المرأة شيئًا مميّزًا. نفهم أن تُمجَّد المرأة في بلدٍ غنيٍّ لا يعرف مواطنوه كثيرًا أيّ معنىً يعطونه لحياتهم: وهذا ما يحدث في أمريكا. بالمقابل، الإيديولوجيات الاشتراكية، التي تطالب بتماثل كلّ الكائنات البشرية،

ترفض الآن وفي المستقبل أن تكون أيّ فئةٍ إنسانيّةٍ شيئًا أو معبودًا؛ لا يوجد مكانٌ للآخر في المجتمع الديموقراطي الحقيقي الذي يعلن عنه **ماركس**. مع ذلك قليل من الرجال يتطابقون تمامًا مع الجندي أو المناضل الذي اختاروا أن يكونوه؛ وبقدر ما يظلّون أفرادًا، تبقى للمرأة بنظرهم قيمةٌ خاصّةٌ. رأيت رسائل كتبها جنودٌ ألمانٌ لمومساتٍ فرنسيّاتٍ بدت فيها الشاعريّة واضحةً رغم النازيّة. كتاب شيوعيون مثل **آراغون Aragon** في فرنسا، **وفيتوريني Vittorini** في إيطاليا، يعطون في الصف الأول في أعمالهم مكانًا للمرأة، الحبيبة والأم. ربما ستتلاشى أسطورة المرأة ذات يومٍ: كلّما أكّدت النساء أنفسهنّ كإنسانٍ، كلّما ماتت فيهنّ صفة الآخر الرائعة. ولكنّها ما تزال اليوم موجودةً في قلب كلّ الرجال.

تتطلّب كلّ أسطورةٍ وجود ذاتٍ تطلق آمالها ومخاوفها نحو سماءٍ متساميةٍ. وبما أن النساء لا يطرحن أنفسهنّ كذاتٍ فلم يخلقن الأسطورة الذكريّة التي تنعكس فيها مشاريعهنّ؛ ليس لديهنّ ديانةٌ ولا شعرٌ يخصّهنّ: ما زلن يحلمن عبر أحلام الرجال. ويعبدن الآلهة التي صنعها الذكور. لقد شكّل هؤلاء لتمجيد أنفسهم صورًا ذكوريّةً كبيرةً: **هرقل**، **بروميثيه**، **وبرسيفال**؛ وليس للمرأة في حياة هؤلاء الأبطال سوى دورٍ ثانويٍّ. هناك دون شكٍّ صورٌ مرسومةٌ للرجل كما يؤخذ ضمن علاقته بالمرأة: الأب، والمغوي، والزوج، والغيور، والابن الطيّب، والابن السيّئ؛ لكنّ الرجال أيضًا هم من وضعوها، ولا تبلغ مكانة الأسطورة؛ ليست سوى كليشيهاتٍ. بينما المرأة محدّدَةٌ بشكلٍ نهائيٍّ ضمن علاقتها بالرجل. ويتجلّى عدم تناظر الفئتين الذكر والأنثى في التشكّل وحيد الجانب للأساطير الجنسية. يقال أحيانًا «الجنس» للإشارة إلى المرأة؛ هي الجسد، ملذّاته ومخاطره؛ أن يكون الرجل هو الجنسي والشهواني بالنسبة للمرأة حقيقةٌ لم تُعلَن أبدًا لأنّه لا يوجد من يعلنها. تمثيل العالم كالعالم نفسه هو عمل الرجال؛ إنهم يصفونه من وجهة نظرهم التي يخلطون بينها وبين الحقيقة المطلقة.

من الصعب دائمًا وصف أسطورةٍ؛ إذ لا يمكن إدراكها ولا الإحاطة بها، إنّها تلاحق السرائر دون أن تقف أمامها كشيءٍ متحجّرٍ. إنّها شيءٌ متقلّبٌ ومتناقضٌ بحيث لا نكشف في البدء وحدته: **دليلة وجوديث**، **أسبازيا ولوكريس**، **باندورا وأثينا**، المرأة هي **حوّاء والعذراء مريم** معًا. إنها معبودةٌ، خادمةٌ، نبع الحياة، قوى الظلام؛ هي صمت الحقيقة الأصلي، وهي

حيلةٌ وثرثرةٌ وكذبٌ؛ هي المُداوي والساحرة؛ وهي غنيمة الرجل، وهي هلاكه، هي كلّ ما لا يكونه وما يريد أن يحصل عليه، إنكاره وسبب وجوده.

يقول **كيركغارد** Kierkegaard[97]: «أن تكون امرأةً هو شيءٌ غريبٌ للغاية، مختلطٌ للغاية، ومعقّدٌ للغاية، بحيث أنّ أيّ خبرٍ لا يمكنه التعبير عنه وأنّ المُسنَدات المتعدّدة التي نرغب في استخدامها ستتناقض بطريقةٍ لا يتحمّلها سوى امرأةٍ». يأتي هذا من أنّها غير معتبَرةٍ بشكلٍ إيجابيٍّ كما هي في ذاتها: ولكن بشكلٍ سلبيٍّ كما تبدو للرجل. لأنّه إن كان هناك «آخرون» غير المرأة فهي تُعتَبَر دومًا الآخر. وغموضها هو نفس غموض فكرة الآخر: هو غموض الوضع الإنساني كما يُعرَّف ضمن علاقته بالآخر. قلنا سابقًا إنّ الآخر هو «الشر»؛ ولكنّه ضروريٌّ «للخير»، ينقلب إلى «الخير»؛ من خلاله أصل إلى «الكلّ»، لكنّه هو ما يفصلني عنه؛ إنّه باب اللانهاية ومقدار محدوديّتي. ولهذا لا تمثّل المرأة أيّ مفهومٍ جامدٍ؛ من خلالها يكتمل العبور من الأمل إلى الفشل، من الكره إلى الحب، من الخير إلى الشرّ، ومن الشرّ إلى الخير دون حاجزٍ. وإن نظرنا إليها من أيّة زاويةٍ كانت، فأوّل ما يدهشنا هو هذا التجاذب.

يبحث الرجل في المرأة عن الآخر كطبيعةٍ وكشبيهه. لكننا نعلم بأيّ شعورٍ مزدوجٍ توحي الطبيعة للرجل. إنّه يستغلّها، لكنّها تسحقه، يولد منها ويموت فيها؛ وهي منبع كينونته والمملكة التي يخضعها لإرادته؛ إنّها غطاءٌ ماديٌّ يحبس الروح داخله، وهذه هي الحقيقة الكبرى؛ هي الحادث والفكرة، المحدوديّة والكلّ؛ هي ما يعارض الروح وهي الروح نفسها. حليفٌ وعدوٌّ، تبدو كالعماء المظلم الذي تنبجس منه الحياة، مثل هذه الحياة نفسها، ومثل الحياة الثانية التي تتطاول نحوها: تلخّص المرأة الطبيعة كأمٍّ وزوجةٍ وفكرةٍ؛ تختلط هذه الصور أحيانًا وتتعارض أحيانًا ولكلٍّ منها وجهان.

يغمس الرجل جذوره في الطبيعة؛ لقد وُجِد مثل الحيوانات والنباتات؛ ويعرف جيّدًا أنه غير موجودٍ إلّا بما أنّه يعيش. ولكن منذ مجيء الحكم الأبوي، اتّخذت الحياة في نظره مظهرًا مزدوجًا: فهي شعورٌ، وإرادةٌ، وتسامٍ، وهي روحٌ؛ وهي مادّةٌ، وسلبيّةٌ، ومثوليّةٌ، وهي جسدٌ. لقد أعلن **إشيل** Eschyle **وأرسطو وأبوقراط** أنّ الجوهر الذكري على الأرض كما على

97- مراحل على طريق الحياة.

جبل الأوليمب هو الخلّاق الحقيقي: خرج منه الشكل والعدد والحركة؛ وبواسطة **ديميتير** Dèmèter ـ إلهة الزراعة ـ تتعدّد السنابل، لكنّ أصل السنبلة وحقيقتها **في زيوس**؛ لا يُنظَر إلى خصوبة المرأة إلّا كفضيلةٍ سلبيّةٍ. إنّها الأرض والرجل هو البذرة، هي الماء وهو النار. طالما تخيّلوا الخلق كزواجٍ بين النار والماء؛ الرطوبة الساخنة هي التي تولد الكائنات الحيّة، الشمس زوجة البحر[98]؛ الشمس والنار آلهةٌ مذكّرةٌ؛ والبحر هو أحد اكثر رموز الأمومة شيوعًا في العالم. الماء ساكنٌ، يخضع لتأثير الأشعّة الملتهبة، التي تخصبه. وكذلك الحقل الذي ينبشه الحارث يتلقّى البذور في أخاديده ساكنًا. مع ذلك فدوره ضروريٌّ: هو الذي يغذّي البذرة، ويحميها ويعطيها مادّتها. ولهذا، حتّى عندما أزيحت الأم الكبرى عن عرشها استمرّ الرجل في عبادة آلهة الخصب[99]. يدين بمحاصيله وقطعانه وازدهاره لـ**سيبل** Cybèle[100]. يدين لها بحياته ذاتها. يمجّد الماء بقدر النار. كتب **غوته** Goethe في فاوست الثاني: «المجد للبحر! المجد لأمواجه المحاطة بالنار المقدّسة! المجد للموجة! المجد للنار! المجد للمغامرة الغريبة». ويمجّد الأرض: «السيدة الطينية» كما يسميها **بلاك** Blake. وينصح نبيٌّ هنديٌّ أتباعه بألّا يحرثوا الأرض لأنّها «خطيئةٌ أن نجرح أمّنا المشتركة أو نقطعها، ونمزّقها بأعمالٍ زراعيّةٍ... هل أتناول خنجرًا وأغرزه في بطن أمّي؟... كيف أجرؤ على بتر جسدها كي أصل إلى عظامها؟... كيف أجرؤ على قطع شعر أمّي؟». في وسط الهند يعتبر البايجا Baija أيضًا أنّ «تمزيق بطن أمّهم الأرض بالمحراث» خطيئةٌ. وبالعكس، يقول **إيشيل** عن أوديب إنّه «تجرّأ على بذر الأخدود المقدّس الذي تشكّل فيه». ويتحدّث **سوفوكليس** عن «الأخاديد الأبويّة» وعن «الحارث، سيّد حقلٍ بعيدٍ لا يزوره إلّا مرّةً في وقت البذار». وتقول الحبيبة في أغنيةٍ مصريّةٍ: «أنا الأرض!»، وفي النصوص الإسلاميّة تسمّى المرأة «حقلًا.. كرمًا ذا عناقيد». ويتحدّث القديس **فرانسوا داسيزي** في إحدى تسبيحاته عن «أختنا الأرض، أمّنا، التي تحفظنا وتعتني بنا، التي تنتج الفواكه المتنوّعة والزهور متعدّدة الألوان والعشب». ويهتف **ميشليه** Michelet وهو يأخذ حمّاماتٍ بالطمي في مدينة آكي: «أيتها الأم المشتركة

98- باللغة الفرنسية الشمس مذكر، والبحر مؤنث. (المترجمة)

99- في إحدى أناشيد هوميروس يقول: «سأغنّي للأرض، الأم الشاملة ذات القواعد المتينة، الجدّة الموقّرة التي تغذي على أرضها كل ما هو موجود». إشيل أيضًا يمجّد الأرض التي «تلد كلّ الكائنات، وتغذّيها ثم تتلقّى منها ثانيةً البذرة الخصبة».

100- الآلهة الأم لدى الإغريق والرومان. (المترجمة)

العزيزة! نحن واحدٌ. أتيت منك، وإليك أعود!...» حتّى أنّه كانت هناك عهودٌ ترسّخت فيها رومنسيّةٌ حيويّةٌ تتمنى انتصار الحياة على الروح: عندها تبدو خصوبة الأرض والمرأة السحرية أكثر روعةً من عمليّات الذكر المقصودة؛ بالتالي يحلم الرجل بالامتزاج من جديدٍ بالظلمات الأموميّة ليجد فيها المنابع الحقيقية لكيانه. الأم هي الجذر المغروز في أعماق الكون والذي تنضح منه العصارات، هي النبع الذي ينبثق منه الماء الحيويّ الذي هو أيضًا حليبٌ مغذٍّ، نبع دافئٌ، طينٌ مجبولٌ من التراب والماء، غنيٌّ بالقوى المولدة[101].

ولكن ثورة الرجل ضدّ وضعه الجسديّ شاملةٌ أكثر؛ إذ يعتبر نفسه إلهًا مخلوعًا: لعنته هي أنّه سقط من سماءٍ مضيئةٍ ومرتّبةٍ إلى ظلمات بطن الأم المشوّشة. هذه النار، هذا النفَس النشيط والنقي الذي يتمنى أن يرى نفسه فيه، المرأة هي التي تسجنه في طين الأرض. كان ليتمنى أن يكون مفيدًا كفكرةٍ نقيّةٍ، كالواحد، كالكلّ، الروح المطلقة؛ ويجد نفسه سجين جسدٍ محدودٍ، في مكانٍ وزمانٍ لم يخترهما، حيث لم يستدعِه أحدٌ، بلا فائدةٍ، مزعجًا، مبهمًا. الحدوث الجسديّ هو حدوث كيانه الذي يخضع له ضمن هجرانه، ضمن مجانيته غير المبرَّرة. وهو يكرّسه كذلك للموت. هذا الهلام المرتعش الذي يتكوّن في الرحم (الرحم السرّية المغلقة كقبرٍ) يذكّر كثيرًا بلزوجة الجيف الرخوة ما يجعله يدير وجهه عنه مرتعدًا. في كلّ مكانٍ حيث الحياة تتشكّل، كالإنتاش، والتخمّر، تثير الاشمئزاز لأنّها لا تتكوّن إلّا عندما تنفكّ؛ يفتح الجنين اللزج الحلقة التي تنتهي في التعفّن والموت. يشمئز الرجل من أنّه وُلِد، لأنّه يشمئزّ من المجّانيّة ومن الموت؛ يودّ لو يرفض قيوده الحيوانيّة؛ وبما أنّه وُلِد فللطبيعة القاتلة تأثيرٌ عليه. تحاط الولادة لدى البدائيين بالمحرّمات الصارمة؛ وبصورةٍ خاصّةٍ، يجب أن تُحرَق المشيمة بعنايةٍ أو تلقى في البحر، لأنّ أيّ شخصٍ يحصل عليها سيمسك بين يديه بمصير الوليد؛ هذا الغلاف الذي تشكّل الجنين ضمنه هو علامة تبعيّته؛ بإزالته نسمح للفرد بأن ينتزع نفسه من المزيج الحيّ ويتحقق ككائنٍ مستقلٍّ. أدران الولادة ترتد على الأمّ. يفرض سفر اللاويّين وكلّ التشريعات القديمة على الوالدة طقوس تطهيرٍ؛ وتحافظ احتفالات قبول المرأة في الكنيسة بعد الولادة في العديد من الأرياف على

101- «المرأة حرفيًا إيزيس، الطبيعة الخصبة. هي النهر وسرير النهر، الجذر والوردة، الأرض وشجرة الكرز، الكرمة والعنب». (م. كروج، المقال المذكور آنفًا).

هذه التقاليد. نعرف الحرج التلقائيّ الذي يشعر به الأطفال والشابات والرجال ويُغلّفونه غالبًا بالسخرية، أمام بطن امرأةٍ حاملٍ، أو أثداء مرضعٍ منتفخةٍ. في متحف دوبويترن، يتأمّل الفضوليون الأجنّة المصنوعة من الشمع والأجنّة المحفوظة بالاهتمام المرضيّ الذي يولونه لنبش قبرٍ. عبر كلّ الاحترام الذي يحيط به المجتمع وظيفة الحمل فهي تثير نفورًا تلقائيًا. حتّى إن ظلّ الصبي الصغير في طفولته الأولى متعلّقًا حسّيًا بجسد الأم، فعندما يكبر، ويندمج بالمجتمع ويعي وجوده الفردي، يخيفه هذا الجسد؛ ويرغب في تجاهله وألّا يرى في أمّه سوى شخصٍ معنويٍّ؛ وإن رغب في أن يفكّر أنّها نقيّةٌ وعفيفةٌ، فذلك من قبيل رفض الاعتراف بجسدها أكثر منه غيرة حبٍّ. يضطرب المراهق ويحمرّ إذا صادف أمه أو شقيقاته أو نساءً من أقاربه وهو يتنزّه مع رفاقه: لأنّ وجودهنّ يستدعيه إلى مناطق المثوليّة التي يريد الانطلاق منها؛ ويكشف الجذور التي يريد انتزاع نفسه منها. لثورة الغلام عندما تقبّله وتداعبه نفس المعنى؛ إنه يرفض الأسرة، والأم، والثدي الوالدي. إنه يرغب، مثل أثينا، أن ينبثق في عالم الكبار، مسلّحًا من الرأس إلى القدمين، لا يقهر[102]. كونه شُكِّل، ووُلِد، هي اللعنة التي تثقل مصيره، الشائبة التي تلطخ كيانه. وهذا إعلان موته. كانت عبادة البذار دائمًا مشتركةً مع عبادة الموتى. تبتلع الأرض ـ الأم في جوفها عظام أبنائها الموتى. النساء هنّ من يحيك القدر البشري ـ بارك Parques وموار Moires[103]؛ ولكنّهنّ أيضًا من يحسم خيوطه. في معظم المسرحيات الشعبية، الموت امرأةٌ، ويعود للنساء مهمّة البكاء على الموتى لأنّ الموت هو عملهنّ[104].

وهكذا للمرأة ـ الأم وجه الظلمات: إنها العماء الذي أتى منه كلّ شيءٍ وسيعود إليه كلّ شيءٍ يومًا؛ إنها العدم. في الليل تختلط مظاهر العالم المتعدّدة التي يكشفها النهار: ليل الروح الحبيسة في عموميّة المادة وعتامتها، ليل النوم واللاشيء. في قلب البحر ليلٌ: المرأة هي البحر المظلم الذي يخشاه البحّارة القدامى؛ وفي أحشاء الأرض ليلٌ. يخيفه

102- انظر بعد قليل دراستنا حول مونتيرلان الذي يمثّل هذا الوضع بطريقة نموذجية.

103- آلهة القدر والجحيم التي تقطع خيوط الحياة لدى الإغريق. (المترجمة)

104- ديميتير Déméter نموذج الأم الحزينة. ولكن إلاهاتٍ أخرى ـ عشتار وأرتميس ـ قاسياتٌ. تمسك كالي Kali بيدها جمجمةً مليئةً بالدم. يقول لها شاعرٌ هنديٌّ: «رؤوس أبنائك المقتولين حديثًا معلقةٌ برقبتك كعقدٍ... شكلك جميلٌ كالسحب الممطرة، وقدماك ملطختان بالدم».

هذا الليل، حيث الرجل مهدّدٌ بالابتلاع، والذي هو عكس الخصوبة. إنه يطمح إلى السماء، والنور، والقمم المشمسة، إلى برد اللازورد النقي والبلّوري؛ وتحت قدميه، هناك حفرةٌ رطبةٌ، حارّةٌ، مظلمةٌ، متأهبّةٌ لتختطف؛ الكثير من الأساطير تظهر لنا البطل الذي يضيع إلى الأبد عندما يسقط في الظلمات الأموميّة: الكهف، والهاوية، والجحيم.

ولكن من جديدٍ يعمل الازدواج: إذا كان البذار مرتبطًا دومًا بالموت، فالموت مرتبطٌ أيضًا بالخصوبة. يبدو الموت المكروه ولادةً جديدةً ويغدو بالتالي مباركًا. يُبعَث البطل الميت، كأوزريس، كلّ ربيعٍ، ويعود للحياة في ولادةٍ جديدةٍ.

أمل الإنسان الأكبر كما يقول جونغ Jung[105] «هو أن تصبح مياه الموت الداكنة مياه الحياة، أن يكون الموت وعناقه البارد حضن الأم، كالبحر الذي رغم أنه يبتلع الشمس يلِدها من جديدٍ في أعماقه». دفن الإله الشمس في باطن البحر وظهوره ثانيةً ساطعًا هو موضوعٌ مشتركٌ بين العديد من الأساطير. ويريد الإنسان أن يعيش لكنه يرغب في الراحة، في النوم، في العدم. لا يتمنى أن يكون خالدًا وبذلك يستطيع أن يتعلّم أن يحبّ الموت. كتب نيتشه: «المادة غير العضوية هي بطن الأم». الخلاص من الحياة هو أن تصبح ثانيةً حقيقيًّا، أن تكتمل. من يفهم ذلك سيعتبر العودة إلى التراب الجامد عيدًا». ويضع شوسيه Chaucet هذا الرجاء على فم عجوزٍ لا يستطيع الموت:

أطرق الأرض بعصاي ليل نهار، باب أمّي
وأقول: أيتها الأم العزيزة، دعيني أدخل.

يريد الإنسان أن يؤكد وجوده الخاصّ ويرتاح فخورًا على «اختلافه الأساسي»، لكنه يتمنى أيضًا تحطيم حواجز «الأنا»، وأن يختلط بالماء وبالتراب والليل والعدم والكلّ. المرأة التي تحكم على الرجل بالمحدوديّة تسمح له أيضًا بأن يتجاوز حدوده الخاصّة: من هنا يأتي السحر الغامض الذي تتّصف به.

وما تزال في جميع حضارات أيامنا توحي للرجل بالرعب: إنه يلقي فيها رعب وجوده الجسدي الخاص. لا تمثّل الفتاة قبل البلوغ تهديدًا، وليست موضع أي محرّمٍ ولا تملك أيّة

105- تحولات الشبق.

قداسةٍ. يبدو جنسها بريئًا في كثيرٍ من المجتمعات البدائيّة: فيُسمَح بألعاب شهوانيّةٍ بين البنات والصبيان منذ الطفولة. وتصبح المرأة نجسةً يوم تصبح قادرةً على الإنجاب. كثيرًا ما تحدثوا عن المحرّمات الصارمة التي تحيط بالفتاة في المجتمعات البدائية لدى أول طمثٍ لها؛ حتى في مصر، حيث تعامل المرأة باحترامٍ خاصٍّ، تبقى حبيسةً طول فترة الحيض[106]. كثيرًا ما تُعرَض على سطح منزلٍ، أو تُقصى في كوخٍ يقع خارج حدود القرية، يجب ألّا تُرى أو تُلمَس: بل فوق ذلك يجب ألّا تلمس نفسها بيدها؛ ولدى الشعوب التي تمارَس فيها يوميًّا التفلية من القمل، تُعطى عصًا صغيرةً يسمح لها أن تهرش نفسها بها؛ ويجب ألّا تمس أصابعها الطعام؛ وأحيانًا تمنع قطعيًّا من الأكل؛ في حالاتٍ أخرى، يُسمح للأم وللأخت بإطعامها بواسطة أداةٍ؛ لكنّ يجب إحراق كلّ الأشياء التي لمستها خلال هذه الفترة. بعد تجاوز هذه المحنة الأولى، تغدو المحرّمات الشهرية أقل قسوةً بقليلٍ، لكنها تبقى صارمةً. نقرأ بشكلٍ خاصٍّ في *سفر اللاويين*: «المرأة التي ينزل دمٌ من جسمها تبقى سبعة أيامٍ نجسةً. ويصبح أيّ شخصٍ يمسّها نجسًا حتّى المساء. كلّ سريرٍ تنام عليه... كلّ شيءٍ تجلس عليه يصبح نجسًا. وكلّ من يمسّ سريرها، يغسل ثيابه ويستحم بالماء ويظلّ نجسًا حتى المساء». هذا النصّ مماثلٌ تمامًا لذلك الذي يتعلّق بالنجاسة التي تحدث للرجل المصاب بالسيلان البنّي. والتضحية المطهّرة متماثلةٌ في الحالين. عندما تتطهّر من النزف، يجب عدّ سبعة أيامٍ، وإحضار ترغلّتين أو حمامتين صغيرتين للكاهن الذي سيقدمهما لله. تجدر ملاحظة أنّه في المجتمعات الأموميّة، تكون الميزات المرتبطة بالطمث مزدوجةً. فهو يشلّ النشاط الاجتماعي، ويخرّب القوى الحيويّة، ويذبل الزهور، ويُسقِط الفواكه من جهةٍ؛ لكنّ له أيضًا تأثيراتٍ جيّدةً: إذ يستخدم الطمث في أكاسير الحبّ، وفي العلاجات، وخصوصًا للشفاء من الجروح والكدمات. اليوم أيضًا، عندما يذهب بعض الهنود لقتال أطياف الوحوش التي تلاحق أنهرهم، يضعون في مقدمة المركب سدادةً ليفيّةً مغطسةً بدم طمثٍ: ما ينبعث منها يؤذي أعداءهم فوق الطبيعيين. كانت شابات بعض المدن الإغريقية يرتدين الملابس الداخليّة الملوثة بدم أول طمثٍ لهن تكريمًا لمعبد عشتار. ولكن منذ مجيء النظام الأبوي،

106- الاختلافات بين المعتقدات الصوفية والخرافية وقناعات الأفراد واضحةٌ في الأمر التالي: يشير ليفي شتراوس إلى أن «شباب النيمباغو Nimmebago يزورون عشيقاتهم مستغلين سرّية فرصة العزل المفروض عليهن خلال فترة الحيض».

لم يعد يُعزى للسائل المريب الذي يسيل من عضو المرأة سوى قدراتٍ مؤذيةٍ. يقول بلين Pline في كتابه «*التاريخ الطبيعي*»: «المرأة الحائض تفسد الحصاد، وتخرّب الحدائق، وتقتل البذور، وتسقِط الفواكه، وتقتل النحل؛ وإذا لمست الخمر يصبح خلًّا، ويحمضّ الحليب...»

ويعبّر شاعرٌ إنجليزيٌّ قديمٌ عن نفس الشعور إذ يكتب:

«آه! أيتها المرأة، طمثك مصيبةٌ

يجب حماية الطبيعة كلّها منها».

دامت هذه المعتقدات بقوّةٍ حتّى أيامنا. عام 1878، أرسل عضو الجمعية الطبية البريطانية إلى «المجلة الطبية البريطانية» تصريحًا يعلن فيه: «إنّ ما لا يقبل الشكّ أنّ اللحم يفسد عندما تلمسه امرأةٌ حائضٌ»؛ ويقول إنه يعرف شخصيًا حالتين فسد فيهما لحم الخنزير بمثل هذه الظروف. في بداية هذا القرن، في معامل تكرير الشمال، كان هناك نظامٌ يمنع النساء من الدخول إلى المصنع عندما كنّ مصاباتٍ بما كان الأنغلوساكسون يسمّونه «اللعنة»: لأنّ السكر كان يسودّ. وفي سايغون، لا يستخدمون النساء في مصانع الأفيون: كان الأفيون يتحوّل ويصبح مرًّا بتأثير طمثهنّ. ما زالت هذه المعتقدات سائدةً في كثيرٍ من الأرياف الفرنسيّة. تعرف كلّ طبّاخةٍ أنّ من المستحيل عليها أن تنجح بصنع المايونيز إذا كانت في فترة الطمث أو بحضور امرأةٍ في فترة الطمث. مؤخّرًا في أنجو Anjou خزّن بستانيٌّ عجوزٌ في بيت المؤونة محصول نبيذ التفاح لهذا العام، وكتب لسيّد المنزل: «يجب منع سيدات المنزل الشابات والضيفات من اجتياز بيت المؤونة في بعض أيام الشهر: إذ سيمنعن نبيذ التفاح من أن يتخمّر». وعندما علمت الطبّاخة بهذه الرسالة رفعت كتفيها قائلةً: «ذلك لم يمنع النبيذ أبدًا من أن يتخمّر، إنّه سيّئ فقط لشحم الخنزير: لا يمكن تمليح شحم الخنزير أمام امرأةٍ حائضٍ؛ فسيفسد»[107].

107- ذكر لي طبيبٌ من منطقة الشير أنّه في المنطقة التي يعيش فيها يمنع دخول النساء مزارع الفطر في نفس الظروف. ما زالوا اليوم يناقشون مسألة معرفة إن كان هناك أساسٌ لهذه الأحكام المسبقة. الأمر الوحيد الذي يورده في صالحهم الدكتور بينيه Binet هي ملاحظةٌ لشينك Schink (ذكره فيني Vignes). يزعم شينك أنه رأى زهورًا تذبل بين يدي خادمةٍ حائضٍ؛ الكعكات المخمّرة التي صنعتها هذه الخادمة لم تنتفخ إلا ثلاثة سنتيمترات بدل الخمسة سنتيمترات التي تبلغها عادةً. على أي حالٍ هذه الوقائع قليلة الأهمية ومبهمة إذا اعتبرنا أهمية وعمومية المعتقدات ذات الأصل الرمزي بالطبع.

في كل الأحوال لا يكفي تشبيه هذا الاشمئزاز بذاك الذي يثيره الدم: فالدم بحد ذاته عنصرٌ مقدّسٌ بالتأكيد، تخترقه أكثر من غيره قوى الطبيعة ـ المانا ـ التي هي حياةٌ وموتٌ معًا. لكن قدرات دم الطمث المؤذية مختلفةٌ. إنّه يجسّد جوهر الأنوثة. ولهذا يعرّض سيلانه المرأة نفسها التي تجسّدت فيها بالتالي المانا للخطر. عند تدريب فتيات الشاغو Chago[108] تُنصح الفتيات بإخفاء دم طمثهنّ بعنايةٍ. «لا تظهريه لأمك، فستموت. لا تظهريه لرفيقاتك لأنّه قد تكون بينهنّ واحدةٌ شرّيرةٌ تستولي على الخرقة التي مسحتِ بها جسدك وستصبحين عاقرًا. لا تظهريه لامرأةٍ شرّيرةٍ تأخذ الخرقة لتضعها أعلى كوخها... بحيث لن تستطيعي إنجاب الأطفال. لا ترمي الخرقة على الدرب أو في الدغل. فقد يتمكنّ شخصٌ شرّيرٌ من القيام بأشياء سيئةٍ بها. ادفنيها في الأرض. اخفي الدم عن أنظار أبيك وإخوتك وأخواتك. إن تركتيه ظاهرًا فتلك خطيئةٌ»[109].

لدى الأليوتيين[110]، إذا رأى الأب ابنته خلال أول طمثٍ لها، فقد تصبح عمياء أو خرساء. ويعتقدون أنّ المرأة خلال هذه الفترة تتملّكها روحٌ وتكون مشحونةً بقوةٍ خطيرةٍ. يعتقد بعض البدائيين أن النزيف تسبّبه لدغة أفعى، بما أن هناك تعاطفًا مريبًا بين المرأة والأفعى والعظاءة: وربما كان من نوع سمّ الحيوان الزاحف. ويقرّب *سفر اللاويّين* بين السيلان الطمثي والسيلان البنّي؛ والعضو الأنثوي النازف ليس إصابةً فقط، لكنه جرحٌ مشبوهٌ. ويجمع فينيي Vigny مفهوم الدنس ومفهوم المرض عندما يكتب: «المرأة طفلةٌ مريضةٌ ودنسةٌ اثنتي عشرة مرّةً». تجري مطابقة النزف الدوري الذي تعاني منه المرأة، والذي هو ثمرة اضطرابات كيميائيةٍ داخليةٍ، مع دورة القمر بشكلٍ غريبٍ: للقمر أيضًا نزواتٌ خطيرةٌ[111]. المرأة جزءٌ من التداعي المخيف الذي يتحكّم بمجرى الكواكب والشمس، وهي فريسة القوى الكونيّة التي تنظم مصير النجوم، والمدّ والجزر، ويتلقّى الرجال إشعاعاتها

108- سكان أرخبيل الشاغو في المحيط الهندي. (المترجمة)

109- ذكرها ك. ليفي شتراوس C. Lèvi-Strquss: البّنى الأساسية للقرابة.

110- الأليوت Alèoutes جزر تقع في ألاسكا، شمال غرب القارة الأمريكية. (المترجمة)

111- القمر مصدر الخصوبة: يبدو «سيّد النساء»؛ يعتقدون غالبًا أنّه يتزاوج مع النساء بشكل رجلٍ أو أفعى. الأفعى هي تجلّي القمر فهي تنسلخ وتتجدّد، هي خالدةٌ، وهي قوة توزّع الخصب والعلم. وهي التي تحرس الينابيع المقدّسة، وشجرة الحياة، ونبع الشباب، إلخ.. لكنها أيضًا من سلب الرجل الخلود. يروى أنّها تتزاوج مع النساء. تزعم التقاليد الفارسية واليهودية أيضًا أن الطمث ناجمٌ عن أول علاقةٍ للمرأة الأولى والأفعى.

المقلقة. ولكن اللافت خصوصًا أن يُربَط تأثير دم الطمث بأفكارٍ مثل قشدةٍ تفسد، ومايونيز لا تتماسك، وتخمّرٍ، وتحلّلٍ؛ يزعمون أيضًا أنّه قادرٌ على كسر الأشياء الهشّة؛ وقطع أوتار الكمان والقيثار؛ ولكن لديه خصوصًا تأثيرًا على المواد العضوية، الواقعة بين الجماد والحياة؛ وذلك لأنّه صادرٌ من الأعضاء التناسليّة أكثر من كونه دمًا؛ ودون معرفة وظيفته تمامًا، يُعرَف أنّه مرتبطٌ بإنبات الحياة: كان القدماء يرون في دم الطمث مكملًا للمني، جاهلين وجود المبيض. في الحقيقة، ليس هذا الدم ما يجعل المرأة دنسةً، ولكنّه بالأحرى يُبدي دنسها؛ يظهر عندما تستطيع المرأة أن تُلَقَّح؛ وعندما يختفي، تعود عاقرًا بشكلٍ عامٍ؛ ينبجس من هذا البطن الذي يتكوّن فيه الجنين. ومن خلاله يتجلّى الرعب الذي يشعر به الرجل تجاه الخصوبة الأنثوية.

الأشدّ صرامةً من بين المحرّمات المتعلّقة بالمرأة في حالة الدنس منع كلّ علاقةٍ جنسيّةٍ معها. يحكم *سفر اللاويين* على الرجل الذي يخرق هذه القاعدة بسبع سنواتٍ من الدنس. قوانين **مانو** Manou أكثر قسوةً: « تزول نهائيًا حكمة وطاقة وقوة وحيوية الرجل الذي يقارب امرأةً مدنّسةً بالإفرازات الشهريّة». كان أعضاء الأخويّات الدينية يأمرون الرجل الذي أقام علاقةً جنسيّةً خلال الطمث بخمسين يومًا من التكفير. بما أنّ العنصر الأنثوي يُعتَبَر في ذروة قوّته، فيُخشى من انتصاره على العنصر الذكري أثناء التماس الحميم. وبطريقةٍ أقل تحديدًا، ينفر الرجل من أن يجد في المرأة التي يمتلكها جوهر الأمّ المخيف؛ يحاول تفريق مظهري الأنوثة هذين: ولهذا كان تحريم سفاح القربى بشكل زواج الأباعد، أو بشكلٍ أحدث، قانونًا شاملًا؛ ولهذا يبتعد الرجل جنسيًا عن المرأة في الأوقات التي تُكرَّس فيها خصوصًا لدورها الإنجابي: خلال الطمث، وعندما تكون حاملًا، ومرضعًا. لا تناقض عقدة أوديب ـ التي ينبغي أصلًا تصحيح توصيفها ـ هذا الموقف، ولكن على العكس تفرضه. يدافع الرجل عن نفسه ضدّ المرأة لكونها مصدر العالم الغامض ومستقبلًا عضويًا مضطربًا.

مع ذلك، بهذه الصورة أيضًا تسمح للمجتمع الذي انفصل عن الكون والآلهة أن يبقى متّصلًا بها. تؤكّد اليوم أيضًا لدى البدو والإيروكوا[112] Iroquois خصوبة الحقول؛ وفي

112- قبائل من هنود أمريكا الشمالية. (المترجمة)

اليونان القديمة، تسمع الأصوات الآتية من باطن الأرض؛ وتلتقط لغة الريح والشجر: إنها بيثي Pythie[113]، وسيبل، ونبيّةٌ؛ يتحدث الأموات والآلهة من فمها. لقد احتفظت اليوم بقدرات الكهانة هذه: فهي وسيطٌ، وعرّافةٌ، ومنجّمةٌ بالورق، وقارئة المستقبل، وملهَمةٌ؛ وتسمع أصواتًا، وتظهر لها رؤىً. عندما يشعر الرجال بحاجةٍ إلى العودة إلى داخل الحياة النباتية والحيوانية ـ مثل آنتيه Antée[114] الذي كان يلمس الأرض ليسترجع قواه ـ كانوا يلجأون إلى المرأة.

بقيت المذاهب الشتونية chtoniens عبر الحضارات العقلانيّة في اليونان وروما. كانت تنتشر عادةً على هامش الحياة الدينية الرسمية؛ حتّى انتهى بها الأمر، كما في إلوزيس Eleusis[115]، إلى أن تأخذ شكل الألغاز: فمعناها يعاكس معنى الديانات الشمسية حيث يؤكّد الإنسان إرادته في الانفصال والروحانيّة؛ ولكنها تكمّلها؛ يحاول الإنسان انتزاع نفسه من وحدته بالنشوة: وذلك هدف الألغاز والعربدة والفجور. في العالم الذي استعاده الذكور، إلهٌ ذكرٌ، ديونيزوس Dionysos، هو من اغتصب فضائل عشتار السحريّة والمتوحّشة، لكنّ النساء أيضًا هنّ من يتدافع حول صورته: تدعو الميناديات Mènades، والثياديات Thyades، والباخوسيّات[116] الرجال إلى السكر الديني، والجنون المقدّس. ودور البغاء المقدّس مماثلٌ: فهو يهدف لإطلاق قوى الخصوبة وتوجيهها. مازالت الأعياد الشعبية حتى اليوم تتّصف بفورةٍ شهوانيّةٍ؛ لا تبدو المرأة فيها موضوع متعةٍ فقط، ولكن وسيلةً لبلوغ هذا الفخر الذي يتجاوز الفرد فيه نفسه. كتب ج. باتاي G.Bataille: «ما يملكه الكائن في أعماقه من الضياع والمأساة، «العجيبة المبهرة» لم نعد نصادفها إلا فوق سريرٍ».

في الاندفاع الشهواني، عندما يعانق الرجل العشيقة يحاول أن يضيع في لغز الجسد اللامتناهي. ولكن رأينا على العكس أنّ الجنس العادي لديه يفرّق الأم عن الزوجة. لديه اشمئزازٌ من كيمياء الحياة الغامضة، بينما تتغذّى حياته الخاصّة ويبتهج من فواكه الأرض

113- خادمة أبولون في الميثولوجيا اليونانية. (المترجمة)

114- ابن Gaiia في الميثولوجيا اليونانية. (المترجمة)

115- مدينة في اليونان. (المترجمة)

116- آلهة يونانيّة قديمة تتميز بالفجور. (المترجمة)

الشهيّة؛ فيتمنى أن يملكها؛ ويشتهي **فينوس** الخارجة جديدةً من الماء. وتكتشف المرأة نفسها كزوجةٍ في النظام الأبوي بما أن الخالق ذكرٌ. **حوّاء** رفيقة **آدم** قبل أن تكون أم الجنس البشري؛ لقد أُعطيت للرجل ليمتلكها ويخصبها كما يمتلك الأرض ويخصبها؛ ومن خلالها يجعل الطبيعة مملكته. لا يبحث الرجل في العمل الجنسي عن متعةٍ ذاتيّةٍ وعابرةٍ فقط. يريد أن يغزو، ويأخذ، ويتملّك؛ امتلاك امرأةٍ يعني قهرها؛ يخترقها كما تخترق سكّة المحراث الأخاديد؛ يجعلها خاصّته كالأرض التي يعمل بها؛ يحرث، ويزرع، ويبذر: هذه الصور قديمةٌ قِدم الكتابة؛ منذ العصور القديمة وحتّى أيامنا يمكن أن نذكر ألف مثالٍ على ذلك، تقول قوانين مانو: «المرأة كالحقل، والرجل كالبذار». وفي رسمٍ **لأندريه ماسون** André Masson نشاهد رجلًا، وبيده مجرفةٌ، يعزق حديقة عضوٍ أنثويٍّ[117]. المرأة غنيمة زوجها، وملكه.

تردّدُ الذكر بين الخوف والرغبة، بين القلق من أن تتملّكه قوىً لا يمكن السيطرة عليها والرغبة في التقاطها، ينعكس بطريقة لافتةٍ في خرافات العذريّة. أحيانًا يخشاها الذكر، وأحيانًا يتمنّاها أو حتى يفرضها، وتبدو كالشكل الأكثر اكتمالًا للّغز الأنثوي؛ هي إذًا مظهره الأكثر إثارةً للقلق وسحرًا في الوقت نفسه. يرفض الرجل بأن تُقَدَّم له زوجته عذراء أو يطالب بذلك حسبما يشعر أنّ القوى المحيطة به تسحقه، أو يعتقد فخورًا أنّه قادرٌ على أن يلحقها به. في أكثر المجتمعات بدائيّةً، حيث تُمجَّد سلطة المرأة، يتغلب القلق؛ ومن المناسب أن تُفضَّ بكارة المرأة قبل ليلة الزفاف. كان **ماركو بولو** يؤكد نقلًا عن أهالي التيبيت «أنّ لا أحد منهم يريد أن يتزوج من فتاةٍ عذراء». فُسِّر هذا الرفض أحيانًا بطريقةٍ عقلانيةٍ: لا يريد الرجل زوجةٍ لم تُثِر قبلًا رغباتٍ ذكوريّةً. وأورد عالم الجغرافيا العربي «**البكري**» في حديثه عن السلافيين أنّه «إذا تزوج رجل ووجد زوجته عذراء، يقول لها: «لو كنت تساوين شيئًا، لكان أحبك رجالٌ ولكان أحدهم فضّ بكارتك». ثم يطردها ويطلقها. يزعمون حتّى أنّ بعض البدائيين لا يقبل الزواج إلا بامرأة كانت أمًّا قبلًا، مبرهنةً بذلك على خصوبتها. لكنّ الأسباب الحقيقية للعادات المنتشرة بهذا الشكل عن فضّ البكارة رمزيّةٌ. تتخيّل بعض الشعوب أنّ هناك أفعى داخل المهبل تلدغ الزوج لحظة تمزّق غشاء البكارة؛

117- رابليه Rablais يسمّي العضو الذكري «حارث الطبيعة». رأينا الأصل الديني والتاريخي لتشبيه القضيب بسكة المحراث، والمرأة بالأخدود.

وتُعزى خواصّ مرعبة لدم البكارة، القابل هو أيضًا لإزالة قوّة الذكر. من خلال هذه الصور تتجلّى فكرة أنّ للمبدأ الأنثوي قوةً أكثر ويشتمل على تهديدٍ أكثر بقدر ما تكون بكرًا[118].

هناك حالاتٌ لا تُطرح فيها مسألة فضّ البكارة؛ مثلًا لدى السكان الأصليين الذين وصفهم **مالينوفسكي** Malinowski، بما أنّ الألعاب الجنسيّة مسموحةٌ منذ الطفولة فينجم عن ذلك ألّا تكون البنات عذراواتٍ أبدًا. أحيانًا، تقوم الأم أو الأخت الكبرى أو أيّ سيدةٍ بفضّ بكارة الفتاة بشكلٍ منهجيٍّ وعلى طول سنوات طفولتها يقمن بتوسيع فتحة المهبل. يحدث أيضًا أن يتمّ فضّ البكارة عند البلوغ فتقوم نساءٌ بفضّ البكارة بواسطة عصًا، أو عظمةٍ، أو حجرٍ، ويُنظر إلى ذلك كعمليّةٍ جراحيّةٍ لا غير. لدى قبائل أخرى تخضع الفتاة لدى بلوغها إلى تدريبٍ وحشيٍّ: يسوقها رجالٌ إلى خارج القرية ويفضّون بكارتها بأدواتٍ أو يغتصبونها. إحدى أكثر الطقوس شيوعًا هي تلك التي تتألف من تسليم العذراوات لغرباء عابرين، فإما أنّهم يظنون أنهم لا يتحسّسون من هذه المانا التي تكون خطيرةً على ذكور القبيلة فقط، أو أنّهم لا يأبهون للأذى الذي يحدثونه لهم. كثيرًا أيضًا ما يكون الكاهن أو الرجل الطبيب أو شيخ القبيلة أو زعيمها هو من يزيل بكارة الخطيبة في الليلة التي تسبق عرسها؛ على شاطئ مالابار Malabar يكَلّف البراهمانيون بهذه العمليّة التي يقومون بها، على ما يبدو، دون متعةٍ ويطلبون لقاءها راتبًا كبيرًا. نعلم أنّ كلّ المواضيع المقدّسة خطيرةٌ بالنسبة للدنيوي ولكن الأفراد المكرّسين للمقدّس نفسهم يستطيعون استعمالها دون خطرٍ؛ نفهم بالتالي أنّ الكهنة والزعماء قادرون على ضبط القوى المؤذية التي على الزوج أن يحمي نفسه منها. لم يبق في روما من هذه العادات إلا طقوسٌ رمزيةٌ: كانوا يجلسون الخطيبة على قضيبٍ من الحجر، بهدف زيادة خصوبتها وامتصاص السوائل القوية أكثر مما ينبغي وبالتالي المؤذية التي تحملها. ويحمي الزوج نفسه بطرقٍ أخرى أيضًا: فيفضّ بكارة العذراء بنفسه، ولكن خلال مراسم تجعله قويًّا في هذه اللحظة الحرجة؛ فيقوم بذلك مثلًا بحضور القرية كلها مستعينًا بعصا أو عظمةٍ. في ساموا Samoa[119] يستخدم إصبعه ملفوفًا بخرقةٍ بيضاء يوزّع مزقها الملطّخة بالدم على الحاضرين. يحدث أيضًا أن يُسمح له بفضّ بكارة زوجته بشكلٍ طبيعيٍّ،

118- من هنا تأتي القدرة التي تعزى للعذراء في المعارك. Les Walkyriens (إلاهات المعارك الاسكندينافيات [المترجمة])، وعذراء أورليان على سبيل المثال.

119- جزر في المحيط الهادي قرب نيوزيلندة. (المترجمة)

ولكن يجب ألّا يقذف داخلها إلا بعد انقضاء ثلاثة أيامٍ، بحيث لا تتلطخ البذرة المولدة بدم غشاء البكارة.

وعبر انقلابٍ كلاسيكيٍّ في ميدان الأشياء المقدسة، أصبح دم المهبل في المجتمع الأقلّ بدائيّةً رمز سعدٍ. ما زالت هناك في فرنسا قرىً تُعرَض فيها الملاءة المدمّاة أمام الأهل والأصدقاء صبيحة الزفاف. لأنّ الرجل أصبح في النظام الأبوي سيّد المرأة؛ ونفس الخواصّ التي تخيف لدى الحيوانات أو العناصر غير المنضبطة تصبح ميزاتٍ ثمينةً بالنسبة للمالك الذي عرف كيف يدجّنها. صنع الرجل أدوات ازدهاره من هياج الحصان البري، من عنف الصاعقة والسيل. وبذلك أراد إلحاق المرأة بثروته الكاملة. لا شك في أنّ دوافع عقلانيّةً تلعب دورًا في تعليمات الفضيلة المفروضة على الشابة: فبراءة الخطيبة كعفّة الزوجة ضروريّةٌ كيلا يخاطر الأب بتوريث أملاكه لطفلٍ غريبٍ. ولكن فرض عذريّة المرأة هي طريقةٌ مباشرةٌ أكثر عندما يعتبر الرجل الزوجة ملكه الشخصيّ. فأولًا فكرة التملّك دومًا مستحيلة التحقيق بشكلٍ إيجابيٍّ؛ في الحقيقة لا يملك المرء شيئًا أبدًا ولا شخصًا؛ يحاول إذًا أن يقوم بذلك بشكلٍ سلبيٍّ؛ وأكثر طريقةٍ مؤكدةٍ لإثبات أنّ شيئًا ما هو ملكي، هي منع الآخرين من استخدامه. ثم لا شيء يبدو للرجل مرغوبًا أكثر سوى ما لم يملكه أبدًا أيّ إنسانٍ: عندها يبدو قهره حدثًا فريدًا ومطلقًا. لطالما فتنت الأراضي البكر المستكشفين؛ ويموت متسلّقو جبالٍ كلّ عامٍ لأنهم أرادوا قهر جبلٍ لم يمسّه أحدٌ أو حتّى فقط لأنّهم حاولوا أن يفتحوا طريقًا جديدةً على صفحته؛ ويخاطر فضوليون بحياتهم ليهبطوا تحت الأرض إلى أعماق مغاراتٍ لم يسبرها أحدٌ أبدًا. ما سخّره الرجال قبلًا يصبح أداةً؛ ويفقد أعمق خصائصه حين يُقطَع عن روابطه الطبيعية: هناك خيرٌ في مياه السيول أكثر مما في الينابيع العامة. وللجسد البكر نفس طراوة الينابيع السرّية، والنعومة الصباحية لبرعم زهرةٍ، وتألّق اللؤلؤة التي لم تداعبها الشمس قبلًا أبدًا. الرجل كالطفل تسحره الأماكن المظلمة والمغلقة التي لم يحركها أيّ شعورٍ، التي تنتظر من يعيرها روحًا: كالمغارة، والمعبد، والمزار، والحديقة السرّية، يبدو له أنّه يخلق في الحقيقة ما يدركه ويخترقه وحده. عدا عن ذلك، أحد الأهداف التي تصبو إليها كلّ رغبةٍ، هي استهلاك الغرض المُشتَهى الأمر الذي يفرض تدميره. بتمزيق غشاء البكارة، يملك الرجل الجسد الأنثوي بصورةٍ حميمةٍ أكثر من إيلاجٍ

يتركه سليمًا؛ في هذه العمليّة غير القابلة للعكس، يجعل منه شيئًا سلبيًّا بلا غموضٍ، يؤكّد سيطرته عليه. ويتجلّى هذا المعنى بشكلٍ دقيقٍ في أسطورة الفارس الذي يشقّ لنفسه طريقًا صعبًا بين الدغلات الشائكة ليقطف وردةً لم يشمّها أحدٌ أبدًا؛ لا يكتشفها فقط، لكنّه يقصم ساقها وعندئذٍ يقهرها. الصورة واضحةٌ بحيث أن التعبير العامي «أخذ زهرة» امرأة يعني إزالة عذريتها، وأعطى هذا التعبير كلمة «Défloration»[120].

لكن ليست للعذرية هذه الجاذبية الشهوانية إلّا إذا ارتبطت بالشباب؛ وإلّا يصبح لغزها مقلقًا من جديدٍ. يشعر كثيرٌ من الرجال اليوم بنفورٍ جنسيٍّ أمام عذراوات غير شاباتٍ؛ ليست الأسباب النفسية وحدها وراء اعتبار «العوانس» سيّداتٍ ساخطاتٍ شرّيراتٍ. اللعنة في جسدهنّ ذاته، هذا الجسد الذي ليس موضوعًا لأيّ ذاتٍ، الذي لم تجعله أيّة رغبةٍ مرغوبًا، الذي ازدهر وذوى دون أن يجد مكانًا في عالم الرجال؛ فتحوّل عن وجهته، وأصبح غرضًا شاذًّا مثيرًا للقلق كتفكير المجنون غير المفهوم. سمعت رجلًا يقول بفظاظةٍ عن امرأةٍ في الأربعين من عمرها، ما تزال جميلةً، ولكن يفترض أنها عذراء: «داخلها كثيرٌ من شبكات العنكبوت...» وبالفعل، الأقبية والسقيفات التي لم يعد يدخل إليها أحدٌ، ولا تفيد بشيءٍ، تمتلئ بغموضٍ غير سليمٍ؛ وتسكنها الأشباح بطيب خاطرٍ؛ حين يهجر البشر البيوت تسكنها الأرواح. وما عدا الحالة التي تكرّس فيها العذرية لإلهٍ، يعتقدون بطيب خاطرٍ أنّها تفترض نوعًا من زواجٍ مع الشيطان. العذراوات اللواتي لم يسيطر الرجل عليهن، النساء العجائز اللواتي أفلتن من سطوته يُنظَر إليهنّ كساحراتٍ أكثر من سواهنّ؛ فبما أنّ مصير المرأة هو في تكريسها لآخر، وبما أنّها لا تخضع لتسلّط الرجل، فهي مستعدّةٌ لقبول تسلّط الشيطان.

تستطيع الزوجة أن تبدو غنيمةً مرغوبةً لأنّ طقوس فضّ البكارة طردت الأرواح الشريرة منها أو لأن عذريتها طهّرتها. عندما يعانقها العشيق، فهو يتمنى امتلاك كل ثروات الحياة. فهي كل نباتات وحيوانات الأرض: غزالةٌ، وأيلةٌ، زنبقةٌ ووردةٌ، درّاقنةٌ زغباء، توتة علّيقٍ معطّرةٌ؛ هي الجواهر، والصدف والعقيق، الهواء والنار والتراب والماء. كلّ شعراء الشرق والغرب حوّلوا جسد المرأة إلى زهرةٍ، وثمرةٍ، وعصفورٍ. هنا أيضًا، عبر العصور القديمة،

120- وتعني بالفرنسية «إزالة الزهرة» وبالعربية «فضّ البكارة». (المترجمة)

والعصور الوسطى، والعصر الحديث، هناك كثيرٌ جدًّا من النصوص المختارة التي يمكن ذكرها. نعرف جيدًا *نشيد الأناشيد* حيث يقول الحبيب للحبيبة:

عيناك حمامتان...

شعرك يشبه قطيعًا من الماعز...

وأسنانك قطيعٌ من الأغنام الحليقة...

خدك نصف رمّانةٍ...

نهداك شادنان...

وتحت لسانك عسلٌ وحليبٌ...

وفي «*اللغز Arcane 17*» يتناول أندريه بروتون André Breton من جديدٍ هذا النشيد الأزلي: «انطلقت ميلوزينَ في لحظة الصرخة الثانية من وركيها غير المكوّرين، بطنها حصاد آب كلّه، صدرها يندفع كالألعاب الناريّة من خصرها المقوَّس، المسكوب على جناحي سنونو، نهداها حيوانا قاقمٍ يعشيان الأبصار لفرط تأجج جمر فمهما الملتهب. وذراعاها روح جداول تغنّي وتطلق عبيرها...».

يجد الرجل على المرأة النجوم البرّاقة والقمر الحالم، وضوء الشمس، وظلّ المغاور؛ وبالمقابل، زهور الدغل البرّية، ووردة الحدائق المزهوّة هي نساء. الحوريات، والجنيات، وحوريات البحر، وحوريات الماء، تجوب الأرياف، والغابات، والبحيرات، والبحار، والسهول. لا شيء أكثر رسوخًا في قلب الرجال من هذه الإحيائيّة. البحر بالنسبة للبحّار امرأةٌ خطيرةٌ، خبيثةٌ، صعبة المنال، لكنّه يحبها من خلال الجهد الذي يبذله لقمعها. والجبل، فخورًا، متمرّدًا، بريئًا وشرّيرًا، هو امرأةٌ بالنسبة للمتسلّق الذي يريد أن يغتصبه، مخاطرًا بحياته. كثيرًا ما يزعمون أنّ هذه التشبيهات تبدي تصعيدًا جنسيًّا؛ إنها تعبّر بالأحرى عن تعاطفٍ أصليٍّ كالجنس نفسه بين المرأة والعناصر. ينتظر الرجل من امتلاك المرأة شيئًا آخر غير إشباع غريزةٍ؛ إنّها الموضوع المفضّل الذي يستعبد الطبيعة من خلاله. قد تلعب أشياءٌ أخرى هذا الدور. فأحيانًا يبحث الرجل على أجساد الفتيان الصغار عن رمل الشواطئ، ومخمليّة الليل، ورائحة زهور العسلة. لكن الإيلاج الجنسي ليس الشكل الوحيد الذي يمكن أن يتم عبره الاستيلاء الجسدي على الأرض. في رواية شتاينبك Steinbech «*إلى إلهٍ مجهولٍ*»،

يقدّم شتاينبك رجلًا اختار صخرةً مغطّاةً بالطحالب وسيطًا بينه وبين الطبيعة؛ في «*القطة*» تصف كوليت زوجًا شابًا صبّ غرامه على قطته المفضّلة، لأنّه نال عبر هذا الحيوان البري والناعم سيطرةً على الكون الحسّي لا يستطيع جسد صاحبته البشري منحه إياها. يستطيع الآخر أن يتجسّد بشكلٍ كاملٍ في البحر، في الجبل، كما لدى المرأة؛ ويبديان تجاه الرجل نفس المقاومة السلبيّة وغير المتوقّعة التي تسمح له بأن يكتمل؛ فهما ممانعةٌ عليه قهرها، وغنيمةٌ عليه امتلاكها. إذا كان البحر والجبل امرأةً، فذلك لأنّ المرأة هي أيضًا بالنسبة إلى العشيق البحر والجبل[121].

لكن صفة الوسيط بين الرجل والعالم لا تُعطى جزافًا لأيّة امرأةٍ؛ لا يكتفي الرجل بأن يجد في شريكته أعضاءً جنسيّةً مكمّلةً لأعضائه. يجب أن تجسّد ازدهار الحياة الرائع، وتُخفي اضطراباتها الغامضة. يُطلَب منها بالتالي الشباب والصحّة قبل كلّ شيءٍ، لأنّ الرجل إذ يضمّ بين ذراعيه شيئًا حيًّا، لا يستطيع أن ينتشي به إلّا إن نسي أنّ كلّ حياةٍ مسكونةٌ بالموت. ويتمنّى أكثر من ذلك أيضًا: أن تكون الحبيبة جميلةً. ويختلف مثال الجمال الأنثويّ؛ لكنّ بعض المتطلّبات تبقى ثابتة؛ ومن بينها أنّه يجب أن يكون لجسد المرأة الخصائص الساكنة والسلبية لموضوعٍ بما أنّها مكرّسةٌ لتُمتَلك. والجمال الذكوري هو تطابق الجسد مع وظائف فاعلةٍ، هو القوّة، المهارة، المرونة، إنه مظهر تسامٍ يحفز جسدًا يجب ألّا يسقط ثانيةً أبدًا. المثل الأعلى الأنثوي لا يوجد إلّا في مجتمعاتٍ كاسبارطة، وإيطاليا الفاشية، وألمانيا النازيّة، التي تكرّس المرأة للدولة وليس للفرد، التي تعتبرها حصرًا أمًّا ولا تترك مجالًا للشهوانيّة.

121- جملة ساميف Samiev 1 1 التي ذكرها باشلار Bachelard (الأرض وهواجس الإرادة) ذات مغزىً: «هذه الجبال المستلقية في دوائر حولي، كففت شيئًا فشيئًا عن اعتبارها أعداءً يجب مقاتلتها، إناثًا يجب دوسها بالأقدام أو كؤوسًا يجب الفوز بها كي أعطي نفسي والآخرين شهادةً عن قيمتي». ازدواج الجبل ـ المرأة يقوم عبر فكرة «عدوٌّ يجب مقاومته» «وكأسٍ» «شهادة قوّةٍ المشتركة.

نرى هذه التبادلية تتجلى مثلًا في هاتين القصيدتين لسنغور Senghor:

امرأةٌ عاريةٌ، امرأةٌ غامضةٌ!

ثمرةٌ ناضجةٌ ذات لبٍّ مشدودٍ، نشوة النبيذ الأسود القاتمة، فمٌ يجعل فمي قصيدةً.

سهوبٌ ذات آفاقٍ نقيّةٍ، سهوبٌ ترتعش لمداعبات ريح الشرق المتحمّسة

و: أوهوا! كونغو المستلقية في سريرك المؤلف من غاباتٍ، ملكةٌ قهرت أفريقيا

فلترفع قضبان الجبال رايتك عاليًا

لأنك امرأةٌ برأسي، بلساني، لأنك امرأةٌ ببطني.

ولكن عندما تُقدَّم المرأة للذكر كملكه، وهو ما يطالب به، فلأنّ الجسد عندها حاضرٌ بوجوده المحض. لا يُدرَك جسدها كإشعاع ذاتيّةٍ، ولكن كشيءٍ محشوٌ بمثوليّته؛ يجب ألّا يعكس هذا الجسد لبقية العالم إلّا نفسه ولا يبشّر إلّا بها: عليه إيقاف الرغبة. أكثر أشكال هذا المطلب سذاجةً، هو مثال فينوس ثقيلة الردفين لدى الهوتنتوت[122]، بما أنّ الردفين هما أقلّ أجزاء الجسم تعصيبيًا، حيث يبدو الجسد معطىً دون مقصدٍ. ونفس الشيء ميل الشرقيين إلى النساء البدينات؛ فهم يحبون بذخ هذه الوفرة الدهنية التي لا يحرّكها أيّ مشروعٍ، التي ليس لديها معنىً آخر سوى أن تكون موجودةً[123]. حتى في الحضارات ذات الحساسية الأكثر رهافةً حيث توجد مفاهيم الشكل والانسجام، يبقى النهدان والردفان أشياء مميّزةً بسبب مجانية ازدهارها وعرضيّته. كثيرًا ما جهدت العادات والأزياء على منع الجسد الأنثوي من التسامي: بالكاد تستطيع الصينية ذات الأقدام المضمّدة المشي، وتعيق أظافر نجمة هوليود المطليّة استخدامها يديها، وكان الكعب العالي، والمشدّات، والأقفاص، ونافخات التنانير مخصّصةً لزيادة إعاقة النساء أكثر منها لزيادة انحناءات الجسد الأنثوي. يبدو للرجل أنّه شيئه عندما يكون مثقَلًا بالشحم، أو على العكس شاحبًا إلى درجةٍ تمنعه من بذل أيّ جهدٍ، مشلول الحركة بثيابٍ غير مريحةٍ وبطقوس اللياقة. يسهم التزيّن والحلي أيضًا في تجميد الجسم والوجه. وظيفة الزينة معقّدةٌ للغاية؛ لها صفةٌ مقدّسةٌ لدى بعض البدائيين؛ لكنّ دورها المعتاد هو إتمام تحويل المرأة إلى صنمٍ. صنمٍ مبهمٍ: يريدها الرجل شهوانيّةً، يشترك جمالها مع جمال الزهور والثمار؛ لكنّ عليها كذلك أن تكون ناعمةً، صلبةً، خالدةً كحصاةٍ. دور الزينة هو جعلها تشارك بصورةٍ أكثر حميميةً في الطبيعة وفي الوقت نفسه انتزاعها منها، هو إعطاء الحياة الخافقة ضرورة المصطنع الجامدة. تصبح المرأة نبتةً، ونمرةً، وماسةً، وصدفًا، مازجةً بجسدها أزهارًا وفراءً وجواهر وأصدافًا وريشًا؛ تتعطّر كي تفوح كوردةٍ وزنبقةٍ: ولكن الريش

122- Hotentot الهوتنتوت من شعوب أفريقيا الجنوبية. (المترجمة)

123- «الهوتنتوت الذين لديهم ثقل الردفين ليس ثابتًا أو ضخمًا كما لدى نساء البُشمان (جنوب أفريقيا) يعتبرون هذا الشكل جماليًا ويدلّكون أرداف بناتهم منذ الطفولة لتكبيرها. وكذلك نلاحظ في مناطق مختلفة من افريقيا تسمين النساء الاصطناعي، الزقّ الحقيقي الذي يتألف من شقين قلة الحركة وإدخال غزير لأطعمة مناسبة، وخاصةً الحليب. ما زال يمارس لدى أهل المدن الأغنياء العرب ويهود الجزائر وتونس والمغرب» لوكه Luquet، صحيفة علم النفس، 1934. فينوس المغارات).

والحرير واللآلئ تستخدم أيضًا في إخفاء فجاجة جسدها الحيوانية ورائحته. ترسم فمها، وخدّيها، لتعطيهما صلابة القناع الساكنة؛ وتحبس نظرتها ضمن سماكة الكحل والماسكارا، فلا تعود سوى زخرف عينيها اللماع؛ ويفقد شعرها غموضه النباتي المقلق عندما تضفره وتعقده. الطبيعة حاضرةٌ لدى المرأة المزيّنة، لكنها أسيرةٌ، بدّلتها إرادةٌ بشريّةٌ حسب رغبة الرجل. المرأة مرغوبةٌ أكثر بقدر ما تكون الطبيعة فيها أكثر ازدهارًا وأشدّ استعبادًا: كانت المرأة «المنمّقة» على الدوام الموضوع الشهواني المثالي. والميل إلى جمالٍ أكثر طبيعيّةً ليس غالبًا سوى شكلٍ خادعٍ من التنميق. يتمنى ريمي دوغورمون Rémy de Gourmont أن تترك المرأة شعرها سائبًا مرخيًا كجداول وعشب البراري: لكننا نستطيع مداعبة تموّج الماء والسنابل على شعر فيرونيكا ليك، وليس على شعرٍ أشعث متروكٍ حقًّا على طبيعته. كلّما كانت المرأة شابةً وسليمةً، كلما بدا جسدها الجديد والبراق ذا طراوةٍ أزليّةٍ، وكلّما كان بحاجةٍ أقل للحيلة؛ ولكن يجب دائمًا إخفاء الضعف الجسدي لهذه الغنيمة والانحطاط الذي يهددها عن الرجل الذي يعانقها. ولأنّ الرجل يخشى مصيرها العارض، ويحلم بأن تكون ثابتة، ضروريّةً، فهو يبحث في وجه المرأة وصدرها وساقيها عن مطابقتها لفكرةٍ. لدى الشعوب البدائية، الفكرة هي كمال النموذج الشائع: فالعرق ذو الشفاه الغليظة والأنف المسطح يصنع فينوس بشفاهٍ غليظةٍ وأنفٍ مسطحٍ؛ فيما بعد طُبِّقت على النساء قواعد جمالٍ أكثر تعقيدًا. ولكن على كل حال، كلما بدت ملامح المرأة ونسبها منمّقةً، كلما أبهجت قلب الرجل لأنها تبدو غير خاضعةٍ لتبدل الأشياء الطبيعية. نصل بالتالي إلى هذا التناقض الغريب حين يرغب الرجل أن يمتلك الطبيعة في المرأة، ولكنّه إذ يغيّر شكلها، يحولها إلى شيءٍ اصطناعيٍّ. فتصبح طبيعيّةً ولا طبيعيةٍ بنفس القدر؛ وهذا ليس فقط في حضارة تمويج الشعر الكهربائي، ونزع الوبر بالشمع، ومشدّات اللاتكس، ولكن كذلك في بلاد الزنجيّات، وفي الصين، وفي كلّ أرجاء الأرض. لقد انتقد سويفت Swift هذه الخديعة في قصيدته الشهيرة «*إلى سيليا*»؛ فيصف باشمئزازٍ عدّة المتأنّقة ويذكّر باشمئزازٍ بتبعيّة جسدها الحيوانية؛ لقد أخطأ مرتين بانتقاده؛ لأن الرجل يريد أن تكون المرأة حيوانًا ونباتًا في آنٍ معًا، تختبئ خلف درعٍ مصطنعٍ؛ يحبها خارجةً من الأمواج ومن دارٍ للأزياء، عاريةً وكاسيةً، عاريةً تحت ثيابها، تمامًا كما يصادفها في المحيط البشري. يبحث المدني في المرأة عن

الحيوانية؛ ولكن بالنسبة للفلاح الشاب الذي يؤدي خدمته العسكرية يمثّل الماخور كلّ سحر المدينة. المرأة حقلٌ ومرعىً لكنها بابل أيضًا.

مع ذلك تلك هي الكذبة الأولى، خيانة المرأة الأولى: خيانة الحياة نفسها التي وإن كانت مكسوّةً بكل الأشكال الجذّابة، ما تزال مسكونةً بعوامل الشيخوخة والموت. استعمال الرجل لها نفسه يخرّب أثمن ميزاتها: فهي تفقد جاذبيتها الجنسية حين تثقلها الولادات المتكرّرة؛ وإن كانت عاقرًا، يكفي مرور السنين لإفساد مفاتنها. تثير المرأة النفور إن كانت عاجزةً، أو قبيحةً، أو عجوزًا. فيقال إنها ذاويةٌ، ذابلةٌ، كما يقال عن نبتةٍ. الضعف لدى الرجل مخيفٌ أيضًا بالتأكيد؛ فليس لديه سوى تضامنٍ مجرّدٍ مع هذه الأجساد المستقلّة الغريبة. ويشعر الرجل بانحدار الجسد بشكلٍ محسوسٍ أمام جسد المرأة، هذا الجسد المخصّص له. بعيني الذكر العدائيتين تتأمل «صانعة الخوذات الحسناء» لفيّون Villon تدهور جسدها. المرأة العجوز والقبيحة ليستا فقط أشياء غير جذّابةٍ؛ إنّهما تثيران كرهًا ممزوجًا بالخوف. توجد فيهما صورة الأم التي تثير القلق بينما تتلاشى مفاتن الزوجة.

ولكن الزوجة حتّى هي غنيمةٌ خطيرةٌ. تظلّ ديميتير حيّةً في فينوس الخارجة من الماء، زبدًا غضًّا، حصادًا أشقر؛ يوقظ الرجل في المرأة أيضًا قوى الخصوبة المريبة مستوليًا عليها بالمتعة التي يأخذها منها؛ فنفس العضو الذي يخترقه يلد الطفل. ولهذا في كلّ المجتمعات يحمي الرجل نفسه بكل هذه المحرّمات ضدّ تهديد الجنس المؤنث. التأثير المتبادل ليس حقيقيًّا، فلا تخشى المرأة شيئًا من الذكر؛ ويُعتبر عضوه دنيويًا، غير مقدّسٍ. يمكن رفع القضيب إلى منزلة إلهٍ: ولكن ليس هناك رعبٌ في الإجلال الذي يحاط به وخلال الحياة اليومية لا تضطر المرأة إلى حماية نفسها منه صوفيًّا؛ إنه فقط مناسبٌ لها. عدا عن أنّ من اللافت في كثيرٍ من المجتمعات ذات الحقّ الأمومي وجود جنسٍ حرٌّ للغاية؛ ولكن فقط خلال طفولة المرأة، وفي بداية شبابها، عندما لا يكون الإيلاج مرتبطًا بفكرة الإنجاب. يروي مالينوفسكي بشيءٍ من التعجّب أنّ الشباب الذين يمارسون الجنس الحرّ في «بيت العزّاب» يعلنون صراحةً عن غرامياتهم؛ لأن الفتاة غير المتزوجة تُعتبر غير قادرةٍ على الإنجاب والفعل الجنسي ليس سوى متعةٍ دنيويةٍ هادئةٍ. وعلى العكس عندما تتزوج، لا يعود على زوجها أن يمنحها أيّة علامة عاطفةٍ أمام الملأ، يجب ألّا يلمسها، وكلّ إشارةٍ إلى

علاقتهما الحميمة هي تدنيسٌ: لأنها عندئذٍ تشاطر الأم جوهرها المخيف ولأن الإيلاج يغدو عملًا مقدسًا. فيُحاط عندئذٍ بالممنوعات والاحتياطات. فيمنع الإيلاج عندما تُحرث الأرض، وعند البذار، وعند الزرع: ففي هذه الحال، لا يريدون إهدار القوى المخصِبة الضرورية لازدهار المحاصيل وبالتالي لمصلحة الجماعة في علاقاتٍ بين الأفراد؛ يُلزمون بتوفيرها احترامًا للقوى المرتبطة بالخصوبة. ولكن في معظم الحالات، تحمي العفّة ذكورية الزوج؛ وهي مطلوبةٌ عندما يذهب الرجل للصيد والقنص وخصوصًا عندما يستعد للحرب؛ في اتّحاده بالمرأة، يضعف الجوهر الذكري، وبالتالي عليه أن يتحاشاه كلما كان بحاجةٍ لكامل قواه. لقد تساءلوا إن كان الرعب الذي يشعر به الرجل تجاه المرأة آتيًا من الرعب الذي يوحي به إليه الجنس عمومًا، أو العكس. الملاحَظ أنّه في *سفر اللاويين* خصوصًا، يُنظَر إلى الاحتلام الليلي كدنسٍ، حتى وإن لم يكن للمرأة دخلٌ به. وفي مجتمعاتنا الحديثة، تعتبر العادة السرّية خطرًا وخطيئةً: كثير من الأطفال والشباب الذين يمارسونها يفعلون ذلك ضمن مخاوف رهيبةٍ. تدخّل المجتمع والأهل بصورةٍ خاصّةٍ هو ما يجعل من المتعة الفردية عيبًا؛ ولكن العديد من الشبان الصغار يصابون بخوفٍ تلقائيٍّ من حالات القذف الأولى: دمٌ أو منيٌّ، كل سيلانٍ من مادّته يبدو له مثيرًا للقلق؛ إنها حياته، «ماناه» التي تندفع منه. مع ذلك، حتى إن استطاع رجلٌ بصورةٍ ذاتيةٍ المرور بتجربةٍ شهوانيةٍ لا تكون المرأة حاضرةً فيها، فهي مشاركةٌ بصورةٍ موضوعيّةٍ بشهوانيتها: كما كان يقول **أفلاطون** في أسطورة الأندروجينيات، بنية الرجل تفترض بنية المرأة. إنه يكتشف المرأة عندما يكتشف عضوه، حتى إن لم تكن موجودةً بشحمها ولحمها، ولا صورةً؛ وبالعكس المرأة مخيفةٌ باعتبارها تجسّد الجنس. لا يمكن أبدًا فصل المظهر المثولي عن المظهر المتسامي للتجربة الحيّة: ما أخشاه أو أرغب به، هو تحوّل وجودي ذاته، لكن لا يحدث لي شيءٌ سوى عبر ما هو ليس أنا. «اللاأنا» متورّطٌ في الاحتلام الليلي، والانتصاب، وإلّا كان بصورة المرأة تحديدًا، على الأقل بصفتها طبيعةً وحياةً: يشعر الفرد أنّ سحرًا غريبًا يتملّكه. وكذلك نجد تناقض المشاعر التي يحملها للمرأة في موقفه من عضوه ذاته: فهو فخورٌ به، ويضحك منه، ويخجل به. يقارن الصبي الصغير قضيبه بقضيب رفاقه؛ و يشعره أول انتصابٍ له بالفخر والخوف معًا. يعرض الرجل عضوه كرمزٍ للسموّ والقوّة؛ ويزهو به كما يزهو بعضلاته وفي الوقت نفسه

كنعمةٍ سحريةٍ: إنه حرّيةٌ غنيّةٌ بكلّ احتمال المعطى، مُعطىً أراده بمحض رغبته؛ وتحت هذا المظهر المتناقض ينتشي به؛ لكنّه يشك بأنّه فخٌّ؛ هذا العضو الذي يريد أن يؤكّد نفسه عبره لا يطيعه؛ مثقلًا برغباتٍ غير مشبعةٍ، منتصبًا بغتةً، مخفّفًا عن نفسه أحيانًا في الحلم، يبدي حيويّةً مريبةً ونزويّةً. يريد الرجل أن يجعل الفكر يتفوّق على الحياة، النشاط على السلبية؛ شعوره يبقي الطبيعة بعيدةً، وإرادته تقولبها، ولكن، وراء صورة العضو، يجد في نفسه الحياة، والطبيعة، والسلبية. كتب **شوبنهاور**: «الأعضاء التناسلية هي مسكن الإرادة الحقيقي، وقطبها المعاكس هو الدماغ». ما يسميه إرادةً، هو التعلّق بالحياة، التي هي عذابٌ وموتٌ، بينما الدماغ هو الفكر الذي ينفصل عن الحياة متصوّرًا إياها: الخجل الجنسي هو بحسب رأيه الخجل الذي نشعر به أمام عنادنا الجسدي. حتى إن رفضنا تشاؤم نظريّاته، فهو مصيبٌ في رؤية التعبير عن ثنائية الرجل في تعارض العضو ـ الدماغ. بصفته ذاتًا، يطرح العالم، وببقائه خارج الكون الذي طرحه، يجعل من نفسه سيّده؛ إذا تناول نفسه كجسدٍ، كجنسٍ، لا يعود شعورًا مستقلًا، وحرّيةً شفّافةً: بل ينخرط في العالم، موضوعًا محدودًا قابلًا للفناء. لا شك أن العمل الإنجابي يتجاوز حدود الجسد: ولكنّه يشكّلها في الوقت نفسه. القضيب، أبو الأجيال، مناظرٌ لرحم الأم؛ الرجل نفسه الخارج من بذرةٍ نمت في رحم المرأة حاملٌ للبذور، وبهذه البذرة التي تمنح الحياة، حياته نفسها تنكر ذاتها أيضًا. يقول **هيجل**: «ولادة الأطفال هي موت الآباء». القذف إيذانٌ بالموت، يؤكّد النوع ضدّ الفرد؛ ووجود العضو ونشاطه ينكران خصوصية الذات الفخورة. إنكار الحياة للعقل هو ما يجعل من العضو موضوع فضيحةٍ. يمجّد الرجل القضيب بقدر ما يدركه كتسامٍ وفعاليةٍ، كطريقةٍ لامتلاك الآخر؛ لكنه يخجل منه عندما لا يرى فيه سوى جسدٍ سلبيٍّ يكون من خلاله لعبة قوى الحياة الغامضة. يستتر هذا الخجل طوعًا بالتهكّم. فعضو الآخر يثير الضحك بسهولةٍ؛ بما أنّ الانتصاب يقلّد حركةً إراديّةً ورغم ذلك يحدث رغمًا عن المرء، فهو يبدو مضحكًا؛ وحضور الأعضاء الجنسية وحده يثير المرح ما إن يطرأ ذكرها. يروي **مالينوفسكي** أنه كان يكفي ذكر «الأجزاء المخجلة» للمتوحشين الذين كان يعيش بينهم كي يبدأ ضحكٌ لا يتوقّف؛ كثيرٌ من النكات المسماة ماجنة أو بذيئة لا تتجاوز هذا التلاعب اللفظي البدائي. لدى بعض البدائيين، للنساء الحقّ خلال الأيام المخصّصة لعزق الحدائق باغتصاب أيّ غريبٍ يغامر

بدخول القرية؛ فيمسكنه جميعًا معًا، وغالبًا ما يتركنه نصف ميّتٍ: يضحك رجال القبيلة من هذا العمل؛ بهذا الاغتصاب، غدت الضحيّة جسدًا سلبيًّا وتابعًا؛ هو ما امتلكته النساء، وأزواجهنّ من خلالهنّ؛ بينما في الإيلاج العادي يريد الرجل تأكيد نفسه كممتلِك.

ولكن عندئذٍ يختبر بشكلٍ جليٍّ التباس وضعه الجسدي، لا يضطلع مزهوًّا بجنسيته إلّا بوصفها نمط امتلاكٍ للآخر: ولا يؤدّي حلم التملك هذا إلّا لفشلٍ. في امتلاكٍ أصليٍّ، يُلغى الآخر كآخر، يُستَهلَك ويزول: فقط سلطان ألف ليلةٍ وليلةٍ يملك سلطة قطع رأس عشيقاته ما إن ينتزعهنّ الفجر من سريره؛ وتظلّ المرأة حيّةً بعد عناق الرجل وبذلك تفلت منه؛ ما إن يفتح ذراعيه، حتى تصبح طريدته غريبةً عنه؛ ها هي ذي جديدةً، سليمةً، مستعدةً لأن يمتلكها عشيقٌ جديدٌ بطريقةٍ عابرةٍ كالسابقة. أحد أحلام الذكر، هي «دمغ» المرأة بطريقةٍ تبقى معها ملكه للأبد؛ لكن أكثرهم غطرسةً يعرف جيدًا أنّه لن يترك لديها أبدًا سوى ذكرياتٍ وأنّ أكثر الصور تأجّجًا باردةٌ مقابل إحساسٍ. لقد ذكرت كتبٌ كثيرةٌ هذا الفشل. كان يُسقَط على المرأة التي يسمّونها متقلّبةً وخائنةً، لأنّ جسدها يكرّسها للرجل عمومًا وليس لرجلٍ خاصٍّ. وخيانتها غادرةٌ أكثر أيضًا: فهي التي تجعل من الرجل غنيمةً. وحده الجسد يستطيع لمس جسدٍ آخر؛ لا يسيطر الذكر على الجسد المُشتَهى إلّا إن أصبح هو نفسه جسدًا؛ أُعطيت حوّاء لآدم كي يكمل تساميه فيها وجرّته إلى ليل المثوليّة؛ هذا الغلاف المظلم الذي صنعته الأم لابنها والذي يحاول الهروب منه، تغلق حوله العشيقة صلصاله القاتم ضمن دوار المتعة. كان يريد أن يمتلك؛ وها هو نفسه مُمتَلَكٌ. رائحةٌ، رطوبةٌ، تعبٌ، مللٌ، لقد وصفت كتبٌ كثيرةٌ هذه العاطفة الكئيبة لوعيٍ يصبح جسدًا. الرغبة التي تغلّف النفور غالبًا، تصبح نفورًا عندما تُشبَع. «الجنس محزنٌ». مع ذلك لا يجد الرجل حتّى بين ذراعي العشيقة إشباعًا نهائيًّا. وتولد الرغبة لديه من جديدٍ بعد قليلٍ؛ وغالبًا ما لا تكون فقط رغبةً في المرأة بشكلٍ عامٍّ، ولكن في هذه المرأة تحديدًا. تكتسي عندئذٍ سلطةً خاصّةً مثيرةً للقلق. لأنّ الرجل لا يجد في جسده الرغبة الجنسيّة إلّا كرغبةٍ عامّةٍ مثل الجوع أو العطش ليس لها موضوعٌ خاصٌّ: إذًا ما يربطه بهذا الجسد الأنثوي الخاصّ صنعه الآخر. إنّه رباطٌ غامضٌ كالبطن المدنس الخصب الذي أتى منه، نوعٌ من القوّة السلبيّة: سحريٌّ. تعكس تعابير القصص المصوّرة البالية أقدم الخرافات وأكثرها انتشارًا حيث توصَف

المرأة بأنها ساحرةٌ، فاتنةٌ تسبي الرجل وتسحره. المرأة مكرّسةٌ للسحر. كان آلان Alain يقول إنّ السّحر هو الروح الهائمة في الأشياء؛ ويكون الفعل سحريًا عندما يخرج من سلبيّةٍ بدل أن يقوم به فاعلٌ؛ بالتحديد لقد نظر الرجال دائمًا إلى المرأة كمثوليّة المُعطى؛ إن كانت تنتج المحاصيل والأطفال فذلك أمرٌ خارجٌ عن إرادتها؛ فهي ليست ذاتًا، تساميًا، وقوّةً خلّاقةً، لكنها موضوعٌ مثقلٌ بالسوائل. في المجتمعات التي يعبد الرجل فيها هذه الأشياء الغامضة، تُشرَك المرأة بسبب ميزاتها بالديانة وتُمجَّد ككاهنةٍ؛ ولكن عندما يكافح ليتفوّق المجتمع على الطبيعة، والعقل على الحياة، والإرادة على المعطى الساكن، عندها ينظر إلى المرأة على أنها ساحرةٌ. ونعرف الفرق الذي يميّز الكاهن عن الساحر: فالأول يتحكّم ويدير القوى التي سيطر عليها بالاتفاق مع الآلهة والقوانين، من أجل خير المجموعة، باسم كلّ أعضائها؛ بينما يعمل الساحر بمعزلٍ عن المجتمع، ضد الآلهة والقوانين، حسب أهوائه الخاصة. غير أن المرأة ليست مندمجةً بشكلٍ كاملٍ في عالم الرجال؛ تعاكسهم بصفتها آخر؛ من الطبيعي أن تستخدم القوى التي تملكها، ليس من أجل بسط تأثير التسامي من خلال مجموعة الرجال وفي المستقبل، ولكن كي تأخذ الذكور إلى وحدة الانفصال، في ظلمات المثوليّة بما أنها منفصلةٌ، معاكسةٌ. إنها حورية البحر التي يطرح غناؤها البحّارة على الصخور؛ هي سيرسيه[124] Circè التي كانت تحوّل عشاقها إلى حيوانات، الحورية التي كانت تشد الصيادين إلى أعماق بحيراتها. فلا تعود هناك إرادةٌ للرجل أسير مفاتنها، ولا مشروعٌ، ولا مستقبلٌ؛ لا يعود مواطنًا، ولكن جسدًا عبدًا لرغباته، ويُحذَف من الجماعة، سجين الآني، متأرجحًا بشكلٍ سلبيٍّ بين العذاب والمتعة: الساحرة الفاسدة تضع العاطفة مقابل الواجب، واللحظة الراهنة مقابل وحدة الزمن، وتمسك المسافر بعيدًا عن منزله، وتنشر النسيان. على الرجل أن يبقى هو نفسه عندما يحاول الاستيلاء على الآخر؛ ولكن ضمن فشل التملّك المستحيل، يحاول أن يصبح هذا الآخر الذي لا يتمكّن من الاتّحاد به؛ عندئذٍ يُستلَب، ويضيع، ويشرب الإكسير الذي يجعله غريبًا عن ذاته، ويغرق في أعماق المياه الهاربة والقاتلة. تكرّس الأم ابنها للموت عندما تهبه الحياة؛ وتجرّ العشيقة العشيق للتخلّي عن الحياة والاستسلام للنوم الأعلى. تم إيضاح هذا الرباط الذي يوحّد الحب بالموت بشكلٍ

124- Circé إلهة السحر اليونانية. (المترجمة)

مؤثرٍ في أسطورة تريستان، ولكن له حقيقةٌ أكثر تأصّلًا. إذ يولد الرجل من الجسد، ويكتمل بالحب كجسدٍ والجسد موعودٌ بالقبر. يتأكّد بذلك اتّحاد المرأة والموت؛ الحصّادة الكبيرة هي الوجه المعاكس للخصوبة التي تزيد السنابل. لكنها تبدو أيضًا كالزوجة الرهيبة التي يبدو هيكلها العظمي تحت لحمٍ طريٍّ خادعٍ[125].

وهكذا ما يحبه الرجل ويكرهه أولًا في المرأة، عشيقةً أو أمًّا، هو الصورة الجامدة لمصيرها الحيواني، هو الحياة الضروريّة لوجوده، ولكن التي تحكم عليه بالمحدودية والموت. من يوم ولادته، يبدأ الرجل بالموت: وهذه هي الحقيقة التي تجسّدها الأم. عندما ينجِب، يؤكد النوع ضدّ نفسه: وهذا ما يتعلمه بين ذراعي الزوجة؛ بين الارتباك والمتعة، قبل حتى أن ينجب، ينسى أناه الخاصّة. وبينما هو يحاول أن يميّز بين الواحدة والأخرى، يجد فيهما حقيقةً واحدةً: حقيقة وضعه الشهواني. في الوقت نفسه يتمنّى إكماله: فيجلّ أمه، ويرغب بعشيقته؛ في الوقت نفسه يتمرّد عليهما ضمن الاشمئزاز والقلق.

هناك نصٌّ ذو مغزى نجد فيه تجميعًا لكلّ هذه الأساطير تقريبًا في كتاب «*الليلة الكردية*» الذي يصف فيه ريشار بلوش Richard Bloch عناق «ساد» الشاب وامرأةٍ تكبره سنًّا بكثيرٍ ولكنها ما تزال جميلةً، أثناء نهب مدينةٍ:

«كان الليل يزيل محيط الأشياء والأحاسيس. لم يعد يضمّ إليه امرأةً. كان يلمس أخيرًا غاية رحلةٍ لا تنتهي، استمرّ فيها منذ بدء العالم. زال شيئًا فشيئًا ضمن امتدادٍ يتأرجح حوله دون نهايةٍ ولا شكلٍ. اختلطت كلّ النساء في بلدٍ هائلٍ، منطوٍ على نفسه، كئيبٍ كالرغبة، حارقٍ كالصيف... مع ذلك كان هو يميّز بإعجابٍ قلقِ القوة الحبيسة داخل المرأة، فخذي الساتان الطويلين المشدودين، الركبتين الشبيهتين بهضبتي عاجٍ. عندما كان يصعد محور الظهر المصقول، من الصلب إلى الكتفين، كان يبدو له أنه يجول في قبّةٍ تحمل العالم. لكنّ البطن كان يناديه دون أن يتركه، محيطًا مرنًا وطريًّا حيث تولد كلّ حياةٍ وتعود، ملجأً بين الملاجئ، بمده وجزره، بآفاقه، بسطوحه اللامحدودة.

عندئذٍ تملّكه غضبٌ يدفعه إلى ثقب هذا الغطاء اللذيذ وبلوغ منبع جماله أخيرًا.

125- على سبيل المثال في باليه بريفير «الموعد» وفي عمل كوكتو «الشاب والموت»، يمثّل الموت تحت تقاطيع الشابة المحبوبة.

ورمتهما زلزلةً في اللحظة نفسها الواحد على الآخر. لم تعد المرأة موجودةً إلّا كي تنشقّ كالأرض، وتفتح له أحشاءها، وتشبع من سوائل الحبيب. وتحول الافتتان إلى اغتيالٍ. اتّحدا كطعنةٍ.

... هو، الرجل المعزول، المنقسم، المنفصل، المبتور، كان سينبثق من جوهره الخاصّ، ويهرب من سجنه الجسدي ويندمج أخيرًا، روحًا وجسدًا، في الجوهر الشامل. كانت السعادة القصوى مخصّصةً له، لم يكن قد شعر أبدًا قبل هذا اليوم بتجاوز حدود الخليقة، بذوبان الذات والموضوع في نفس النشوة، بالسؤال والجواب، بإلحاق كل ما عدا الكائن بالكائن، وباختلاجةٍ أخيرةٍ ببلوغ امبراطوريّة ما لا يُبلغ.

... كان كل ذهاب ومجيءٍ للقوس على الآلة الثمينة التي كان يمسكها تحت رحمته يوقظ فيها اهتزازاتٍ حادةٍ أكثر فأكثر. فجأةً تشنّجَ أخيرٌ فصل «ساد» عن الأوج وألقى به ثانيةً نحو الأرض والطين».

لم تكن رغبة المرأة قد أُشبِعت، فحبست بين ساقيها عشيقها الذي شعر رغمًا عنه بعودة رغبته: بدت له عندئذٍ كقوّةٍ عدوّةٍ تنتزع منه رجولته وعندما امتلكها من جديدٍ، عضّ رقبتها بعمقٍ بحيث قتلها. وهكذا أُغلِقت الحلقة التي تنطلق من الأم إلى العشيقة، ثم الموت، من خلال مورابات معقّدةٍ.

كثيرٌ من المواقف ممكنةٌ هنا للرجل، حسبما يؤكّد على هذا المظهر أو ذاك من مظاهر المأساة الشهوانيّة. إذا لم يعتقد رجلٌ أنّ الحياة وحيدةٌ، إذا لم يهتم بمصيره الخاصّ، إذا لم يكن يخشى الموت، سيقبل حيوانيّته ببهجةٍ. لدى المسلمين، تُنزَل المرأة إلى مرتبةٍ حقيرةٍ بسبب البنية الإقطاعية للمجتمع التي لا تسمح باللجوء إلى الدولة ضدّ العائلة، بسبب الدين الذي كرّس الرجل للموت وجرّد المرأة من سحرها، بما أنّه يحدد المثل الأعلى الحربي لهذه الحضارة: ما الذي يخشاه على الأرض ذلك المستعد ليغوص بين لحظةٍ وأخرى في عربدة الجنة المحمّديّة المثيرة؟ يستطيع الرجل إذًا الاستمتاع بالمرأة بهدوءٍ دون أن يضطرّ لحماية نفسه من ذاته ولا منها. تنظر إليها حكايات ألف ليلةٍ وليلةٍ كمنبعٍ للّذات العذبة كالفاكهة، والمربيات، والحلوى الدسمة، والزيوت العطريّة. نجد اليوم هذا التعاطف الحسّي لدى كثيرٍ من الشعوب المتوسطيّة: فالرجل المتوسّطي يشبع بالآنيّ ولا يطلب الخلود، ويدرك

الطبيعة بمظهرها الباذخ عبر تألّق السماء والبحر، ويحب النساء بشراهةٍ؛ وتبعًا للتقاليد يحتقرهنّ بما يكفي كي لا يدركهنّ كأشخاصٍ: لا يميّز كثيرًا بين متعة جسدهنّ ومتعة الرمل والماء؛ ولا يشعر برعبٍ من جسده أو أجسادهنّ. في «*حديثٍ في صقليّة*» يقول **فيتوريني** Vittorini بانبهارٍ هادئٍ أنّه اكتشف جسد المرأة العاري وهو في سن السابعة. ويؤكّد فكر اليونان وروما العقلاني هذا الموقف التلقائي. لقد تجاوزت فلسفة الإغريق المتفائلة مانويّة **فيثاغورث**؛ الأدنى تابعٌ للأعلى وبالتالي مفيدٌ له: لا تبدي هذه الإيديولوجيات المتناسقة أيّة عدائيةٍ تجاه الجسد. بالتفات الفرد نحو سماء الأفكار، أو نحو المدينة أو الدولة، يرى نفسه مواطنًا فيظن أنّه تجاوز وضعه الحيواني: وسواءٌ استسلم للّذة أو مارس الزهد، فليس للمرأة المندمجة بقوّةٍ في المجتمع الذكوري سوى أهميةٍ ثانويّةٍ. لم تنتصر العقلانية دائمًا بشكلٍ كاملٍ بالتأكيد وتحتفظ التجربة الشهوانية في هذه الحضارات بطابعها المزدوج: تؤكّد على ذلك الطقوس والأساطير والأدب. لكنّ جاذبيّة الأنوثة وأخطارها تتجلّى فيها بشكلٍ مخفّفٍ. أعادت المسيحيّة إعطاء المرأة مهابةً مخيفةً: الخوف من الجنس الآخر هو أحد الأشكال التي يأخذها لدى الرجل تمزّق الشعور التعيس. المسيحي منفصلٌ عن ذاته؛ يتمّ تقسيم الجسد والروح، والحياة والفكر: فتجعل الخطيئة الأصلية من الجسد عدوّ الروح؛ وتبدو كلّ الروابط الجسدية سيئةً[126]. يمكن تخليص الإنسان لأنّ **المسيح** افتداه ولأنّه اتّجه نحو مملكة السماء؛ ولكنّه في الأصل ليس سوى قذارةٍ؛ ولادته تكرّسه ليس فقط للموت ولكن للإدانة؛ و يمكن لعفوٍ إلهيٍّ أن يفتَح له أبواب السماء، ولكنّ هناك لعنةً في كلّ تحوّلات وجوده الطبيعي. الشرّ حقيقةٌ مطلقةٌ؛ والجسد خطيئةٌ. وبالطبع، بما أنّ المرأة لا تكفّ أبدًا عن كونها الآخر، لا يُعتَبَر بالمقابل أن الذكر والأنثى هما جسدٌ: فالجسد الذي هو بالنسبة للمسيحيين العدو الآخر لا يتميّز عن المرأة. وتتجسد فيها إغراءات الأرض والجن والشيطان. يؤكّد كل آباء الكنيسة على أنّها قادت آدم للخطيئة. ويجب أن نذكر ثانيةً مقولة **ترتوليان** Tertullien: «أيتها المرأة! أنت باب الشيطان. أقنعتِ ذاك الذي لم يكن الشيطان يجرؤ على مهاجمته

126- حتى نهاية القرن الثاني عشر يعتبر اللاهوتيون ـ عدا سان أنسلم ـ حسب مذهب سانت اوغستان أن الخطيئة الأصلية مفروضةٌ من قِبَل قانون النسل نفسه، فقد كتب: «الشهوانية إثمٌ... الجسد البشري الذي يولد بها هو جسد خطيئةٍ». وسانت توما: «بما أن اتحاد الجنسين مصحوبٌ منذ الخطيئة بالشهوانية فهو ينقل الخطيئة الأصلية للطفل».

وجهًا لوجهٍ. بسببك وجب على ابن الربّ أن يموت. يجب عليك أن تسيري دائمًا مرتديةً الحداد والثياب البالية». تجهد كلّ المؤلفات المسيحية في إثارة الاشمئزاز الذي يمكن أن يشعر به الرجل تجاه المرأة. يعرّفها ترتوليان بأنّها مجرور القذارة. ويؤكد **سانت أوغستان** بفظاعةٍ على اختلاط الأعضاء الجنسية والطارحة للقذارة: «ولِدنا بين البراز والبول». وبلغ اشمئزاز المسيحية من الجسد الأنثوي حدّ أنها قبلت تكريس ربّها لموتٍ شائنٍ لكنها جنّبته دنس الولادة: فيؤكّد المجمع الديني في إفسوس في الكنيسة الشرقية ومجمع لاتران في الغرب الولادة البتولية للمسيح. كان آباء الكنيسة الأوائل ـ **أوريجين** Origène، **وترتوليان**، **وجيروم** Gèrome ـ يظنّون أن **مريم** ولدت بالدم والقذارة مثل النساء الأخريات؛ ولكن رأي **سانت أمبرواز وسانت أوغستان** هو الذي تفوّق. بقي بطن العذراء مغلقًا. منذ العصور الوسطى، كان وجود جسمٍ للمرأة يُعتَبر أمرًا شائنًا. وظلّ العلم مشلولًا فترةً طويلةً بسبب هذا الاشمئزاز. في كتاب **لينيه** Linnè عن الطبيعة، يدع جانبًا دراسة الأعضاء التناسلية الأنثوية لأنها «فظيعةٌ». ويتساءل الطبيب الفرنسي **ديلورن** des Laurens مستنكرًا كيف «يمكن أن ينجذب هذا الحيوان السماوي المليء بالمنطق والحكمة الذي يسمّونه الرجل إلى هذه الأجزاء البذيئة لدى المرأة، المدنّسة بالمفرزات والموضوعة بشكلٍ مخزٍ في أسفل جزءٍ من الجذع». تتداخل اليوم كثيرٌ من التأثيرات الأخرى مع تأثيرات الفكر المسيحي؛ ولهذه الأخيرة حتّى أكثر من مظهرٍ؛ ولكن كره الجسد يستمرّ في العالم المتزمّت وسواه؛ يتجلّى مثلًا في «*نورٌ في آب/* أغسطس» **لفولكنر** Faulkner؛ تثير أولى التدريبات الجنسية للبطل لديه صدماتٍ رهيبةً. ومن الشائع في كلّ الأدبيات إظهار شابٍّ مضطربٍ لدرجة الإقياء بعد أوّل إيلاجٍ؛ وإذا كان مثل ردّ الفعل هذا نادرًا للغاية في الحقيقة، فليس وليد الصدفة أن يتكرر وصفه كثيرًا بهذا الشكل. خصوصًا في البلاد الأنغلوساكسونية التي اخترقتها الطهرانية، تثير المرأة لدى معظم المراهقين وكثيرٍ من الرجال خوفًا مُعلنًا أو مكتومًا. وهو موجودٌ بشكلٍ كبيرٍ في فرنسا. كتب **ميشيل ليريس** Michel Leiris في «*عصر الرجل*»: «كثيرًا ما أميل إلى النظر إلى العضو الأنثوي كشيءٍ قذرٍ أو كجرحٍ، مع أنّ ذلك لا يقلّل من جاذبيته، ولكنّه خطيرٌ بحد ذاته، ككلّ شيءٍ مُدمّىً، مخاطيٍّ، ملوّث» تُفسّر فكرة الأمراض الزهريّة هذه المخاوف؛ المرأة ليست مخيفةً لأنها تنقل هذه الأمراض؛ بل الأمراض هي

التي تبدو شنيعةً لأنها آتية من المرأة: حدّثوني عن شبّانٍ كانوا يتخيلون أن الإفراط في العلاقات الجنسية كافٍ لإحداث السيلان الأبيض. يُعتقد أيضًا بطيب خاطرٍ أنّ الرجل يفقد بالإيلاج قوّته العضلية، ووضوح تفكيره، ويستهلك فوسفوره، وتقلّ حساسيته. صحيحٌ أنّ العادة السريّة تعرّض لنفس المخاطر؛ حتى أن المجتمع يعتبرها لأسباب أخلاقيةٍ أكثر إيذاءً من الوظيفة الجنسية العادية. ويحمي الزواج الشرعي وإرادة الإنجاب من أذى الشهوانية. ولكن قلت قبلًا إن الآخر متورّطٌ في كلّ عملٍ جنسيٍّ؛ وصورته المعتادة هي المرأة في غالب الأحوال. أمامها يشعر الرجل بجلاءٍ بسلبيّة جسده. المرأة مصّاصة دماءٍ، غولةٌ، آكلةٌ، وشاربةٌ، يتغذى عضوها بشرهٍ بالعضو الذكري. وأراد بعض المحللين النفسيين إعطاء أسسٍ علميةٍ لهذه التخيّلات قائلين إنّ كلّ المتعة التي تحصل عليها المرأة من الإيلاج تأتي من أنها تخصي الذكر رمزيًّا وتستولي على عضوه. ولكن يبدو أنّ هذه النظريات نفسها بحاجةٍ إلى أن تخضع للتحليل النفسي وأن الأطباء الذين اخترعوها عكسوا فيها مخاوف قديمةً[127].

أصل هذه المخاوف هو أنّ الغيرية تبقى في الآخر، فيما وراء كلّ تبعيّةٍ. احتفظت المرأة في المجتمعات الأبوية بكثيرٍ من الميزات المقلقة التي كانت لديها في المجتمعات البدائية. ولهذا لا تُترك أبدًا للطبيعة، بل تحاط بالمحرّمات، وتُطَهَّر بشعائر، وتوضع تحت رقابة الكهنة؛ ويعلّمون الرجل ألا يقاربها أبدًا في عريها الأصلي، ولكن عبر الطقوس والأسرار المقدّسة التي تنتزعها من الأرض، من جسدها، وتحوّلها إلى مخلوقٍ بشريٍّ: عندها يتركّز السحر الذي تملكه كالصاعقة منذ اختراع مانع الصواعق ومحطات توليد الكهرباء. حتى يصبح استخدامه لمصلحة الجماعة مستحيلًا: نرى هنا طورًا آخر من هذه الحركة المتأرجحة التي تحدّد علاقة الرجل بأنثاه. إنه يحبها باعتبارها ملكه، ويخشاها باعتبارها تظلّ آخر؛ ولكن لأنها آخر مخيفٌ فهو يحاول أن يجعلها ملكه أكثر: وهذا ما يجعله يرفعها إلى مرتبة شخصٍ ويعترف بانها تماثله.

كان السحر الأنثوي مدجّنًا بشكلٍ كبيرٍ في العائلة الأبوية. وسمحت المرأة للمجتمع بإدخال القوى الكونية إليه. يشير **دوميزيل** Dumèzil في كتاب Mitra- Varuna إلى أنّ

127- أظهرنا أن لا أساس بيولوجيًّا لخرافة السرعوفة الراهبة.

هناك في الهند كما في روما طريقتان لتأكيد السلطة الذكورية: في فارونا ورومولوس، وفي غاندارفاس واللوبرك، هناك اعتداءٌ، وخطفٌ، وفوضى، وغرورٌ؛ عندها تبدو المرأة ككائنٍ يجب خطفه، والاعتداء عليه؛ بدت السابينيات المخطوفات عاقراتٍ، جُلِدن بسيورٍ من جلد التيس، مقابلاتٍ العنف بمزيدٍ من العنف. لكن ميترا ونوما والبراهمانيات والفلامينات يؤكّدن على العكس نظام المدينة وتوازنها العقلاني: عندئذٍ ترتبط المرأة بالزوج بزواجٍ ذي طقوسٍ معقّدةٍ وتتعاون معه، فتؤكّد له السيطرة على كلّ القوى الأنثوية في الطبيعة؛ في روما، إذا ماتت الكاهنة الفلامينيا، يُعزّل رئيس الكهنة dialis flamen من كلّ وظائفه. وكذلك إيزيس في مصر، إذ فقدت قوّتها العظمى كآلهةٍ أمٍّ، بقيت مع ذلك كريمةً مبتسمةً عطوفةً وحكيمةً، زوجة أوزيريس الرائعة. ولكن عندما تبدو المرأة هكذا شريكةً للرجل، مكمّلته، نصفه، فهي مزوّدةٌ حكمًا بشعورٍ، بروحٍ؛ وما كان ليرتبط بهذه الحميمية بكائنٍ لا يشترك بالجوهر البشري. رأينا قبلًا أن قوانين مانو كانت تَعِد الزوجة الشرعية بنفس الفردوس الذي وُعد به زوجها. كلّما تفرّد الذكر وطالب بفرديّته كلّما اعترف أنّ شريكته فردٌ وحرّيةٌ. ويكتفي الشرقي غير العابئ بمصيره بأنثى تكون بالنسبة له موضوع متعةٍ؛ لكنّ حلم الغربي، عندما ارتقى إلى الشعور بخصوصية كيانه، هو أن تعترف به حريّةٌ غريبةٌ مطيعةٌ. لا يجد الإغريقي في أسيرة الخدر الشبيه الذي يطلبه: ولهذا يمنح حبّه إلى رفاقه الذكور الذين يسكن جسدهم مثله إدراكٌ وحريّةٌ، أو يمنحه للمحظيّات اللواتي تجعل منهنّ الاستقلالية والثقافة والفكر مساوياتٍ تقريبًا. ولكن الزوجة هي من تستطيع إرضاء متطلّبات الرجل بشكلٍ أفضل عندما تسمح الظروف. يرى المواطن الروماني في السيّدة شخصًا: يمتلك نسخة عنه في كورنيليا وآريا. وبشكلٍ مناقضٍ أعلنت المسيحية تساوي الرجل والمرأة في حالةٍ معيّنةٍ. وتكره في المرأة الجسد؛ فإذا أنكرت أنها جسدٌ، فهي كالرجل من مخلوقات الله، وبما أنّ المخلّص افتداها، فها هي ذي مصطفّةٌ إلى جانب الذكور، بين الأرواح الموعودة بمباهج السماء. الرجال والنساء عبيد الله، لا جنس لهم تقريبًا كالملائكة، معًا يبعدون إغراءات الأرض مستعينين بالرحمة. إن قبلت المرأة إنكار حيوانيتها، بما أنها تجسّد الخطيئة، فستكون أروع تجسيدٍ لانتصار المختارين الذين تغلّبوا على الخطيئة[128]. بالطبع إن

128- من هنا يأتي المكان المميّز الذي تحتله مثلًا في كتاب كلوديل Claudel. انظر ص354-366.

المخلّص الإلهي الذي يقوم بافتداء الرجال ذكرٌ؛ ولكن يجب أن تساهم البشريّة لخلاصها لذا هي مدعوّةٌ بأكثر صور الإذلال والتعسف لإظهار خضوعها. **المسيح** إلهٌ؛ لكن امرأةً، هي **مريم العذراء**، تسود على كلّ المخلوقات البشريّة. مع ذلك وحدها الطوائف التي تنمو على هامش المجتمع تعيد إحياء الامتيازات القديمة للربّات العظيمات في المرأة. تعبّر الكنيسة وتقدّم حضارةً أبويّةً من المناسب فيها بقاء المرأة ملحقةً بالرجل. حين تجعل من نفسها خادمته المطيعة تصبح أيضًا قديسةً مباركةً. وهكذا خلال العصور الوسطى أقيمت أكمل صورةٍ للمرأة المفضّلة للرجال: فأحيط وجه أم **المسيح** بالمجد. إنها الصورة المعاكسة لـ**حوّاء** الخاطئة؛ تسحق الحيّة تحت قدمها؛ وهي وسيطة الخلاص، كما كانت **حوّاء** وسيطة اللعنة.

كانت المرأة مخيفةً كأمٍّ؛ يجب إذًا تحويل صورتها واستعبادها في أمومتها. لعذرية **مريم** قيمةٌ سلبيّةٌ بشكلٍ خاصٍّ: تلك التي افتدي الجسد بها ليست شهوانيّةً؛ لم يمسها أو يمتلكها أحدٌ. لم يُعرَف زوجٌ كذلك للأم الكبرى الآسيوية؛ لقد أنجبت العالم وسادت عليه بمفردها؛ كانت تستطيع أن تكون فاسقةً حين تشاء، لكن العبودية المفروضة على الزوجة لم تنقص عظمة الأم فيها. وهكذا لم تعرف مريم الدنس الذي يفرضه الجنس. هي برجٌ عاجيٌّ، قلعةٌ، برجٌ حصينٌ مقارنةً بـ**مينرفا** المحاربة. كانت الكاهنات القديمات، كمعظم القديسات المسيحيات، عذراواتٍ أيضًا: المرأة المكرّسة للخير يجب أن تكون كذلك ضمن روعة قواها الكاملة؛ يجب أن تحافظ على جوهر أنوثتها سالمًا غير خاضعٍ. إنكار صفة الزوجة لمريم هو فقط لتمجيد المرأة ـ الأم فيها. ولكنّها مُجِّدت فقط لقبولها الدور الملحَق الموكل إليها. «سأكون خادمةً للرب». للمرة الأولى في تاريخ البشريّة، تركع الأم أمام ولدها؛ تعترف بمطلق حريتها بدونيتها. وهذا هو الانتصار الذكوري الكبير الذي يتم في تقديس مريم: إنه إعادة تأهيل المرأة عبر اكتمال هزيمتها. كانت **عشتار**، و**عشتروت**، و**سيبل** قاسياتٍ، نزويّاتٍ، فاسقاتٍ؛ كنّ قويّاتٍ؛ منبع الموت كما الحياة، بإنجاب الرجال جعلن منهم عبيدًا لهنّ. بما أنّ الحياة والموت في المسيحية لم يعودا يتعلّقان إلّا بالله، فالرجل الخارج من بطن الأم هرب منه إلى الأبد، ولا تترقّب الأرض سوى عظامه؛ ويتقرّر مصير روحه في المناطق التي لا تبلغها سلطة الأم؛ العماد المقدّس يجعل الطقوس التي كانت المشيمة فيها تُحرَق مثيرةً

للسخرية. لم يعد هناك مكانٌ للسحر على الأرض: الله هو الملك الوحيد. والطبيعة سيّئةٌ في الأصل: ولكنّها عاجزةٌ أمام النعمة. ولا تمنح الأمومة كظاهرةٍ طبيعيّةٍ أيّ سلطةٍ. لم يبق إذن للمرأة، إن شاءت التغلب على العار الأصلي في داخلها، سوى أن تنحني أمام الله الذي تجعلها مشيئته عبدةً للرجل. وبهذا الخضوع يمكنها أن تأخذ دورًا جديدًا في الأساطير الذكورية. لقد حوربت، وديست بالأقدام عندما أرادت أن تسيطر وطالما لم تتنازل بشكلٍ صريحٍ، لكنها تستطيع أن تُكرَّم كعبدةٍ. لم تفقد أيًّا من صفاتها البدائية؛ لكنّ هذه الصفات غيّرت دلالتها؛ كانت مؤذيةً فأصبحت باذخةً؛ وأصبح السحر الأسود أبيض. فاستحقت المرأة الخادمة أروع تمجيدٍ.

وبما أنها استُعبِدت كأمٍّ، ستُكَرّم وتُحتَرم كأمٍّ أولًا. من بين وجهي الأمومة القديمين لا يريد رجل اليوم أن يعرف سوى الوجه الباسم. محدودًا بالزمان والمكان، لا يملك سوى جسدٍ وحياةٍ محدودةٍ، ليس الرجل سوى فردٍ ضمن طبيعةٍ وتاريخٍ غريبين. تنتمي المرأة للطبيعة، محدودةً مثله، مشابهةً له بما أنّها هي أيضًا تسكنها الروح، يخترقها تيّار الحياة اللامحدود؛ فتبدو بالتالي وسيطةً بين الرجل والكون. عندما أصبحت صورة الأمّ مطَمئِنةً ومقدّسةً، نفهم أن يلتفت الرجل نحوها بحبٍّ. يحاول الهروب منها، تائهًا في الطبيعة، ولكن عندما ينفصل عنها يطمح إلى اللحاق بها. الأم هي تجسيد الخير نفسه، جالسةً بقوّةٍ في الأسرة، في المجتمع، متوافقةً مع القوانين والأعراف: فتصبح الطبيعة التي تشارك بها جيّدةً؛ ولا تعود عدوّةً للروح؛ وإن بقيت غامضةً، فهذا غموضٌ باسمٌ، كغموض سيّدات **ليوناردو دافنشي**. لا يريد الرجل أن يكون امرأةً، لكنّه يحلم أن يضمّ داخله كلّ شيءٍ، وبالتالي أيضًا هذه المرأة التي هي سواه: في الإجلال الذي يكنّه لأمه، يحاول أن يمتلك ثرواتها الغريبة. الاعتراف بأنّه ابن أمّه يعني الاعتراف بأمّه فيه، وإدخال الأنوثة بوصفها علاقةً بالأرض والحياة والماضي. ذلك ما بحث عنه البطل لدى أمّه في «*حديث في صقلية*» لـ**فيتوريني**: أرض المولد، روائحها وثمارها، طفولته، ذكرى أجداده، التقاليد، الجذور التي اقتلعه منها وجوده الفردي. هذا التجذّر نفسه الذي يثير لدى الرجل زهوّ التفوّق؛ يروق له أن يعجب بنفسه وهو ينتزع نفسه من ذراعي أمّه لينطلق نحو المغامرة والمستقبل والحرب؛ لكان هذا الذهاب مؤثرًا أقلّ لو لم يكن هناك أحدٌ يحاول استبقاءه: كان سيبدو كحادثٍ، وليس كانتصارٍ تمّ بصعوبةٍ.

ويروق له أيضًا أن يعرف أنّ هاتين الذراعين ستظلّان مستعدتين لاستقباله. بعد توتّر الفعل، يحبّ البطل أن يذوق إلى جانب أمه راحة المثولية: فهي الملاذ، والنوم؛ بمداعبة يديها يغوص ضمن الطبيعة، ويستسلم لتيار الحياة الكبير بهدوءٍ كما في الرحم، في القبر. وإن شاءت التقاليد أن يموت وهو ينادي أمّه، فذلك لأنّ الموت نفسه مدجّنٌ، تحت نظرة الأمّ، مماثلٌ للولادة، مرتبطٌ بكل حياةٍ جسديّةٍ بشكلٍ لا ينفصل. يبقى الجمع بين الأم والموت كما في أساطير البارك Parques القديمة؛ فمهمتها تكفين الموتى، والبكاء عليهم. ولكن دورها المحدّد هو دمج الموت بالحياة، وبالمجتمع، وبالخير. لهذا يتمّ تشجيع إجلال «الأمهات البطوليّات» بشكلٍ نموذجيٍّ: إذا حصل المجتمع على موافقة الأمهات على إرسال أولادهنّ إلى الموت، يظنّ أنّ لديه الحقّ في قتلهم. من مصلحة المجتمع أن يلحق الأم به بسبب تأثيرها على أولادها: ولهذا تحاط بكل هذا الاحترام، وتُجمَّل بكل الفضائل، وتُخلق لأجلها ديانةٌ يُمنع التملّص منها تحت طائلة الاتهام بالتدنيس والتجديف؛ يصنعون منها حارسة الأخلاق؛ بما أنّها خادمة الرجل، وخادمة السلطة، تقود أولادها بهدوءٍ في الدروب المرسومة. كلّما كانت الجماعة متفائلةً بشدّةٍ، وكلما قبلت هذه السلطة الرقيقة طائعةً، كلما تحوّلت صورة الأمّ فيها أكثر. أصبحت الأم الأميركية معبودةً وصفها فيليب ويلي Philipp Wyllie في «*جيل الأفاعي*»، لأنّ الإيديولوجيّة الرسمية الأمريكية هي أكثر المتفائلين عنادًا. تمجيد الأم هو قبول الولادة، والحياة، والموت، بأشكالها الحيوانية والاجتماعية معًا. ولأن أوغست كومت يحلم بإنجاز هذا التركيب فقد جعل من المرأة إلهة البشرية المقبلة. ولكن لذلك أيضًا يستبسل كل الثائرين على صورة الأم: بسخريتهم منها، رفضوا المعطى الذي يراد فرضه عليهم عبر حارسة الأعراف والقوانين[129].

129- يجب أن نذكر هنا كلّ قصيدة ميشيل ليريس المسماة «الأم». وها هي بعض المقتطفات الوصفية منها:

الأم بالأسود، بالبنفسجي، ـ سارقة الليالي ـ هي الساحرة التي تتجبك بحرفتها المخبأة، التي تهدهدك، تدللك، تضعك في التابوت،عندما لا تترك ليديك جسدها المتكوّر لتضعانه في التابوت برفقٍ...

الأم... تمثالٌ أعمى، قدرٌ قائمٌ وسط المعبد الذي لم يمسه أحد... هي الطبيعة التي تداعبك، الريح التي تتملّقك، العالم الذي يخترقك، يرفعك إلى السماء (على لوالب عديدةٍ) ويفنيك...

الأم... سواء كانت شابةً أم عجوزًا، جميلةً أو قبيحةً، رحيمةً أم عنيدةً..هي الصورة الهزلية، المرأة الوحش الغيورة، الفاجرة المخلوعة... الفكرة (العرافة الذاوية الجاثمة على ركيزة من تزمتّها) ليست سوى صورةٍ ساخرةٍ للأفكار الحيوية، الخفيفة، البراقة... =

الاحترام الذي تعامل به الأم، والموانع التي تحيط بها، تبعد النفور العدائي الذي يمتزج تلقائيًا بالحنان الجسدي الذي توحي به. مع ذلك يظل الخوف من الأمومة قائمًا بأشكالٍ غائمةٍ. وبشكلٍ خاصٍّ من المهم أن نلاحظ أنّه وُضِعت في فرنسا، منذ العصور الوسطى، خرافةٌ ثانويّةٌ تسمح لهذا الاشمئزاز أن يتجلّى بحرّيةٍ: هي خرافة الحماة. في التمثيليات الهزلية في مسرح المنوعات يسخر الرجل من الأمومة عبر أم زوجته التي لا يمنعه عنها أيّ محرّمٍ. يكره أن تكون المرأة التي يحبها قد أُنجِبَت: الحماة هي الصورة الواضحة للاضمحلال الذي نذرت ابنتها له عندما أنجبتها، بدانتها، تجاعيدها تعلن عن البدانة والتجاعيد المقبلة للعروس الشابة التي خُطَّ مستقبلها سلفًا بهذه الصورة المحزنة؛ لم تعد تبدو إلى جانب أمّها كفردٍ، ولكن كلحظة نوعٍ؛ لم تعد الغنيمة المرغوبة، الرفيقة العزيزة لأنّ وجودها الخاص يذوب في الحياة الشاملة. تُعارض خصوصيتها العموميّة بسخريةٍ، ويعارض استقلال الفكر تجذّره في الماضي وفي الجسد: هذه السخرية هي ما يسقطها الرجل على شخصيةٍ مضحكةٍ؛ ولكن إن كان هناك هذا القدر من الحقد في ضحكته، فلأنّه يعرف جيدًا أن مصير زوجته هو مصير كل كائنٍ بشريٍّ: أي مصيره. جسّدت الخرافات والحكايا أيضًا في كلّ البلدان مظهر الأمومة القاسي في الزوجة الثانية. فهي زوجة الأب التي تحاول إهلاك بيضاء الثلج. ظلّت **كالي** Kali[130] ذات العقد المصنوع من الرؤوس المقطوعة حيّةً من خلال الحماة الشريرة ـ السيدة **فيشيني** التي تجلد **صوفي** في كتب السيدة **دوسيغور** Mme de Sègur.

مع ذلك تتزاحم وراء الأم المقدّسة جموع الساحرات الخيّرات اللواتي يضعن في

= الأم... وركها المستدير أو الجاف، ثديها المرتعش أو المتين.. هو الانحطاط الموعود، منذ الأصل، لكلّ امرأةٍ، التفتت التدريجي للصخرة المتلألئة تحت أمواج الطمث، التكفين البطيء... تحت رمل الصحراء العجوز... للقافلة الباذخة المحملة بالجمال.

الأم... ملاك الموت الذي يتعقب، للعالم الذي يحتضن، الحب الذي تلقي به موجة الزمن... هو القوقعة ذات الشكل غير المفهوم (علامة سمٍّ أكيدٍ) التي ترمى في الأحواض العميقة، مولدةً حلقاتٍ في المياه المنسية...

الأم... بركةٌ قاتمةٌ، في حدادٍ دائمٍ على كل شيءٍ وعلينا... هي النتن المتبخّر الذي يلمع وينفجر، نافخًا فقاعةً إثر أخرى ظلّه الكبير البهيمي (خزي الجسد والحليب). وشاحٌ قاسٍ على صاعقة وليدةٍ أن تمزقه...

....

هل يخطر ببال إحدى هذه الساقطات البريئات أن تجول حافيةً عبر القرون لتكفر عن جريمتها حين أنجبتنا؟

130- كالي Kali إلهة التخريب والزمن الهندوسية. (المترجمة)

خدمة الرجل عصارات الأعشاب وإشعاعات النجوم: جدّاتٌ وعجائز تفيض عيونهنّ طيبةً، وخادماتٌ طيبات القلب، وراهبات الرحمة، وممرضاتٌ ذوات أيدٍ رائعةٍ، وعشيقةٌ كما يحلم بها فرلين Verlaine:

لطيفةٌ، ساهمةٌ، سمراء، لا شيء يدهشها،
تقبل جبينك أحيانًا كما لو كنت طفلًا.

يشَبّهن بغموض الكرمة المتعرّجة والماء البارد؛ يضمّدن ويشفين؛ حكمتهنّ هي حكمة الحياة الصامتة، يفهمن دون كلامٍ. ينسى الرجل بقربهنّ كلّ كبرياءٍ؛ ويحس برقّة الاستسلام والعودة إلى الطفولة، لأنّه لايوجد بينه وبينهنّ أي صراعٍ على المكانة: لا يمكنه أن يحسد الطبيعة على خواصّها اللابشرية؛ وفي تفاني المدرّبات العاقلات في رعايته يرين أنفسهنّ خادماتٍ له؛ ويخضع لقوّتهنّ المفيدة لأنّه يعلم أنّه يبقى بهذا الخضوع سيّدهنّ. تضمّ هذه الفرقة المباركة الشقيقات، وصديقات الطفولة، والشابات البريئات، وكلّ أمهات المستقبل. وحتّى الزوجة، تبدو لكثيرٍ من الرجال عندما يتلاشى سحرها الشهواني أم أطفالهم أكثر منها عشيقةً. منذ اليوم الذي قُدّست فيه الأم واستُعبِدت يمكنه دون خوفٍ أن يجدها في الرفيقة المقدّسة والخاضعة هي أيضًا. افتداء الأم يعني افتداء الجسد. وبالتالي الرباط الجسدي والزوجة.

«الزوجة الصالحة» هي أثمن كنزٍ للرجل، مجرّدةً من أسلحتها السحريّة بطقوس الزفاف، تابعةً لزوجها اقتصاديًّا واجتماعيًّا. إنّها تنتمي إليه بشدّةٍ بحيث تشترك معه بنفس الجوهر «إذا كنت غايوس فأنا غايا»؛ لديها اسمها، وآلهتها، وهو مسؤولٌ عنها: يدعوها نصفه. ويفخر بامرأته كما بمنزله وبأراضيه وقطعانه وأمواله، وحتّى أكثر أحيانًا؛ من خلالها يُظهر للعالم قوّته: إنّها مقياسه، وحصّته على الأرض. لدى الشرقيين ينبغي أن تكون المرأة بدينةً: لكي يظهر أنّها تتغذّى جيّدًا وهذا يرفع قدر سيّدها[131]. ويزداد اعتبار المسلم بقدر ازدياد عدد زوجاته وبدانتهنّ. في المجتمع البورجوازي، أحد الأدوار المخصّصة للمرأة هو *تمثيل الرجل*: جمالها وسحرها وذكاؤها وأناقتها هي علاماتٌ خارجيّةٌ على ثروة الزوج تمامًا

131- انظر الهامش 123، ص205.

كشكل سيّارته. يكسوها بالفراء والجواهر إن كان غنيًّا. وإن كان أكثر فقرًا، يتفاخر بميزاتها المعنويّة ومواهبها كربة منزلٍ؛ وإن كان المعدم قد ارتبط بامرأةٍ تخدمه سيظنّ أنّه امتلك شيئًا على الأرض: يدعو بطل «ترويض الشرسة» كلّ جيرانه ليظهر لهم السطوة التي استطاع أن يروّض بها زوجته. ويعيد كلّ رجلٍ إحياء الملك **كاندول**[132] قليلًا أو كثيرًا: فيعرض امرأته لأنّه يظنّ أنّه يعرض بذلك ميزاته الخاصّة.

لكنّ المرأة لا ترضي فقط غرور الرجل الاجتماعي؛ إنها تسمح له أيضًا بغرورٍ أكثر حميميةً؛ فهو يبتهج بالسيطرة التي يمارسها عليها؛ فوق الصور الطبيعية لسكة المحراث التي تشق الأخدود تتوضّع صورٌ أكثر روحانيةً عندما تكون المرأة شخصًا: «يشكّل» الزوج زوجته ليس جنسيًا فقط، ولكن معنويًا، وفكريًا؛ يثقّفها، ويطبعها، ويفرض عليها بَصمتَه. إحدى الأحلام التي تبهج الرجل، هي إشباع الأشياء بإرادته، وقولبة شكلها، واختراق مادّتها: والمرأة هي أفضل «عجينةٍ رخوةٍ» تترك نفسها سلبيّةً تُدعَك وتُشكَّل، تقاوم أثناء استسلامها، ما يسمح للرجل بالاستمرار في عمله. إذا كانت المادة لدنةً أكثر مما ينبغي فستزول بسبب ليونتها؛ الفريد لدى المرأة أنّ فيها شيئًا يُفلِت باستمرارٍ من كلّ قبضةٍ؛ وهكذا يكون الرجل سيّد حقيقةٍ هي جديرةٌ بأن يسيطر عليها بقدر ما تتفوّق عليه. توقظ لديه كائنًا كان يجهله فيتعرّف عليه كذاته بفخرٍ؛ ويكتشف روعة حيوانيته في العربدة الزوجية المتعقّلة: إنّه الذكر؛ وبالتالي المرأة هي أنثى، لكنّ لهذه الكلمة معانٍ جميلةً حسب الظروف: فالأنثى التي تحضن، وترضع، وتلعق الصغار، وتدافع عنهم، وتنقذهم مخاطرةً بحياتها هي مثالٌ للإنسانيّة؛ يطلب الرجل من شريكته متأثّرًا هذا الصبر وهذا التفاني؛ إنّها الطبيعة أيضًا، مُشربةً بكلّ الفضائل المفيدة للمجتمع وللأسرة ولربّ الأسرة الذي يريد حبسها في المنزل. إحدى الرغبات المشتركة بين الطفل والرجل هي كشف السرّ المختبئ داخل الأشياء؛ المادة مخيبة للآمال من هذه الناحية: فلم يعد هناك سريرةٌ للّعبة المبقورة، بأحشائها الخارجة؛ والنفاذ إلى حميميةٍ حيّةٍ أصعب؛ البطن الأنثوي هو رمز المثولية، والعمق؛ يكشف بعض أسراره، ومن بينها ارتسام اللّذة على الوجه الأنثوي؛ لكنه يخفيها أيضًا؛ ويلتقط الرجل في المنزل خلجات الحياة المبهمة دون أن يزيل التملّك غموضها. وتنقل المرأة إلى العالم

132- قصة لتيوفيل غوتييه يعرض فيها الملك كاندول جمال زوجته أمام رئيس الحرس. (المترجمة)

البشري وظائف المرأة الحيوانية: فهي تصون الحياة، وتشرف على مناطق المثولية؛ وتنقل دفء الرحم وحميميته إلى المنزل؛ وهي التي تحرس وتدير المسكن الذي يتوضّع فيه الماضي، ويُرسَم فيه تصوّرٌ للمستقبل؛ تنجب جيل المستقبل وتغذّي الأطفال؛ بفضلها يتجمّع الوجود ـ الذي أهدره الرجل عبر العالم بالعمل والنشاط ـ ويغوص ثانيةً في مثوليته: عندما يعود إلى منزله مساءً، ها هو ذا يرسو على الأرض؛ ويضمن تتابع الأيام بواسطة المرأة؛ فهي تضمن استمرار الأكل والنوم مهما كانت المصادفات التي يواجهها في العالم الخارجي، وتصلح كلّ ما تخرّب أو اهترأ بفعل الاستهلاك: تعدّ الغذاء للعامل المتعب، وتعتني به حين يمرض، وترتق، وتغسل. وتُدخِل كلّ العالم الواسع ضمن العالم الزوجي الذي تكوّنه وتحافظ عليه: فتشعل النار، وتملأ المنزل بالزهور، وتطوّع دفق الشمس والماء والتراب. ذكر بيبيل كاتبًا بورجوازيًا يلخّص هذا المثال بصورةٍ جديةٍ كالتالي: «لا يريد الرجل أحدًا يخفق قلبه من أجله فقط، ولكن تمسح يده جبينه، وينشر السلام والنظام، والسكينة. سلطةً صامتةً عليه نفسه وعلى الأشياء يجدها لدى عودته كل يومٍ إلى المنزل؛ يريد أحدًا ينشر على كل شيءٍ عطر المرأة هذا الذي لا يمكن التعبير عنه، المرأة التي هي الدفء الذي يبث الحياة في المسكن».

نرى كم رُوحِنت صورة المرأة منذ ظهور المسيحية؛ لم يعد الجمال والدفء والحميمية التي يتمنى الرجل الحصول عليها من خلالها خصائص حساسةً؛ فبدل أن تلخّص مظهر الأشياء الشهيّ تصبح روحها؛ يوجد في قلبها حضورٌ سرّيٌّ ونقيٌّ أعمق من الغموض الجسدي تنعكس فيه حقيقة العالم. هي روح المنزل والأسرة والمسكن. وهي أيضًا روح المجموعة الأوسع: المدينة والإقليم والأمة. يشير جونغ Jung إلى أنّ المدن كانت دومًا مشبّهةً بالأم بما أنها تحتوي المواطنين في داخلها: ولهذا كانت سيبيل تبدو متوّجةً بالأبراج؛ ولنفس السبب يتحدّثون عن «الوطن الأم»؛ ولكنّه ليس فقط الأرض المغذّية، إنّه حقيقةٌ أكثر دقّةً تجد في المرأة رمزًا لها. في *العهد القديم* و*سفر العالم* القدس وبابل ليستا فقط والدتين: هما أيضًا زوجتان. هناك مدنٌ عذراء ومدنٌ بغايا مثل بابل وصور. كما سمّيت فرنسا «ابنة الكنيسة البكر»؛ وفرنسا وروما شقيقتان لاتينيتان. لم توصف وظيفة المرأة في التماثيل التي تصوّر فرنسا وروما وجرمانيا وتلك التي تمثل ستراسبورغ وليون في ساحة الكونكورد ولكن صوّرت

فقط أنوثتها. هذا التشبيه ليس رمزيًّا فقط: يقوم به وجدانيًا العديد من الرجال[133]. من الشائع أن يطلب السائح من المرأة مفتاح البقاع التي يزورها: عندما يضمّ بين ذراعيه إيطاليّةً أو إسبانيّةً، يبدو له أنّه يمتلك جوهر إيطاليا وإسبانيا الشهيّ. كان أحد الصحفيّين يقول: «عندما أصل إلى مدينةٍ جديدةٍ، أبدأ دائمًا بالذهاب إلى الماخور». إذا استطاعت شوكولاتة بالقرفة أن تجعل جيد Gide يكتشف إسبانيا، فأحرى بقبلات فمٍ آتٍ من بلادٍ بعيدةٍ أن تكشف للعشيق بلادًا بنباتها وحيواناتها وتقاليدها وثقافتها. لا تلخّص المرأة مؤسساتها السياسية ولا ثرواتها الاقتصادية؛ لكنها تجسّد لبّها الجسدي والمانا الصوفيّة. من غرازييلا **لامارتين** Lamartine إلى روايات **لوتي** Loti وقصص **موران** Morand، نرى الأجنبي يحاول من خلال النساء تملّك روح منطقةٍ. تكشف مينيون وسيلفي وميراي وكولومبا وكارمن أكثر حقيقةٍ حميميةٍ في إيطاليا وفاليه وبروفنس وكورسيكا والأندلس. إن بدا للألمان حبّ الألزاسية **فريديريك** لـغوته ضمًّا للألزاس لألمانيا؛ فبالمقابل، عندما رفضت **كوليت بودوش** أن تتزوج ألمانيًّا، بدا لـ**باريس** Barrès أنّ الألزاس ترفض ألمانيا. ويرمز في شخص **بيرينيس** إلى مدينة إيغ مورت Aigues-Mortes التاريخيّة وإلى حضارةٍ راقيةٍ بأكملها؛ كما تمثّل حساسية الكاتب نفسه. لأنّ الرجل يتعرّف داخل تلك التي هي روح الطبيعة والمدن والكون على نسخته الغامضة؛ روح الرجل هي بسيشيه Psyché، امرأةٌ.

وملامح **بسيشيه** أنثويةٌ في أولالوم Ulalume لـ **إدغار بو** Edgar Poe:

> **«هنا، ذات مرةٍ، كنت أهيم مع روحي عبر ممرٍّ هائلٍ من السرو... هكذا كنت أصالح بسيشيه وأقبّلها...وأقول: ما هو المكتوب على الباب، أيتها الأخت الرقيقة؟».**

ومالارميه Mallarmé عندما يتحاور في المسرح مع «روح أو فكرتنا» (أي الإلهة الموجودة في فكر الرجل) يسميها «سيدة ظريفة غير عادية»[134].

133- هي رمزيّة في القصيدة المخزية التي كتبها كلوديل مؤخّرًا حيث يدعو الهند الصينية «هذه المرأة الصفراء». وهي وجدانيةٌ على العكس في أبيات الشاعر الأسود:

روح الأسود بلادٌ ينام فيها القدامى
تعيش وتتحدث
هذا المساء
في القوّة القلقة على طول صلبك المقعّر

134- كُتبت بالقلم في المسرح.

ويبادرها فاليري Valèry بالكلام قائلًا:

أيّتها الـ«أنا» المتناسقة المختلفة عن الحلم

أيّتها المرأة المرنة والحازمة التي تُتبِعُ صمتها بأفعالٍ نقيةٍ!...

أيّتها الـ«أنا» الغامضة

استبدل العالم المسيحي الحوريات والجنيات بشخصياتٍ أقلّ شهوانيّةً: لكنّ المساكن والمناظر والمدن والأفراد نفسهم ظلّوا مسكونين بأنوثةٍ خفيّةٍ.

تتألّق هذه الحقيقة المخفية في ليل الأشياء في السماء أيضًا؛ الروح هي مثوليةٌ كاملةٌ وفي الوقت نفسه هي السموّ والفكرة. لا تكتسي المدن والأمم وحدها ملامح أنثويةً ولكن كذلك كياناتٌ ومؤسساتٌ مجرّدةٌ: الكنيسة والكنيس والجمهورية والإنسانية نساءٌ، وكذلك السلام والحرب والحرية والثورة والانتصار. يؤنّث الرجل المثال الذي يضعه أمامه كالآخر الأساس، لأنّ المرأة هي الصورة الحساسة للغيرية؛ ولهذا فكلّ الاستعارات في اللغة كما في فنّ الأيقونات هي نساءٌ[135]. المرأة روحٌ وفكرةٌ، وهي كذلك وسيطةٌ بين الاثنتين: إنها الرحمة التي تقود المسيحي نحو الله، وهي بياتريس التي تقود دانتي في الحياة الثانية، ولور التي تنادي بترارك نحو قمم الشعر العالية. تبدو كتناغمٍ وعقلٍ وحقيقةٍ في كلّ المذاهب التي تشبّه الطبيعة بالفكر. كانت الطوائف الغنوصيّة قد جعلت من الحكمة امرأةً: صوفي؛ وكانت تعزو إليها افتداء العالم وحتى خلقه. عندئذٍ لا تعود المرأة شهوانيّةً، ولكن جسدًا مجيدًا؛ لا يُطالب بامتلاكها، تُجلّ ضمن بهائها الذي لم يُمَس؛ ميّتات إدغار بو الشاحبات سائلاتٌ كالماء، كالريح، كالذكرى؛ بالنسبة للحبّ المُجامل، للثمينين، وفي كلّ تقاليد الغزل لم تعد المرأة مخلوقةً حيوانيةً ولكن كائنًا أثيريًا، نفخةً، نورًا. وهكذا انقلبت عتمة الليل الأنثوي إلى شفافيةٍ، والسواد إلى نقاءٍ، كما في نصوص نوفاليس Novalis:

> **«تهبطين نحوي، نشوةً ليليةً، ونومًا سماويًا؛ ارتفع المنظر بهدوءٍ، وفوق المنظر جالت روحي المحرّرة المتجدّدة. وأصبح النصّ غيمةً ألمح عبرها ملامح الحبيبة المتغيّرة».**

135- فقه اللغة غامضٌ بالأحرى حول هذه المسألة : يتفق كلّ اللغويين على الاعتراف بأن توزيع الكلمات الملموسة حسب الجنس هو عرضيٌّ بحتٌ. مع ذلك في الفرنسية معظم الكيانات مؤنثة: الجمال، النزاهة، إلخ.. بالألمانية معظم الكلمات المستوردة والأجنبية وسواها مؤنثة.

«أتحبّنا إذًا، أنت أيضًا، أيها الليل المظلم؟...يسيل من يديك بلسمٌ ثمينٌ، ويسقط من باقتك شعاعٌ. تحتجز أجنحة الروح الثقيلة. ويمسكنا إحساسٌ غامضٌ لا يمكن وصفه: أرى وجهًا جدّيًا خائفًا يميل نحوي بنعومةٍ وخشوعٍ وأتعرّف تحت الخصلات المتشابكة على الأمّ الشابة العزيزة... تبدو لنا العينان الخالدتان اللتان فتحهما الليل لنا أكثر سماويةً من هذه النجوم المتلألئة».

انعكست الجاذبية النازلة التي تمارسها المرأة؛ لم تعد تنادي الرجل نحو قلب الأرض ولكن نحو السماء. ويعلن غوته في نهاية فاوست الثاني:

المؤنث الخالد

يشدّنا نحو الأعلى

بما أن مريم العذراء هي أكثر صور المرأة المتجددة والمكرّسة للخير اكتمالًا، وأكثرها إجلالًا، من المهم أن نرى كيف تبدو من خلال الأدبيات والأيقونات. وها هو مقتطفٌ من الصلوات التي كانت توجهها لها المسيحيّة المتأجّجة في القرون الوسطى:

«...أيتها العذراء السامية، أنت الندى الخصيب، نبع الفرح، قناة الرحمة، بئر المياه الحيوية التي تهدّئ احتدامنا.

أنت الثدي الذي يرضع منه الله اليتامى...

أنت النخاع ولب الخبز ونواة كلّ الخيرات.

أنت المرأة الصريحة التي لا يتغير حبها أبدًا...

أنت بركة الغنم في أورشليم، دواء المجذومين، الفيزيائية الماهرة التي ليس لها مثيلٌ في ساليرن ولا في مونبلييه...

أنت السيّدة ذات اليدين الشافيتين اللتين تصلح أصابعهما الجميلة البيضاء الطويلة الأنوف والأفواه، وتصنع عيونًا جديدةً وآذانًا جديدةً. تهدّئين المحرورين، وتحركين المشلولين، وتنهضين البليدين، وتحيين الموتى».

نجد في هذه الابتهالات معظم الخصائص الأنثوية التي أشرنا إليها. فالعذراء خصوبةٌ وندىً، ونبع الحياة؛ تشبّهها كثيرٌ من الصور بالبئر والنبع والمنهل؛ وتعبير «نبع الحياة» هو

أحد أكثر هذه التشبيهات انتشارًا؛ ليست خلّاقةً، لكنها مُخصِبة، تُظهر للنور ما كان مخبأً في الأرض. إنها الحقيقة العميقة الحبيسة تحت مظهر الأشياء: النواة والنخاع. بها تُشبَع الرغبات: هي ما أعطي للرجل لإشباعه. تنقذ الحياة وتصلحها حيثما كانت مهدّدةً: فتشفي وتقوّي. ولأنّ الحياة تنبعث من الله، وباعتبارها وسيطةً بين الإنسان والحياة، فهي وسيطةٌ أيضًا بين الإنسانيّة والله. كان **ترتوليان** يقول إنّها «باب الشيطان». ولكن صورتها تغيّرت فأصبحت بوابة السماء؛ تمثّلها لنا اللوحات فاتحةً بابًا أو نافذةً على الجنّة؛ أو أيضًا ناصبة سلمًا بين الأرض والسماء. وبشكلٍ أوضح هي محاميةٌ ترافع لدى ابنها من أجل خلاص الناس: تُظهر كثيرٌ من لوحات العذراء يوم الحساب كاشفةً ثدييها راجيةً المسيح باسم أمومتها المجيدة. تحمي في ثنايا معطفها أبناء الناس؛ يتبعهم حبّها الرحيم في المحيطات، وساحات المعارك، وعبر المخاطر. تخفف حكم العدالة الإلهية باسم الرحمة: نرى صورًا «للعذراء على الميزان» الذي يزن الأرواح ترجّح باسمةً كفّة الخير.

هذا الدور الرحيم والحنون هو أحد أهمّ كلّ الأدوار التي خُصّت بها المرأة. حتى وإن دُمجت بالمجتمع فهي تتجاوز حدوده بدقةٍ لأنّ لديها كرَم الحياة الخفي. تبدو المسافة بين التراكيب التي وضعها الذكور وحوادث الطبيعة مثيرةً للقلق في بعض الحالات ؛ لكنها تصبح مفيدةً عندما تكتفي المرأة، المطيعة لدرجة أنها لا تهدد عمل الرجل، بإغنائه وتليين خطوطه الناتئة. يمثّل الأرباب الذكور القدر؛ بينما نجد لدى الربّات عنايةً عفويةً، وخدمةً اعتباطيةً. للإله المسيحي صرامة العدالة؛ وللعذراء رقة الإحسان. الرجال على الأرض حماة القوانين والمنطق والضرورة، وتعرف المرأة الوجود الأصلي للرجل ذاته ولهذه الضرورة التي يعتقد بها؛ من هنا تأتي السخرية الغامضة التي تزهر على شفتيها وكرمها المرن. لقد ولدت بالألم، وعالجت جروح الذكور، وأرضعت الوليد وكفّنت الأموات؛ وهي تعرف كلّ ما يزعج غرور الرجل ويهين إرادته. وهي إذ تنحني أمامه، مخضعةً الجسد للروح، تقف عند حدود الروح الجسدية؛ وتنتقد جدّية التركيبة الذكورية القاسية، فتشذّب زواياها؛ وتُدخل فيها ترفًا مجانيًا ورشاقةً غير متوقعةٍ. تأتي سلطتها على الرجال من أنها تستدعيهم بلطفٍ إلى وعيٍ متواضعٍ لوضعهم الأصلي؛ إنه سرّ حكمتها المستنيرة، المؤلمة والساخرة والمُحبة. حتى الطيش والنزوة والجهل لديها فضائل ساحرةٌ لأنها تزدهر فيما وراء العالم الذي اختار

الرجل أن يعيش فيه والذي لا يحب أن يشعر أنه محبوسٌ فيه. تضع لغز الأشياء الكاملة مقابل المعاني الجامدة والأدوات المشكّلة لغاياتٍ مفيدةٍ؛ وتمرر نفحة الشعر في شوارع المدن، وفي الحقول المزروعة.

يريد الشعر التقاط ما يوجد وراء النثر اليومي: فالمرأة حقيقةٌ شاعريّةٌ للغاية بما أن الرجل يعكس فيها كل ما يقرّر ألّا يكونه. إنها تمثّل الحلم؛ والحلم بالنسبة للرجل هو الحضور الأكثر حميميةً والأكثر غرابةً، ما لا يريده، ولا يفعله، ويطمح إليه ولا يبلغه؛ تعيره الأخرى الغامضة ملامحها. وهكذا تزور أوريليا نرفال في الحلم وتعطيه العالم بأكمله بصورة الحلم. «شرعت تكبر تحت شعاع ضوءٍ بحيث أخذت الحديقة شكلها شيئًا فشيئًا، وأصبحت أحواض الزهور والأشجار هي ورود ثيابها وزخارفها؛ بينما كان وجهها وذراعاها يطبعان محيطهما على غيوم السماء الأرجوانية. كانت تتوه عن ناظري بقدر ما كان شكلها يتغيّر إذ كان يبدو أنها تفقد الوعي ضمن عظمتها. صحتُ: «آه! لا تهربي مني! لأنّ الطبيعة تموت معك».

نفهم أن تبدو المرأة ملهمة الرجل باعتبارها عنصر فعالياته الشاعرية نفسها، فالملهمات نساءٌ. والملهمة وسيطةٌ بين المبدع والمنابع الطبيعية التي عليه أن ينهل منها. من خلال المرأة التي تندمج روحها بعمقٍ في الطبيعة يسبر الرجل أعماق الصمت والليل الخصب. لا تخلق الملهمة شيئًا بنفسها؛ إنها سيبيل متعقّلة جعلت من نفسها طواعيةً خادمة سيدٍ. ونصائحها مفيدةٌ حتى في الميادين الملموسة والعملية. يريد الرجل بلوغ الأهداف التي يضعها لنفسه دون معونة أقرانه ويزعجه غالبًا رأي رجلٍ آخر؛ لكنه يتخيّل أنّ المرأة تحدثه باسم قيمٍ أخرى، باسم حكمةٍ لا يدّعي أنه يملكها، غريزيّةٌ أكثر من حكمته، أسرع مطابقةً للواقع؛ إنه «حدسٌ» تعطيه الملهمة للمستشار؛ ويسألها دون كبرياءٍ كما يسأل النجوم. يتدخّل هذا «الحدس» حتى في الأعمال أو السياسة: ما زالت أعمال أسبازيا والسيدة دومانتنون مزدهرةً حتى اليوم[136].

وهناك مهمةٌ أخرى يعهد الرجل بها للمرأة بمحض إرادته: بما أنها هدف أعمال الرجال ومصدر قراراتهم، فتبدو في الوقت نفسه مقياسًا للقيم. تجد نفسها قاضيًا ذا امتيازاتٍ.

136- من البديهي أنّ لديهن في الواقع ميزاتٍ فكريّةً مماثلةً تمامًا لميزات الرجال.

لا يحلم الرجل بآخر فقط كي يمتلكه، ولكن أيضًا ليؤكده هذا الآخر؛ يوتّره باستمرارٍ أن يؤكده رجالٌ مشابهون له: ولهذا يتمنى أن تمنح نظرةٌ آتيةٌ من الخارج قيمةً مطلقةً لحياته وأعماله وشخصه. نظرة الله مختبئةٌ، غريبةٌ، مثيرةٌ للقلق: حتى في عصور الإيمان أصابت فقط بعض الصوفيين. هذا الدور الإلهي، خُصِّص غالبًا للمرأة. فهي قريبةٌ من الرجل، وهو يسيطر عليها، إذ لا تطرح قيمًا غريبةً عنه: ومع ذلك، بما أنها آخر، تظلّ خارج عالم الرجال وبالتالي قادرةً على أن تتناوله بموضوعيّةٍ. هي التي تفضح في كل حالةٍ خاصةٍ وجود الشجاعة والقوة والجمال أو غيابها، مؤكّدةً من الخارج قيمتها الشاملة. فالرجال مشغولون كثيرًا بعلاقات التعاون والصراع فيما بينهم بحيث لا يستطيع بعضهم أن يكون جمهورًا للبعض الآخر: فهم لا يتأملون بعضهم. بينما المرأة بمعزلٍ عن فعالياتهم، لا تشترك في اللعب والمعارك: يؤهّلها وضعها للعب دور النظرة هذا. يقاتل الفارس في المسابقة من أجل سيدته؛ ويحاول الشعراء كسب استحسان النساء. عندما أراد **راستينياك** غزو باريس، فكّر أولًا بالحصول على نساءٍ، كانت رغبته في نيل هذه السمعة التي هنّ فقط من يستطيع إسباغها على رجلٍ أكثر من رغبته في امتلاكهن جسديًا. كما أسقط **بلزاك** على أبطاله الشباب حكاية شبابه هو: فقد بدأ باكتساب الخبرة مع عشيقاتٍ أكبر منه سنًّا؛ ولا تلعب المرأة هذا الدور التعليمي فقط في «زنبقة الوادي»؛ إنه الدور الذي خُصِّص لها في «التثقيف العاطفي»، وفي روايات **ستندال** Stendhal والعديد من روايات التعليم الأخرى. رأينا قبلًا أن المرأة هي الطبيعة وضدّها بقدر ما تجسّد الطبيعة المجتمع؛ تتلخص فيها حضارة حقبةٍ وثقافتها، كما نرى في قصائد الغزل وفي «ديكاميرون» وفي «l`Astrèe»[137]؛ وهي تطلق «موضاتٍ»، وتشرف على صالوناتٍ، وتدير الرأي العام وتعكسه. الشهرة والمجد نساءٌ. كان **مالارميه** Mallarmè يقول: «الجمهور امرأةٌ». يتعلم الشاب بقرب النساء ماهية «العالم» وهذا الواقع المعقّد الذي يسمّونه «الحياة». وهي أحد الأهداف المميّزة التي من أجلها يكون المرء بطلًا ومغامرًا وفرديًّا. ونرى في العصور القديمة **برسيه** يحرر **أندروميد**، و**أورفيه** يبحث عن **أوريديس** في الجحيم وطروادة تقاتل من أجل الاحتفاظ **بهيلين** الحسناء. لا تعرف قصص الفروسية أيّة مآثر سوى تحرير الأميرات الأسيرات. ماذا كان الأمير الساحر سيفعل لو لم

137- أشهر قصة فرنسية في القرن السابع عشر، كتبها أونوريه دورف. (المترجمة)

يوقظ الجميلة النائمة، إن لم يغدق عطاياه على «جلد الحمار»؟ أسطورة الملك الذي يتزوج راعيةً تمجّد الرجل والمرأة. فالرجل الغني بحاجةٍ لأن يعطي، وإلّا بقيت ثروته غير المفيدة مجردةً: يحتاج أمامه إلى شخصٍ آخر ليعطيه. وأسطورة سندريلا، التي وصفها **فيليب ويلي** Philipp Wyllie بمجاملةٍ في «*جيل الأفاعي*»، تزدهر خصوصًا في البلاد الموسرة؛ هناك قوّةٌ في أمريكا أكثر من سواها لأنّ الرجال فيها محتارون بأموالهم أكثر من غيرهم: هذه النقود التي أنفقوا حياتهم في كسبها، كيف كانوا لينفقونها إن لم يكن على امرأةٍ؟ لقد جسّد **أورسون ويلز** Orson Welles ـ كما فعل سواه ـ في «المواطن كين» غلبة هذا الكرم الزائف: يختار كين من أجل تأكيد قوّته أن يذلّ بهداياه مغنّيةً مغمورةً ويفرضها على الجمهور كمغنّيةٍ كبيرةٍ، نستطيع أن نذكر أيضًا في فرنسا العديد من المواطن كين باختصارٍ. في الفيلم الآخر، «حدّ الموسى»، عندما يعود البطل من الهند مزوّدًا بالحكمة المطلقة، لا يجد ما يستعملها فيه سوى النهوض بمومسٍ. من الجليّ أن الرجل، حين يحلم بأنه المحسن المحرر المخلّص، يتمنى أيضًا استعباد امرأةٍ؛ إذ من أجل إيقاظ الجميلة النائمة، يجب أن تنام أولًا؛ يجب أن يكون هناك غيلانٌ وتنانين كي تكون هناك أميراتٌ أسيراتٌ. مع ذلك، كلّما كان الرجل محبًّا للأعمال الصعبة، كلّما سُرَّ بإعطاء المرأة استقلالًا. أن تقهر أمرٌ ساحرٌ أكثر من أن تحرّر أو تمنح. مَثل الرجل الغربي العادي الأعلى هو امرأةٌ تخضع لسيطرته طوعًا، لا تقبل أفكاره دون نقاشٍ، ولكن تستسلم لحججه، تقاومه بذكاءٍ لينتهي بها الأمر إلى الاقتناع. كلّما ازداد كبرياؤه، كلّما أحبّ أن تكون المغامرة خطرةً: ترويض **بنتيزيليه**[138] أحلى من الزواج بسندريلا المطيعة. يقول **نيتشه**: «يحب المحارب الخطر واللعب، ولهذا يحب المرأة التي هي أخطر لعبة». يستمتع الرجل الذي يحب الخطر واللعب برؤية المرأة تتحوّل إلى أمازونيّةٍ إن كان يأمل في إخضاعها[139]: يريد في داخله أن يبقى هذا الصراع بالنسبة له لعبةً بينما تضع المرأة مصيرها فيه؛ وذلك هو انتصار الرجل الأكبر، محرّرًا أو قاهرًا: ذلك لأن المرأة ترى فيه طواعيةً قدرها.

138- ملكة الأمازونيات. (المترجمة)

139- الروايات البوليسية الأمريكية ـ أو المكتوبة على الطريقة الأمريكية ـ مثال صارخ على ذلك. أبطال بيتر شيني وسواه لهم دائمًا علاقة بامرأة خطيرة للغاية، لا يمكن لغيرهم إخضاعها: بعد مبارزةٍ تجري على طول الرواية، يتغلب عليها أخيرًا كامبيون أو كالاغان وتقع بين ذراعيه.

وهكذا فإن تعبير «امتلاك امرأةٍ» له معنىً مزدوجٌ: فوظيفتا الموضوع والحكَم غير منفصلتين. بما أنّه يُنظَر إلى المرأة كشخصٍ، فلا يمكن قهرها إلا بموافقتها؛ ويجب الفوز بها. ابتسامة الجميلة النائمة تفعم الأمير الساحر سرورًا: دموع الفرح والعرفان للأميرات الأسيرات تعطي مآثر الفارس معناها. وبالعكس، فنظرته ليست قاسيةً مجرّدةً كنظرةٍ ذكوريةٍ، إنّه مفتونٌ. وهكذا تصبح البطولة والشعر طريقتي إغواءٍ: ولكن المرأة تمجّد البطولة والشعر عندما تستسلم للغواية. وتملك امتيازًا أساسيًا أكثر في نظر الفردانيّ: إذ لا تبدو له مقياسًا للقيمة المعروفة عالميًا، ولكن كشفًا لميزاته الخاصة وحتّى لشخصه. يحكم أقران الرجل عليه انطلاقًا من أفعاله، ضمن موضوعيته وحسب مقاييس عامةٍ. لكن بعض خصائصه ومن بينها خصائصه الحيوية لا تهم أحدًا سوى المرأة؛ فهو ليس رجوليًا ولا ساحرًا مغويًا حنونًا قاسيًا إلا بالنسبة لها: إن كان يعطي قيمةً لهذه الفضائل السرية فهو بحاجةٍ مطلقةٍ لها؛ من خلالها يعيش معجزة أن يبدو لنفسه كآخر، آخر هو أيضًا أناه الأكثر عمقًا. هناك نصٌّ لـمالرو Malraux يعبّر بشكلٍ رائعٍ عما ينتظره الفرداني من الحبيبة. يتساءل كيو:

«يسمع المرء صوت الآخرين بأذنيه، وصوتَه بحلقه. أجل. يسمع حياته أيضًا بحلقه، وماذا عن حياة الآخرين؟... بالنسبة للآخرين، أنا ما أفعله... بالنسبة لـ«ماي» وحدها لم يكن هو ما فعله؛ بالنسبة له فقط، كانت مختلفةً عن مسار حياته. العناق الذي يُبقي الحب به الأشخاص متلاصقين معًا ضدّ الوحدة، لم يكن يساعد الرجل؛ كان يساعد المجنون، الوحش الفريد، المفضّل على الجميع، الذي يكونه كلّ شخصٍ بالنسبة لنفسه والذي يخبئه في داخله. منذ أن ماتت أم «ماي»، كانت ماي الشخص الوحيد الذي لم يكن هو بالنسبة له كيو جيسور، ولكن الشريك الحميم... الرجال لا يشبهونني، إنهم هؤلاء الذين ينظرون إليّ ويحكمون عليّ؛ يشبهني أولئك الذين يحبونني ولا ينظرون إليّ، يحبونني رغم كلّ شيءٍ، يحبونني رغم الانحطاط، والدناءة، والخيانة، أنا وليس ما فعلته أو ما سأفعله، الذين سيحبونني بقدر ما سأحب نفسي، حتى الانتحار»[140].

ما يجعل موقف كيو إنسانيًا ومؤثرًا هو أنّه يفرض المعاملة بالمثل ويطلب من ماي أن

140- الوضع الإنساني.

تحبّه ضمن أصليّته، وليس أن تعكس له صورةً مجاملةً عنه. يتراجع هذا الطلب لدى كثيرٍ من الرجال: فيبحثون في أعماق عينين حيّتين عن صورتهم محاطةً بهالةٍ من الإعجاب والعرفان والإجلال بدل بحثهم عن شيءٍ صحيحٍ. إذا كانت المرأة تقارن غالبًا بالماء، فذلك لأسباب من ضمنها أنها المرآة التي تتأمل النرجسيةُ الذكرية نفسها فيها: إنه ينحني فوقها بحسن أو سوء نيّةٍ. ولكن ما يطلبه منها على كل حال، هو أن تكون وهي خارجه كلّ ما لا يستطيع إدراكه في شخصه، لأنّ داخلية الكائن ليست سوى عدمٍ وكي يبلغ ذاته عليه أن يعكس نفسه في موضوعٍ. والمرأة بالنسبة له هي المكافأة الأسمى بما أنها، بصورة شخصٍ غريبٍ عنه يستطيع أن يمتلك *جسده*، تمجيده هو نفسه. إنّها «هذا الوحش الفريد»، هو نفسه، الذي يعانقه عندما يضم بين ذراعيه الكائن الذي يلخّص من أجله العالم والذي فرض عليه قيمه وقوانينه. عندئذٍ يأمل أن يبلغ ذاته، باتّحاده مع هذا الآخر الذي جعله ملكه، المرأة، كنزًا وغنيمةً ولعبةً ومخاطرةً وملهمةً ودليلًا وحكمًا ووسيطةً ومرآةً، هي الآخر الذي تتفوق الذات على نفسها فيه دون أن تكون محدودةً، الذي تعاكسه دون أن *تنكره*؛ هي الآخر الذي يترك نفسه ملحقًا دون أن يكفّ عن أن يكون الآخر. وبهذا هي ضرويةٌ لبهجة الرجل وانتصاره بحيث يمكن أن نقول أنها لو لم تكن موجودةً لاخترعها الرجال.

وقد اخترعوها[141]. لكنها موجودةً أيضًا دون اختراعهم. ولهذا فهي تجسيد حلمهم، وفشله في الوقت نفسه. لا توجد صورةٌ للمرأة لا تستدعي فورًا صورتها المعاكسة: فهي الحياة والموت، الطبيعة والمصطنع، النور والليل. مهما كان المظهر الذي ندرسها من خلاله سنجد دومًا نفس هذا التأرجح بما أنّ غير الأساسي يرجع بالضرورة إلى الأساسي. تبقى **حواء** والساحرة **سيرسيه** في صورة الأم العذراء **وبياتريس**.

كتب **كيركغارد**: «تدخل المثالية إلى الحياة بواسطة المرأة وماذا كان الرجل سيصبح من دونها؟ أصبح رجالٌ عديدون عباقرةً بفضل فتياتٍ... ولكن لم يصبح أيٌّ منهم عبقريًا بفضل الفتاة التي تزوجها..».

«تجعل المرأة الرجل منتجًا في علاقةٍ سلبيةٍ... تستطيع علاقاتٌ سلبيةٌ مع المرأة أن

141- «خلق الرجل المرأة، من ماذا إذًا؟ من ضلعٍ من ربّه، مثاله» (نيتشه Nietzsche، غسق الآلهة).

تخلّدنا... العلاقات الإيجابية مع المرأة تجعل الرجل محدودًا في أوسع الأبعاد»[142]. أي أنّ المرأة ضروريةٌ بقدر ما تبقى فكرةً يعكس الرجل فيها تساميه الخاص؛ ولكنها مؤذيةٌ كحقيقةٍ موضوعيّةٍ، كائنةٍ من أجل نفسها ومحدودة بنفسها. عندما رفض **كيركغارد** أن يتزوج خطيبته اعتبر أنه أقام مع المرأة العلاقة الوحيدة الصحيحة. وهو محقٌّ بهذا المنحى القائل إنّ أسطورة المرأة المطروحة كآخر أزلي تستدعي حالًا عكسها.

لأنّها أزليّ مزيّف، مثالٌ دون حقيقةٍ، تكتشف نفسها كمحدوديّةٍ وضآلةٍ وفي الوقت نفسه ككذبةٍ. وهكذا تبدو عند **لافورغ** Laforgue؛ يعبّر في كلّ كتابه عن حقده على خديعةٍ يعتبر الرجل مسؤولًا عنها بقدر المرأة. ليست **أوفيليا** و**سالومي** في الواقع سوى «نساءٍ صغيراتٍ». ويفكّر **هاملت** كما يلي: «بهذا الشكل أحبتني **أوفيليا**، «كشيئها» ولأنّي كنت متفوّقًا اجتماعيًا ومعنويًا على ما تملكه صديقاتها. والجمل القصيرة حول الرخاء والرفاهية التي كانت تفلت منها في الأوقات التي تُضاء فيها المصابيح!». تجعل المرأة الرجل يحلم: مع ذلك تفكّر في الرفاهية، في الطعام؛ يحدثونها عن روحها بينما هي ليست سوى جسدٍ. ويصبح العاشق، ظانًّا أنه يلاحق المثال، لعبة الطبيعة التي تستخدم كل ألاعيبها لهدف التكاثر. إنها تمثّل في الحقيقة الحياة اليومية؛ إنها حماقةٌ، حذرٌ، دناءةٌ، مللٌ. وهذا ما تعبر عنه القصيدة المعنونة «رفيقتنا الصغيرة»:

... عندي فنون كلّ المدارس
عندي أرواحٌ لكلّ الأذواق
اقطفوا زهور وجوهي
اشربوا فمي وليس صوتي
ولا تبحثوا عن المزيد
لا شيء يدرك الأمر ولا حتى أنا.
عواطفنا ليست متساويةً
لكي أمدّ لكم يدي

142- In vino veritas. في الخمر تكمن الحقيقة.

لستم سوى ذكورٍ سذّجٍ

أنا الأنوثة الأزليّة!

هدفي يتلاشى في النجوم!

أنا إيزيس العظيمة!

لم يرفع خماري أحدٌ

لا تحلموا سوى بواحاتي...

نجح الرجل في استعباد المرأة: لكنّه بذلك جرّدها مما كان يجعله يرغب في امتلاكها. بالأحرى يتلاشى سحر المرأة بدمجها بالأسرة والمجتمع، أكثر من كونه يتغيّر؛ إذ أنزِلت إلى مرتبة خادمةٍ، لم تعد تلك الطريدة صعبة الترويض التي كانت تتجسّد فيها كلّ كنوز الطبيعة. منذ ولادة الحبّ المجامل، يتفق الجميع على أنّ الزواج يقتل الحبّ. لم تعد الزوجة موضوعًا شهوانيًّا، فهي إما محتقَرةٌ أكثر مما يجب، أو محترمةٌ أكثر مما يجب، أو رتيبةٌ. كانت طقوس الزواج في البدء مخصّصةً لحماية الرجل من المرأة؛ أصبحت ملكه: لكنّ كلّ ما نملكه يملكنا بالمقابل؛ الزواج أيضًا عبوديّةٌ بالنسبة للرجل؛ عندئذٍ يقع في الشرك الذي نصبته له الطبيعة: لأنّ الذكر رغب بشابةٍ يانعةٍ، عليه أن يعيل طول حياته سيّدةً بدينةً، وعجوزًا يابسةً؛ وتصبح الجوهرة الرقيقة المخصّصة لتجميل وجوده عبئًا كريهًا: كزانتيب[143] Xanthippe هي أحد النماذج الأنثوية التي طالما تحدّث عنها الرجال بكرهٍ[144]. ولكن حتّى لو كانت المرأة شابةً هناك خديعةٌ في الزواج بما أنّ من المفروض أنّه يدمج الشهوانيّة اجتماعيًّا، فهو لم ينجح سوى في قتلها. لأنّ الشهوانيّة تفرض مطلبًا للآني ضدّ الزمن، والفرد ضدّ الجماعة؛ وتؤكّد الافتراق ضدّ الاتّصال؛ وهي عصيّةٌ على كلّ تنظيمٍ؛ تحوي جوهرًا معاديًا للمجتمع. لم تخضع الأعراف أبدًا لصرامة التشريعات والقوانين: لقد أثبت الحب نفسه ضدّها على مرّ الأزمنة. توجّه في اليونان وروما بشكله الحسّي إلى شبابٍ أو محظيّاتٍ؛ وخُصّص الحب المجامل دومًا، جسديًا وأفلاطونيًا معًا، لزوجة رجلٍ آخر. تريستان هي ملحمة الخيانة الزوجية. الحقبة التي أعادت خلق أسطورة المرأة حوالي عام

143- زوجة سقراط. (المترجمة)

144- رأينا أنها كانت في اليونان والعصور الوسطى موضوع العديد من النحيب.

1900، هي تلك التي أصبحت فيها الخيانة الزوجيّة موضوع كلّ الأدبيات. بذل بعض الكتّاب، مثل **برنشتاين** Bernstein، جهدًا في إعادة دمج الشهوانية والحب في الزواج، في دفاعٍ كبيرٍ عن التشريعات البرجوازيّة؛ لكنّ هناك حقيقةً أكثر في «عاشقة» **لبورتو ريش** Porto-Riche، الذي يُظهِر عدم تطابق نظامي القيمة هذين. لا يمكن أن تختفي الخيانة الزوجية إلّا باختفاء الزواج نفسه. لأنّ هدف الزواج هو نوعًا ما تمنيع الرجل ضد زوجته، لكنّ النساء الأخريات يحتفظن في نظره بجاذبيتهن الجنونية؛ فيلتفت إليهنّ. وتتواطأ النساء. لأنهن يتمرّدن على نظامٍ يودّ حرمانهنّ من جميع أسلحتهنّ. رُفِعت المرأة إلى مكانة شخصٍ بشريٍّ لانتزاعها من الطبيعة، ولاستعبادها من قِبَل الرجل بواسطة طقوسٍ وعقودٍ، وأعطيت حرّيةً، لكن الحرّية هي تحديدًا ما يُفلت من كل عبوديةٍ؛ وإن أُعطيت لشخصٍ تسكنه في الأصل قوىً شرّيرةٌ، تصبح خطرةً. وتصبح خطرةً أكثر لأنّ الرجل قام بنصف حلٍّ؛ إذ لم يقبل المرأة في العالم الذكوري إلّا بجعلها خادمةً، حارمًا إياها من تساميها؛ ولم يكن للحرّية التي منحوها إياها سوى استعمالاتٍ سلبيةٍ؛ تُستعمل لرفض الذات. لم تصبح المرأة حرّةً إلا عندما أصبحت أسيرةً؛ تخلّت عن هذا الامتياز البشري لتعود إلى قوّتها كموضوعٍ طبيعيٍّ. فتلعب في النهار بخبثٍ دورها كخادمةٍ مطيعةٍ، لكنّها تتبدّل في الليل إلى هرّةٍ، إلى غزالةٍ؛ وتندس ثانيةً في جلد الحوريّة أو تمتطي عصًا وتهرب نحو حلقاتٍ شيطانيةٍ. أحيانًا تمارس سحرها الليلي على زوجها نفسه؛ لكنّ من الأشدّ حذرًا أن تخفي تبدلاتها عن سيّدها؛ فتختار غرباء كطرائد؛ ليست لهم حقوقٌ عليها، وتظلّ بالنسبة لهم نبتةً، ومنبعًا، ونجمةً، وساحرةً. هاهي إذًا مكرّسةٌ للخيانة: إنه الوجه الوحيد الملموس الذي تستطيع حرّيتها اتّخاذه. إنها خائنةٌ حتّى بخلاف رغباتها، وأفكارها، وضميرها؛ بما أنّهم ينظرون إليها كموضوعٍ، فهي تمنح نفسها لكلّ ذاتٍ تختار الاستيلاء عليها؛ حبيسة الحريم، مخبأةً تحت نقابٍ، لا شيء يضمن أنّها لا تثير رغبة أحدٍ: إثارة رغبة غريبٍ، يعني عدم احترام زوجها والمجتمع. ولكنّها عدا ذلك تجعل من نفسها غالبًا شريكةً في هذه الحتمية؛ بالكذب والخيانة فقط تستطيع أن تثبت أنّها ليست شيئًا لأحد وتنفي ادّعاءات الذكر. ولهذا غيرة الرجل سريعة الحدوث، نرى في الأساطير أنّه يمكن الارتياب بالمرأة دون سببٍ، والحكم عليها لدى أدنى شكٍّ، مثل **جنفييف دوبارban وديدمونة**؛ لقد تعرّضت **غريزيليديس** لأقصى المحن دون أدنى شكٍّ؛ لم

يكن هناك معنى لهذه القصة لو لم يُشتبه بالمرأة سلفًا؛ لا ضرورة لإثبات خطيئتها: عليها هي أن تثبت براءتها. ولهذا أيضًا قد لا يمكن إشباع الغيرة؛ قلنا قبلًا إنّه لا يمكن تحقيق الامتلاك بصورةٍ إيجابيّةٍ؛ حتى إن منعنا كلّ الآخرين من أن ينهلوا من النبع الذي نشرب منه فنحن لا نملكه: والغيور يعرف ذلك جيّدًا. المرأة غير ثابتة في جوهرها، كالماء الجاري؛ ولا تستطيع أيّة قوّةٍ بشريّةٍ معارضة حقيقةٍ طبيعيةٍ. من خلال كلّ الأدبيّات، في *ألف ليلة وليلة* كما في *ديكاميرون*، ينتصر مكر المرأة على حذر الرجل. ومع ذلك فهو يتحوّل إلى سجّانٍ ليس بإرادةٍ فرديةٍ: المجتمع الذي يجعله مسؤولًا عن سلوك المرأة كأبٍ وأخٍ وزوجٍ. تفرض عليها العفّة لأسباب اقتصاديّةٍ ودينيةٍ، بما أنّ كلّ مواطنٍ عليه أن يكون ابن أبيه الأصلي. لكن من الهام جدًا كذلك إرغام المرأة على التطابق تمامًا مع الدور الذي اختاره لها المجتمع. هناك مطلبٌ مزدوجٌ للرجل يدفع المرأة إلى النفاق: يريد أن تكون المرأة ملكه وأن تبقى غريبةً؛ يحلم بها خادمةً وساحرةً معًا. ولكنّه يطبّق رغبته الأولى فقط علنًا؛ أما الثانية فهي مطلبٌ خفيٌّ داخل قلبه وجسده؛ لأنّه يعاكس عرف المجتمع؛ وهو سيّئٌ كالآخر، كالطبيعة المتمردة، «كالمرأة السيّئة». لا يكرّس الرجل نفسه للخير الذي يقيمه ويريد أن يفرضه؛ يحافظ على علاقاتٍ مخزيةٍ مع الشرّ. ولكنّه يحارب هذا الأخير حيثما تجرأ على إظهار وجهه دون حذرٍ. يدعو الرجل المرأة إلى الخطيئة في ظلمات الليل. ولكنّه يطرد الخطيئة والخاطئة في وضح النهار. وتُظهر النساء جهارًا تقديسًا متحمّسًا للفضيلة، بينما يخطئن في خبايا السرير. والعضو الذكري دنيويٌّ لدى البدائيين بينما عضو المرأة محمّلٌ بالفضائل الدينية والسحرية، وغلطة الرجل في المجتمعات الأكثر حداثةً ليست سوى نزوةٍ بسيطةٍ؛ يُنظَر إليها غالبًا بتسامحٍ؛ حتّى إن عصى الرجل قوانين الجماعة فهو يظلّ منتميًا إليها؛ فهو ليس سوى طفلٍ شقيٍّ لا يشكّل تهديدًا كبيرًا للنظام الجمعي. وعلى العكس إذا هربت المرأة من المجتمع، ستعود إلى الطبيعة وإلى الشيطان، فتطلق ضمن المجموعة قوىً شرّيرةً لا يمكن السيطرة عليها. يمتزج الخوف دائمًا باللوم الذي يستدعيه سلوكٌ فاجرٌ. ويساهم الزوج في غلطة زوجته إن لم ينجح في فرض العفّة عليها؛ ومصيبته في نظر المجتمع عارٌ، هناك حضاراتٌ صارمةٌ تفرض عليه أن يقتل المجرمة كي يتنصّل من جريمتها. ولدى حضاراتٍ أخرى، يُعاقَب الزوج المتغاضي بشجارٍ صاخبٍ أو يُطاف به عاريًا على حمارٍ.

وتتكفّل الجماعة بمعاقبة المذنبة بدلًا عنه: لأنّها لم تهنه وحده، لكنها أهانت المجتمع بأسره. وُجدت هذه العادات بشراسةٍ في إسبانيا المتطيّرة والتقيّة والحسّية والخائفة من الجسد. لقد جعل **كالديرون** Calderon، **ولوركا** Lorca، **وفايّه إنكلان** Valle Inclan من ذلك موضوع عدة مآسٍ. في «*منزل برناردا*» لـ**لوركا**، أرادت ثرثارات القرية معاقبة الشابة التي وقعت في الغواية بإحراقها على الجمر الملتهب «في مكان خطيئتها». وفي «*الأقوال الإلهية*» لـ**فايّه إنكلان**، تبدو المرأة الخاطئة ساحرةً ترقص مع الشيطان؛ لدى اكتشاف خطيئتها، تجتمع القرية لتنزع عنها ملابسها ثم تغرقها. تذكر تقاليد كثيرةٌ أنّ الخاطئة كانت تُعرّى هكذا؛ ثم كانت تُرجم كما ورد في *الإنجيل*، وكانت تُدفن حيّةً، أوتُغرَق، أوتُحرَق. المغزى من هذا التنكيل، هو إعادتها إلى الطبيعة بعد تجريدها من كرامتها الاجتماعية؛ فقد أطلقت دفقًا طبيعيًا سيّئًا بخطيئتها: وكانت العقوبة تتم ضمن طقوسٍ مقدّسةٍ حيث تعرّي النساءُ المذنبةَ ويضربنها ويقتلنها، ويطلقن بدورهنّ سوائل غامضةً، ولكن مفيدةً، بما أنّهنّ يعملن بالتنسيق مع المجتمع.

تتلاشى هذه القسوة الوحشيّة كلّما تناقصت التطيّرات وتلاشى الخوف. ولكن يُنظَر في الريف بريبةٍ إلى البوهيميات اللواتي ليس لديهنّ ربٌّ ولا مقرٌّ ثابتٌ. فالمرأة التي تمارس سحرها بحرّيةٍ: مغامرةً، مغويةً، لا تقاوَم، تبقى نموذجًا مثيرًا للقلق. في أفلام هوليوود يبقى وجه **سيرسيه** ماثلًا في المرأة الشريرة. لقد أُحرِقت نساءٌ كساحراتٍ فقط لأنّهن كنّ جميلاتٍ. ويظلّ هناك ذعرٌ قديمٌ في نفور عفيفات الأقاليم المصطنع أمام نساءٍ سيئات السيرة.

هذه المخاطر هي التي تجعل من المرأة لعبةً آسرةً بالنسبة لرجلٍ مغامرٍ. فيحاول أن يقهرها في معركةٍ منفردةٍ، متخلّيًا عن حقوقه كزوجٍ، رافضًا الاعتماد على القوانين الاجتماعية. يحاول إلحاق المرأة به حتى ضمن مقاومتها؛ يتابعها في هذه الحرّية التي تهرب منه عبرها. عبثًا. لا يمكن صنع الحرّية: المرأة الحرّة تظلّ حرّةً ضدّ الرجل. حتّى الجميلة النائمة تستطيع أن تستيقظ مستاءةً، تستطيع ألّا ترى الأمير الساحر في شخص من يوقظها، تستطيع ألّا تبتسم. وهذا بالضبط حال *المواطن كين* الذي تبدو المرأة التي يخميها مسحوقةً وينكشف كرمها كإرادة قوّةٍ وتسلّطٍ؛ وتستمع زوجة البطل إلى رواية

إنجازاته بلامبالاةٍ، وتتثاءب الملهمة التي يحلم بها الشاعر وهي تسمع أبياته. قد ترفض الأمازونيّة القتال بملل؛ ويمكنها أيضًا الخروج منه ظافرةً. فرضت كثيرٌ من الرومانيات في عصر الانحدار، وكثيرٌ من الأمريكيات اليوم، نزواتهنّ أو قانونهنّ على الرجال. أين هي سندريلا؟ كان الرجل يتمنى أن يعطي وها هي المرأة تأخذ. لم يعد الأمر مسألة لعبةٍ ولكن مسألة دفاعٍ عن النفس. وباعتبار المرأة حرّةً فليس لديها مصيرٌ آخر سوى ذاك الذي ترسمه لنفسها بحريّةٍ. عندئذٍ تصبح علاقة الجنسين علاقة صراعٍ. وعندما تصبح بالنسبة للرجل شبيهًا، تبدو مخيفةً بقدر ما كانت هي أمامه الطبيعة الغريبة. تنقلب الأنثى المغذّية، المتفانية، الصابرة، إلى حيوانٍ جشعٍ مفترسٍ. كما تغمس المرأة السيّئة جذورها في الأرض، في الحياة؛ لكنّ الأرض حفرةٌ، والحياة معركةٌ لا ترحم: فتُستَبدل أسطورة النحلة المجتهدة، والأم الحنون، بأسطورة حشرةٍ مفترسةٍ، السرعوفة الراهبة، العنكبوت؛ فلا تعود المرأة تلك التي تُرضِع الصغار ولكن تلك التي تأكل الذكر؛ ولا تعود البويضة مخزن الغلال الوفيرة، ولكن فخًا من مادةٍ ساكنةٍ تغرق فيه النطفة المخصية؛ ويصبح الرحم، هذا الغار الدافئ، الهادئ والأمين، أخطبوطًا رطبًا، نبتةً آكلة لحمٍ، هاويةً من الظلمات المختلجة؛ تسكنه أفعىً تبتلع قوى الذكر دون أن تشبع. تجعل نفس الجدليّة من الموضوع الشهواني ساحرةً سوداء، ومن الخادمة خائنةً، ومن سندريلا غولةً وتغيّر كلّ امرأةٍ إلى عدوّةٍ: إنها الضريبة التي يدفعها الرجل لأنّه طرح نفسه بسوء نيّةٍ كأساسٍ وحيدٍ.

مع ذلك فهذا الوجه العدو ليس الصورة النهائية للمرأة. تدخل المانوية بالأحرى ضمن النوع الأنثوي. كان فيثاغورث يشبّه الجوهر الجيّد بالرجل، والجوهر السيّئ بالمرأة. لقد حاول الرجال أن يتغلّبوا على الشرّ بإلحاق المرأة؛ ونجحوا في ذلك جزئيًّا؛ ولكن كما أنّ المسيحية هي من أعطى المعنى الكامل لكلمة اللعنة بابتداع أفكار الفداء والخلاص، تبرز صورة المرأة السيّئة أمام صورة المرأة المطهَّرة. أثناء «معركة النساء» هذه التي تدور منذ العصور الوسطى وحتى أيامنا، لا يريد بعض الرجال معرفة امرأةٍ غير المرأة المباركة التي يحلمون بها، ولا يريد آخرون معرفة غير المرأة الملعونة التي تكذّب أحلامهم. ولكن في الحقيقة، إن كان الرجل يستطيع أن يجد كلّ شيءٍ في المرأة، فذلك لأنّ لديها هذين الوجهين. إنها تصوّر بطريقةٍ جسديّةٍ وحيويّةٍ كلّ القيم والقيم المضادّة التي تعطي الحياة

معنىً. ها هما الخير والشرّ المتمايزان اللذان يتعارضان ضمن ملامح الأم المتفانية والعشيقة المؤذية؛ في الأغنية الإنجليزية القديمة «راندال يا بنيّ»، يأتي فارسٌ شابٌّ ليموت بين ذراعي أمّه، وقد سمّمته عشيقته. يتناول كتاب «*الصمغ*» **لريشبن** Richepin ثانيةً نفس الموضوع بحزنٍ وذوقٍ سيِّئ. **ميكائيلا** الملائكيّة تعارض **كارمن** السوداء. وتتبرع الأم، والخطيبة المخلصة، والزوجة الصبورة بتضميد جراح قلب الرجال التي صنعتها من أغوينهم. بين هذين القطبين المثبتين بوضوحٍ تتّضح كثيرٌ من الصور المتناقضة، نساءٌ مثيراتٌ للشفقة، كريهاتٌ، خاطئاتٌ، ضحايا، غنجاتٌ، ضعيفاتٌ، ملائكيّاتٌ، شيطانيّاتٌ. العديد من السلوكيات والمشاعر تجذب الرجل وتغنيه.

ويبهج الرجلَ تعقيدُ المرأة هذا: ها هي ذي خادمةٌ رائعةٌ تستطيع إبهاره دون كلفةٍ كبيرةٍ. أهي ملاكٌ أم شيطانٌ؟ يجعل الشكّ منها أبا هولٍ. وضع هذا الشعار أحد أشهر بيوت الدعارة في باريس. في عصر الأنوثة الكبير، في زمن المشدات، **وبول بورجيه**، **وهنري باتاي**، ورقصة الكان كان، ظلّت فكرة اللغز قائمةً في المسرحيات والشعر والأغاني: «من أنت، ومن أين أتيت، يا أبا الهول الغريب؟» ولم ينتهوا بعدُ من الحلم بالغموض الأنثوي ومناقشته. وللمحافظة على هذا الغموض رجا الرجال النساء طويلًا بألّا يتخلّين عن الأثواب الطويلة، والتنانير الداخليّة، والنقاب، والقفازات الطويلة، والأحذية العالية: كلّ ما يزيد الاختلاف في الآخر يجعله مرغوبًا فيه أكثر، بما أنّ الرجل يريد امتلاك الآخر بصفته آخر. ونرى **آلان فورنييه** Alain Fournier في رسائله يلوم الإنجليزيات على مصافحتهن الصبيانية: ويؤثّر به تحفّظ الفرنسيات الخجول. على المرأة أن تبقى سرّيةً، مجهولةً، كي يكون بالإمكان الهيام بها كأميرةٍ بعيدة المنال؛ ولكن لا يبدو أن **فورنييه** كان يحترم النساء اللواتي عبرن حياته، لكنّه جسّد كلّ روعة الطفولة والصبا وكلّ الحنين للأهل الراحلين في امرأةٍ، امرأةٍ كانت أولى ميزاتها أنّها كانت تبدو مستحيلة المنال. رسم لـ **إيفون دوغاليه** صورةً بيضاء ومذهّبةً. لكنّ الرجال يحبون حتى العيوب الأنثوية إن كانت تعطي غموضًا. كان أحد الرجال يقول بتسلّطٍ لامرأةٍ عقلانيّةٍ: «على المرأة أن تكون لها نزواتٌ». والنزوة لا يمكن التكهّن بها؛ وهي تمنح المرأة رشاقة الماء المتموّج؛ ويزينها الكذب بانعكاساتٍ ساحرةٍ؛ ويعطيها الغنج وحتّى الفساد نكهةً آسرةً. هكذا ترضي بشكلٍ أفضل رغبات الرجال المتناقضة، مخيّبةً

للآمال، هاربةً، غير مفهومةٍ، منافقةً. إنها مايا ذات التحوّلات المتعددة. اتفق الجميع على أن يروا في أبي الهول ملامح فتاةٍ: والعذريّة هي إحدى الأسرار التي تؤثّر في الرجال وخاصةً المتحررين منهم؛ طهارة الفتاة توحي بكل الاحتمالات ويعرف الجميع الفساد المختبئ خلف براءتها؛ إذ ما تزال قريبةً من الحيوان والنبات، مطيعةً للتقاليد الاجتماعية، فهي ليست طفلةً ولا بالغةً؛ ولا توحي أنوثتها الخجولة بالخوف، ولكن ببعض القلق. نفهم لماذا هي أحد وجوه الغموض الأنثوي المفضّلة. مع ذلك بما أن «الشابة الحقيقية» تختفي، فقد أصبحت قيمتها شيئًا من الماضي. بالمقابل احتفظ وجه المومس، الذي أعطاه غاستيون Gastillon لمايا، في مسرحيّةٍ نالت نجاحًا كبيرًا، بكامل مكانته. إنّه أحد أكثر النماذج الأنثوية حيويّةً، ذاك الذي يسمح أكثر من غيره بلعبة الرذيلة والفضيلة. تمثّل الشرّ والعار والمرض واللعنة بالنسبة للتقيّ الورع، وتوحي بالخوف والاشمئزاز؛ ولا يملكها أي رجلٍ إنما تمنح نفسها للجميع وتعيش من هذه التجارة؛ وبذلك تنال الاستقلالية المخيفة للآلهة ـ الأم الفاسقة البدائية، وتجسّد الأنوثة التي لم يطهّرها المجتمع الذكوري، التي تبقى محمّلةً بقدراتٍ مؤذيةٍ؛ لا يستطيع الذكر أن يتصوّر أنّه يملكها بالفعل الجنسي، إنه وحيدٌ أمام شياطين الجسد، وهذا إذلالٌ، وتدنيسٌ يشعر به بشكلٍ خاصٍ الأنغلوساكسون الذين يبدو الجسد في نظرهم ملعونًا بشكلٍ متفاوتٍ. بالمقابل الرجل الذي لا ينفر من الجسد يحب تجسّده السخي والبحت لدى المومس؛ فيرى فيها تمجيد الأنوثة الذي لم يمحه أيّ عرفٍ؛ ويجد على جسدها هذه الميزات السحرية التي كانت سابقًا تقارب بين المرأة والنجوم والبحر.

يعتقد ميلر Miller مثلًا أنه يسبر أعماق الحياة والموت والكون إن ضاجع مومسًا؛ وينضم للإله في أعماق ظلمات المهبل المرحّب الرطبة. لأنّ «الفتاة الضالّة» منبوذةٌ نوعًا ما، على هامش عالمٍ منافقٍ أخلاقيًا، فيمكن أيضًا اعتبارها إنكارًا لكلّ الفضائل الرسميّة؛ يقرّبها سقوطها من القدّيسات الأصليّات؛ لأنّ ما تم تحقيره سيتمّ تمجيده؛ لقد راعى المسيح ماري مادلين؛ وتفتح الخطيئة أبواب السماء بشكلٍ أسهل مما تفعله الفضيلة المنافقة. وهكذا ضحّى راسكولنيكوف على قدمي سونيا بالكبرياء الذكوري الصلف الذي قاده إلى الجريمة؛ أثار بالجريمة إرادة الافتراق هذه الموجودة لدى كلّ رجلٍ: فهي مومسٌ متواضعةٌ، مستكينةٌ،

مهجورةً من الجميع، تستطيع أفضل من سواها تلقّي اعتراف استسلامه[145]. وتوقظ كلمة «الفتاة الضالّة» أصداءً تبعث الاضطراب؛ يحلم كثيرٌ من الرجال بأن يزلّوا؛ وهذا ليس بالأمر السهل، إذ لا ينجح المرء بسهولةٍ في بلوغ الشرّ بوجهٍ إيجابيٍّ؛ حتّى الشيطاني يخاف من جرائم مبالغٍ بها؛ تسمح المرأة دون مخاطرةٍ تُذكر بإقامة قدّاساتٍ سوداء يُذكَر فيها الشيطان دون أن يدعى إليها؛ فهي على هامش العالم الذكوري: الأعمال التي تخصّها لا تؤدّي إلى نتائج فعليةٍ؛ مع ذلك هي كائنٌ بشريٌّ وبالتالي يمكن من خلالها القيام بثوراتٍ قاتمةٍ ضدّ القوانين البشريّة. من **موسيه** Musset إلى **جورج باتاي**، معاشرة «فتياتٍ» هو الفجور ذو الملامح الكريهة والساحرة. يشبع **ساد** Sade **وساخر- مازوخ** Sacher-Masoch الرغبات التي تسكنهما في نساءٍ؛ ويتوجّه أتباعهما، ومعظم الرجال الذين لديهم «رذائل» يودّون إشباعها، بشكلٍ طبيعيٍّ إلى المومسات. فهنّ الأكثر خضوعًا للذكر من بين جميع النساء، واللواتي يفلتن منه مع ذلك أكثر؛ وهذا ما يؤهلهنّ لاكتساب كلّ هذه المعاني المتعدّدة. مع ذلك لا يوجد أي شكلٍ أنثويٍّ: العذراء، الأم، الزوجة، الأخت، الخادمة، العشيقة، العفيفة الجفولة، المحظية الباسمة، غير قادرٍ على تجسيد رغبات الرجال المتقلّبة.

مهمّة علم النفس ـ وخصوصًا التحليل النفسي ـ أن يكتشف لماذا يتعلّق شخصٌ بشكلٍ خاصٌّ بهذا المظهر أو ذاك من مظاهر الأسطورة متعدّدة الوجوه؛ ولماذا يجسّدها بهذا الشكل الخاص. ولكن هذه الأسطورة مشتركةٌ بين كلّ العقد والهواجس والذهانات. بشكلٍ خاصٌّ كثيرٌ من العُصابات تنبع من الممنوع: فهذا لا يستطيع أن يظهر إلّا إن كان هناك محرّماتٌ قد تشكّلت مسبقًا؛ ولا يكفي ضغطٌ اجتماعيٌّ خارجيٌّ لتفسير وجوده؛ في الواقع الممنوعات الاجتماعيّة ليست فقط اتفاقيّاتٍ؛ لديها ـ من بين معانٍ أخرى ـ معنىً أنطولوجيٌّ يختلف مظهره من فردٍ لآخر. من اللافت على سبيل المثال دراسة «عقدة أوديب»؛ فغالبًا ما نعتبرها نتاج صراعٍ بين الميول الغريزية والأوامر الاجتماعية؛ لكنّها أولًا صراعٌ داخليٌّ

145- يعرض مارسيل شوب Marcel Schwob بصورةٍ شاعريّةٍ هذه القصّة في «كتاب مونيل»: «سأحدّثك عن المومسات الصغيرات وستعرف البداية... يطلقن صيحة تعاطفٍ معك ويداعبن يدك بيدهنّ النحيلة. لا يفهمنك إلّا إن كنت تعيسًا للغاية؛ ويبكين معك ويواسينك... لا تستطيع أيٌّ منهنّ البقاء معك. سيصبحن تعيساتٍ جدًا ويخجلن من البقاء عندما تكف عن البكاء، لا يجرؤن على النظر إليك. يعلّمنك الدرس الذي عليهنّ تعليمك إياه ويذهبن. يأتين عبر البرد والمطر ليقبّلن جبينك ويمسحن عينيك وتبتلعهنّ الظلمات المخيفة ثانيةً... ولا يجب أن تفكّر فيما أمكنهنّ فعله في الظلمات».

لدى الفرد ذاته. تعلّق الطفل بثدي الأم هو أوّلًا ارتباطٌ بالحياة بشكلها الآني، في عموميتها ومثوليتها؛ ورفض الفطام هو رفض الهجر المفروض على الفرد ما إن ينفصل عن *الكلّ*؛ انطلاقًا من ذلك، وبينما هو يتفرّد أولًا بأوّلٍ، وينفصل أكثر، يمكن أن نصف ميله الذي احتفظ به إلى جسد الأم الذي انفصل عنه الآن بالجنسي؛ شهوانيّته بالتالي موسَّطة، أصبحت ارتقاءً نحو موضوعٍ غريبٍ. ولكن كلّما اضطلع الطفل بنفسه كذاتٍ بشكلٍ أسرع وأكثر حزمًا، كلّما أصبح الرباط الذي يعيق استقلاليته مزعجًا له. عندئذٍ يتهرّب من المداعبات، وتشعره السلطة التي تمارسها أمه، وحقوقها عليه، وأحيانًا حتّى حضورها بنوعٍ من الخزي. ويبدو له مزعجًا، وفاحشًا خصوصًا، أن يكتشفها كجسدٍ، فيتحاشى التفكير في جسدها؛ هناك فضيحةٌ وليس غيرةٌ في الخوف الذي يشعر به تجاه أبيه أو زوج أمه أو عشيقها: تذكيره بأنّ أمه هي كائنٌ من لحمٍ ودمٍ، هو تذكيره بولادته هو، وهو حدثٌ يرفضه بكلّ قواه؛ أو على الأقلّ يتمنى أن يجلّها كظاهرةٍ كونيّةٍ كبيرةٍ؛ على أمه أن تلخّص الطبيعة التي تستثمر كل الأفراد دون أن تنتمي لأيٍّ منهم؛ يكره أن تصبح غنيمةً، ليس لأنّه يريد ـ كما يزعمون غالبًا ـ أن يملكها هو نفسه، ولكن لأنه يريد أن تكون فوق كلّ امتلاكٍ: لا يجب أن تكون لها ذات الأبعاد الدنيئة للزوجة أو العشيقة. مع ذلك، عندما تصبح جنسيته ذكوريّةً لحظة المراهقة، يحدث أن يصيبه جسد أمه باضطراب؛ ولكن ذلك لأنّه يدرك الأنوثة عمومًا فيها؛ وغالبًا ما تنطفئ الرغبة التي يثيرها منظر فخذٍ أو ثديٍ ما إن يدرك الفتى أن هذا الجسد هو جسد الأم. هناك حالات فسادٍ عديدةٌ، بما أنّ المراهقة هي سنّ التشوّش، فهي سن الفساد، حيث الاشمئزاز يستدعي التدنيس، حيث تولد الغواية من الممنوع. ولكن ينبغي ألّا نظنّ أنّ الابن يرغب بسذاجةٍ أولًا بمضاجعة أمّه وأنّ دفاعاتٍ خارجيةً تتدخل وتمنعه؛ على العكس تولد الرغبة بسبب هذا الدفاع الذي تشكّل في قلب الفرد بالذات. هذا الممنوع هو رد الفعل الطبيعي والعام. ولكن هنا أيضًا، لا يأتي من تعليماتٍ اجتماعيةٍ تخفي رغباتٍ غريزيةً. الاحترام هو بالأحرى تصعيد اشمئزازٍ أصليٍّ؛ يرفض الشاب أن ينظر إلى أمه كجسدٍ؛ إنه يغيّر شكلها، ويشبهها بإحدى الصور النقيّة لامرأةٍ مُطهَّرةٍ يقترحها عليه المجتمع. بذلك يساهم في تقوية الصورة المثالية للأم التي تنقذ الجيل التالي. ولكنّها لا تملك تلك القوة إلّا لأنها مدعوةٌ من قبل جدليّةٍ فرديّةٍ.

وبما أنّ كلّ امرأة مسكونةٌ بجوهر المرأة العام، أي بجوهر الأم، فمن المؤكّد أنّ الموقف من الأم سينعكس على العلاقات مع الزوجة والعشيقة؛ ولكن بشكلٍ أكثر بساطةً مما نتخيّل غالبًا. والمراهق الذي اشتهى أمه بشكلٍ ملموسٍ وحسّيٍّ يمكن أن يكون قد اشتهى فيها المرأة عمومًا: وستهدأ فورته مع أيّة امرأةٍ؛ فليس لديه ميلٌ إلى سفاح المحارم[146]. وبالعكس، قد يتمنى الشاب الذي يشعر بحنانٍ وإجلالٍ أفلاطونيٍّ تجاه أمه، أن يكون لدى كلّ امرأةٍ نقاء الأمومة.

ونعرف أهمّية الجنس، وبالتالي المرأة، في السلوك المرضي والطبيعي. يحدث أن تؤنّث مواضيع أخرى؛ بما أنّ المرأة هي من ابتكار الرجل في جزءٍ كبيرٍ، فيستطيع أن يبتكرها من خلال جسدٍ ذكرٍ: في اللواط يظلّ هناك تقسيمٌ للجنسين. ولكن عادةً، يُبحَث عن المرأة لدى أشخاصٍ أنثويين. بواسطتها، من خلال ما يوجد فيها من الأفضل والأسوأ يتعلّم الرجل السعادة، والألم، والخطيئة، والفضيلة، والجشع، والتخلّي، والتفاني، والتسلّط، يتعلّم ذاته، إنّها لعبة المغامرة، والتجربة كذلك؛ إنها الاحتفال بالنصر واحتفال أكثر فظاظةً بالتغلّب على الفشل؛ إنها دوار الضياع، وسحر اللعنة، والموت. هناك عالمٌ من المعاني لا يوجد سوى عبر المرأة؛ هي مادّة أعمال الرجال ومشاعرهم، وتجسيد كلّ القيم التي تتطلّب حرّيتهم. نفهم أنّ الرجل، وإن كان محكومًا بالإنكار، لا يتمنى التخلي عن حلمٍ يشتمل على كلّ أحلامه.

هذا ما يبرر إذًا أنّ للمرأة وجهًا مزدوجًا مخيّبًا للآمال: هي كلّ ما يطلبه الرجل وكلّ ما لا يستطيع بلوغه. هي الوسيطة الحكيمة بين الطبيعة المفيدة والرجل؛ وهي غواية الطبيعة اللامنضبطة ضدّ كلّ حكمةٍ. تجسّد شهوانيًّا كلّ القيم الأخلاقيّة وعكسها من الخير إلى الشرّ؛ هي مادّة الفعل والعقبة في وجهه، تأثير الرجل على العالم وفشله؛ وبذلك هي أصل كلّ رد فعل الرجل على وجوده وكلّ مظهرٍ لذلك؛ مع ذلك تنهمك في تحويله عن ذاته، وتجعله يغرق في الصمت والموت. خادمةً ورفيقةً، يريد أن تكون أيضًا جمهوره وحكَمه، أن تؤكّده في كيانه؛ لكنها تعارضه بلامبالاتها، وحتى سخريتها وضحكاتها. يلقي عليها ما يرغبه وما يخشاه، ما يحبّه وما يكرهه. وإن كان من الصعب ألّا نقول شيئًا عن ذلك، فلأنّ الرجل يبحث

146- مثال ستندال صارخٌ.

عن نفسه بكامله فيها ولأنّها **كلٌّ**. لكنّها **كلٌّ** في عالم اللاأساسي: هي كلّ **الآخر**. وبما أنها آخر، فهي أيضًا غير نفسها، غير ما يُنتَظَر منها. بما أنها كلٌّ، فهي ليست أبدًا ما يجب أن تكونه؛ هي خيبةٌ مستمرّةٌ، خيبة الوجود الذي لا ينجح أبدًا في إدراك ذاته ولا في التصالح مع كامل الكائنات.

الفصل الثاني

كي نؤكّد هذا التحليل للأسطورة الأنثوية كما تُطرَح بشكلٍ جماعيٍّ، سنتأمّل الشكل الخاصّ والتوفيقي الذي اتّخذته لدى بعض الكتّاب. بدا لنا موقف **مونترلان** ود.هـ. **لورنس** **وكلوديل** **وبروتون** **وستندال** من المرأة وصفيًّا.

1

مونترلان Montherlant أو خبز الاشمئزاز

ينتمي **مونترلان** إلى القائمة التقليدية الطويلة للذكور الذين اعتنقوا مانويّة **فيثاغورث** المتكبّرة. يعتبر بعد نيتشه أن عصور الضعف وحدها هي التي مجّدت الأنوثة الخالدة وأنّ على البطل أن يثور ضدّ الآلهة الأم الكبرى. ويحاول خلعها عن عرشها، فالبطولة من اختصاصه. المرأة هي الليل، والفوضى، والمثوليّة. كتب بالنسبة للسيدة **تولستوي**: «هذه الظلمات المختلجة ليست أكثر من الأنوثة في حالتها الصرفة»[147]. برأيه إن غباء رجال اليوم ودناءتهم هما ما أعطى القصور الأنثوي وجهًا إيجابيًّا: يتحدّثون عن غريزة النساء، وحدسهنّ، وبعد نظرهنّ بينما يجب فضح عجزهنّ عن إدراك الواقع؛ لسن مراقباتٍ ولا

147- حول النساء.

عالمات نفسٍ؛ لا يمكنهنّ رؤية الأشياء ولا فهم الأشخاص؛ غموضهنّ فخٌّ، وكنوزهنّ التي لا يمكن سبرها عميقةٌ كالعدم؛ ليس لديهنّ شيءٌ يعطينه للرجل ولا يمكنهنّ إلّا الإضرار به. بالنسبة لـ**مونترلان** الأمّ أوّلًا هي العدوّة الكبرى؛ في مسرحيّةٍ كتبها وهو شابٌّ، «*المنفى*»، قدّم أمًّا تمنع ابنها من التطوّع؛ في «الأوليمبيون» يعرقل «خوف الأمّ الأناني» المراهق الذي يودّ أن يمارس الرياضة؛ في «العازبات»، وفي «الشابات» يعطي الأم ملامح بغيضةً. جريمتها هي أنها أرادت أن تحتفظ بابنها للأبد حبيس ظلمات بطنها؛ تبتره كي تستطيع الاستئثار به وتملأ بذلك فراغ كيانها العقيم؛ وهي أسوأ معلّمةٍ؛ تقص أجنحة الطفل، وتمسك به بعيدًا عن القمم التي يطمح إليها، تجعله غبيًّا وتذلّه. ولهذه الشكاوى أساسٌ. ولكن من خلال المآخذ الصريحة التي يوجهها **مونترلان** للمرأة ـ الأم، من الواضح أنّ ما يكرهه فيها هو ولادته. يظنّ أنّه إلهٌ، يريد أن يكون إلهًا: لأنّه ذكرٌ، لأنّه «رجلٌ متفوّقٌ»، لأنّه **مونترلان**. الإله لا يولد؛ إن كان له جسدٌ، فجسده إرادةٌ مسكوبةٌ في عضلاتٍ قاسيّةٍ ومطيعةٍ، وليست لحمًا مسكونًا بالحياة والموت؛ يجعل الأم مسؤولةً عن هذا اللّحم القابل للتلف، العارض، سريع العطب، الذي ينكره. «المكان الوحيد الذي كان قابلًا للعطب في جسم أشيل، كان ذلك الذي أمسكته أمّه منه»[148]. لم يشأ **مونترلان** أبدًا أن يتحمّل مسؤولية الوضع الإنساني؛ ما يسميه كبرياءه هو منذ البدء هروبٌ خائفٌ من المخاطر التي تتضمنها حرّيةٌ ملتزمةٌ في العالم من خلال جسدٍ؛ ويطالب بتأكيد الحرّية، مع رفض الالتزام؛ دون ارتباطٍ، ودون جذورٍ، يحلم بذاتيّةٍ في غاية الانطواء على نفسها؛ تزعج هذا الحلم ذكرى أصله الجسدي ويلجأ إلى إجراءٍ اعتاد عليه: فيتخلّى عنها بدل أن يتغلّب عليها.

العشيقة بنظر **مونترلان** ضارّةٌ كالأم؛ تمنع الرجل من إعادة إحياء الإله الكامن فيه؛ ويصرّح أنّ نصيب المرأة هو الحياة بما فيها من مباشرةٍ، تتغذّى بالأحاسيس، وتتمرّغ في المثوليّة، وهي مهووسةٌ بالسعادة: تريد أن تحبس الرجل فيها؛ ولا تشعر بانطلاقة تساميها، وليس لديها مفهوم العظمة؛ تحب عشيقها بضعفه وليس بقوّته، بآلامه وليس بفرحه؛ تتمناه أعزل تعيسًا لدرجة أنها تريد إقناعه بتعاسته خلافًا لكلّ بداهةٍ. إنّه يتفوّق عليها وبذا يفلت منها: تريد أن تجعله بنفس قياسها لتستولي عليه. لأنها بحاجةٍ إليه، فهي لا تكفي

148- حول النساء.

نفسها، إنّها كائنٌ طفيليٌّ. يُظهر **مونترلان** بعيني دومينيك المتنزِّهات في رانلاغ «معلّقاتٍ بذراع عشاقهنّ ككائناتٍ لا فقاريّةٍ، شبيهاتٍ ببزّاقاتٍ كبيرةٍ متنكّرةٍ»[149]؛ النساء بحسب رأيه باستثناء الرياضيات كائناتٌ ناقصةٌ، مكرّسةٌ للعبودية: رخوةٌ دون عضلاتٍ وبذا ليس لهنّ تأثيرٌ على العالم؛ كذلك يعملن بقوّةٍ على الحصول على عشيقٍ والأفضل على زوجٍ. لم يستخدم **مونترلان** على ما أعلم خرافة السرعوفة الراهبة، لكنّه يقدّم نفس المعنى: فالحب بالنسبة للمرأة هو الافتراس، تدّعي أنّها تمنح نفسها، وتأخذ. ويذكر صرخة السيدة **تولستوي**: «أعيش من خلاله، ولأجله؛ وأطالبه بنفس الشيء تجاهي»، ويفضح أخطار مثل هذا الجموح في الحب، فيجد حقيقةً رهيبةً في كلمة سفر الجامعة: «رجلٌ يضمر لك السوء خيرٌ من امرأةٍ تضمر لك الخير». ويستند إلى تجربة **ليوتي** Lyautey: «من يتزوّج مِن رجالي هو رجل فقد نصف قيمته». ويجد الزواج ضارًّا خصوصًا بالنسبة إلى «الرجل المتفوّق»؛ إنّها برجزةٌ سخيفةٌ؛ هل يتخيّل المرء هذا الكلام: السيدة **إشيل** أو «أنا ذاهبٌ لأتعشى لدى آل دانتي»؟ ذلك يُضعف مكانة الرجل العظيم؛ والزواج يكسر وحدة البطل الرائعة؛ فهو «بحاجةٍ إلى ألّا ينشغل عن نفسه»[150].

قلت آنفًا إنّ **مونترلان** اختار حرّيةً دون موضوعٍ، أي أنه يفضّل وهم استقلاليّةٍ على الحرّية الأصليّة التي تنخرط في العالم؛ إنه يود منعها عن المرأة؛ فهي ثقيلةٌ، ذات وزنٍ. «أمرٌ قاسٍ ألّا يستطيع الرجل أن يسير مستقيمًا لأنّ المرأة التي يحبها معلقةٌ بذراعه»[151]. «كنت أحترق، فأطفأتني. كنت أسير فوق الماء، فتعلّقت بذراعي، وغُصتُ»[152]. كيف لها كلّ هذه القوّة بما أنها فقط نقصٌ وفقرٌ وسلبيةٌ وسحرها سرابٌ؟ لا يعطي **مونترلان** تفسيرًا لذلك. يقول فقط بعجرفةٍ إنّ «الأسد محقٌّ إذ يخشى البعوضة»[153]. لكن الجواب واضحٌ: من السهل أن يظنّ المرء نفسه سيّدًا عندما يكون وحيدًا، وأن يظنّ نفسه قويًّا عندما يرفض أن يحمل أيّ ثقلٍ. اختار **مونترلان** السهولة؛ يودّ أن يجلّ القيم الصعبة، لكنه يحاول بلوغها بسهولةٍ.

149- الحلم.

150- حول النساء.

151- الشابات.

152- المرجع نفسه.

153- المرجع نفسه.

يقول ملك **باسيفاي** Pasiphaè: «الأكاليل التي نمنحها لأنفسنا هي الوحيدة التي تستحق أن نضعها». إنه لمبدأٌ مريحٌ. ويثقل **مونترلان** جبينه بالأكاليل، ويتوشّح بالأحمر؛ ولكن تكفي نظرةٌ غريبةٌ لتكشف أنّ هذه التيجان هي من الورق وأنّه عارٍ مثل ملك **أندرسن**. السير على الماء في الحلم أسهل من التقدّم على دروب الأرض في الواقع. ولهذا يتحاشى الأسد **مونترلان** البعوضة الأنثوية: يخشى تجربة الحقيقي[154].

إذا كان **مونترلان** قد صغّر أسطورة المؤنث الخالد فيجب أن نهنئه على ذلك: عندما ننكر المرأة يمكن أن نساعد النساء على حمل مسؤوليتهن كإنسانٍ. لكنّنا رأينا أنّه يحوّلها إلى وحشٍ بدلًا من تحويلها لمعبودةٍ. وهو يعتقد أيضًا بهذا الجوهر الغامض والذي لا يمكن اختزاله: الأنوثة؛ يعتقد بعد **أرسطو** و**سانت توما** أنّها تتحدّد سلبيًّا؛ المرأة امرأةٌ لأنها تفتقر إلى الذكورة؛ هذا هو القدر الذي يجب أن يخضع له كلّ مخلوقٍ أنثى دون أن يستطيع تغييره. وتصنّف تلك التي تريد الإفلات منه في أدنى درجات السلّم البشري: فهي لا تنجح في أن تصبح رجلًا، وتتخلّى عن كونها امرأةً؛ فهي ليست سوى صورةٍ هزليّةٍ، تقليدٍ زائفٍ؛ أن تكون جسدًا وشعورًا لا يمنحها أيّة حقيقةٍ: **مونترلان** أفلاطونيٌّ حسبما يحلو له، يبدو أنّه يعتبر أن أفكار الأنوثة والذكورة وحدها تتملك الشخص؛ الفرد الذي لا يشارك في واحدةٍ أو الأخرى ليس له سوى مظهر الوجود. ويُدين بلا رحمةٍ هذه «العفاريت» التي تجرؤ على تقديم نفسها كذاتٍ مستقلةٍ، وعلى أن تفكّر، وتتصرّف، وينوي إذ يرسم صورة **أندريه هاكبو** إثبات أن كلّ امرأةٍ تبذل جهدًا لتجعل من نفسها شخصًا تتحوّل إلى دميةٍ متحركةٍ مكشِّرةٍ. وبالطبع **أندريه** قبيحةٌ بشعةٌ ملابسها بلا ذوقٍ ووسخةٌ حتّى، الأظافر والساعدان متسخةٌ: الثقافة القليلة التي مُنِحتها كانت كافيةً لتقتل كلّ أنوثتها؛ يؤكد لنا **كوستال** Costal أنها ذكيّةٌ، ولكن في كلّ صفحةٍ يكرّسها لها **مونترلان** يقنعنا بغبائها؛ يدّعي **كوستال** أنه يشعر بالتعاطف معها؛ ويجعلها **مونترلان** كريهةً في نظرنا. بهذا الالتباس البارع يثبَت الغباء والذكاء الأنثوي، ويُقَرُّ أنّ لدى المرأة قباحةً أصليّةً تُفسِد كل الصفات الذكورية التي تميل إليها.

154- يعتبر آدلر Adler هذه العمليّة الأصل الكلاسيكي للذهانات. الفرد المنقسم بين «إرادة قوّةٍ» و«عقدة نقصٍ» يقيم بينه وبين المجتمع أكبر مسافةٍ ممكنةٍ كيلا يضطر إلى مواجهة تجربة الحقيقي. يعرف أنها ستتطلّب أشياء لا يستطيع أداءها إلا بسوء نيّةٍ.

يريد **مونترلان** فعلًا أن يمنح استثناءً للرياضيّات؛ إذ يمكنهنّ اكتساب فكرٍ وروحٍ بتمرين جسدهن؛ كما سيكون من السهل إنزالهنّ من عليائهنّ؛ يبتعد **مونترلان** بكياسةٍ عن الفائزة بسباق الألف مترٍ والتي يكرمها بحماسٍ؛ لا يشك بأن بإمكانه إغواءها بسهولة ويريد أن يجنّبها هذا الانحطاط. لم تثبت **دومينيك** على القمم التي كان **ألبان** يناديها إليها؛ وقعت في غرامه: «هذه التي كانت كلّها فكرٌ وروحٌ كانت تعرق، مطلقةً روائحها، وانقطع نفسها فراحت تسعل»[155]. وطردها **ألبان** مستنكرًا. قد يحترم المرء امرأةً قتلت في نفسها الشهوة بانتظامها بالريّاضة؛ لكنّ الفضيحة البغيضة هي وجودٌ مستقلٌّ مصبوبٌ في جسد امرأةٍ؛ الجسد الأنثوي كريهٌ ما إن يسكنه شعورٌ. يناسب المرأة أن تكون جسدًا فقط. ويقبل **مونترلان** الوضع الشرقي: مكان الجنس الأضعف في الأرض كموضوع متعةٍ مكانٌ متواضعٌ بالتأكيد، ولكنّه مقبولٌ؛ ويجد تبريرًا في المتعة التي ينالها الذكر منه وفي هذه المتعة فقط. المرأة المثالية حمقاء تمامًا وخاضعةٌ تمامًا؛ وهي مستعدة دائمًا لاستقبال الرجل، ولا تطلب منه شيئًا أبدًا. هكذا هي «**دوس**»، التي يقدّرها **ألبان** حسب مزاجه، «دوس الغبية بشكلٍ رائعٍ والمرغوبة أكثر كلما كانت أشدّ غباءً... لافائدة منها خارج أوقات الحب وعندئذٍ يتحاشاها بلطفٍ حازمٍ»[156]. وهكذا هي العربية الصغيرة **خديجة**، بهيمة حبٌّ هادئةٌ تقبل طائعةً المتعة والمال. وهكذا يمكن تخيّل هذه «البهيمة الأنثى» التي صادَفها في قطارٍ إسبانيٍّ: «كانت تبدو بلهاء إلى درجة أني رحت أشتهيها»[157]. ويشرح الكاتب: «المزعج لدى النساء، هو ادعاؤهنّ الذكاء، ومبالغتهن بحيوانيتهنّ، وتصميمهن ما فوق البشري»[158].

مع ذلك **مونترلان** ليس سلطانًا شرقيًّا البتة؛ إذ تنقصه الشهوانيّة أولًا. لا يلتذّ «بالحيوانات الأنثوية» بسلامة نيّةٍ؛ إنهنّ «مريضاتٌ، سيّئاتٌ، غير صادقاتٍ تمامًا أبدًا»[159]؛ **كوستال** يُسِرّ لنا أن شعر الفتيان ذو رائحةٍ أقوى وأفضل من رائحة شعر النساء؛ يشعر أحيانًا بالنفور من **سولانج**، من هذه الرائحة المتكلّفة اللطف، المثيرة تقريبًا للاشمئزاز

155- الحلم.

156- المرجع نفسه.

157- فتاة قشتالة الصغيرة.

158- المرجع السابق.

159- الشابات.

وهذا الجسد الخالي من العضلات والأوتار كبزّاقةٍ بيضاء»[160]. يحلم بعناقٍ جديرٍ به، بين متعادلين، حيث تولد الرقّة من قوّةٍ مقهورةٍ... يتذوّق الشرقي المرأة بشهوانيّةٍ وبذا تنشأ بين العاشقين شهوانيّةٌ متبادلةٌ: وهذا ما تظهره ابتهالات *نشيد الأناشيد* الحارّة، وحكايات *ألف ليلة وليلة*، والكثير من القصائد العربية التي تمجّد الحبيبة؛ هناك نساءٌ سيّئاتٌ بالتأكيد؛ ولكن هناك أيضًا لذيذاتٌ، ويستسلم الرجل الشهوانيّ بين ذراعيهنّ باطمئنانٍ، دون أن يجد في ذلك إذلالًا له. بينما بطل **مونترلان** دائمًا بوضعيةٍ دفاعيّةٍ: «أن تأخذ دون أن تؤخذ، هي الصيغة الوحيدة المقبولة بين الرجل المتفوّق والمرأة»[161]. يتحدث بطيب خاطرٍ عن لحظة الرغبة، التي تبدو له لحظةً عدوانيّةً ذكوريّةً؛ ويتجنّب لحظة المتعة؛ ربما يخشى أن يكتشف أنّه هو أيضًا يتعرّق، ويلهث، «ويطلق روائحه»؛ ولكن لا: من يجرؤ على استنشاق رائحته، والإحساس بتعرقه؟ جسده الأعزل غير موجودٍ، لأنّ لا أحد أمامه: هو الشعور الوحيد، وجودٌ شفّافٌ محضٌ وسيّدٌ؛ وإن كانت المتعة موجودةً لشعوره نفسه، فهو لا يأبه لها: سيكون ذلك إضعافًا له. ويتحدث بمجاملةٍ عن المتعة التي يمنحها، ولا يتحدث مطلقًا عن تلك التي يتلقاها: فالتلقي تبعيّةٌ. «ما أطلبه من امرأةٍ، هو أن أمنحها متعةً»[162]؛ اتّقاد الشهوانيّة تواطؤٌ: وهو لا يقبله؛ يفضّل وحدة السيطرة المتعالية. كان يبحث لدى النساء عن إشباعٍ ذهنيٍّ غير حسّيٍّ.

فأولًا إشباع غرورٍ يتمنى أن يعبّر عنه دون أن يخاطر بشيءٍ. أمام المرأة «يشعر المرء بنفس شعوره أمام الحصان، أمام الثور الذي عليه مواجهته: نفس القلق ونفس الشعور بمقارنة قوّتيهما»[163]. لا يستطيع مقارنة قوته بقوة سائر الرجال، ستكون تلك جرأةً منه؛ سيتدخلون في التجربة ويفرضون معايير غير متوقعة، وسيطلقون حكمًا غريبًا؛ يبقى المرء أمام ثورٍ أو حصانٍ حَكم نفسه، وهذا مطَمئنٌ أكثر بكثيرٍ. المرأة أيضًا، إن أحسن المرء اختيارها، يبقى وحده أمامها: «لا مساواة بيني وبين من أحبّ، لأني أبحث في المرأة عن الطفلة». لا تشرح هذه البديهية شيئًا: لماذا يبحث عن الطفلة، وليس عن ندّه؟ هل كان **مونترلان** ليكون أكثر

160- المرجع نفسه.

161- المرجع نفسه.

162- المرجع نفسه.

163- فتاة قشتالة الصغيرة.

صراحةً إن أعلن أنه ليس له ندّ؛ وبتحديدٍ أكثر أنه لا يريد أن يكون له ندٌّ: فشبيهه يخيفه. في زمن الألعاب الأوليمبية يُعجَب في الرياضة بقوّة المنافسات التي تخلق مراتب لا يمكن الغشّ فيها؛ لكنه لم يستوعب هذا الدرس هو نفسه؛ في تتمة كتابه وحياته، ينسحب أبطاله مثله تمامًا من أيّة مواجهةٍ: يتعاملون مع حيواناتٍ، ومناظر، وأطفالٍ، ونساءٍ ـ طفلاتٍ، ولا يتعاملون أبدًا مع أندادهم. فيما مضى كان **مونترلان** معجبًا بوضوح الرياضة القاسي، وهو لا يقبل عشيقةً سوى نساءٍ لا يخشى غروره الخائف حكمَهنّ؛ يختارهنّ «سلبيّاتٍ وبسيطاتٍ»، طفولياتٍ، غبياتٍ، خسيساتٍ. يتحاشى *منهجيًا* أن يعزو إليهنّ شعورًا: فإن اكتشف بعضًا منه ثار وتركهنّ؛ لا يتعلق الأمر مع المرأة بإقامة علاقةٍ بين ذاتين: ينبغي ألّا تكون في مملكة الرجل سوى شيءٍ بسيطٍ حيٍّ؛ لا يُنظر إليها أبدًا كذاتٍ؛ ولا يؤخذ أبدًا بوجهة نظرها. لبطل **مونترلان** مبادئ يعتقد أنها صلفةٌ وهي ليست سوى مريحةٍ: فهو لا يهتم إلّا بعلاقاته بنفسه. يتعلّق بالمرأة ـ أو بالأحرى يعلّقها به ـ ليس كي يستمتع بها، ولكن كي يستمتع بنفسه: بما أنّ المرأة أدنى حتمًا، فوجودها يكشف تفوّق الذكر الأساسي والجوهري وغير القابل للإزالة؛ دون خطورةٍ.

وهكذا تسمح حماقة **دوس لألبان** نوعًا ما «بإعادة تشكيل أحاسيس *نصف الإله* القديم الذي يتزوّج الإوزّة الرائعة»[164]. ما إن يلمس **كوستال سولانج**، حتى يتحوّل إلى أسدٍ رائعٍ: «ما إن جلسا الواحد بقرب الآخر، حتّى وضع يده على فخذ الفتاة (فوق ثوبها)، ثم أبقاها موضوعةً على وسط جسمها *كما يبقي الأسد* قائمته ممدودةً على قطعة اللحم التي فاز بها...»[165] هذه الحركة التي يقوم بها العديد من الرجال كل يومٍ بتواضعٍ في عتمة دور السينما، يعلن لهم **كوستال** أنها «حركة *الإله* البدائية»[166]. إن كان لدى العشاق والأزواج الذين يقبّلون عشيقاتهم قبل أن يضاجعونهنّ الإحساس بالعظمة مثله كانوا ليعرفون هذه التحولات الكبيرة دون عناءٍ. «كان يشمّ بشكلٍ مبهمٍ وجه هذه المرأة، كما يتوقف *الأسد* بين الفينة والفينة ليلعق قطعة اللحم التي يمسكها بين قوائمه وهو يمزّقها»[167]. هذا الغرور الضاري ليس المتعة الوحيدة التي

164- الحلم.

165- الشابات.

166- المرجع نفسه.

167- المرجع نفسه.

يأخذها الذكر من أنثاه؛ إنها حجّته كي يقوم بتجربة قلبه بحرّيةٍ، دونما مخاطرةٍ، وبشكلٍ كاملٍ. ذات ليلةٍ، تسلّى **كوستال** بأن يتألّم إلى أن أُشبِع بطعم ألمه، فانقضّ بنشاطٍ على فخذ دجاجةٍ. لا يسمح المرء لنفسه إلّا نادرًا بمثل هذه النزوة. لكنّ هناك متعًا أخرى أقوى أو أخفّ. التنازل مثلًا؛ يتنازل **كوستال** بالإجابة على بعض رسائل نساءٍ، ويوليها عنايةً حتى أحيانًا؛ كتب لإحدى الفلّاحات في نهاية رسالةٍ مسهبةٍ متحذلقةٍ: «أشكّ في أنك تستطيعين فهمي، لكنّ من الأفضل أن *أنزل* إليك»[168]. يروق له أحيانًا أن يقولب امرأةً على صورته: «أريد أن أصنع بك ما أريد... لم *أرفعك* إليّ كي تكوني شيئًا آخر سواي»[169]. ويتسلّى بصنع بعض الذكريات الجميلة لـ**سولانج**. ولكنّه يشعر بسخائه بنشوةٍ خصوصًا عندما يضاجع امرأةً: مانح الفرح، مانح السلام، والدفء، والقوة، والمتعة، هذه الثروات التي يوزّعها تفعمه. لا يدين بشيءٍ لعشيقاته؛ وكي يكون أكيدًا من ذلك يدفع لهنّ غالبًا؛ ولكن حتّى إن كان الإيلاج متبادلًا، فالمرأة مدينةٌ له بشكلٍ غير متبادلٍ: فهي لا تعطي شيئًا، بل هو يأخذ. وهكذا يجد من الطبيعي للغاية، يوم أن فضّ بكارة **سولانج**، أن يرسلها إلى الحمّام؛ حتّى إن أحبّ رجلٌ امرأةً برقّةٍ، من الغريب أن نرى أنه يبذل جهدًا من أجلها؛ إنه ذكرٌ تبعًا لحقٍّ إلهيٍّ، وهي مكرّسةٌ بحقٍّ إلهيٍّ للمراحيض. غرور **كوستال** يبلغ حدّ الفظاظة بحيث لم نعد ندري جيّدًا ما يميّزه عن مستخدمٍ وقحٍ.

أولى واجبات المرأة هي أن تخضع لمتطلّبات كرمها؛ عندما يفترض **كوستال** أنّ **سولانج** لا تحب مداعباته يثور بعنفٍ. إن كان يحب **خديجة**، فلأن وجهها يتهلّل فرحًا ما إن يلجها. عندئذٍ يستمتع لشعوره أنه حيوانٌ فريسةٌ وأميرٌ رائعٌ معًا. مع ذلك نتساءل بحيرةٍ من أين تأتي نشوة الامتلاك والإشباع إذا لم تكن المرأة الممتلكة والمشبَعة سوى شيءٍ هزيلٍ، جسدٍ باهتٍ يخفق فيه بديلٌ للشعور. كيف يستطيع **كوستال** أن يضيع كلّ هذا الوقت مع هذه المخلوقات التي لا طائل منها؟

هذه التناقضات تعبّر عن غرورٍ ليس سوى تفاهةٍ.

هناك تلذّذٌ أكثر دقّةً للقوي والسخي والسيد، هي الشفقة على العرق البائس. من وقتٍ

168- المرجع نفسه.

169- الشابات.

لآخر، يتأثر **كوستال** لشعوره بكلّ هذه الرصانة الأخويّة، كل هذا التعاطف للمساكين، كل هذه «الشفقة على النساء». أيّ شيءٍ أكثر إثارةً للمشاعر من الرقة المفاجئة للأشخاص القاسين؟ يعيد في نفسه إحياء هذه الصورة النبيلة لـ **إيبينال** عندما ينحني نحو هذه الحيوانات المريضة أي النساء. حتى الرياضيات، يحب أن يراهنّ مغلوباتٍ، جريحاتٍ، منهكاتٍ، صريعاتٍ؛ أما بالنسبة للأخريات، فيريدهنّ عزلاواتٍ قدر الإمكان. بؤسهنّ الشهري يصيب **كوستال** بالاشمئزاز ومع ذلك يبوح لنا أنّه «كان دائمًا يفضّل لدى النساء هذه الأيام التي يعرف أنهنّ يعانين فيها»[170]... يحدث له أن يستسلم لهذه الشفقة؛ ويبلغ الأمر به أن يقطع على نفسه تعهّداتٍ، وربما يفي بها: فيلتزم بمساعدة **أندريه**، وبالزواج من **سولانج**. وعندما تنسحب الشفقة من روحه، تموت هذه الوعود: أليس لديه الحق في مناقضة نفسه؟ هو من يضع قواعد اللعبة التي يلعبها مع نفسه كشريكٍ وحيدٍ.

لا يكفي **مونترلان** أن تكون المرأة أدنى، مثيرةً للشفقة. بل يريدها مُحتقَرةً. يدّعي أحيانًا أن صراع الرغبة والاحتقار هو مأساةٌ محزنةٌ: «آه! يا لها من مأساةٍ أن ترغب بما تحتقرُه!... أن تضطرّ إلى الاجتذاب والإبعاد بنفس الوقت، أن تؤجّج وترمي بسرعةٍ كما تفعل بأعواد الثقاب، إنّها مأساة علاقاتنا مع النساء!»[171]. في الحقيقة لا توجد مأساةٌ إلّا من وجهة نظر عود الثقاب، وهي وجهة نظرٍ مهمَلةٌ. أما بالنسبة لمن يشعل، حريصًا على ألّا يحرق أصابعه، فمن الواضح أن هذا التمرين يسرّه. إن لم تكن متعته في «أن يرغب بما يحتقره»، ما كان ليرفض بشكلٍ منهجيٍّ أن يرغب في ما يحترمه: ما كان **ألبان** ليرفض **دومينيك**؛ كان ليختار «أن يحب ضمن المساواة»؛ وكان ليتحاشى أن يحتقر بهذا القدر ما يرغب فيه: بعد كلّ شيءٍ، لا نرى مبدئيًّا لماذا تكون راقصةٌ صغيرةٌ إسبانيّةٌ شابةٌ وجميلةٌ ومتأجّجةٌ وبسيطةٌ مُحتَقَرةً لهذه الدرجة؛ هل لأنها فقيرةٌ، من أصلٍ وضيعٍ، بلا ثقافةٍ؟ نخشى أن تكون هذه عيوبًا بالفعل في نظر **مونترلان**. لكنّه يحتقرها خصوصًا كامرأةٍ، بقرارٍ منه؛ ويقول تحديدًا إنّ الغموض الأنثوي ليس هو ما يثير أحلام الذكور، ولكن هذه الأحلام هي ما يخلق الغموض؛ لكنه هو أيضًا يعكس على الموضوع ما تطلبه ذاتيّته: إنّه لا يحتقر النساء لأنهنّ يستحققن

170- المرجع نفسه.

171- فتاة قشتالة الصغيرة.

الاحتقار، ولكنّهنّ يبدين له منفّراتٍ لأنه يريد أن يحتقرهنّ. يشعر أنّه جاثمٌ فوق قممٍ عاليةٍ بقدر ما تكون المسافة بينه وبينهنّ أكبر؛ هذا ما يفسّر أنّه يختار لأبطاله عاشقاتٍ دنيئاتٍ بهذه الدرجة: يضع مقابل الكاتب العظيم **كوستال** عذراء مسنّةً من الأقاليم يؤرّقها هاجس الجنس والملل، وبورجوازيّةً صغيرةً من اليمين المتطرّف، بلهاء طامعةً؛ أي أنّه يقدّر قيمة شخصٍ بمقاييس متواضعةٍ: يبدو لنا صغيرًا نتيجة هذا الحذر الأخرق. ولكن لا يهمّ، **كوستال** يظنّ نفسه عظيمًا. تكفي أكثر نقائص المرأة تواضعًا لتغذّي تفوّقه. في «الشابات» نصٌّ ذو مغزىً بشكلٍ خاصّ. قبل أن تضاجع **سولانج كوستال** تقوم بتحضيرات الليل. «عليها أن تذهب إلى المرحاض، ويذكر **كوستال** تلك الفرس التي كانت لديه، فخورةً، رقيقةً، لدرجة أنها لم تكن تبول ولا تتبرّز أبدًا عندما كان فوق ظهرها». هنا نكتشف كره الجسد (نفكّر بـ**سويفت** Swift: Cèlia chie)[172]، والرغبة بتشبيه المرأة بحيوانٍ أهلي، ورفض الاعتراف بأيّ استقلاليّةٍ لها، حتى ولو كانت بشأن التبوّل؛ ولكن إذ يستنكر **كوستال**، ينسى أنّه يملك هو أيضًا مثانةً وكولونًا؛ وكذلك يلغي كلّ إفرازاته الشخصية عندما يشمئزّ من امرأةٍ غارقةٍ بالعرق والرائحة: هو روحٌ صافيةٌ تخدمها عضلاتٌ وعضوٌ من الفولاذ. ويعلن **مونترلان** في «*في ينابيع الرغبة*»: «الاحتقار أنبل من الرغبة»، ويقول **ألفارو**: «خبزي هو الاشمئزاز»[173]. يا للاحتقار من عذرٍ عندما يرضى بنفسه! بما أنّ المرء يتأمّل ويحكم، يشعر أنّه مختلفٌ جذريًّا عن الآخر الذي يطلق حكمه عليه، ينظّف نفسه مجّانًا من العيوب التي يتهمه بها. بأيّة نشوةٍ يُظهر **مونترلان** خلال حياته كلها احتقاره للرجال! يكفيه أن يفضح حمقهم كي يظنّ نفسه ذكيًّا، وجبنهم ليعتقد أنه شجاعٌ. في بداية الاحتلال، انخرط في سورةٍ من الاحتقار لمواطنيه المغلوبين: هو ليس فرنسيًّا ولا مغلوبًا، إنّه يحلّق. رغم كلّ شيءٍ يصحّ القول إنّ **مونترلان** نفسه الذي يتّهم لم يفعل شيئًا أكثر مما فعله الآخرون ليتفادى الهزيمة؛ حتى إنه لم يشأ أن يكون ضابطًا؛ لكنه يعود إلى توجيه الاتهام بهيجانٍ يجرفه بعيدًا عن نفسه[174]. إذا تظاهر بأنّه آسفٌ لاشمئزازه فذلك كي يشعر بأنّه حقيقي ويبتهج به أكثر. في الحقيقة، إنّه يجد فيه راحةً لدرجة أنه يحاول بشكلٍ منهجيٍّ جرّ المرأة إلى السفالة. يتسلى بإغراء الفتيات الفقيرات

172- جملة كان سويفت يستخدمها لضبط صديقته. (المترجمة)

173- سيّد سانتياغو.

174- انقلا [illegible] ص301.

بالمال والحلي: ويهلّل إن قبلن هداياه الخسيسة. يلعب لعبةً ساديّةً مع **أندريه** للاستمتاع، وليس لجعلها تتألّم، ولكن كي يراها تُذلّ. ويدعو **سولانج** إلى قتل الطفل؛ فتقبل هذا المنظور وتتأجّج أحاسيس **كوستال**: يمتلك ضمن نشوة احتقارِ هذه القاتلة القادرة.

يكمن مفتاح هذا الموقف في حكاية اليسروعات: مهما كان القصد المخفي منها فهي ذات مغزىً كبيرٍ[175]. يبول **مونترلان** على يسروعاتٍ، ويتسلى بتجنيب بعضها بوله، ويقتل بعضها؛ ويشفق ضاحكًا على تلك التي تجاهد لتظلّ حيّةً ويتركها بكرمٍ تنال فرصتها: وهذه اللعبة تبهجه. دون اليسروعات ما كان رشق البول ليكون سوى إطراحٍ؛ ويصبح أداة حياةٍ وموتٍ؛ تجاه الحشرة الزاحفة، يشعر الرجل الذي يفرغ مثانته بوحدة الله المستبدّة؛ دون أن يتعرض لتهديدٍ متبادلٍ. وكذلك الذكر تجاه الحيوانات المؤنثة، من أعلى القاعدة التي يجثم عليها، مرّةً يعطي، ومرةً يسترجع، ويغدق، ويشفق، ويثور قاسيًا أحيانًا، رقيقًا أحيانًا أخرى، عادلًا ونزويًا؛ ولا يصغي إلّا إلى متعته الخالصة؛ إنّه سيّدٌ، حرٌّ، فريدٌ. ولكن يجب ألّا تكون هذه الحيوانات سوى حيواناتٍ؛ تُختار بشكلٍ مقصودٍ، ويُمتدَح ضعفها، وتُعامل كحيواناتٍ بضراوةٍ بحيث ينتهي بها الأمر إلى قبول وضعها. وهكذا ينتشي بيض لويزيانا وجورجيا بسرقات السود وكذبهم: يشعرون أنّ الفوقية التي يمنحهم إياها لون جلدهم تأكّدت؛ وإن أصرّ أحد هؤلاء الزنوج على البقاء شريفًا، يسيئون معاملته أكثر بسبب ذلك. وهكذا كانوا يمارسون تحقير الرجل بشكلٍ منهجيٍّ في معسكرات الاعتقال: كان جنس السادة يجد في هذا الإذلال دليلًا على أنّه من جوهرٍ أعلى من البشر.

هذا الالتقاء ليس وليد الصدفة. نعرف جيّدًا أن **مونترلان** معجبٌ بالإيديولوجيّة النازيّة. وينتشي برؤية الصليب المعقوف الذي هو عجلة الشمس ينتصر في أحد أعياد الشمس. «انتصار العجلة الشمسية ليس فقط انتصار الشمس، انتصار الوثنيّة. إنّه انتصار الجوهر الشمسي القائل إنّ كلّ شيءٍ يدور... أرى في هذا اليوم انتصار المبدأ الذي أنا مفعم به، الذي تغنّيت به، والذي أشعر بكامل وعيي أنه يدير حياتي»[176]. نعرف أيضًا بأي إحساسٍ بالعظمة اقترح على الفرنسيين خلال الاحتلال أن يحذوا حذو هؤلاء الألمان الذين «يتنفسّون أسلوب

175- المرجع السابق، ص286.

176- انقلاب حزيران/ يونيو، ص308.

القوّة العظيم»[177]. نفس الميل القلِق للسهولة الذي كان يجعله يهرب أمام معادليه جعله يركع أمام المنتصرين: اعتقد أنّه يتماثل معهم بهذا الركوع؛ ها هو ذا منتصرًا، هذا ما تمناه دائمًا، سواء كان ذلك الانتصار على ثورٍ، أو يسروعاتٍ، أونساءٍ، على الحياة نفسها والحرية. يصح القول إنه قبل الانتصار كان يمجّد «الشموليين الساحرين»[178]. كان مثلهم عدميًّا دومًا، كان دومًا يكره الرجال. «لا يستحق الناس حتّى أن تقودهم (وليس من المحتّم أن تكون البشرية قد فعلت شيئًا تستحق من أجله أن تكرهها لهذه الدرجة)»[179]. كان يعتقد مثلهم أنّ بعض المخلوقات: كعرقٍ أو أمّةٍ أو هو نفسه، **مونترلان**، تملك امتيازًا مطلقًا يمنحها كلّ الحقوق على الآخرين. كلّ مبادئه تبرّر الحرب والاضطهاد وتنادي بهما. وللحكم على موقفه من النساء، من الملائم أن نفحص هذه الأخلاق عن قربٍ. لأنه يجب أخيرًا أن نعرف باسم ماذا أدانهنّ.

كان للخرافة النازيّة بنيةٌ تحتيةٌ تاريخيةٌ: فالعدميّة تعبّر عن اليأس الألماني؛ كانت عبادة البطل تخدم أهدافًا إيجابيةً مات من أجلها ملايين الجنود. ليس لموقف **مونترلان** أيّ مقابل إيجابيٌّ ولم يكن يعبّر سوى عن خياره الوجودي الشخصي. في الحقيقة اختار هذا البطل الخوف. لدى كلّ شعورٍ رغبةٌ في السيادة: لكنها لا تتأكّد إلّا بمخاطرته بنفسه؛ ليس ثمة فوقيّةٌ معطاةٌ أبدًا بما أن الرجل لاشيء حين يُصغَّر إلى ذاتيته؛ يمكن أن تقوم المراتب بين تصرفات الرجال وأعمالهم؛ ويجب العمل باستمرارٍ على كسب التقدير: **مونترلان** نفسه يعرف ذلك. «ليس للمرء حقٌّ سوى بما هو مستعد للمخاطرة به». لكنّه لم يشأ أبدًا أن يخاطر بنفسه وسط أشباهه. لقد ألغى البشرية لأنّه لا يجرؤ على مواجهتها. يقول ملك «*الملكة الميتة*»: «الناس عقبةٌ تثير الغضب»، ذلك لأنّهم ينكرون «السحر المجامل» الذي يخلقه المغرور حول نفسه. يجب رفضهم. من اللافت أنّ أيًّا من أعمال **مونترلان** لا يظهر لنا صراع رجلٍ لرجلٍ؛ التعايش هو المأساة الحيّة الكبيرة: وهو يتملّص منه. ينتصب بطله دائمًا وحيدًا في وجه الحيوانات، والأطفال، والنساء، والمناظر؛ هو فريسةٌ لرغباته الخاصّة (مثل

177- المرجع نفسه، ص199.

178- Lèquinoxe ـ أيلول/ سبتمبر، ص57.

179- في ينابيع الرغبة.

ملكة باسيفايه) أو لمتطلّباته الخاصّة (مثل سيّد سانتياغو)، لكن لا أحد بجانبه مطلقًا. حتى **ألبان** في «*الحلم*» ليس له رفاقٌ: يحتقر برينيه في حياته، ولا يتحمّس إلّا على جثّته. عمل **مونترلان** كحياته لا يقبل سوى شعورٍ واحدٍ.

في الوقت نفسه يختفي كلّ إحساسٍ من هذا العالم؛ لا يمكن أن تكون هناك علاقةٌ بين ذواتٍ إذا لم يكن هناك سوى ذاتٍ واحدةٍ. الحبّ مثيرٌ للسخرية؛ لكنه ليس محتَقَرًا باسم الصداقة لأنّ «الصداقة فارغةٌ»[180]. ويُرفض باستعلاءٍ كلّ تضامنٍ إنسانيٍّ. البطل غير مولودٍ، ولا يحدّه مكانٌ ولا زمانٌ: «لا أرى أيّ سببٍ منطقيٍّ يدعوني للاهتمام بالأشياء الخارجيّة المعاصرة أكثر من تلك التي تعود لأيّ سنةٍ خلت»[181]. لا يهمّه شيءٌ مما يحدث للآخرين: «في الحقيقة لم تهمني الأحداث أبدًا. لم أكن أحبّها إلّا ضمن الإشعاعات التي كانت تصنعها فيّ وهي تخترقني... فلتكن إذًا ما تشاء...»[182]. العمل مستحيلٌ: «أن تكون لدى المرء الحماسة والقدرة والجرأة وألّا يستطيع وضعها تحت تصرف أيٍّ كان بسبب نقص الإيمان بكلّ ما هو بشريٌّ!»[183]. أي أن كل تسامٍ ممنوعٌ. ويعترف **مونترلان** بذلك. فالحب والصداقة كلامٌ فارغٌ، والاحتقار يمنع العمل؛ ولا يعتقد بالفن من أجل الفنّ، ولا يؤمن بالله. لا يبقى سوى مثوليّة المتعة. كتب عام 1925[184]: «كان طموحي الوحيد استخدام حواسي بشكلٍ أفضل مما يفعل الآخرون». وأيضًا: «بعد كلّ شيءٍ، ماذا أريد؟ امتلاك الأشخاص الذين يروقون لي ضمن السلام والشعر»[185]. وعام 1941: «ولكن أنا الذي أتّهم، ماذا فعلت بهذه العشرين سنةً؟ كانت حلمًا مليئًا بمتعتي. عشت بالطول والعرض، ثملًا بما أحبّ: يا لها من قبلةٍ للحياة!»[186] فليكن. ولكن ألم يدوسوا المرأة تحديدًا لأنها استغرقت في المثوليّة؟ أيّة غاياتٍ أسمى، أيّة نوايا يضع **مونترلان** في مواجهة حب الأم والعشيقة المتملّك؟ هو أيضًا يحاول «التملّك»؛ وأما بالنسبة «لقبلة الحياة»، فالعديد من النساء يستطعن إعطاءه بعض التفوّق. صحيحٌ أنّه يتذوّق

180- في ينابيع الرغبة.

181- امتلاك الذات، ص13.

182- انقلاب حزيران/ يونيو، ص316.

183- في ينابيع الرغبة.

184- المرجع نفسه.

185- المرجع نفسه.

186- انقلاب حزيران/ يونيو، ص301.

بشكلٍ خاصٍّ المتع الغريبة: تلك التي يمكن الحصول عليها من الحيوانات، ومن الصبيان، والفتيات القاصرات؛ ويستنكر ألّا تفكّر عشيقةٌ شغوفةٌ في وضع ابنتها ذات الاثنتي عشرة سنةً في فراشه: هذه دناءةٌ لا علاقة لها بالشمس. ألا يعرف أنّ شهوانية النساء ليست أقل قلقًا من شهوانية الرجال؟ إذا كنا نصنّف الجنسين انطلاقًا من هذا المعيار، فربما يتفوقن في ذلك. في الحقيقة تناقضات **مونترلان** هنا هائلةٌ. باسم «التعاقب» يعلن أنّه بما أنّه لا قيمة لشيءٍ، فهناك قيمةٌ للكلّ أيضًا؛ يقبل كلّ شيءٍ، يريد إطفاء كلّ شيءٍ ويروق له أن تخيف سعة تفكيره الأمهات؛ مع ذلك هو من كان يطالب خلال الاحتلال برقابةٍ[187] تمنع الأفلام والصحف؛ تثير أفخاذ الفتيات الأميركيات اشمئزازه، ويحفّزه عضو ثورٍ لمّاعٍ: لكلٍّ ذوقه؛ كلّ شخصٍ يعيد إنتاج «السحر» بطريقته؛ باسم أيّة قيمٍ يبصق هذا المتهتّك الكبير على عربدات الآخرين؟ لأنها ليست عربداته؟ إذًا المبادئ هي أن يكون المرء **مونترلان**؟

سيجيب بالطبع أنّ الاستمتاع ليس كلّ شيءٍ: الأسلوب هو المطلوب. يجب أن تكون المتعة وجه التخلّي الآخر، وأن يشعر الشهوانيّ أيضًا أنّه بطلٌ أو قدّيسٌ. لكن كثيرًا من النساء خبيراتٌ في التوفيق بين متعتهنّ والصورة السامية التي يشكّلنها لأنفسهنّ. لماذا علينا أن نصدّق أنّ أحلام **مونترلان** النرجسيّة ذات قيمةٍ أكثر من أحلامهنّ؟

لأنّها أحلامٌ في الحقيقة. لأنّه يرفض أن يكون للكلمات التي يتداولها أي محتوىً موضوعيٌّ: فالعظمة، والقداسة، والبطولة ليست سوى تسلياتٍ. خشي **مونترلان** أن يخاطر بتفوّقه بين الرجال؛ وكي ينتشي بهذا الخمر المثير، انكفأ بين السحب: فالوحيد سيّدٌ بالتأكيد. يعتزل في حجرة الأوهام الخادعة: حيث تعكس له المرايا صورته إلى ما لا نهايةٍ ويعتقد أنه كافٍ لإعمار الأرض؛ لكنّه ليس سوى سجين ذاته منزوٍ. يعتقد أنه حرٌّ؛ لكنه يتنازل عن حريّته لصالح أناه؛ إنه ينحت تمثال **مونترلان** حسب القواعد المستعارَة من صورة **ابينال**. يوضح هذه العبودية **ألبان** الذي يرفض **دومينيك** لأنّ المرآة عكست له وجه أحمق: لا يكون المرء أحمق إلّا في عيون الآخرين. يُخضِع **ألبان** المغرور قلبه لهذا الوعي الجمعي الذي يحتقره. حرّية **مونترلان** موقفٌ، وليست حقيقةً. ويتعزّى بحركاتٍ بما أنّ الفعل لديه مستحيلٌ لعدم

187- «نطالب بجهازٍ لديه السلطة التقديرية ليوقف كلّ ما يرى أنّه يضر بالمواصفات البشرية الفرنسية. نوعٌ من الرقابة باسم المواصفات البشرية الفرنسية». (انقلاب حزيران/ يونيو، ص270).

وجود هدفٍ: إنّه ممثّلٌ إيمائيٌّ. النساء شريكاتٌ مريحاتٌ له؛ يرددن عليه، يستولي على الدور الأول، ويكلّل نفسه بالغار ويتوشّح بالوشاح الأحمر: لكن يجري كلّ شيءٍ على خشبة مسرحه الخاصّ؛ إذا ألقي الممثّل في الساحة العامة، في الضوء الحقيقي، تحت سماءٍ حقيقيّةٍ، لا يعود يرى الأشياء بوضوحٍ، ولا يستقيم على ساقيه، يترنّح، ويسقط. ويصيح **كوستال** في لحظة وضوحٍ: «يا لها من مهزلةٍ هذه «الانتصارات» على النساء!»[188] أجل. القيم والإنجازات التي يعرضها علينا **مونترلان** هي سخريّةٌ محزنةٌ. وليست الأعمال السامية التي تسكره هي أيضًا سوى حركاتٍ، وليست مشاريع أبدًا: يتأثّر بانتحار **برغرينوس**، وجرأة **باسيفايه**، وأناقة هذا الياباني الذي آوى خصمه تحت مظلّته قبل أن يشطره في مبارزةٍ. لكنّه يعلن أنّ «شخص الخصم والأفكار التي يفتَرَض أن يمثّلها ليس لها إذًا أهميّةٌ تُذكَر»[189]. كان لهذا التصريح عام 1941 صدىً خاصّ. ويقول أيضًا إنّ كلّ الحروب جميلةٌ مهما كانت نهايتها؛ القوّة دومًا مدعاةٌ للإعجاب مهما كان ما تخدمه. «المعركة دون الإيمان، هي الصيغة التي نتوصّل إليها حتمًا إذا أردنا الحفاظ على الفكرة الوحيدة المقبولة عن الإنسان: تلك التي يكون فيها البطل والحكيم معًا»[190]. لكن من الغريب أن لا مبالاة **مونترلان** النبيلة تجاه كلّ القضايا مالت ليس نحو المقاومة ولكن نحو الثورة الوطنيّة، وأنّ حريّته السامية اختارت الخضوع، وأنّه بحث عن سرّ الحكمة البطوليّة لدى المنتصرين وليس لدى رجال المقاومة. ولم يكن ذلك صدفةً أيضًا. السمو الكاذب «للملكة الميتة» و«سيّد سانتياغو» أدى إلى هذه الخدعة. في هذه المآسي التي فيها مغزىً بقدر ما فيها ادّعاءٌ أكبر، نرى ذكرين متسلّطين يضحيان على مذبح غرورهما الفارغ بنساءٍ كلّ ذنبهنّ أنّهنّ مخلوقاتٌ بشريّةٌ؛ يتمنّين الحب والسعادة على الأرض: ولكي يعاقبهنّ يأخذ من الأولى حياتها، ومن الثانية روحها. مرّةً أخرى، إن تساءلنا: باسم ماذا؟ يجيب الكاتب باستعلاءٍ: باسم لا شيء. لم يشأ أن يكون لدى الملك أسباب ملحّةٌ ليقتل **إينيس**؛ لن تكون هذه الجريمة سوى جريمةٍ سياسيةٍ عاديةٍ. ويقول: لماذا أقتلها؟ هناك سببٌ حتمًا، لكني لا أدركه». السبب هو أنّه يجب أن ينتصر المبدأ الشمسي على الابتذال الأرضي؛ لكنّ هذا المبدأ لا يظهر أي غايةٍ كما رأينا قبلًا: يطلب التدمير لا أكثر.

188- الشابات.

189- انقلاب حزيران/ يونيو، ص211.

190- المرجع نفسه، ص211.

أما **ألفارو**، فيقول لنا **مونترلان** في المقدمة إنّه يهتم الآن لدى بعض الرجال «بإيمانهم الجازم، واحتقارهم للواقع الخارجي، وميلهم للخراب، وغضبهم من اللاشيء». ويضحّي سيد سانتياغو بابنته لهذا الغضب. وتُزيَّن بكلمة «التقيّة» الجميلة المدغدغة للأحاسيس. أليس تفاهةً تفضيل السعادة على التقى؟ في الحقيقة لا معنىً للتضحيات والتخلّي إلّا ضمن منظور هدفٍ، غايةٍ إنسانيّةٍ؛ والأهداف التي تتجاوز الحب الخاص، والسعادة الشخصيّة، لا يمكنها أن تظهر إلّا ضمن عالمٍ يعترف بثمن الحبّ والسعادة؛ «مبادئ الفتيات الطائشات» أصليّةٌ أكثر من سحر الفراغ لأنّ لها جذورًا في الحياة والواقع: ومن ذلك قد تنبثق طموحاتٌ أوسع. نتخيّل بسهولةٍ **إينيس** من **كاسترو** إلى **بوشنوالد**، والملك مسارعًا إلى سفارة ألمانيا من أجل المصلحة العامة. استحقّ كثيرٌ من الفتيات الطائشات خلال الاحتلال احترامًا لا نمنحه لـ**مونترلان**. فالكلمات الجوفاء التي يغمر نفسه بها خطيرةٌ بسبب فراغها ذاته: تسمح الرمزية فوق البشرية بكلّ الخراب الدنيوي. وتتأكّد بجريمتين في المآسي التي نتحدث عنها، إحداهما جسديّةٌ والأخرى معنويّةٌ؛ ليس أمام **ألفارو** طرقٌ كثيرةٌ كي يصبح مفتّشًا كبيرًا، خائفًا، وحيدًا غير معروفٍ؛ ولا الملك غير المفهوم، المنكَر، ليصبح **هملر**. تُقتَل النساء، ويُقتَل اليهود، ويُقتَل الرجال المتخنّثون والمسيحيون المتهوّدون، ويُقتَل باسم هذه الأفكار السامية كلّ ما توجد مصلحةٌ أو متعةٌ في قتله. لا يمكن تأكيد غموضٍ سلبيٍّ إلّا بالرفض. التجاوز الحقيقي، هو درجةٌ إيجابيةٌ نحو المستقبل، مستقبل الرجال. يحتقر البطل المزيّف ويتّهم ويضطهد ويلاحق، ويعذّب ويقتل، كي يقتنع أنّه بلغ شوطًا بعيدًا، أنه يحلّق عاليًا، وينظر دومًا وراءه، إلى قدميه. يعتبر نفسه أعلى من قريبه عبر الشر الذي يقوم به تجاهه. هكذا هي القمم التي يدلنا عليها **مونترلان** بإصبعٍ رائعٍ عندما يقطع «قبلته للحياة».

«كحمار السواقي العربية، أدور وأدور. أعمىً أسير على أعقابي إلى ما نهاية. لكنّي لا أجلب الماء البارد». هناك أشياء قليلةٌ تضاف إلى هذا الاعتراف الذي قاله **مونترلان** عام 1927. لم ينبع الماء البارد أبدًا. ربما كان على **مونترلان** أن يشعل محرقة **بريغرينوس**: كان ذلك هو الحلّ الأكثر منطقيةً. فضّل أن يلجأ إلى عبادة ذاته. بدل أن يهب نفسه لهذا العالم الذي لم يكن يعرف كيف يستثمره، اكتفى بأن ينظر إليه معجبًا؛ ونظّم حياته لمصلحة

هذا السراب الذي لا تراه سوى عينيه. كتب: «الأمراء مرتاحون في كلّ الظروف، حتى في الهزيمة»[191]. ويعتقد أنه ملك لأنّه يسرّ بالهزيمة. تعلّم من نيتشه أنّ المرأة هي تسلية الأبطال، ويظنّ أنّه يكفي أن يتسلّى بالنساء ليكرّس بطلًا. البقيّة تأتي لاحقًا. وكما يقول **كوستال**: «في الواقع، يا لها من مهزلةٍ!».

2

د. هـ. لورنس D. H. Lawrence أو الغرور القضيبي

يقع **لورنس** في القطب المعاكس لـ**مونترلان**. الأمر بالنسبة له ليس تحديد علاقات المرأة والرجل الخاصة، ولكن إعادة وضعهما كليهما ضمن حقيقة الحياة. هذه الحقيقة ليست تمثيلًا ولا إرادةً: إنّها تغلّف الحيوانيّة، حيث للإنسان جذوره. يرفض **لورنس** بحماسةٍ فرضية القضيب ـ الدماغ المعاكسة؛ لديه تفاؤلٌ كونيٌّ يتعارض جذريًّا مع تشاؤم **شوبنهاور**، فالرغبة في الحياة التي تتجلّى في القضيب هي فرحٌ: وفيه يكمن منبع الفكر والفعل وإلّا كان مفهومًا فارغًا وآليّةً عقيمةً. الحلقة الجنسية البحتة غير كافيةٍ لأنها تقع في المثولية من جديدٍ: وهي تعادل الموت؛ لكنّ من الأفضل أيضًا هذا الواقع المبتور: الجنس والموت، من وجودٍ خالٍ من الغذاء الشهواني. الرجل ليس فقط بحاجةٍ، مثل **آنتيه** Antée، لإعادة اتّصالٍ بالأرض أحيانًا؛ يجب أن تكون حياته كرجلٍ بأكملها تعبيرًا عن ذكوريته التي تطرح المرأة فورًا وتفرضها؛ فهذه إذًا ليست تسليةً، ولا غنيمةً، وليست شيئًا أمام ذاتٍ، لكنّها قطبٌ ضروريٌّ لوجود القطب المقابل. الرجال الذين لم يعرفوا هذه الحقيقة، **كنابوليون** مثلًا، فاتهم قدرهم كرجالٍ: إنّهم فاشلون. يستطيع الفرد إنقاذ نفسه بإكمال عموميّته بأكبر قدرٍ ممكنٍ وليس بتأكيد خصوصيته: ذكرًا كان أم أنثى، عليه ألّا يبحث أبدًا في العلاقات الشهوانيّة عن انتصار غروره ولا تمجيد أناه؛ استخدام عضوه كأداة إرادته خطأٌ لا يمكن إصلاحه؛ يجب تحطيم حواجز الأنا، وتجاوز حدود الشعور ذاته، والتخلّي عن كلّ سيادةٍ

191- المرجع نفسه، ص312.

شخصيّةٍ. لا شيء أجمل من هذا التمثال الصغير الذي يمثّل امرأةً تلد: «صورةً فارغةً بشكلٍ مخيفٍ، مدبّبةً، غدت مجرّدةً بتأثير ثقل الإحساس الذي تشعر به»[192]. هذه النشوة ليست تضحيةً ولا تخلّيًا؛ ولا يعني هذا لأيٍّ من الجنسين أن يدع الآخر يبتلعه؛ لا ينبغي للرجل أو المرأة أن يظهرا كأجزاءٍ محطّمةٍ من ثنائيٍّ؛ الجنس ليس جرحًا؛ كلّ طرفٍ كائنٌ كاملٌ، كامل التركيز؛ عندما يتأكّد الواحد ضمن ذكوريته، والآخر ضمن أنوثته، «ينجح كلّ واحدٍ في إكمال دارة الجنسين المستقطبة»[193]؛ العمل الجنسي ليس اتباعًا ولا استسلامًا لأيٍّ من الشريكين، إنه اكتمالٌ رائعٌ لأحدهما بالآخر. عندما التقت **أورسول** و**بيركين** أخيرًا «تبادلا هذا التوازن النجمي الذي يمكن تسميته حرّيةً... كانت له ما كان لها، بهاء الحقيقة الأخرى القديم، الرمزي والملموس»[194]. إذ يبلغ أحد العشيقين الآخر ضمن اندفاع العاطفة السخيّ، يبلغان الآخر، والكلّ، معًا. وهكذا كان **بول** و**كلارا** في لحظة حبهما[195]: هي بالنسبة له «حياةٌ قويّةٌ، غريبةٌ، جفولة، امتزجت بحياته. كان ذلك أكبر منهما لدرجة أنهما لجأا إلى الصمت. كانا قد التقيا وفي لقائهما اختلط اندفاع أوراق العشب اللامتناهية، وزوابع النجوم». بلغت **الليدي تشاترلي** و**ميلور** نفس المباهج الكونيّة: باختلاط أحدهما بالآخر، اختلطا بالشجر والنور والمطر. طوّر **لورنس** هذا المذهب بشكلٍ واسعٍ في «*دفاع الليدي تشاترلي*»: الزواج ليس سوى وهمٍ إن لم يكن قضيبيًّا بشكلٍ جذريٍّ ودائمٍ، إن لم يرتبط بالشمس والأرض، والقمر، والنجوم، والكواكب، وإيقاع الأيام والشهور، وإيقاع الفصول والسنوات والقرون. الزواج لا شيء إن لم يكن قائمًا على تطابق الدم. لأن الدم هو مادة الروح». «دم الرجل والمرأة نهران مختلفان إلى الأبد لا يمكن أن يمتزجا». لهذا يحيط هذان النهران الحياة بتعرجاتهما. «القضيب هو حجمٌ من الدم يملأ وادي دم المرأة. نهر الدم الذكري القوي يحيط في أعماقه بالنهر الأنثوي الكبير... مع ذلك لا يهدم أيٌّ منهما حواجزه. هذه هي أكثر المشاركات اكتمالًا... وهذا هو أحد الألغاز الكبيرة». هذه المشاركة هي غنىً مدهشٌ؛ لكنّها تتطلّب إلغاء مطالب «الشخصيّة». عندما تحاول شخصيّاتٌ بلوغ ذاتها دون أن تنكر

192- نساءٌ عاشقاتٌ.

193- المرجع نفسه.

194- المرجع نفسه.

195- عشاق وابناء.

نفسها، كما يحدث في الحضارة الحديثة، تفشل محاولاتها. هناك عندئذٍ جنسٌ «شخصيٌّ، شكليٌّ، باردٌ، عصبيٌّ، شاعريٌّ» يذيب تيار حياة كلّ واحدٍ. يعامل العاشقان بعضهما بعضًا كأدواتٍ، ما يولد الكره بينهما: وهذا ما حدث لليدي **تشاترلي** و**ميكايليس**: ظلّا حبيسي ذاتيتهما: يمكن أن يشعرا بتوقّدٍ شبيه بما يمنحه الكحول أو الأفيون، لكنّه بلا موضوعٍ: لا يكتشفان حقيقة الآخر؛ ولا يصلان إلى شيءٍ. كان **لورنس** سيدين **كوستال** قطعيًّا. صوّر في **جيرار**[196] أحد هؤلاء الذكور المغرورين الأنانيين؛ و**جيرار** مسؤولٌ بقدرٍ كبيرٍ عن هذا الجحيم الذي يسارع إليه مع **غودرن**. إنّه رجل فكرٍ، عنيدٌ، يسَرّ بتأكيد أناه الفارغ ويتصلّب في مواجهة الحياة: من أجل متعة السيطرة على فرسٍ جامحةٍ، كان يبقيها مربوطةً إلى حاجزٍ يمرّ خلفه قطارٌ صاخبٌ، ويجلد خاصرتيها المتمرّدتين حتّى يدميها وينتشي بسلطته. هذه الرغبة في السيطرة تذلّ المرأة حين تمارَس عليها؛ فتغدو ضعيفةً وتتحوّل إلى عبدةٍ. ينحني **جيرار** نحو **مينيت**: «نظرتها كعبدةٍ مغتَصَبةٍ، سبب وجودها هو أن تظلّ تُغتَصَب باستمرارٍ، تؤثّر في أعصاب **جيرار**... كانت إرادته الإرادة الوحيدة، وكانت هي المادة السلبية لإرادته». هذه سيادةٌ بائسةٌ؛ إن لم تكن المرأة سوى مادةٍ سلبيّةٍ، فالذكر يسيطر على لا شيء. يعتقد أنّه يأخذ، ويغتني: وتلك خدعةٌ. يضمّ **جيرار غودرن** بين ذراعيه: «كانت ماهيّة كيانه الغنيّة والرائعة... كانت قد تلاشت فيه وبلغ الكمال». لكن ما إن يتركها حتى يصبح وحيدًا وفارغًا؛ وفي الغد لا تأتي إلى الموعد. إذا كانت المرأة قويّةً، يثير مطلب الذكر لديها مطلبًا مماثلًا؛ تصبح مبهورةً ومتمرّدةً، مازوشيةً وساديّةً على التوالي. ترتبك **غودرن** عندما ترى **جيرار** يضمّ بين فخذيه خاصرتي الفرس المذعورة؛ لكنها ترتبك أيضًا عندما تروي لها مربّية **جيرار** أنّها كانت «تقرص أليتيه الصغيرتين» فيما مضى. تغيظ الغطرسة الذكريّة المقاومات الأنثوية. وبينما **أورسول** مغلوبةٌ أنقذها نقاء **بيركين** الجنسي، مثل **الليدي تشاترلي** التي أنقذها نقاء حارس الصيد، يجرّ **جيرار غودرن** إلى صراعٍ لا نهاية له. يستسلم لذراعيها ذات ليلةٍ، تعيسًا، محطمًا في لحظة حدادٍ. «كانت مغطس الحياة الكبير، وكان يعبدها. كانت الأم وجوهر كلّ الأشياء. كان انبعاث ثديها الخارق والناعم، ثدي المرأة، يجتاح دماغه الجافّ والمريض كلمفٍ شافٍ، كموجة الحياة المسكّنة ذاتها، رائعًا، كما لو

196- نساءٌ عاشقاتٌ.

كان يسبح من جديدٍ في بطن الأم». تلك الليلة، استشعر ما يمكن أن يكون الاتّصال بالمرأة؛ ولكن فات الأوان؛ سعادته باطلةٌ، لأنّ غودرن ليست حاضرةً حقًّا؛ تترك جيرار ينام على كتفها، لكنّها تظلّ مستيقظةً، نافدة الصبر، منفصلةً. إنّه عقاب الفرد الذي هو مرتخٍ لنفسه: لا يمكنه وحده أن يكسر وحدته؛ بإقامة حواجز الأنا أقام حواجز الآخر: ولن ينضم إليه أبدًا. في النهاية يموت جيرار، مقتولًا بيديه ويدي غودرن.

بالتالي لا يبدو أيٌّ من الجنسين أولًا ذا امتيازٍ. ليس أيٌّ منهما ذاتًا. المرأة ليست سوى عذرٍ فقط، كأيّ غنيمةٍ. ويلاحظ مالرو[197] أنّه لا يكفي للورنس كما يكفي للهندي أن تكون المرأة فرصة اتّصالٍ باللانهائي، كمنظرٍ مثلًا: لكان ذلك طريقةً أخرى لجعلها موضوعًا. إنّها حقيقيةٌ بقدر الرجل؛ ويجب بلوغ مشاركةٍ حقيقيّةٍ. ولهذا يطلب الأبطال المقبولون من لورنس من عشيقتهم أكثر بكثيرٍ من منح جسدها: لا يقبل بول أن تمنحه ميريام نفسها من باب التضحية؛ ولا يريد بيركين أن تكتفي أورسول بالبحث عن المتعة بين ذراعيه؛ فالمرأة التي تبقى حبيسة نفسها تترك الرجل لوحدته، سواءً كانت باردةً أم متّقدةً. عليه أن يبعدها. يجب أن يمنح كلٌّ منهما الآخر نفسه جسدًا وروحًا. إذا اكتمل هذا المنح، عليهما أن يظلّا دائمًا مخلصين. لورنس من أنصار الزواج الأحادي. لا يبحث المرء عن التنويع إلّا إن كان يهتمّ بخصوصية الأشخاص: لكن الزواج القضيبي يقوم على العموميّة. عندما تتشكّل دارة الذكورة ـ الأنوثة، لا تعود أيّة رغبةٍ في التغيير مقبولةً: إنها دارةٌ كاملةٌ، مغلقةٌ، نهائيّةٌ.

عطاءٌ متبادلٌ، وإخلاصٌ متبادلٌ: هل يعني ذلك اعترافًا متبادلًا؟ كلا أبدًا: يعتقد لورنس بحماسٍ بالتفوّق الذكري. تثبت ذلك تمامًا كلمة «الزواج القضيبي» ذاتها، والتساوي الذي يقيمه بين الجنسي والقضيبي. من بين تياري الدم اللذين يتزاوجان بشكلٍ غامضٍ يتمتع التيار القضيبي بامتيازاتٍ. «يستخدم القضيب كخط وصل بين النهرين: إنّه يوحّد الإيقاعين المختلفين ضمن تيارٍ وحيدٍ». وهكذا فالرجل ليس فقط أحد طرفي الثنائي، ولكن أيضًا حاصلهما؛ وهو تفوّقهما: «القضيب هو الجسر الذي يفضي إلى المستقبل». يريد لورنس أن يُحلّ محلّ عبادة الآلهة الأم إجلالًا للقضيب؛ عندما يريد توضيح طبيعة الكون الجنسيّة، يذكر

197- تمهيد لرواية «عشيق الليدي تشاترلي».

ذكوريّة الرجل وليس بطن المرأة. لا يصوّر أبدًا رجلًا متأثّرًا بالمرأة: لكنّه يُظهر المرأة مئة مرةٍ مضطربةً بسبب نداء الذكر الحاد، والحاذق، ولكن غير المُثمِل؛ بينما أبطاله حيواناتٌ تثير القلق. ذكور الحيوانات هي التي تجسّد لغز الحياة المضطرب والقويّ؛ وتقع النساء تحت سحرها: فهذه متأثّرةٌ بثعلبٍ، وتلك مأخوذةٌ بحصانٍ، وتتحدّى **غودرن** بحماسةٍ قطيعًا من الأبقار الصغيرة؛ وتضطرب أمام القوة المتمرّدة لأرنبٍ. يضاف إلى هذا الامتياز الكونيّ امتيازٌ اجتماعيٌّ. دون شكٍّ لأنّ التيّار القضيبي مندفعٌ، عدوانيٌّ، لأنّه يتجاوز المستقبل، ـ يفسّر **لورنس** ذلك بشكلٍ ناقصٍ ـ يعود للرجل «حمل ألوية الحياة إلى الأمام»[198]؛ إنّه مشدودٌ نحو أهدافٍ، يجسّد التسامي؛ والمرأة مستغرقةٌ بمشاعرها، كلّها سريرةٌ؛ مكرّسةٌ للمثوليّة. لا يلعب الرجل في الحياة الجنسيّة الدور الفاعل فقط، ولكن من خلاله يتم تجاوز هذه الحياة؛ إنّه متجذّرٌ في العالم الجنسي، لكنّه يهرب منه؛ وتبقى هي حبيسةً ضمنه. جذور الفكر والفعل في القضيب؛ ولعدم وجود القضيب لا حقّ للمرأة في كليهما: يمكنها أن تلعب دور الرجل، وبمهارةٍ حتّى، لكنّ تلك لعبةٌ غير حقيقيةٍ. «تُجتَذب المرأة نحو الأسفل، نحو مركز الأرض. يتناقض لديها السيلان نحو الأسفل، والجاذبية القمريّة. والرجل على العكس مُستقطَبٌ نحو الأعلى، نحو الشمس والنشاط النهاري»[199]. بالنسبة للمرأة «يقبع أعمق شعورٍ في بطنها وصلبها... إن استدارت نحو الأعلى، سيأتي وقتٌ ينهار فيه كلّ شيءٍ»[200]. في مجال الفعل، يجب أن يكون الرجل هو المعلّم، الإيجابيّ؛ والمرأة هي الإيجابيّ على صعيد الإحساس. وهكذا يلتقي **لورنس** مع مفهوم **بونالد** و**أوغست كومت** و**كليمان فوتل** **Clèment** Vautel البورجوازي التقليدي. «يجب أن تؤمن بك، وبالهدف العميق الذي تتّجه إليه»[201]. عندئذٍ يمنحها الرجل حنانًا وعرفانًا لا حدّ لهما. «آه! يا لعذوبة العودة إلى المنزل بقرب المرأة عندما تؤمن بك وتقبل أن يتجاوزها مخطّطك...تشعر بعرفانٍ لا حدّ له تجاه المرأة التي تحبّك..»[202]. يضيف **لورنس** أنّه كي يستحق الرجل هذا الإخلاص يجب أن يكون لديه

198- فانتازيا اللاوعي.

199- المرجع نفسه.

200- المرجع نفسه.

201- المرجع نفسه.

202- المرجع نفسه.

هدفٌ عظيمٌ؛ إن كان مشروعه ليس سوى دجلٍ، يقع الثنائي في خديعةٍ مثيرة للسخرية؛ من الأفضل ساعتها البقاء ضمن الحلقة الأنثوية: الحب والموت، مثل آنا كارنينا وفرونسكي، وكارمن ودون خوسيه، بدل خداع النفس مثل بيير وناتاشا. ولكن بهذا التحفّظ يشيد لورنس مثل برودون وروسو بالزواج الأحادي حيث تستمدّ الزوجة من الزوج مبرّر وجودها. ويبدي لورنس لهجةً عدائيةً مثل مونترلان تجاه المرأة التي تريد قلب الأدوار. فلتكفّ عن لعب دور ربّة الأرض، والادّعاء بأنّها تملك حقيقة الحياة؛ حين تكون محتكِرةً، مفترسةً، تبتر الذكر، وتوقعه ثانيةً في المثولية وتحيده عن أهدافه. لا يكره لورنس الأمومة: على العكس؛ يستمتع بكونه جسدًا، ويقبل ولادته، ويحبّ أمّه؛ تبدو الأمهات في كتابه أمثلةً رائعةً للأنوثة الحقّة؛ إنّهنّ محض زهدٍ وكرمٌ مطلقٌ، يكرّسن كلّ دفء حيويتهنّ لطفلهنّ: يقبلن أن يصبح رجلًا، ويفخرن بذلك. ولكن يجب الخوف من العشيقة الأنانية التي تريد إعادة الرجل إلى طفولته؛ فهي تحطم اندفاع الذكر. «يجرّنا القمر، كوكب النساء، إلى الوراء»[203]. تتحدّث هي عن الحب دون انقطاعٍ: ولكن الحب بالنسبة لها هو الأخذ، ملء هذا الفراغ الذي تشعر به في داخلها؛ وهذا الحب قريبٌ من الكره؛ وهكذا هرميون التي تعاني من نقصٍ فظيعٍ لأنّها لم تعرف أبدًا كيف تمنح نفسها تودّ أن تُلحق بها بيركين؛ وتفشل؛ وتحاول أن تقتله، والنشوة الشهوانيّة التي تشعر بها وهي تضربه مماثلةٌ لتشنّج المتعة الأناني[204]. يكره لورنس النساء الحديثات، المخلوقات من السلولويد والمطاط اللواتي يطالبن بشعورٍ. عندما أدركت المرأة نفسها جنسيًّا، ها هي «تسير في الحياة وتتصرّف بطريقةٍ عقليّةٍ وتطيع أوامر إرادةٍ آليّةٍ»[205]. يمنعها من أن تكون لها شبقيّةٌ مستقلّةٌ؛ إنّها مصنوعةٌ كي تهب نفسها، وليس كي تأخذ. على فم ميلور يعلن لورنس عاليًا كرهه للسحاقيات. لكنّه يلوم أيضًا المرأة التي تتخذ أمام الذكر موقفًا لا مباليًا أو عدوانيًّا؛ ويشعر بول أنّه جريحٌ وثائرٌ عندما تداعب ميريام خاصرتيه قائلةً له: «أنت وسيمٌ». وغودرن مخطئةٌ كميريام عندما تُسحر بوسامة عشيقها: تفرقهما هذه التأملات، بقدر سخرية المثقفات الباردات اللواتي يجدن القضيب مثار هزءٍ أو الرياضة الذكورية سخيفةً؛ والبحث الضاري عن المتعة أكثر مدعاةً للّوم: هناك لذّةٌ حادّةٌ،

203- فانتازيا اللاوعي.

204- نساءٌ عاشقاتٌ.

205- فانتازيا اللاوعي.

وحيدةً، تفرّق هي أيضًا، ويجب على المرأة ألّا تميل نحوها. رسم **لورنس** صورًا عديدةً لهاته النساء المستقلات، المسيطرات، اللواتي تنقصهنّ الموهبة الأنثويّة. **أورسول** و**غودرن** من هذا النوع. في البداية، **أورسول** استئثاريّةٌ. «على الرجل أن يستسلم لها حتّى الثمالة...»[206]، تعلّمت كيف تقهر إرادته. لكنّ **غودرن** تعاند؛ فهي ذات فكرٍ، فنانةٌ، تحسد الرجال بشراسةٍ على استقلالهم وإمكانيّة عملهم؛ وتهتم بإبقاء فرديتها سليمةً؛ تريد أن تعيش من أجل نفسها؛ ساخرةٌ، متملّكةٌ، ستبقى إلى الأبد حبيسة ذاتيّتها. أكثر الصور ذات المغزى لأنّها الأقلّ مغالطةً هي صورة **ميريام**[207]. **جيرار** مسؤولٌ جزئيًّا عن فشل **غودرن**؛ وتحمل **ميريام** وحدها وزر مأساتها أمام **بول**. هي أيضًا كانت تودّ لو كانت رجلًا، وتكره الرجال؛ ولا تقبل نفسها في عموميتها؛ تريد أن «تتميّز»؛ كذلك لا يجتازها تيار الحياة الكبير، قد تشبه ساحرةً أو كاهنةً، ولكنّها لا تشبه أبدًا كاهنة باخوس متهتّكةً؛ لا تتأثّر بالأشياء إلّا عندما تعيد خلقها في روحها، مانحةً إياها قيمةً دينيّةً: هذه الحماسة ذاتها تفرّقها عن الحياة؛ إنّها شاعريّةٌ، ورعةٌ، غير متكيّفةٍ. «كان جهدها المبالغ به ينغلق على نفسه... لم تكن خرقاء ومع ذلك لم تكن تقوم أبدًا بالحركة الملائمة». وتبحث عن متعٍ داخليّةٍ ويخيفها الواقع؛ يخيفها الجنس؛ عندما تضاجع **بول**، ينتحي قلبها جانبًا بنوع من الهول؛ هي دائمًا شعورٌ، وليست أبدًا حياةً: ليست رفيقةً؛ لا تقبل أن تنصهر مع عشيقها؛ تودّ أن تمتصّه فيها. ويثور من هذه الرغبة؛ ويغضب بشكلٍ عنيفٍ عندما يراها تداعب زهورًا: لكأنها تريد أن تقتلع قلبه؛ فيشتمها: «أنت تتسولين الحب؛ لست بحاجةٍ لتحبي لكنك بحاجة لأن تكوني محبوبةً. تريدين أن تمتلئي حبًّا لأنّ شيئًا ما ينقصك، لا أعرف ما هو». لم يُخلَق الجنس لملء فراغٍ؛ يجب أن يكون تعبيرًا عن كائنٍ مكتملٍ. ما تسميه النساء حبًّا، هو جشعهنّ أمام القوة الذكورية التي يتمنين الحصول عليها. تفكر أم **بول** ب**ميريام** على النحو التالي: «إنّها تريده كلّه، تريد أن تستخلصه من نفسه وتفترسه». وتبتهج الشابة عندما يمرض صديقها، لأنّها ستتمكن من العناية به: فتدعي أنها تخدمه، لكنّ ذلك وسيلةٌ لفرض إرادتها عليه. ولأنها تظل منفصلةً عن **بول**، تثير لديه «حماسةً شبيهةً بالحمّى، كما يفعل الأفيون»، لكنها غير قادرةٍ على أن تمنحه الفرح والسلام؛

206- نساءٌ عاشقاتٌ.

207- عشاق وأبناء.

من قلب حبها، في سريرتها «كانت تكره بول لأنه كان يحبها ويسيطر عليها». يبتعد **بول** عنها كذلك. ويبحث عن توازنه بقرب **كلارا**؛ وهي جميلةٌ، حيويّةٌ، حيوانيّةٌ، تمنح نفسها دون تحفّظٍ؛ ويبلغ العاشقان لحظاتٍ من النشوة تتجاوزهما كليهما؛ لكنّ **كلارا** لا تفهم هذا التجلّي. فتعتقد أنّ سبب هذا الفرح **بول** نفسه، بخصوصيته، وتتمنى أن تحوز عليها: وتفشل في الاحتفاظ به لأنها هي أيضًا تريده كلّه لها. ما إن يتفرّد الحب، حتى يتغيّر إلى أنانيّةٍ جشعةٍ وتتلاشى معجزة الشهوانيّة.

على المرأة التخلّي عن الحبّ الشخصي: لا يقبل **ميلور** ولا **دون سيبريانو** بأن يقولا لعشيقتهما كلمات حبٍّ. **تيريزا** التي هي امرأةٌ مثاليّةٌ، تستنكر سؤال **كيت** لها إن كانت تحب **دون رامون**[208]، وتجيب: «إنه حياتي»؛ ما أعطته إياه شيءٌ مختلفٌ عن الحب. على المرأة كما على الرجل التخلي عن كلّ كبرياءٍ وكلّ إرادةٍ؛ إن كانت تمثّل الحياة للرجل فهو يمثلها أيضًا لها؛ لا تجد **الليدي تشاترلي** السلام والبهجة إلّا لأنها تعترف بهذه الحقيقة: «كانت لتتخلّى عن قوّتها الأنثوية الصلبة والباهرة التي كانت تتعبها وتجعلها قاسيةً، كانت لتغوص في مغطس الحياة الجديد، في أعماق أحشائها التي كانت تغنّي أغنية العبادة دون صوتٍ»؛ عندئذٍ هي مدعوّةٌ إلى نشوة كاهنات باخوس؛ تشكّل مع عشيقها ثنائيًّا متناغمًا، متطابقًا مع المطر، والشجر، وزهور الربيع، لأنها تبدي له طاعةً عمياء، ولا تبحث عن نفسها بين ذراعيه. وكذلك تتخلى **أورسول** عن فرديتها بين ذراعي **بيركين** ويبلغان «توازنًا سماويًّا». ولكن «الأفعى ذات الريش» هو الذي يعكس بكامله على وجه الخصوص مثال **لورنس**. لأن **دون سيبريانو** هو أحد هؤلاء الرجال الذين «يرفعون رايات الحياة إلى الأمام»؛ لديه مهمةٌ ينغمس فيها بكلّيته بحيث تتفوّق الرجولة الكامنة فيه على نفسها وتتمجّد حتّى الألوهيّة: إن طوّب نفسه إلهًا، فهذا ليس خدعةً؛ إذ أنّ كلّ رجلٍ كامل الرجولة هو إلهٌ؛ ويستحقّ بالتالي إخلاص المرأة المطلق. ترفض **كيت** في البدء هذه التبعيّة، مشبعةً بالأفكار المسبقة الغربية، وتتمسّك بشخصيتها ووجودها المحدود؛ ولكنّها تترك تيار الحياة الكبير يخترقها شيئًا فشيئًا، تعطي **سيبريانو** جسدها وروحها. ليس هذا استسلام عبدةٍ: فقبل أن تقرر أن تبقى معه، تطالبه بأن يعترف بحاجته إليها؛ ويعترف بها بما أنّ المرأة في الواقع ضروريّةٌ للرجل؛ عندئذٍ توافق على ألّا تكون أبدًا

208- الأفعى ذات الريش.

سوى رفيقته؛ وتتبنّى أهدافه، وقيمه وعالمه. يتجلّى هذا الخضوع في الشبق نفسه؛ لا يريد **لورنس** أن تتشنّج المرأة في بحثها عن المتعة، منفصلةً عن الذكر بالتقلّص الذي يهزّها؛ يرفض عمدًا أن تبلغ الرعشة؛ يبتعد **دون سيبريانو** عن **كيت** عندما يشعر اقتراب هذه اللّذة العصبية لديها؛ تتخلّى حتّى عن هذه التلقائيّة الجنسية. «تهدأ لديها إرادتها المتأججة كامرأةٍ ورغبتها وتتلاشيان، تاركتين إياها رقيقةً خاضعةً كينابيع الماء الساخن التي تخرج من الأرض دون ضجّةٍ وتكون مع ذلك نشيطةً وقويّةً بقدرتها السريّة».

نفهم لماذا تكون روايات **لورنس** قبل كلّ شيءٍ «تثقيفًا للنساء». يصعب على المرأة أكثر من الرجل الخضوع للنظام الكوني، لأنه يخضع له بطريقةٍ تلقائيّةٍ، بينما تحتاج هي إلى وساطة الذكر. عندما يتّخذ الآخر صورة شعورٍ وإرادةٍ غريبين يحصل التنازل حقًّا؛ وعلى العكس، يشبه الخضوع التلقائيّ بشكلٍ غريبٍ قرارًا مطلقًا. أبطال **لورنس** إما محكومون منذ البداية أو أنهم من البدء يملكون سرّ الحكمة[209]؛ حدث خضوعهم للكون منذ زمنٍ طويلٍ ونالوا منه ثقةً داخليّةً لدرجة أنهم يبدون متغطرسين كفردانيٍّ مغرورٍ؛ هناك إلهٌ يتحدّث عبر أفواههم: **لورنس** نفسه. بينما على المرأة أن تنحني أمام ألوهيّتهم. ويحتفظ الفرد الذي يشترك بالذكورة بامتيازاته سواءً كان الرجل قضيبًا وليس عقلًا؛ المرأة ليست الشرّ، حتّى أنها طيّبةٌ: لكنها تابعةٌ. هذا أيضًا مثال «المرأة الحقيقية» الذي يعرضه علينا **لورنس**، أي المرأة التي تقبل دون تحفّظٍ أن تُعرَّف بأنها الآخر.

3

كلوديل Claudel وخادمة السيّد

طرافة كاثوليكية **كلوديل**، هي أنّها تفاؤلٌ عنيدٌ لدرجة أن الشرّ نفسه يتحوّل إلى الخير.

«الشرّ نفسه

«يحتوي على خيره الذي يجب عدم تركه يضيع»[210].

209- باستثناء بول في «عشاق وأبناء» الذي هو حيٌّ أكثر من الجميع. لكنها الرواية الوحيدة التي تُظهر لنا تدريبًا ذكوريًا.

210- قسمة الظهيرة partage de midi.

ينضمّ **كلوديل** للخليقة بأكملها متبنّيًا وجهة النظر ـ التي هي حتمًا وجهة نظر الخالق ـ بما أننا نفترض أنّه قويٌّ وعليمٌ ورحيمٌ؛ فليست هناك حرّيةٌ ولا خلاصٌ دون الجحيم والخطيئة؛ عندما أخرج الله هذا العالم من العدم، صمّم الخطيئة والفداء. بنظر اليهود والمسيحيين، وضع عصيان حوّاء بناتها في وضعٍ سيّئٍ للغاية: ونعرف كم أساء آباء الكنيسة معاملة المرأة. ها هي على العكس مبرّأةٌ إذا قبلنا أنها خدمت الأهداف الإلهية. «المرأة! هذه الخدمة التي قدمتها سابقًا لله بعصيانها في الجنّة الأرضية؛ هذا التفاهم العميق الذي نشأ بينها وبينه؛ هذا الجسد الذي وضعته عبر الخطأ تحت تصرّف الفداء!»[211] ولا شك في أنها مصدر الخطيئة، وبسببها فقد الرجل الجنّة. لكنّ تمّ التكفير عن خطايا الرجال وعاد العالم مباركًا:

«لم نخرج مطلقًا من جنّة الملذّات هذه التي وضعنا الله في البدء فيها»[212].

«كلّ أرضٍ هي الأرض الموعودة»[213].

لا شيء مما خرج من يدي الله، ولا شيء مما أُعطي سيّئ بحد ذاته: «نحن صنيعة الله عندما نصلّي له! كلّ ما صنعه ذو فائدةٍ، لا شيء غريبٌ عن شيءٍ آخر»[214]. حتّى أنّه لا يوجد شيءٌ غير ضروريٍّ. «تتواصل كلّ الأشياء التي خلقها معًا، كلّها ضروريّةٌ في الوقت نفسه الواحدة للأخرى»[215]. وهكذا للمرأة مكانها في تناغم العالم؛ لكنّه ليس أيّ مكانٍ؛ هناك «شغفٌ غريبٌ، ومشينٌ بنظر الشيطان، يربط الله بزهرة العدم المؤقّتة هذه»[216].

يمكن للمرأة أن تكون مخرِّبةً بالتأكيد: جسّد **كلوديل** في **ليشي**[217] المرأة السيّئة التي تقود الرجل إلى هلاكه؛ في «قسمة الظهيرة» تدمّر إيزيه حياة هؤلاء الذين توقعهم في شراك حبّها. ولكن لو لم يكن هناك هذه المجازفة بالهلاك، لما كان هناك خلاصٌ أيضًا. المرأة

211- مغامرات صوفي.

212- الغنائية ثلاثية الأصوات.

213- محادثات في منطقة اللوار اي شير.

214- حذاء الساتان.

215- تبليغ ماري.

216- مغامرات صوفي.

217- التبادل.

هي «عنصر المجازفة التي أدخلها قصدًا وسط منظومته الخارقة»[218]. من الجيد أن يعرف الرجل إغراءات الجسد. «هذا العدوّ الكامن داخلنا هو ما يعطي حياتنا عنصرها المأساوي، هذه النكهة المؤثرة. لو لم تُهاجَم روحنا بهذا العنف، كانت ستنام، وها هي تنطلق... الصراع هو تدريبٌ على النصر»[219]. الرجل مدعوٌّ لإدراك روحه، ليس فقط عبر طريق الفكر، ولكن عبر طريق الجسد. «وأيّ جسدٍ أقوى من جسد المرأة للتحدّث مع الرجل؟»[220]. كلّ ما ينتزعه من النوم والأمان مفيدٌ له؛ للحب بكلّ أشكاله ميزة الظهور في «عالمنا الشخصي الصغير، الذي رتّبناه بمنطقنا المتواضع، كعنصرٍ مشوِّشٍ بشدةٍ؟»[221]. وكثيرًا ما لا تكون المرأة سوى مانحة أوهامٍ مخيّبةً للآمال:

«أنا الوعد الذي لا يمكن الوفاء به وهنا يكمن سحري».

«أنا نعومة ما هو كائنٌ وأسف ما ليس كائنًا. أنا الحقيقة ووجه الخطأ ومن يحبّني لا يهتم مطلقًا بتمييز أحدهما عن الآخر»[222].

لكن هناك أيضًا فائدةً للوهم؛ وهذا ما يعلنه الملاك الحارس للسيدة بروهيز:

«ـ حتى الخطيئة! الخطيئة تفيد أيضًا.

ـ بالتالي كان أمرًا حسنًا أنّه أحبّني؟

ـ كان أمرًا حسنًا أن تعلّميه الرغبة.

ـ الرغبة في وهمٍ؟ يظلّ يهرب منه دائمًا؟

ـ الرغبة هي بما هو كائنٌ، والوهم هو بما هو غير كائنٍ. الرغبة من خلال الوهم هي بما هو موجودٌ من خلال ما ليس موجودًا»[223].

ما كانته بروهيز بمشيئة الله بالنسبة إلى رودريغيز هو: «سيفٌ يخترق قلبه»[224].

218- مغامرات صوفي.

219- العصفور الأسود في الشروق.

220- حذاء الساتان.

221- مواقف واقتراحات.

222- المدينة.

223- حذاء الساتان.

224- المرجع نفسه.

لكنّ المرأة ليست فقط بيدي الله هذا النصل، هذا الحرق؛ ثروات هذا العالم لم تُخلق لتُرفَض دومًا: إنّها غذاءٌ أيضًا؛ يجب أن يأخذها الرجل معه ويجعلها ملكه. تمثّل الحبيبة له كلّ جمال الكون الحسّاس؛ وستصبح على شفتيه نشيد عبادةٍ. «كم أنت جميلةٌ يا فيولين، وكم هو جميلٌ هذا العالم الذي أنت فيه»[225].

«من هذه التي تقف أمامي، أرقّ من نسمة الهواء، كالقمر من خلال براعم الأوراق؟...ها هي كالنحلة الجديدة التي تفرد أجنحتها التي ما تزال نديّةً، كغزالةٍ كبيرةٍ، كزهرةٍ لا تعرف هي نفسها أنها جميلةٌ»[226].

«دعيني أستنشق رائحتك التي تشبه رائحة الأرض البرّاقة، المغسولة بالماء كالمذبح، عندما تنتج الأزهار الصفراء والزرقاء،

وكرائحة الصيف الذي يعبق برائحة القشّ والعشب، وكرائحة الخريف...»[227].

إنها تلخّص كلّ الطبيعة: الوردة، الزنبقة، النجمة، الثمرة، العصفور، الريح، القمر، الشمس، نافورة الماء، «حيويّة الميناء الكبير الهادئة في ضوء منتصف النهار»[228]، وهي أكثر من ذلك بكثيرٍ: شبيهةٌ.

«غير أنه، هذه المرة، ها هو شيءٌ آخر غير النجمة بالنسبة لي، نقطة النور هذه في رمل الليل الحيّ،

شخصٌ بشريٌّ مثلي...»[229].

«لن تكون وحيدًا، ولكن ستكون المخلصة فيك ومعك للأبد. أحدٌ من أجلك لن يتغيّر أبدًا، امرأتك»[230].

«أحدٌ يسمع ما أقول ويثق بي.

225- الإعلان لماري.

226- الشابة فيولين.

227- المدينة.

228- حذاء الساتان.

229- المرجع نفسه.

230- المدينة.

رفيقٌ ذو صوتٍ خفيضٍ يأخذنا بين ذراعيه ويؤكّد لنا أنّه امرأةٌ»[231].

عندما يضمّها الرجل إليه، جسدًا وروحًا، يجد جذوره في هذه الأرض ويكتمل بها.

«أخذت هذه المرأة، وهذه هي إمكانياتي ونصيبي من الأرض»[232]. ليست خفيفة الحمل، لكن الرجل لم يُخلق ليكون مستعدًّا لأيّ شيءٍ: «وها هو الرجل الأحمق يفاجأ بهذه المخلوقة الغريبة، هذا الشيء الكبير الثقيل المعيق.

كل هذه الملابس، كلّ هذا الشعر، ما العمل؟

لم يعد يستطيع، لم يعد يريد الخلاص منها!»[233].

لأنّ هذا العبء هو كنزٌ أيضًا. تقول فيولين: «أنا كنزٌ عظيمٌ».

بالمقابل عندما تمنح المرأة نفسها للرجل تكمل قدرها في الأرض.

«لأنّه ما فائدة المرأة غير أن نقطفها؟
وهذه الوردة غير أن نلتهمها؟ لم تولد أبدًا
إلا لتكون لآخر وفريسة أسدٍ قويٍّ؟»[234].

«ماذا سنفعل، نحن اللواتي لا نستطيع أن نكون امرأةً إلا بين ذراعيه وقدح نبيذ إلّا في قلبه؟»[235].

«ولكن أنت يا روحي تقولين لي: لم أُخلق عبثًا وهناك من هو مدعوٌّ لقطفي!».

«هذا القلب الذي كان بانتظاري، آه! يا لبهجتي بملئه»[236].

يجب أن يتمّ اتّحاد الرجل والمرأة هذا أمام الله بالطبع؛ وهو مقدّسٌ وأبديٌّ؛ تتمّ الموافقة عليه بملء الإرادة ولا يمكن فصمه بنزوةٍ فرديّةٍ. «الحب، القبول الذي تبادله شخصان حرّان

231- الخبز القاسي.

232- المدينة.

233- قسمة الظهيرة.

234- الغنائية ثلاثية الأصوات.

235- المرجع نفسه.

236- المرجع نفسه.

بدا لله شيئًا عظيمًا بحيث جعله مقدّسًا. هنا كما في كلّ مكانٍ آخر يجعل التقديس ما لم يكن سوى رغبةٍ قلبيةٍ أمرًا واقعًا»[237]. وأيضًا: «الزواج ليس المتعة، إنه التضحية بالمتعة، إنّه دراسة روحين سيكتفيان ببعضهما.. منذ الآن وللأبد، من أجل غايةٍ أكبر منهما»[238].

بهذا الاتّحاد، لن يتبادل الرجل والمرأة البهجة فقط؛ لكن سيملك كلّ واحدٍ كيانه. «هذه الروح داخل روحي، هو من عرف كيف يجدها!... هو من أتى إليَّ ومدّ لي يده... هو من كان ندائي الداخلي! كيف أقول؟ هو من كان أصلي! ذاك الذي من خلاله ولأجله أتيت إلى العالم»[239].

«جزءٌ مني لم أكن أعتقد أنه موجودٌ، لأني كنت مشغولةً في مكانٍ آخر ولم أكن أفكر فيه. آه! يا إلهي، إنه موجودٌ، وحيٌّ بشدّةٍ»[240].

ويبدو هذا الكائن مبرَّرًا بالنسبة لذاك الذي يكمّله، ضروريًّا. يقول ملاك بروهيز: «كنتِ ضروريّةً فيه»، ويقول رودريغ: «ما هو الموت سوى الكفّ عن أن يكون المرء ضروريًّا؟ متى استطاعت أن تستغني عني؟ متى سأكفّ عن أن أكون بالنسبة لها ما لا تستطيع أن تكون هي ذاتها من دونه؟»[241].

«يقال إنّه ليس هناك روحٌ صُنِعت خارج حياةٍ وعلاقةٍ غامضةٍ بأرواحٍ أخرى.
ولكن نحن الاثنان، نحن أكثر من هذا أيضًا، أنا موجودٌ بقدر ما تتكلّمين؛ يجري الشيء نفسه بين هذين الشخصين.
عندما كانوا يصنعوننا يا أوريون، أظنّ أنه بقي قليلٌ من المادة التي وُضعت فيك وأنا صُنِعت من هذا الذي ينقصك»[242].

في ضرورة هذا الاجتماع الرائعة، وُجِدت الجنة وقُهِر الموت: «ها هو يصنع ثانيةً من رجلٍ وامرأةٍ أخيرًا هذا الكائن الذي كان موجودًا في الجنة»[243].

237- مواقف واقتراحات.
238- حذاء الساتان.
239- كتاب توبي وسارة.
240- الأب المهان.
241- حذاء الساتان.
242- الأب المهان.
243- أوراق القديسين.

«لن ننجح في التخلص من الموت أبدًا إلّا بالواحد عبر الآخر. مثلما ينتج البنفسجي إن ذاب مع البرتقالي اللون الأحمر الصافي»[244].

أخيرًا بصورة آخر يصل كلّ واحدٍ إلى الآخر في تمامه، أي إلى الله.

«ما نمنحه الواحد للآخر هو الله بأنواع مختلفةٍ»[245].

«إذا لم تكن قد رأيت السماء في البدء في عيني، هل كنت سترغب بها بهذا القدر؟»[246].

«آه! كفّي عن أن تكوني امرأةً ودعيني أرى على وجهك أخيرًا هذا الإله الذي أنت عاجزةٌ عن احتوائه»[247].

«حب الله يستدعي لدينا نفس خصائص الآلهة، هذا الشعور بأننا لسنا كاملين بمفردنا وأنّ الخير الأسمى الذي نتحقق فيه هو أحدٌ خارجنا»[248].

وهكذا يجد كلّ واحدٍ في الآخر معنىً لحياته الأرضية والدليل القاطع على قصور هذه الحياة:

«بما أني لا أستطيع إعطاءه السماء، على الأقل أستطيع انتزاعه من الأرض. أنا وحدي أستطيع إعطاءه عدم كفايةٍ بقدر رغبته»[249].

«ما كنت أطالبك به، وما كنت أرغب في منحك إياه، لا يتوافق مع الوقت ولكن مع الخلود»[250].

مع ذلك فدور المرأة والرجل ليسا متماثلين تمامًا. فعلى الصعيد الاجتماعي، هناك أولوية واضحة للرجل. يعتقد **كلوديل** بالمراتب ومن بينها مراتب الأسرة: فالزوج هو رئيسها. تشرف آن **فيركور** على منزلها. ويعتبر السيد **بيلاج** نفسه البستاني الذي عهد إليه

244- حذاء الساتان.

245- أوراق القديسين.

246- المرجع نفسه.

247- حذاء الساتان.

248- مواقف واقتراحات.

249- حذاء الساتان.

250- الأب المهان.

بالعناية بهذه النبتة الرقيقة، السيدة بروهيز؛ فيعطيها مهمةً لا تفكر برفضها. مجرّد كونك ذكرًا يمنحك امتيازًا. وتسأل سيني[251]: «من أكون، أنا الفتاة المسكينة، كي أقارن نفسي بذكرٍ من سلالتي؟». الرجل هو من يحرث الحقول، ويبني الكاتدرائيات، ويحارب بالسيف، ويسكتشف العالم، ويكتسب الأراضي، ويتصرّف، ويسعى. من خلاله تكتمل مقاصد الله على هذه الأرض. لا تبدو المرأة سوى مساعدةٍ. إنّها تلك التي تظل في مكانها، تنتظر، وتحافظ:

تقول سيني: «أنا تلك التي تبقى وتظل هناك على الدوام».

تدافع عن تركة **كوفونتين**، وتمسك حساباته بدقةٍ بينما هو يقاتل بعيدًا من أجل القضية. تساعد المرأة المحارب بالأمل: «أجلب الأمل الذي لا يقاوَم»[252]. وبالشفقة:

«أشفقت عليه. إذ لمن سيلجأ، بحثًا عن أمه، سوى للمرأة الذليلة

بروح بوحٍ وخجلٍ»[253].

ويتمتم تيت دور وهو يموت:

«ها هي شجاعة الجريح، ودعم المُقعَد

رفيقة المحتضر...».

لا يأخذ **كلوديل** على المرأة أن تعرف الرجل في لحظات ضعفه؛ بالعكس ينتقد الغرور الذكري الذي يتبدى لدى **مونترلان** و**لورنس**. من الحسن أن يعرف الرجل أنه جسديٌّ وبائسٌ، ألّا ينسى أصله ولا الموت الموازي لهذا الأصل. تستطيع كلّ زوجةٍ أن تقول ما قالته **مارت**:

«صحيحٌ أني لست من وهبتك الحياة، لكنّي هنا كي أطلبها منك ثانيةً. من هنا ينتاب الرجل أمام المرأة هذا الاضطراب الذي يشبه الضمير، كما لو كنت أمام دائنٍ»[254].

ومع ذلك على هذا الضعف أن ينحني أمام القوّة. في الزواج *تهب الزوجة نفسها* للزوج

251- الرهينة.

252- المدينة.

253- التبادل.

254- المرجع نفسه.

الذي يتكفّل بها: تنام **لالا** على الأرض أمام **كوفر** الذي يضع قدمه عليها. علاقة الزوجة بالزوج، والابنة بالأب، والأخت بالأخ، علاقة تبعيّةٍ. وتقسم **سيني** بين يدي **جورج** قَسم الفارس للسيد.

«أنت الزعيم وأنا سيبيل المسكينة حارسة النار.

دعني أقسم كفارسٍ جديدٍ! آه يا سيدي! دعني أقسم بين يديك

مثل راهبةٍ تدخل السلك،

آه يا ذكر سلالتي!»[255].

أكبر الفضائل البشرية للتابعة هي الإخلاص والنزاهة. هي باسم جنسها وسلالتها فخورةٌ جموحةٌ رقيقةٌ ومتواضعةٌ ومستكينةٌ كامرأةٍ؛ كسيني دو **كوفونتين** الفخورة أو الأميرة **تيت دور** التي تحمل على كتفيها جثّة أبيها القتيل، التي تقبل بؤس حياة عزلةٍ ووحشةٍ وآلام صَلبٍ والتي ترافق **تيت دور** في احتضاره قبل أن تموت إلى جانبه. وهكذا تبدو لنا المرأة مُصالحةً، وسيطةً: إنها **إستير** المنقادة لأوامر **ماردوشيه** وجوديث المطيعة للكهنة؛ إنها قادرةٌ على قهر ضعفها وتهرّبها من المسؤولية وخجلها بإخلاصها لقضيتها بما أنها قضية أسيادها؛ وتستمدّ من إخلاصها قوةً تجعل منها أغلى أداةٍ.

على الصعيد الإنساني، يبدو إذًا أنها تستمدّ عظمتها من تبعيتها ذاتها. ولكنّها بنظر الله شخصٌ مستقلٌّ تمامًا. أن يتجاوز وجود الرجل نفسه بينما يبقى كما هو لدى المرأة لا يجعل بينهما اختلافًا إلا بالاعتبارات الأرضية: على كل حالٍ لا يتم التسامي على الأرض، ولكن في الله. وللمرأة صلةٌ مباشرةٌ به، وأكثر سرّيةً من رفيقها. ويتحدّث الله إلى **سيني** بصوتِ رجلٍ ـ ربما كان كاهنًا ـ؛ لكنّ **فيولين** تسمع صوته في وحدة قلبها، ولا علاقة لبروهيز إلا بالملاك الحارس. أسمى صور **كلوديل** هي لنساءٍ: **سيني وفيولين وبروهيز**. يعود جزءٌ من ذلك لأنّ القداسة بالنسبة له هي في التخلّي. والمرأة أقل انخراطًا في المشاريع البشرية، ولديها إرادةٌ شخصيّةٌ أقلّ: لقد صُنعت لتعطي نفسها، وليس لتأخذ، فهي أقرب إلى التفاني الكامل. من خلالها يتمّ تجاوز المباهج الأرضية المباحة والجيدة، والتي تكون التضحية بها

255- الرهينة.

أفضل أيضًا. تكملها سيني لسببٍ محدّدٍ: إنقاذ البابا. وتقنع بروهيز بذلك في البدء لأنها تحب رودريغ حبًّا ممنوعًا:

«أكنت تريد أن أضع بين يديك خيانةً؟... لما كنت حينها سوى امرأةٍ تشارف على الموت على قلبك وليس هذه النجمة الخالدة التي أنت متعطّشٌ إليها»[256].

ولكن عندما استطاع هذا الحب أن يكون مشروعًا، لا تحاول إكماله في هذا العالم. لأنّ الملاك تمتم في أذنها قائلًا:

«بروهيز، يا أختي، يا طفلة الله في النور التي أحييها،

بروهيز هذه التي تراها الملائكة، إنها تلك التي ينظر إليها دون أن يعرف، تلك التي صنعتها لتمنحه إياها»[257].

هي بشرٌ، هي امرأةٌ، ولا تستكين دون ثورةٍ:

«لن يعرف مذاقي!»[258].

لكنّها تعرف أن زواجها الحقيقي مع رودريغ لن يتم إلّا برفضها:

«عندما لن يعود هناك مفرٌّ، عندما سيرتبط بي إلى الأبد بهذا الزواج المستحيل، عندما لا تعود هناك وسيلةٌ للتخلّص من صرخة جسدي القويّ وهذا الفراغ الذي لا يرحم، عندما سأثبت له عدمه وعدَمي، عندما لن يبقى في عدمه سرٌّ لا يستطيع عدمي التحقّق منه، عندئذٍ سأعطيه لله عاريًا وممزّقًا ليملأه بضربة صاعقةٍ، عندها سيكون لي زوجٌ وسأضم إلهًا بين ذراعي»[259].

قرار فيولين غامضٌ أكثر ومجانيٌّ أكثر أيضًا؛ لأنها اختارت الجذام والعمى عندما كان بإمكان رباطٍ شرعيٍّ أن يجمعها بالرجل الذي يحبها والذي تحبه.

«جاك، ربما

256- حذاء الساتان.

257- المرجع نفسه.

258- المرجع نفسه.

259- المرجع نفسه.

كنا نحبّ بعضنا أكثر مما يجب بحيث لم يكن صحيحًا أن يكون الواحد للآخر، ولم يكن جيّدًا أن يكون الواحد للآخر»[260].

ولكن إذا كانت النساء بالتالي مكرّساتٍ بشكلٍ خاصٍ لبطولة القداسة، فذلك بشكلٍ خاصٍّ لأن **كلوديل** ما يزال يتناولهنّ من منظورٍ ذكوريٍّ. لا شكّ في أنّ كلًّا من الجنسين يجسّد الآخر في نظر الجنس المكمّل؛ ولكن في عينيه كرجلٍ تظهر المرأة غالبًا رغم كلّ شيءٍ كآخر مطلقٍ. هناك تجاوزٌ رمزيٌّ «نعرف به أننا عاجزون بأنفسنا ومنه نفوذ المرأة علينا الشبيه بتأثير النعمة»[261]. والكلام هنا للذكور فقط وليس لكلّ النوع البشري، والمرأة أمام نقائصهم هي نداء الخلود. يوجد هنا نوعًا ما مبدأً جديدٌ للتبعيّة: من خلال مشاركة القديسين كلّ فردٍ هو أداةٌ لجميع الآخرين؛ لكن المرأة تحديدًا أداة خلاصٍ للرجل، دون أن تقابل بالمثل. «*حذاء الساتان*» هو ملحمة خلاص رودريغ. تبدأ المأساة بالصلاة التي يقوم بها أخوه لله من أجله؛ وتنتهي بموت رودريغ الذي قادته **بروهيز** إلى القداسة. ولكن، من جهةٍ أخرى، تكسب المرأة بذلك أسمى استقلالٍ: لأنّ مهمتها تُستَبطن فيها، وبقيامها بتخليص الرجل، أو بكونها مثالًا له، تصنع في الوحدة خلاصها هي. يتنبّأ **بيير دوكراون** لـ**فيولين** بمصيرها، ويقطف في قلبه ثمار تضحيتها الرائعة؛ وسيشيد بها في وجه الرجال في أحجار الكاتدرائيات. ولكن **فيولين** هي من قامت بذلك دون معونةٍ من أحد. لدى **كلوديل** إيمانٌ بالمرأة يقارب إيمان **دانتي** ب**بياتريس**، وإيمان الغنوصيين، وحتى التقاليد السانسيمونية التي تسمي المرأة المولدة. ولكن بما أن الرجال والنساء هم أيضًا مخلوقات الله، فقد أعطاها أيضًا مصيرًا مستقلًّا. بحيث أنّ المرأة عندما تجعل من نفسها آخر ـ أنا خادمة الرب ـ تتحقّق كذاتٍ؛ وفي ذاتها تظهر كالآخر.

هناك نصٌّ من «*مغامرات صوفي*» يلخّص تقريبًا كلّ مفهوم **كلوديل**. نقرأ أن الله عهد إلى المرأة «بهذا الوجه الذي مهما كان بعيدًا ومشوّهًا، فهو صورةٌ أكيدةٌ عن كماله. جعلها مرغوبةً. وضع معًا الغاية والأصل. جعلها مؤتمنةً على نواياه وقادرةً على أن تعيد للرجل هذا النوم الخلّاق الذي تشكّلت هي فيه. إنها دعامة القدر. وهي العطاء. وهي إمكانية التملك...

260- الشابة فيولين.

261- حذاء الساتان.

هي قيد هذا الرباط العاطفي الذي لا يفتأ يوحّد الخالق وعمله. إنها تفهمه. هي الروح التي ترى وتصنع. تقاسمت معه بطريقةٍ ما صبر وسلطة الخلق».

من ناحيةٍ، يبدو أنّه لا يمكن تمجيد المرأة أكثر. ولكنّ **كلوديل** في الواقع لا يفعل سوى التعبير شعريًّا عن التقاليد الكاثوليكية المحدَّثة قليلًا. قيل إن قدر المرأة على الأرض لا يسيء أبدًا إلى استقلالها فوق الطبيعي؛ ولكن بالعكس، حين يقرّ الكاثوليكي لها بذلك، يعتقد أن من المسموح له الإبقاء على الامتيازات الذكورية في هذا العالم. تُوقَّر المرأة *كإلهٍ*، وتُعامل في هذا العالم كخادمةٍ: وحتى أنه كلما طُلِب منها خضوعٌ أكبر، كلما وجّهوها أكثر إلى طريق خلاصها. نصيبها التفاني من أجل الأطفال والزوج والمنزل والملكية والوطن والكنيسة، النصيب الذي خصصته لها البورجوازية على الدوام؛ يعطي الرجل عمله، والمرأة شخصها؛ تبرير هذا الترتيب باسم الإرادة الإلهيّة، لا يعني تغييره ولكن على العكس المطالبة بتثبيته في الأزل.

4

بروتون أو الشعر

رغم الهوّة التي تفصل عالم **كلوديل** الديني عن عالم **بروتون** الشعري، يوجد تماثلٌ في الدور الذي يعطيانه للمرأة: فهي عنصر إزعاجٍ؛ تنتزع الرجل من نوم المثولية؛ فمٌ، مفتاحٌ، باب، جسرٌ، إنها **بياتريس** التي تقود **دانتي** في الحياة الثانية. «إن راقبنا العالم الحساس لحظةً، سنرى أنّ حب الرجل للمرأة يظل يملأ السماء زهورًا ضخمةً صهباء. ويبقى أكبر حجر عثرةٍ بالنسبة للفكر الذي يشعر دومًا بحاجةٍ إلى أن يظن نفسه في مأمنٍ». حب امرأةٍ أخرى يقود إلى حب الآخر. «في أعلى فترات الحب الاصطفائي لشخصٍ ما تُفتح السدود أمام حب البشرية...»، ولكنّ الحياة الثانية بالنسبة لبروتون ليست سماءً غريبةً: هي هنا؛ وتنكشف لمن يعرف كيف يزيح حُجُب اليوميات العادية؛ تبدّد الشهوانية وسواها فخ المعرفة الزائفة.

«في أيامنا، عالم الجنس... لم يكفّ على حدّ علمي عن مواجهة إرادتنا باقتحام الكون بنواته غير القابلة للتجزئة، أي الليل». الاصطدام بالغموض هو الوسيلة الوحيدة لاكتشافه. المرأة لغزٌ وتطرح ألغازًا؛ وجوهها المتعددة باجتماعها تؤلّف «الكائن الفريد الذي نستطيع أن نرى فيه آخر تحوّلٍ لأبي الهول»؛ ولهذا هي اكتشافٌ. يقول **بروتون** لامرأةٍ أحبّها: «كنتِ صورة السرّ نفسه». وبعد قليلٍ: «عرفتُ أنّ الوحي الذي جلبتيه لي وحيٌ قبل حتى معرفة مماذا يتكوّن». هذا يعني أن المرأة هي شعرٌ. وهو الدور الذي تلعبه أيضًا لدى **جيرار دو نرفال** Gèrard de Nerval: ولكن في «*سيلفي وأوريليا*» هي ذكرى أو شبحٌ لأنّ الحلم الحقيقيّ أكثر من الواقع، لا يتطابق تمامًا معه؛ بالنسبة **لبروتون** التطابق كاملٌ: لا يوجد سوى عالمٍ؛ الشعر موجودٌ بشكلٍ موضوعيٍّ ضمن الأشياء، والمرأة بالتأكيد كائنٌ من لحمٍ وعظمٍ. نصادفها، ليس في نصف حلمٍ، ولكن في اليقظة، وسط نهارٍ عاديٍّ له تاريخه كسائر أيام التقويم، 5 نيسان/ أفريل، 12 نيسان/ أفريل، 4 تشرين الأول/ أكتوبر، 29 أيار/ مايو، في مكانٍ عاديٍّ: مقهىً، أو زاوية شارعٍ. لكنها تتميّز دائمًا عن سواها. «تسير **ناديا** مرفوعة الرأس خلافًا لبقية المارّة. متزيّنةً بشكلٍ غريبٍ.. لم أر أبدًا مثل هاتين العينين». يقترب منها **بروتون** ليخاطبها «تبتسم، ولكن بشكلٍ غامضٍ للغاية، كما لو كانت عليمةً بالأمر».

في «*الحب المجنون*» يقول: «كأنما كانت هذه الشابة التي دخلت للتوّ محاطةً ببخارٍ - أترتدي نارًا؟... وأستطيع القول أنه في هذه الساحة، يوم 29 أيار/ مايو 1934، كانت هذه المرأة جميلةً *بشكلٍ فاضحٍ*»[262]. ويدرك الشاعر فورًا أنها ستلعب دورًا في مصيره؛ لا يكون أحيانًا سوى دورٍ عابرٍ، ثانويٍّ؛ كالطفل في عيون **دليلة** في «*الأوعية المتّصلة*»؛ حتّى أن معجزاتٍ صغيرةً تولد حولها. وفي نفس اليوم الذي لدى **بروتون** فيه موعدٌ معها يقرأ مقالًا لطيفًا كتبه صديقٌ اسمه **شمشون** لم يره منذ زمنٍ طويلٍ. وأحيانًا تتعدّد المعجزات؛ امرأة 29 أيار/ مايو المجهولة، **أوندين** التي كانت تقدّم فقرة سباحةٍ في مسرح استعراضٍ، يسمع اسمها في سجعٍ يقوله أحدهم في مطعمٍ: «أوندين، هل تتعشين؟» وأول مرة تخرج فيها مع الشاعر كان قد وصفها بشكلٍ مفصّلٍ في قصيدةٍ كتبها قبل ذلك بأحد عشر عامًا. كانت **ناديا** أروع هاته الساحرات: تقرأ الطالع، ومن فمها تخرج الكلمات والصور التي تمر بفكر

262- بروتون يؤكّد على ذلك.

صديقها في نفس اللحظة؛ أحلامها ومخططاتها وحيٌ، تقول: «أنا الروح الهائمة»؛ وتتّجه في الحياة «بطريقةٍ خاصّةٍ غير معتمدةٍ سوى على الحس المجرّد الذي به دومًا شيءٌ من الأعجوبة»؛ حولها تنشر الصدفة الموضوعية بغزارةٍ أحداثًا غريبةً؛ إنها متحرّرةٌ بشكلٍ رائعٍ من المظاهر بحيث تحتقر القوانين والعقل: وينتهي بها الأمر في مصحٍ للمجانين. كانت «جنّيةً حرّةً، شيئًا يشبه إحدى أرواح الهواء هذه التي يمكن لبعض ضروب السحر أن تلتقطها لحظيًّا ولكن لا يمكن إخضاعها». بسبب هذا تفشل في القيام بدورها الأنثوي بشكلٍ تامٍ. عرّافةٌ، منجّمةٌ، ملهمةٌ، تبقى قريبةً جدًّا من المخلوقات غير الحقيقية التي كانت تزور **نرفال**؛ تفتح أبواب العالم الخيالي: لكنها عاجزةٌ عن إعطائه لأنها عاجزةٌ عن إعطاء نفسها. بالحب تكتمل المرأة ويمكن بلوغها فعلًا؛ فهي فريدةٌ، تلخّص كلّ شيءٍ حين تقبل مصيرًا خاصًّا، بدل أن تعوم بلا جذورٍ عبر الكون. اللحظة التي يبلغ فيها جمالها ذروته هي تلك الساعة من الليل حيث «تكون المرآة الكاملة التي يسبح فيها بشكلٍ رائعٍ كلّ ما كان، وكلّ ما دُعي ليكون، في ما سيكون هذه *المرّة*». بالنسبة **لبروتون** يختلط «إيجاد المكان والصيغة بامتلاك الحقيقة ضمن روحٍ وجسدٍ». هذا الامتلاك غير ممكنٍ إلّا بالحب المتبادل، حب جسدي بالطبع». على صورة المرأة التي نحب ألّا تكون فقط صورةً نبتسم لها ولكن أيضًا وسيط وحيٍ[263] نطرح عليه أسئلةً». لكنها لن تكون وسيط وحيٍ إلّا إن كانت المرأة نفسها شيءٌ مختلفٌ عن فكرةٍ أو صورةٍ؛ عليها أن تكون «حجر الزاوية في العالم المادي»؛ بالنسبة للعرّاف هذا العالم نفسه هو الشعر، ويجب أن تكون لديه **بياتريس** حقًّا في هذا العالم. «الحب المتبادل هو الوحيد الذي يحدّد المغنطة الكاملة التي لا يمكن لشيءٍ السيطرة عليها، التي تجعل الجسد شمسًا وبصمةً رائعةً للجسد، والروح نبعًا متدفّقًا باستمرارٍ لا ينضب، حيويًّا على الدوام يتّجه ماؤه دومًا بين نبتة الأذريون والزعتر البرّي».

هذا الحب الذي لا يُقهر يكون فريدًا. وهذا هو تناقض موقف **بروتون** من «*الأوعية المتّصلة*» وحتى «*أركان 17*» إذ يصرّ على منح حبٍّ فريدٍ وأبديٍّ لنساءٍ مختلفاتٍ. ولكن تبعًا لرأيه فإن الظروف الاجتماعيّة التي تمنع حريّة اختيار الرجل هي التي تقوده إلى خياراتٍ خاطئةٍ؛ غير أنه يبحث في الحقيقة من خلال هذه الأخطاء عن *امرأةٍ*. وإذا استذكر الوجوه

263- كاهن لدى الإغريق يعتقدون أن الله يجيب بواسطته عن السؤال عن أمور الغيب. (المترجمة)

التي أحبها «لن يكتشف في جميع وجوه النساء هذه سوى وجهٍ واحدٍ: *آخر وجهٍ أحبّه*»[264]. «كم مرةً أدركت أنّ سمةً استثنائيةً مشتركة كانت تحاول من وجهٍ لآخر أن تتجلّى خلف المظاهر المتباينة بشكلٍ كاملٍ».

وفي «*الحب المجنون*» يسأل **أوندين**: «أهذه أنت أخيرًا، هذه المرأة، هل كان عليك أن تأتي اليوم فقط؟»، ولكن في «*أركان 17*» يقول: «تعرفين جيّدًا أني عندما رأيتك أول مرةٍ، عرفتك دون تردّدٍ». في عالمٍ مكتملٍ، مجدّدٍ، يصبح الثنائي غير قابلٍ للانفصال، إثر عطاءٍ متبادلٍ ومطلقٍ: بما أن الحبيبة هي كلّ شيءٍ، فكيف يكون هناك مكانٌ لأخرى؟ هي هذه الأخرى أيضًا؛ وبشكلٍ كاملٍ بقدر ما تكون هي ذاتها». لا يمكن تفريق المخالف للمألوف عن الحبّ. لأنك فريدةٌ ستكونين دومًا بالنسبة لي أخرى، أنت أخرى. من خلال تنوّع هذه الزهور العديدة هناك، أنت المتغيّرة التي أحبّ بقميصٍ أحمر، أو عاريةً، أو بقميصٍ رماديٍّ». ويكتب **بروتون** بشأن امرأةٍ مختلفةٍ وفريدةٍ: «الحب المتبادل كما *أراه*، هو مجموعة مرايا تعكس لي من ألف زاويةٍ يتخذها المجهول بالنسبة لي، الصورة الصحيحة لتلك التي أحب، أكثر إثارةً للدهشة بحدسها لرغبتي الخاصة، وأكثر حيويّةً».

هذه المرأة الفريدة، الجسديّة والاصطناعيّة، الطبيعية والبشرية تملك نفس سحر الأشياء الغامضة التي يحبها السرياليون: إنها مثل الملعقة ـ الحذاء، والمنضدة ـ المكبرة، وسكر المرمر الذي يكتشفه الشاعر في سوق السلع القديمة أو يخترعه في الحلم؛ تشارك في سرّ الأغراض المألوفة التي تُكتَشف حقيقتها فجأةً؛ وسرّ النباتات والأحجار. إنها جميع الأشياء:

امرأتي ذات شعرٍ شبيهٍ بنار الحطب
ذات أفكارٍ كالأشعة الدافئة
ذات خصرٍ كخصر الساعة الرمليّة
ذات عضوٍ كالطحالب والسكاكر القديمة
امرأتي لها عيون السافانا.

264- الكلام لبروتون.

ولكنّها الجمال خصوصًا قبل كل شيءٍ. الجمال بالنسبة لبروتون ليس فكرةً يتم تأملها لكنه واقعٌ لا يتجلّى ـ وبالتالي لا يوجد ـ إلّا من خلال العاطفة؛ لا جمال في العالم إلّا عبر المرأة.

«هناك، في أعماق البوتقة الإنسانية في هذه المنطقة المتناقضة حيث انصهار كائنين اختارا بعضهما حقًّا يعيد لكلّ الأشياء القيم المفقودة من زمن الشموس القديمة، حيث الوحدة تفيض مع ذلك أيضًا عبر نزوات الطبيعة هذه التي تشاء أن يبقى الثلج تحت الرماد حولَ فوهات براكين ألاسكا، هناك منذ سنين، طلبتُ أن نذهب بحثًا عن الجمال الجديد، الجمال الذي نفكّر فيه فقط لأهدافٍ عاطفيّةٍ».

«الجمال المتشنّج يكون شهوانيًا، مستترًا، متفجّرًا ـ ثابتًا، سحريًّا ـ ظرفيًّا، أو لا يكون».

يأخذ كلّ شيءٍ معناه من المرأة. «من خلال الحب تحديدًا، ومن خلاله فقط يتحقق لأعلى درجةٍ انصهار الجوهر والوجود». ويتحقّق بالنسبة للعشّاق وفي الوقت نفسه عبر العالم بأسره. «التسلية، إعادة تلوين العالم المستمر ضمن كائنٍ واحدٍ، كما تتمّ بالحبّ، تنير بألف شعاعٍ عالم الأرض». بالنسبة لكلّ الشعراء ـ أو تقريبًا ـ تجسّد المرأة الطبيعة؛ ولكنّها طبقًا لبروتون لا تعبّر عنها فقط؛ بل تطلقها. لأنّ الطبيعة لا تتحدّث بلغةٍ صريحةٍ، يجب اختراق خفاياها لفهم حقيقتها التي هي نفس جمالها: الشعر ليس انعكاس ذلك فقط ولكن مفتاحه بالأحرى؛ ولا تتميّز المرأة هنا عن الشعر. ولهذا هي الوسيط الضروري الذي تصمت كلّ الأرض من دونه: «الطبيعة ليست تابعةً، لتضيء وتنطفئ، ولتقدم لي وتأخذ مني، إلّا بقدر ما تقوى وتضعف بالنسبة لي شعلة بؤرةٍ هي الحب، الحب الوحيد، حب شخصٍ واحدٍ. عرفت، في غياب هذا الحب، السماوات الفارغة الحقيقية. لم يكن ينقص سوى شعلة نارٍ كبيرةٍ تنطلق مني لتمنح ما هو موجودٌ ثمنًا... أتأمل لدرجة الدوار يديك المفتوحتين فوق نار الأغصان الصغيرة التي أشعلناها للتو والتي تتوهّج، يديك الساحرتين، يديك الشفافتين اللتين تحومان فوق نار حياتي». كلّ امرأةٍ محبوبةٍ هي بالنسبة لبروتون أعجوبةٌ طبيعيةٌ: «نبتة سرخسٍ صغيرةٌ لا تُنسى تتسلّق الجدار الداخلي لبئرٍ قديمٍ جدًّا». «...لا أعرف ما المبهر والهام الذي لم يكن بإمكانها سوى التذكير به... الضرورة المادية الطبيعية الكبيرة

جاعلةً المرء يفكّر بمزيدٍ من الحنان بكسل بعض الزهور العالية التي تبدأ بالتفتّح» ولكن بالعكس: تختلط كل أعجوبةٍ طبيعيّةٍ مع الحبيبة؛ هي التي يمجّدها عندما يتأثّر بمغارةٍ، بزهرةٍ، بجبلٍ. تلاشت كلّ مسافةٍ بين المرأة التي تدفئ يديها على عتبة التيد Teide[265] والتيد نفسه. يبتهل الشاعر إلى كليهما في صلاةٍ واحدةٍ: «أيها التيد الرائع! خذ حياتي! يا فم السماوات والجحيم، أفضّلك غامضًا هكذا، قادرًا بالتالي على حمل الجمال الطبيعي فوق الغيم وابتلاع كلّ شيءٍ».

الجمال أيضًا أكثر من مجرّد جمال؛ إنه يمتزج «بليل المعرفة العميق»؛ إنه الحقيقة والخلود والمطلق؛ وليس مظهرًا مؤقتًا عارضًا للعالم تطلقه المرأة، إنه جوهره الضروري، جوهرٌ غير جامدٍ كما كان **أفلاطون** يتخيّله ولكنه «متفجرٌ ثابتٌ». «لا أكتشف فيّ كنزًا آخر سوى المفتاح الذي يفتح لي هذا الحقل اللامحدود منذ أن عرفتك، هذا الحقل الذي يشكّله تكرّر نبتةٍ واحدةٍ تتزايد في الطول تدريجيًّا، والتي سيقودني انتشارها المتزايد إلى الموت... لأنّ هناك امرأةً ورجلًا عليهما حتى نهاية الزمن أن يكونا أنت وأنا، سينزلقان بدورهما دون أن يلتفتا أبدًا حتى يضيع الدرب، في بارقة البصر، حبيبي الحياة ونسيان الحياة... الأمل الأكبر، أعني ذلك الذي يلخّص كلّ الآمال الأخرى، هو أن يحصل هذا للجميع ويدوم بالنسبة للجميع، أن يكون العطاء المطلق من شخصٍ لآخر، والذي لا يمكن أن يوجد دون المعاملة بالمثل، جسرًا طبيعيًا وفوق الطبيعي عبر الحياة في نظر الجميع».

وهكذا فالمرأة بالنسبة لكل رجلٍ هي الخلاص الوحيد الممكن، بالحب الذي توحي به وتشاطره. تتّسع مهمتها وتتحدّد في «*أركان 17*»: عليها إنقاذ البشرية. تبع **بروتون** دومًا تقليد **فورييه** Fourier الذي يمجّد المرأة كموضوعٍ شهوانيٍّ عندما يطالب بإعادة تأهيل الجسد؛ ومن الطبيعي أن يفضي لفكرة **سان سيمون** عن المرأة المجدّدة. في المجتمع الحالي، يسيطر الذكر، لدرجة أنّ شخصًا يدعى **غورمون** يعتبر إهانةً أن يقال إنّ **لرامبو**: «طبع فتاةٍ!» مع ذلك «سيأتي الوقت الذي ستُقدَّر فيه أفكار المرأة على حساب أفكار الرجل الذي يتم إشهار إفلاسه اليوم علنًا... أجل، ما تزال المرأة هي الضائعة، تلك التي تغنّي في خيال الرجل ولكن يجب أن تكون أيضًا المرأة التي وجدها. يجب أولًا أن تجد المرأة نفسها،

265- Le Teide التيد هي قمة بركان في جزر الكناري. (المترجمة)

أن تتعلّم كيف تعرف نفسها من خلال هذا الجحيم الذي تكرّسها له رغمًا عنها نظرة الرجل إليها، الأكثر من إشكاليةٍ.

يجب أن تلعب قبل كلّ شيءٍ دور صانع السلام. «كنت دائمًا مدهوشًا أنّه لم يُصغَ لها، أنّها لم تفكّر بالاستفادة قدر الإمكان، الاستفادة الهائلة من الإمكانيتين الثمينتين اللتين أعطيتا لها، الأولى إمكانيّة التحدّث إلى الرجل، والثانية اكتساب ثقة الطفل كلّها. أيّ أعجوبةٍ، أيّ مستقبلٍ لا يحوي صرخة المرأة الكبيرة الرافضة والمنذرة، هذه الصرخة المتزايدة... متى تصنع امرأة عاديّةٌ معجزةً أخرى حين تفتح ذراعيها بين هؤلاء المتقاتلين لتقول لهم: أنتم إخوةٌ». إن بدت المرأة اليوم فاقدةً للتكيّف، غير متوازنةٍ، فذلك بسبب المعاملة التي فرضها عليها استبداد الرجل؛ لكنها تحتفظ بقدرةٍ عجيبةٍ بما أنّ جذورها منغمسةٌ في منابع الحياة الحيويّة التي فقد الذكور أسرارها. «ميلوزين، التي استعادتها الحياة تشعر بالقلق، ميلوزين ذات الروابط الدنيا من الحصى والأعشاب المائية أو زغب الليل، هي التي أبتهل إليها، لا أرى سواها من يستطيع اختصار هذه الحقبة المتوحشة. هي المرأة بكاملها ومع ذلك فالمرأة كما هي اليوم، المرأة المحرومة من مكانتها الإنسانيّة، أسيرة جذورها المتحرّكة، ولكن التي تتواصل بها أيضًا سماويًا مع قوى الطبيعة الأساسيّة... المرأة المحرومة من مكانتها الإنسانية، هكذا تريدها الأسطورة بسبب قلة صبر الرجل وغيرته».

من المناسب إذن أن ننحاز اليوم للمرأة؛ بانتظار أن تُعاد لها قيمتها الحقيقية في الحياة، حان الوقت «لاتّخاذ موقفٍ واضحٍ مع المرأة وضد الرجل». «يجب أن نهيّئ بشكلٍ منهجيٍّ ارتقاء المرأة ـ الطفلة عرش الامبراطورية الحسيّة». لماذا المرأة ـ الطفلة؟ يشرح لنا بروتون ذلك: «أختار المرأة ـ الطفلة ليس لأضعها مقابل المرأة الأخرى ولكن لأنّ موشور الرؤية *الآخر*[266] يبدو لي أنّه يكمن بحالة شفافيةٍ مطلقةٍ فيها وفيها فقط...».

حين تُعتَبر المرأة كائنًا بشريًا فقط، تكون عاجزةً كالذكور عن إنقاذ هذا العالم الهالك؛ لكنّ الأنوثة بحدّ ذاتها هي التي تُدخِل إلى الحضارة هذا العنصر الآخر الذي هو حقيقة الحياة والشعر والذي وحده يستطيع تخليص البشرية.

266- بروتون من يقول هذا.

بما أن منظور **بروتون** شعريٌّ حصريًا، فالمرأة تُبحَث فيه كشعرٍ حصريًا وبالتالي كآخر.
إن تساءلنا عن قدرها هي، سيأتي الجواب ضمن مثال الحبّ المتبادل: فليس لديها نزعةٌ سوى للحب؛ ولا يشكّل هذا أيّة دونيّةٍ بما أن نزعة الرجل هي الحب أيضًا. مع ذلك كنا نودّ أن نعرف إن كان الحب بالنسبة لها أيضًا مفتاح العالم، اكتشافًا للجمال؛ هل ستجد هذا الجمال لدى عشيقها؟ أو في صورتها هي؟ هل ستكون قادرةً على القيام بالنشاط الشعري الذي يحقق الشعر عبر شخصٍ حسّاسٍ: أم ستكتفي بتقدير عمل رجلها؟ هي الشعر بحد ذاته بالنسبة للرجل؛ ولا يقولون لنا إن كانت كذلك بالنسبة لنفسها. لا يتحدّث **بروتون** عن المرأة بوصفها ذاتًا. كما لا يذكر صورة المرأة الشريرة. في مجمل عمله ـ رغم بعض المنشورات والمقالات النقدية التي ينتقد فيها قطيع البشر ـ ولا يثابر على تعداد مقاومات العالم السطحية ولكن على كشف حقيقتها السريّة: لا تهمّه المرأة إلّا لأنّها «فمٌ» مميّزٌ. تبدو كذلك مفتاح الحياة الثانية، مغروسةً بعمقٍ في الطبيعة، قريبةً من الأرض. لدى **بروتون** نفس المذهب الطبيعي الباطني الموجود لدى الغنوصيين الذين كانوا يرون في **صوفيا** جوهر الفداء وحتّى الخلق، ولدى **دانتي** الذي اختار **بياتريس** دليلًا ولدى **بترارك** Pètrarque الذي ألهمه حبّ **لور**. ولهذا أكثر الأشخاص رسوخًا في الطبيعة، وأقربهم إلى الأرض هو أيضًا مفتاح الحياة الثانية. هي كلّ شيءٍ، الحقيقة، والجمال، والشعر: مرّةً أخرى كلّ شيءٍ بصورة الآخر، كلّ شيءٍ عدا ذاتها.

5

ستندال Stendhal أو روائيّ الواقع

إذا عدت إلى **ستندال** تاركةً الحقبة المعاصرة، فذلك لأنّه بخروجنا من هذه الكرنفالات التي تتنكّر فيها المرأة تارةً بزيّ الشريرة، وتارةً بزيّ جنّيةٍ، أو نجمة الصباح، أو حوريّةٍ، من المفيد تناول رجلٍ يعيش بين نساءٍ من لحمٍ ودمٍ.

أحب **ستندال** النساء حسيًا منذ طفولته: عكس عليهنّ طموحات مراهقته. كان يتخيّل

نفسه بطبيب خاطرٍ ينقذ حسناء مجهولةً من الخطر، ويكسب حبّها. لدى وصوله إلى باريس، أكثر ما أراده بحماسٍ هو «امرأةٌ ساحرةٌ، سنعبد بعضنا، وستعرف روحي»... عندما هرم، كتب على الغبار الأحرف الأولى من أسماء النساء اللواتي أحبّهنّ أكثر من سواهنّ. ويبوح لنا بقوله: «أعتقد أنّي فضّلتُ أحلام اليقظة على كلّ شيءٍ». وقد غذّت أحلامه صور نساءٍ؛ ذكراهنّ تحيي المشاهد. «كان خطّ الصخور بالنسبة لي وأنا أدنو من «أربوا»، على ما أعتقد، آتيًا من «دول» عبر الطريق الكبيرة، صورةً حسّاسةً وجليّةً عن روح «**ماتيلد**». كلّ ما أحبّه، الموسيقى، والرسم، والعمارة، أحبّه بروح عاشقٍ تعيسٍ؛ فإن تجوّل في روما، تظهر امرأةٌ عند كلّ منعطفٍ؛ عرف مزاجَ قلبه في الأسف والرغبات والأحزان والأفراح التي أثرنها لديه؛ أرادهنّ حَكمًا: ارتاد صالوناتهنّ، وحاول أن يبدو لامعًا في نظرهنّ؛ وكنّ مبعث أكبر حالات سعادته، وأكبر أحزانه، وكنّ شغله الشاغل؛ فضّل حبهنّ على أيّة صداقةٍ، وصداقتهنّ على صداقة الرجال؛ ألهمت كُتبَه نساءٌ، واحتلتها صور نساءٍ؛ معظم ما كتب كان لأجلهنّ. «أجرّب حظّي في أن تقرأ كتبي في 1900 النفوس التي أحبّ، السيدة **رولان**، و**ميلاني غيلبرت**...»، لقد كنّ مادة حياته نفسها. من أين أتاهنّ هذا الامتياز؟

لا يعتقد صديق النساء اللطيف هذا بالغموض الأنثويّ، وبالتحديد لأنه يحبهن في حقيقتهنّ، لا يوجد جوهرٌ يحدّد المرأة مرّةً وللأبد؛ تبدو له فكرة «المؤنث الأزلي» متحذلقةً وسخيفةً. «منذ ألفي سنةٍ يردّد علينا متحذلقون أنّ فكر النساء أكثر حيويةً وأنّ الرجال أشدّ صلابة؛ وأن النساء أكثر رقّةً في أفكارهنّ وأن لدى الرجال قوة انتباهٍ أكثر. كذلك المتسكّع الباريسيّ الذي كان فيما مضى يتجوّل في حدائق فرساي واستنتج من كلّ ما رآه أن الأشجار تولد مشذّبةً». تعكس الاختلافات التي نراها بين الرجال والنساء اختلاف وضعهنّ. كيف لا تكون النساء مثلًا أكثر خياليّةً من عشاقهنّ؟». تحلم امرأةٌ بعشيقها أمام نول تطريزها، وهو عملٌ تافهٌ ولا يشغل سوى اليدين، بينما يعدو هو في السهول مع مجموعته ويُسجن لدى أقلّ هفوةٍ». وكذلك تُتّهم النساء بانعدام الرشاد. «تفضّل النساء العواطف على العقل؛ وهذا أمرٌ بسيطٌ: بما أن عاداتنا السطحية لا تكلّفهنّ بأي مهمةٍ في الأسرة، *فلا يلزمهنّ العقل أبدًا*... كلّف امرأتك بتنظيم أعمالك مع مزارعي بعض أراضيك، وأراهنك أنّ السجلات ستكون أفضل من التي تنظّمها بنفسك».

إذا كنا نجد في التاريخ هذا العدد القليل من العبقريات النسائية، فذلك لأن المجتمع يحرمهنّ من كلّ وسائل التعبير عن النفس. «كلّ العبقريات التي تولد *نساءً*[267] تضيع لسوء حظ الجمهور؛ ما إن تتيح لهن الصدفة إمكانية الظهور حتى تراهن يبلغن أصعب المواهب». أسوأ إعاقةٍ تُفرَض عليهنّ، هي التعليم الذي يخبلونهن به؛ يسعى المستبدّ دومًا إلى تصغير هؤلاء الذين يستبد بهم. يرفض الرجل عمدًا إعطاء النساء فرصهنّ. «نعطّل أفضل ميزاتهنّ وأغناها التي تفيدهن وتفيدنا». في سن العاشرة، تكون الفتاة أكثر يقظةً ورهافةً من أخيها؛ في سن العشرين يصبح الشقيّ رجل فكرٍ والشابة «غبيةً كبيرةً خرقاء خجولةً تخاف من العنكبوت»؛ يعود السبب إلى التربية التي تلقتها. كان ينبغي إعطاء النساء نفس التربية التي تلقاها الصبيان. يعترض أعداء الحركة النسوية قائلين إنّ النساء المثقفات والذكيات هنّ وحوشٌ: وكلّ المشكلة أنهن ما زلن استثنائياتٍ؛ لو كان بإمكانهنّ جميعًا الوصول إلى الثقافة بشكلٍ طبيعيٍّ كالرجال، لاستفدن منها بشكلٍ طبيعيٍّ كذلك. فبعد أن تمّ بترهنّ، تم استعبادهنّ بقوانين ضدّ الطبيعة: يُزوَّجن رغم إرادتهنّ، ويُطلب منهنّ الإخلاص وينتقدونهنّ عند الطلاق كما لو كان مسلكًا شائنًا. ويترك عدد كبير منهنّ عاطلًا بينما لا توجد سعادةٌ خارج العمل. يستنكر ستندال هذا الوضع ويرى فيه مصدر كلّ العيوب التي تلام المرأة عليها. لسن ملائكةً، ولا شياطين، ولا أبا الهول: إنهن مخلوقاتٌ بشريّةٌ وضعتها أعرافٌ غبيّةٌ ضمن نصف عبوديّةٍ.

ولأنّهن مضطَهداتٌ تحديدًا تتحاشى أفضلهنّ الوقوع في العيوب التي تشين مضطهديهنّ؛ فلسن أدنى ولا أعلى من الرجل، ولكن وضعهنّ البائس منحهنّ امتيازًا عبر انقلابٍ غريبٍ. نعرف كم يكره ستندال روح الجدّية: كان المال، والشرف، والطبقة، والسلطة تبدو له أكثر المثل العليا كآبةً؛ الغالبية العظمى من الرجال مهووسون بمصلحتهم؛ المتحذلق، والمهم، والبورجوازي، والزوج، تخنق لديهم كلّ بارقة حياةٍ وحقيقةٍ؛ ويصفّحون بأفكارٍ جاهزةٍ، ومشاعر ملَقَّنةٍ، يطيعون التقاليد الاجتماعية، شخصياتهم مسكونةٌ بالفراغ فقط؛ إنّ عالمًا مسكونًا بهذه المخلوقات المجرّدة من الروح لهو صحراء من السأم. هناك للأسف كثيرٌ من النساء اللواتي يتفسّخن في هذه المستنقعات الكئيبة؛ إنهنّ دمىً ذوات «أفكارٍ ضيقةٍ

267- القول لستندال.

باريسيةٍ» أو ورعاتٌ منافقاتٌ؛ ويشعر **ستندال** «بقرفٍ قاتلٍ تجاه النساء الشريفات والنفاق الذي لا غنى لهنّ عنه»؛ إنهنّ يمنحن أعمالهن التافهة نفس الجدية التي تزيّن أزواجهنّ؛ يملأن باريس والأقاليم، غبياتٍ بفعل التربية، حسوداتٍ، متبجحاتٍ، ثرثاراتٍ، شريراتٍ بسبب الفراغ، بارداتٍ، جافاتٍ، مدعياتٍ، مؤذياتٍ؛ نراهنّ يتجمهرن خلف الوجوه النبيلة للسيدة **دورنال**، أو السيدة **دوشاستليه**. **تلك** التي رسم **ستندال** صورتها باهتمامٍ حقودٍ، هي دون شكٍّ السيدة **غرانديه** التي صنع منها الصورة السلبية للسيدة **رولان** أو **ميتيلد**. حسناء ولكن دون تعبيرٍ، محتقِرةٌ ومجردةٌ من السحر، تُخجِل بسبب «عفّتها الشهيرة» ولكنها لا تعرف الحياء الحقيقي الذي يأتي من الروح؛ مُعجبةٌ للغاية بنفسها، مغترّةٌ بشخصها، لا تعرف سوى تقليد العظمة خارجيًا؛ في أعماقها هي مبتذلةٌ ومنحطةٌ؛ يفكر السيد **لوفين**: «ليست لديها شخصيةٌ... تصيبني بالضجر». «متعقّلةٌ تمامًا، مهتمّةٌ بإنجاح مشاريعها»، كل طموحها هو أن تجعل من زوجها وزيرًا؛ كان فكرها قاحلًا»؛ حذرةٌ، تقليديةٌ، امتنعت دومًا عن الحب، فهي عاجزةٌ عن العطاء؛ عندما تمس العاطفة هذه الروح الجافة، تحرقها دون أن تنيرها.

كي نكتشف ماذا يطلب **ستندال** من النساء ليس علينا سوى قلب هذه الصورة: علينا أولًا ألا نقع في فخ الجدّية؛ بما أنّ الأشياء التي يُقال إنها هامة بعيدةٌ عن متناولهنّ، فهنّ أقل تعرضًا من الرجال للاستلاب فيها؛ ولديهن فرصٌ أكبر للحفاظ على هذه الطبيعية وهذه السذاجة وهذا الكرم التي يعتبرها **ستندال** فوق كل الفضائل الأخرى؛ وهو يتذوق فيهن ما نسميه اليوم أصالتهنّ: وتلك هي السمة المشتركة لكل النساء اللواتي أحبّهنّ أو اخترعهنّ بحبٍّ؛ جميعهنّ كائناتٌ حرّةٌ وحقيقيةٌ. وتتجلى حريتهنّ لدى البعض بطريقةٍ ساطعةٍ: **أنجيلا بيتراغا**، «عاهرةٌ رفيعةٌ، على الطريقة الإيطالية، على طريقة لوكريس بورجيا» أو السيدة آزور، «عاهرةٌ بأسلوب دوباري... إحدى أقل الفرنسيات اللواتي صادفتهنّ تشبهًا بالدمى «ينتقدن الأعراف والقوانين علنًا. تسخر **لاميل** من الاتفاقيات والأعراف والقوانين؛ وترتمي **لاسانسفرينا** بحماسةٍ في مؤامرةٍ ولا تتراجع أمام الجريمة. وتترفّع أخرياتٌ عن الابتذال بقوّة فكرهنّ: مثل **منتا** و**ماتيلد دولامول** التي تنتقد وتشهّر وتحتقر المجتمع المحيط بها وتريد أن تتميّز عنه. لدى أخرياتٍ أيضًا صورةٌ سلبيةٌ للحرية؛ ما يسترعي

الانتباه لدى السيدة **دوشاستيليه** هو تجرّدها تجاه كلّ ما هو ثانويٌّ؛ إذ تخضع لإرادة أبيها وحتى لآرائه، تنتقد القيم البورجوازية بهذه اللامبالاة التي ينتقدونها عليها كسلوكٍ طفوليٍّ والتي هي مصدر مرحها اللامبالي؛ وتتميّز **كليليا كونتي** أيضًا بتحفّظها؛ فالحفلات وتسليات الشابات المعتادة لا تعني لها شيئًا؛ وتبدو دائمًا جافّةً «إما احتقارًا لما يحيط بها أو أسفًا على أوهامٍ غائبةٍ»؛ فتطلق أحكامًا على العالم، وتستنكر انحطاطه. استقلال روح السيدة **دورنال** مخفيّ بشكلٍ عميقٍ؛ تجهل هي نفسها أنّها غير مستكينةٍ تمامًا لمصيرها؛ تظهر رقتها الفائقة وحساسيتها المرهفة اشمئزازها من ابتذال محيطها؛ ليست منافقةً؛ لديها قلبٌ كريمٌ، قادرٌ على إبداء انفعالاتٍ عنيفةٍ، ولديها ميلٌ للسعادة؛ بالكاد يشعر المرء من الخارج بحرارة هذه النار الكامنة فيها، ولكن تكفي نفخةٌ لكي تضطرم كلّها. هاته النساء حيّاتٌ بكلّ بساطةٍ؛ يعرفن أن مصدر القيم الحقيقية ليس في الأشياء الخارجية، ولكن في القلوب؛ وهذا ما يصنع سحر العالم الذي يسكنه: يطردن الملل منه بوجودهن فيه فقط بأحلامهنّ ورغباتهنّ ومتعهنّ وانفعالاتهنّ وابتكاراتهنّ. **لاسانسفرينا**، هذه «الروح النشطة»، تخشى السأم أكثر من الموت. كانت تقول إنّ الركود في الملل «هو الامتناع عن الموت، وليس حياةً»؛ «هي دائمًا شغوفةٌ بشيءٍ ما، دائمة السعي، مرحةً أيضًا». سواءً كنّ لا واعياتٍ، تافهاتٍ أو عميقاتٍ، مرحاتٍ أو جدّياتٍ، جريئاتٍ أو متكتّماتٍ، فهنّ يرفضن جميعًا النوم الثقيل الذي تغوص فيه البشرية. وهاته النسوة اللواتي عرفن كيف يحافظن على حريّتهنّ بلا نتيجةٍ، ما إن يصادفن موضوعًا جديرًا بهنّ حتى يوصلهنّ الحماس إلى البطولة؛ تبدي قوّة روحهنّ وطاقتهنّ التزامًا كاملًا صافيًا.

لكن الحريّة وحدها لا تكفي لإضفاء كل هذه الجاذبية العاطفية عليهنّ: فنرى الحريّة الصافية بالاحترام وليس بالانفعال؛ المؤثّر في الأمر، هو جهدها لتكتمل من خلال العقبات التي تعيقها؛ هذا الجهد لدى المرأة مؤثّرٌ بقدر ما يكون كفاحها أصعب. يكفي الانتصار الحاصل على المعيقات الخارجية لإسعاد **ستندال**؛ في «*وقائع إيطاليّة*» يحبس بطلاته داخل أسوار أديرةٍ، أو في قصر زوجٍ غيورٍ: وعليهنّ ابتكار ألف حيلةٍ للقاء عشّاقهنّ؛ أبوابٌ مواربةٌ، وسلّمٌ من الحبال، وصناديق داميةٌ، وخطفٌ، وسجنٌ، وقتلٌ، ويعتمد جموح العاطفة والعصيان على مهارةٍ تستخدم فيها كلّ مصادر الفكر؛ ويعطي التهديد بالموت والتعذيب أيضًا مزيدًا

من التألّق لجرأة الأرواح الثائرة التي يصوّرها لنا. ويبقى **ستندال** حساسًا لهذا الخيال الظاهر حتى في أكثر أعماله نضجًا: إنّه الصورة الجليّة لما ينبع من القلب؛ لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر كما لا يمكن فصل فمٍ عن ابتسامته. تبتكر «**كليليا**» الحب من جديدٍ عندما تبتكر الأبجدية التي تسمح لها بمراسلة **فابريس**؛ يصف لنا «**لاسانسفرينا**» بأنّها «روحٌ صادقةٌ دائمًا لا تتصرّف بحذرٍ أبدًا، تتصرّف بكلّيتها حسب إيقاع اللحظة»؛ تتكشّف لنا هذه الروح عندما تناور، وعندما تسمّم الأمير وتغرق «بارم»: ليست سوى المغامرة العظيمة والمجنونة التي اختارت أن تحياها. السلم الذي تسنده «**ماتيلد دولامول**» إلى نافذتها، هو شيءٌ مختلفٌ تمامًا عن ملحقات المسرح: إنّه شكلٌ حقيقيٌّ لتهوّرها المغرور، وميلها لغير المألوف، وشجاعتها المثيرة. لم نكن لنكتشف ميزات هذه الأرواح لو لم تكن محاطةً بالأعداء: جدران سجنٍ، وإرادة سيّدٍ، وصرامة عائلةٍ.

مع ذلك فأكثر الضغوط صعوبةً هي تلك التي يجدها كلّ شخصٍ في نفسه: عندئذٍ تصبح مغامرة الحريّة أكثر غموضًا، وأكثر إيلامًا، وأكثر جرحًا. من الواضح أن تعاطف **ستندال** مع بطلاته يكبر كلّما كان سجنهنّ أصعب. إنّه يحب العاهرات بالتأكيد، سواءً كنّ سامياتٍ أم لا، اللواتي يزدرين الاتفاقيّات؛ لكنه يحب بحنانٍ أكبر «**ميتيلد**» التي يردعها إحساسها بالواجب وخجلها. ويستمتع «**لوسيان لوين**» بقرب السيّدة «**دوهوكنكور**» المتحرّرة: ولكنّه يحبّ بشغفٍ السيدة «**دوشاستليه**»، العفيفة المتحفّظة المتردّدة؛ و«**فابريس**» معجبٌ بروح «**لاسانسفرينا**» التي لا تتراجع أمام شيءٍ؛ لكنّه يفضّل عليها «**كليليا**» الشابة التي تكسب قلبه. وربّما كانت السيّدة «**دورنال**» التي يقيّدها كبرياؤها وأحكامها المسبقة وجهلها هي التي أثارت دهشة **ستندال** من بين كلّ النساء اللواتي صنعهنّ. يضع بطلاته بطيب خاطرٍ في الأقاليم، في محيطٍ محدودٍ، تحت سيطرة زوجٍ أو أبٍ أحمق؛ ويروق له أن يكنّ جاهلاتٍ وحتّى مشبعاتٍ بالأفكار الخاطئة. تؤيّد كلٌّ من السيدة «**دورنال**» والسيدة «**شاستليه**» الشرعية الملكيّة بتصميمٍ؛ الأولى خجولةٌ ودون أيّ تجربةٍ، والثانية حادّة الذكاء لكنها لا تعرف قيمته؛ بالتالي ليستا مسؤولتين عن أخطائهما، ولكنّهما بالأحرى ضحيّتا هذه الأخطاء والتشريعات والأعراف؛ ويولد الوهم من الخطأ، كما يولد الشعر من الفشل. نحن نوافق أو نلوم بشكلٍ جافٍّ الفكر الثاقب الذي يقرّر تصرفاته مدركًا ما يفعل؛ بينما نعجب بقلقٍ أو

شفقةٍ أو تهكّمٍ أو حبٌّ بشجاعة وحيلة قلبٍ كريمٍ يبحث عن طريقه في الظلمات. ولأنّ النساء مخدوعاتٌ نرى فضائل لا فائدة منها وساحرة كالحياء والكبرياء والرقة الزائدة تزدهر لديهنّ؛ من جهةٍ هذه عيوبٌ: تولد الكذب والتشكيك والغضب لكن يمكن تفسيرها بالوضع الذي وضعت فيه النساء؛ فهنّ مضطرات لوضع كبريائهنّ في الأشياء الصغيرة أو على الأقلّ «في أشياء ليست لها أهميةٌ إلا من خلال الإحساس» لأنّ كلّ الأشياء «التي يقال إنها هامةٌ» خارج متناولهنّ، وينجم خجلهنّ من التبعيّة التي يعانين منها: فيبدو لهنّ أن شعور الآخرين، وخصوصًا شعور عشاقهنّ، يكشف حقيقتهنّ لأنّهنّ ممنوعاتٌ من إظهار قدرتهنّ في أفعالٍ، حتى أنّهن يطرحن كيانهنّ ذاته للنقاش: ويخشين ذلك ويحاولن الهروب منه؛ ويتجلّى قلقٌ أصليٌّ حول قيمتهنّ في هروبهنّ، وترددهنّ، وثوراتهنّ، وحتّى في الأكاذيب؛ وذلك ما يجعلهنّ جديرات بالاحترام؛ لكنّه يتجلى برعونة وحتّى بسوء نيّةٍ وهذا ما يجعلهنّ مثيراتٍ للتعاطف وحتى مضحكاتٍ بشكلٍ خفيٍّ. عندما تقع الحريّة في شراكها الخاصّة وتخدع نفسها تكون في أعمق حالاتها الإنسانيّة وبالتالي يتعلّق بها ستندال أكثر.

نساء ستندال مثيراتٌ للحزن عندما يوقعهن قلبهن في مشاكل غير متوقعة: فلا يعود بإمكان أي قانونٍ ولا طريقةٍ ولا منطقٍ ولا مثالٍ آتٍ من الخارج أن يساعدهنّ؛ عليهن أن يقررن وحدهنّ: وهذا التخلّي هو لحظة الحريّة الفائقة. تربّت «**كليليا**» على أفكارٍ متحرّرةٍ، وهي واعيةٌ وعقلانيّةٌ: لكنّ الآراء الملقّنة، صحيحةً كانت أم خاطئةً، لا تساعد أبدًا في الصراع الأخلاقيّ؛ والسيدة «**دورنال**» تحب «**جوليان**» رغم أخلاقياتها، وتنقذ «**كليليا**» «**فابريس**» بعكس ما يقوله عقلها: يوجد في الحالتين نفس التجاوز لكلّ القيم المعروفة. هذه الجرأة هي ما يمجّد ستندال؛ لكنها بالأحرى مؤثرةٌ بحيث تكاد لا تظهر: وبذلك هي أكثر طبيعية وتلقائيةً وأصالةً. وتخفي البراءة الجرأة لدى السيدة «**دورنال**»: لأنها لم تعرف الحب فهي لا تعرف كيف تتعرّف إليه وتستسلم له دون مقاومةٍ؛ لكأنما أصبحت بلا مقاومةٍ أمام نور العاطفة الباهر لأنها عاشت في الليل؛ فهي تستقبله مبهورةً، وإن كان ذلك ضدّ الله، وضدّ الجحيم؛ وعندما تخمد هذه النار تسقط من جديدٍ في الدياجير التي يحكمها الأزواج والكهنة؛ لا تثق بأحكامها الخاصة لكنّ البداهة تصعقها؛ وما إن تلتقي **بجوليان** حتى تمنحه روحها من جديدٍ؛ يسمح لنا ندمها والرسالة التي انتزعها منها الكاهن الذي كانت

تعترف له بقياس المسافة التي كان على هذه الروح المتأجّجة والصادقة اجتيازها لتنتزع نفسها من السجن الذي كان المجتمع يحتجزها فيه ولتبلغ سماء السعادة. والصراع واضحٌ أكثر لدى «**كليليا**»؛ فهي تتردّد بين نزاهتها تجاه أبيها وشفقتها المغرمة؛ وتبحث لنفسها عن مبرّراتٍ؛ يبدو لستندال انتصار القيم التي يؤمن بها بالأحرى ساطعًا بقدر ما تراه ضحايا حضارةٍ منافقةٍ انكسارًا؛ ويُسرّ برؤيتهنّ يلجأن للتحايل وسوء النيّة ليرجّحن كفة العاطفة والسعادة على الأكاذيب التي يؤمنّ بها: وتبدو «**كليليا**» مضحكةً ومؤثرةً إذ تعد العذراء ألّا ترى «**فابريس**» ثانيةً، وتقبل طول عامين قبلاته وعناقه، شرط إبقاء عينيها مغمضتين. وينظر ستندال بنفس السخرية المشوبة بالحنان إلى ارتباك «**ماتيلد دولامول**»؛ كلّ هذه الالتفافات، والارتدادات والحيرة، والانتصارات والهزائم المخفية من أجل الوصول إلى غاياتٍ بسيطةٍ ومشروعةٍ، هي بنظره أروع الهزليّات؛ هناك طرافةٌ في هذه القصص لأنّ الممثّلة فيها طرفٌ وحَكَمٌ معًا، ولأنها تخدع نفسها وتفرض عليها طرقًا معقّدةً في حين كان يكفي قرارٌ كي تُحلّ المعضلة؛ ولكنّها مع ذلك تمثّل أكبر همٍّ جديرٍ بالاحترام قد يعذّب الروح النبيلة: فتريد الاحتفاظ باحترامها لذاتها؛ وتهتم لحكمها على نفسها أكثر من اهتمامها بحكم الآخرين وبذلك تتحقّق كمطلقٍ.

هذه المجادلات المنفردة بلا صدى أهمّ من أزمةٍ وزاريّةٍ؛ عندما تتساءل السيدة «**شاستليه**» إن كانت ستبادل **لوسيان لوين** حبه أم لا، فهي تقرر عن نفسها وعن العالم: هل يمكن الوثوق بالآخرين؟ هل يمكن للمرء الوثوق بقلبه؟ ما هي قيمة الحب والعهود البشرية؟ هل هو جنونٌ أم نبلٌ أن تصدق وتحب؟ تطرح هذه التساؤلات معنى الحياة نفسه، حياة الفرد والجميع. الرجل الذي يقال إنه جادٌّ هو تافهٌ في الواقع لأنه يقبل من حياته تبريراتٍ جاهزةً؛ بينما المرأة المغرمة والعميقة تعيد في كلّ لحظات حياتها تصحيح القيم الموضوعة؛ فتعاني التوتر المستمر لحرّيةٍ دون سندٍ؛ وبذلك تشعر باستمرارٍ أنها في خطرٍ: فتستطيع في أيّة لحظةٍ كسب كل شيءٍ أو خسارته. هذا الخطر الذي تعيشه بقلقٍ هو ما يعطي قصتها نكهة مغامرةٍ بطوليّةٍ. والمجازفة فائقةٌ: تجازف بمعنى هذا الوجود ذاته الذي هو حصة كلّ فردٍ، حصته الوحيدة. قد تبدو مغامرة «**مينا دوفانغل**» غريبة؛ لكنها تتضمّن مجموعة أخلاقٍ. «هل كانت حياتها حساباتٍ خاطئةً؟ لقد دامت سعادتها ثمانية أشهرٍ. وكانت روحًا متّقدةً

لا تكتفي بواقع الحياة». «**ماتيلد دولامول**» أقلّ صراحةً من «**كليليا**» أو السيدة «**شاستليه**»؛ إنها تتصرف تبعًا للفكرة التي كوّنتها عن نفسها وليس تبعًا لبديهية الحب والسعادة: ما هو الأكثر كبرياءً وعظمةً: أن يحترس المرء أو أن يرمي بنفسه للتهلكة؟ وهل إذلال النفس أمام من يحب أسمى من مقاومته؟ إنها وحيدةٌ أيضًا وسط شكوكها وتخاطر بفقد هذا الاحترام للذات الذي تتمسك به أكثر من الحياة. إنّ البحث المحتدم عن أسباب العيش الحقيقية عبر دياجير الجهل والأفكار المسبقة والخدع، في ضوء العاطفة المترنّح والمحموم، والمخاطرة ببلوغ السعادة أو الموت، العظمة أو العار، هما ما يعطيان لأقدار المرأة مجدها العاطفي.

تجهل المرأة بالطبع الإغراء الذي ينبعث منها؛ فتأمّل النفس، والتظاهر بشخصيّةٍ ما، هما دائمًا سلوكٌ غير أصليٌّ؛ عندما تقارن السيدة «**غرانديه**» نفسها بالسيدة «**رولان**» تثبت بذلك أنّها لا تشبهها؛ وإن ظلّت «**ماتيلد دولامول**» ذات جاذبيّةٍ فذلك لأنّها ترتبك بسلوكها المضحك وتكون غالبًا فريسة قلبها في الأوقات التي تظنّ فيها أنها تسيطر عليه؛ وتجعلنا نتأثّر كلّما فقدت سيطرتها على نفسها. لكنّ أكثر البطلات براءةً لا يَعين أنفسهنّ. تجهل السيدة «**دورنال**» سحرها، كما تجهل السيدة «**شاستليه**» ذكاءها. وهنا أكبر سعادةٍ للعاشق الذي يتماهى معه الكاتب والقارئ: فهو الشاهد الذي يكشف هذه الكنوز السريّة؛ وهو الوحيد الذي يُعجَب بهذه الحيويّة التي تنشرها السيدة «**دورنال**» بعيدًا عن الأنظار، و«فكر السيدة «**شاستليه**» اليقظ، المتغيّر، العميق» الذي لا يعرفه المحيطون بها؛ وحتّى إن أُعجِب آخرون بفكر «**لاسانسفرينا**»، فهو من يدخل إلى أعمق نقطةٍ في روحها. يستمتع الرجل بتأمّل المرأة؛ وينتشي بذلك كما يفعل أمام منظرٍ أو لوحةٍ؛ وتغنّي في قلبه وتلوّن السماء. هذا الاكتشاف يجعله يكتشف نفسه: لا يمكن للمرء فهم رقّة النساء، وحساسيتهنّ، وحرارتهنّ إن لم يجعل روحه رقيقةً، حساسةً، متّقدةً؛ وتخلق المشاعر النسائية عالمًا من الألوان والمتطلّبات التي يغني اكتشافها العاشق: فيصبح **جوليان** بقرب السيدة **دورنال** شخصًا مختلفًا عن ذاك الطّموح الذي كان قد قرّر أن يكونه، فيختار نفسه من جديدٍ. إن لم يكن الرجل يشعر تجاه المرأة إلا برغبةٍ سطحيّةٍ، فسيتسلّى بإغوائها. ولكن الحب الحقيقي هو ما يغيّر حياته. «الحب على طريقة **فرتر** Werther يفتح الروح على الشعور بالحسن والاستمتاع به بأيّ شكلٍ كان، حتّى وإن كان مرتديًا أسمالًا باليةً. يجعلك تجد السعادة حتّى بلا ثروةٍ «...» هو هدفٌ جديدٌ

في الحياة يرتبط به كلّ شيءٍ ويغيّر وجه كلّ شيءٍ. يرمي الغرام الطبيعة كلها بوجه الرجل بمظاهرها السامية وكأنها شيءٌ جديدٌ خُلِق أمس». يكسر الحب الروتين اليومي، ويطرد الملل، الملل الذي يرى فيه **ستندال** داءً عميقًا لأنّه غياب كل مبررٍ للعيش أو الموت؛ وللعاشق هدفٌ وهذا يكفي ليصبح كلّ يومٍ مغامرةً: يا لها من متعةٍ بالنسبة لـ**ستندال** أن يمضي ثلاثة أيامٍ مختبئًا في قبو «منتا»! تجسّد سلالم الحبال والصناديق الدامية في قصصه هذا الميل إلى الخارق. يُظهِر الحب، أي المرأة، غايات الوجود الحقيقية: الجمال، والسعادة، ونضارة المشاعر والعالم، وينتزع روح الرجل منه وبذلك يجعله يمتلكها؛ يشعر العاشق بنفس توتر عشيقته ونفس المخاطر، ويشعر بأنّه أصيلٌ أكثر مما يكون خلال مسار حياةٍ مُعَدٍّ. عندما يتردد **جوليان** أسفل السلّم الذي نصبته **ماتيلد**، يطرح للمناقشة كلّ مصيره: فيُظهِر قدرته الحقيقية في هذه اللحظة. من خلال النساء، وتحت تأثيرهنّ، وكردّ فعلٍ على سلوكهنّ، يكتسب **جوليان** و**فابريس** و**لوسيان** خبرتهم بهذا العالم وبنفسهم. المرأة لدى **ستندال** هي ما أراد **هيغل** مرّةً أن يصنعها: فهي امتحانٌ، ومكافأةٌ، وحكَمٌ، وصديقةٌ، هذا الشعور الآخر الذي يعطي للذات الأخرى ضمن الاعتراف المتبادل نفس الحقيقة التي تتلقاها منه. الثنائي السعيد الذي يجد نفسه في الحب يتحدّى الكون والزمن؛ فيكتفي بنفسه، ويحقّق المطلق.

لكنّ هذا يفترض أن المرأة ليست الغيرية المحضة: فهي نفسها ذاتٌ. لم يقتصر **ستندال** أبدًا على وصف بطلاته تبعًا لأبطاله: لقد أعطاهنّ مصيرًا خاصًّا بهنّ. حاول القيام بعمليّةٍ أكثر ندرةً لم يقم بها أيّ روائيٍّ على حدّ علمي: لقد صوّر نفسه بشخصيّة امرأةٍ. لم ينكبّ على «**لاميل**» كما انكبّ «**ماريفو**» على «**ماريان**»، أو «**ريتشاردسون**» على «**كلاريس هارلو**»: لقد تطابق مع مصيرها كما تطابق مع مصير **جوليان**. وبسبب هذا نفسه تبقى صورة «**لاميل**» نظريّةً بعض الشيء، لكنّها ذات مغزىً خاصٍّ. أقام **ستندال** حول الفتاة كلّ العقبات التي يمكن تخيّلها: فهي فقيرةٌ، فلّاحةٌ، جاهلةٌ، ربّاها بفظاظةٍ أناسٌ مشبعون بكلّ الأفكار المسبقة؛ لكنّها أزاحت كلّ الحواجز عن طريقها يوم أن فهمت مدى هذه الكلمات الصغيرة: «هذا غباءٌ». وسمحت لها حرّية فكرها بالسيطرة على كلّ حركات فضولها وطموحها ومرحها؛ لا يمكن للعوائق الماديّة الصمود أمام قلبٍ بهذا التصميم؛ المشكلة الوحيدة بالنسبة لها هي صنع مصيرها المناسب ضمن عالمٍ محدودٍ. كان عليها أن تكتمل

بالجريمة والموت، لكنّ هذا أيضًا مصير جوليان المحتوم. لا مكان للأرواح العظيمة في المجتمع كما هو: وهذا ينطبق على الرجال والنساء.

من الملاحظ أن ستندال حالمٌ بعمقٍ ومناصرٌ للمرأة بشدّةٍ في الوقت نفسه؛ أنصار المرأة عادةً عقلانيّون يتبنّون وجهة النظر الشاملة في كلّ شيءٍ؛ ولكن ستندال يطالب بتحرير المرأة ليس فقط باسم الحريّة عمومًا، بل باسم السعادة الفرديّة. وهو يعتقد أنّه ليس للحب ما يخسره بذلك؛ بل على العكس، سيكون حقيقيًا بالأحرى لأنّ المرأة ستفهم الرجل بشكلٍ كاملٍ عندما تكون مساويةً له. لا شكّ أنّ بعض الميزات التي نستحسنها لدى المرأة ستختفي: لكنّ قيمتها تأتي من الحريّة التي تتجلى فيها؛ وستظهر ضمن صورٍ أخرى؛ ولن يختفي الحلم من العالم. الكائنان المنفصلان، الموضوعان في أوضاعٍ مختلفةٍ، واللذان يتجابهان ضمن حريّتهما ويبحث أحدهما في الآخر عن مبرّر الوجود، سيعيشان دومًا مغامرةً مليئةً بالمجازفات والوعود. يثق ستندال بالحقيقة؛ فحيث تسطع، يسطع الجمال، والسعادة، والحب، وفرحٌ يحمل في داخله مسوّغًا له. ولهذا يرفض شاعريّة الأوهام الزائفة بقدر رفضه خديعة الجدّية. يكفيه الواقع الإنساني. المرأة بالنسبة له إنسانٌ بكلّ بساطةٍ: ولا يمكن للأحلام أن تصنع شيئًا أكثر سحرًا.

6

نرى من هذه الأمثلة أنّ الأساطير الكبيرة الجماعيّة تنعكس لدى كلّ كاتبٍ بعينه: تبدو لنا المرأة كجسدٍ؛ جسد الذكر أنتجه بطن الأم وأعيد خلقه في عناق العشيقة؛ بذلك تتقارب المرأة مع الطبيعة، فتجسّدها: بهيمةً، واديًا من الدم، وردةً مزدهرةً، حوريّةً، منحنى تلٍّ، تمنح الرجل السماد، والنسغ، والجمال الحسّاس وروح العالم؛ يمكنها الإمساك بمفاتيح *الشعر*؛ ويمكنها أن تكون *وسيطةً* بين هذا العالم والعالم الآخر: نعمةً كانت أم منجّمةً، نجمةً أم ساحرةً، تفتح باب ما فوق الطبيعة، ما فوق الواقع؛ وهي مكرّسةٌ للمثوليّة؛ توزّع السلام والتناغم بسلبيتها: ولكن إن رفضت هذا الدور تصبح سرعوفةً راهبةً، وغولةً. على كلّ

حالٍ، تبدو كالآخر ذي الامتيازات الذي تكتمل الذات عبره. إحدى معايير الرجل، وتوازنه، وخلاصه، ومغامرته، وسعادته.

لكنّ هذه الأساطير تمتزج بالنسبة لكلّ شخصٍ بطريقةٍ مختلفةٍ للغاية. يتحدّد الآخر بشكلٍ خاصٍّ حسب الطريقة الخاصّة التي يختار الفرد وضعه حسبها. يؤكّد كلّ رجلٍ نفسه كحريّةٍ وتسامٍ: لكنّهم لا يعطون جميعًا نفس المعنى لهذه الكلمات. التسامي بالنسبة لـ**مونترلان** هو حالةٌ: فهو المتسامي، يحلّق في سماء الأبطال؛ وتقبع المرأة على الأرض، تحت قدميه؛ يُسرُّ بقياس المسافة التي تفصله عنها؛ ومن وقتٍ لآخر، يرفعها نحوه، ويضاجعها، ثم يرميها ثانيةً؛ لا ينزل أبدًا إلى فلكها المؤلف من ظلماتٍ دبقةٍ. ويضع **لورنس** التسامي في القضيب؛ القضيب ليس حياةً وقوّةً إلّا بفضل المرأة؛ إذًا المثوليّة جيّدةٌ وضروريّةٌ؛ والبطل الزائف الذي يدّعي أنّه لا يمسّ الأرض لا يستطيع أن يكون رجلًا بل نصف إلهٍ؛ ولا تستحقّ المرأة الاحتقار فهي ثروةٌ عميقةٌ، ونبعٌ دافئٌ؛ لكنّ عليها التخلّي عن كل تسامٍ شخصيٍّ والاكتفاء بتنميّة تسامي رجلها. ويطلب منها **كلوديل** نفس التفاني: فالمرأة بالنسبة له هي أيضًا تلك التي تحافظ على الحياة بينما يطيل الرجل حيويتها بأعماله؛ لكنّ كلّ ما يجري على الأرض بالنسبة للكاثوليكي مغمورٌ بمثوليّةٍ لا طائل منها: التسامي الوحيد هو الله؛ الرجل الذي يعمل والمرأة التي تخدم متساويان تمامًا في نظر الله؛ وعلى كلٍّ منهما تجاوز وضعه الأرضي: فالخلاص في كلّ الأحوال عمليّةٌ تلقائيّةٌ. بالنسبة لـ**بروتون** ينقلب ترتيب الجنسين؛ يبدو له العمل والفكر الواعي الذي يضع فيه الرجل تساميه مخاتلةً سطحيّةً تورث الحرب والحماقة والبيروقراطية وإنكار ما هو إنساني؛ والحقيقة هي المثوليّة، وجود الواقع الصرف الكامد؛ ويكتمل التسامي الحقيقي بالعودة إلى المثوليّة. وموقفه مناقضٌ تمامًا لموقف **مونترلان**: فهذا يحبّ الحرب لأنّه يتخلّص فيها من النساء، و**بروتون** يجلّ المرأة لأنّها تجلب السلام؛ يخلط الواحد الفكر والذاتيّة، فيرفض الكون المُعطى؛ ويعتقد الآخر أنّ الفكر حاضرٌ في قلب العالم بشكلٍ موضوعيٍّ. وتُحرج المرأة **مونترلان** لأنّها تحطّم وحدته؛ وهي وحيٌ بالنسبة لـ**بروتون** لأنّها تنتزعه من ذاتيّته. أما بالنسبة لـ**ستندال** فرأينا أنّ المرأة تأخذ لديه بالكاد قيمةً أسطوريّةً: يعتبرها تساميًا هي أيضًا؛ بالنسبة لهذا الأَنَسيّ، تكتمل الحريّتان ضمن علاقتهما المتبادلة؛ ويكفيه أن يكون *الآخر* ببساطةٍ شخصًا آخر كي يصبح للحياة طعمٌ

بالنسبة له؛ لا يبحث عن «توازنٍ نجميٍّ»، ولا يتغذّى بخبز الاشمئزاز؛ ولا ينتظر معجزةً؛ ولا يتمنى أن يكون له علاقة بالكون أو بالشعر ولكن بحرّياتٍ.

ذلك أنّه يشعر بأنّه حريّةٌ نصف شفّافةٍ أيضًا. يطرح الآخرون نفسهم ـ وهذه نقطةٌ في غاية الأهميّة ـ كتسامٍ لكنهم يشعرون أنّهم سجناء وجودٍ معتمٍ في داخلهم: يسقطون على المرأة «نواة الليل غير القابلة للتجزئة» هذه. لدى **مونترلان** عقدةٌ آدلريّةٌ[268] تولد سوء نيّةٍ كبيرًا: هو هذه المجموعة من الادعاءات والخوف التي يجسّدها في المرأة؛ اشمئزازه منها هو ما يخشى أن يشعر به تجاه نفسه؛ يريد أن يطأ فيها بقدميه الدليل على قصوره؛ ويأمل أن ينقذه الاحتقار؛ فالمرأة هي الحفرة التي يلقي فيها بكلّ الوحوش التي تسكنه[269]. وتُظهر لنا حياة **لورنس** أنّه كان يعاني من عقدةٍ مشابهةٍ ولكن ذات طبيعةٍ جنسيّةٍ أكثر: للمرأة في مؤلفاته قيمة أسطورة تعويضٍ؛ عبرها تمجَّد ذكوريّةٌ لم يكن الكاتب متأكّدًا منها تمامًا؛ عندما يصف **كيت** على قدمي **دون سيبريانو** يظنّ أنّه حاز نصرًا ذكوريًا على **فريدا**. ولا يقبل هو أيضًا أن تطرحه رفيقته للنقاش: فإن عارضت أهدافه سيفقد ثقته حتمًا بهذه الأهداف؛ دورها هو طمأنته. ويطلب منها السلام، والراحة، والثقة، كما يطلب **مونترلان** تأكيد تفوّقه: فهم يطلبون ما ينقصهم. لا تنقص **كلوديل** الثقة بالنفس: إن كان خجولًا فذلك لا يبدو للعيان. لا يوجد لديه كذلك أيّ أثرٍ لصراع الجنسين. يحمل الرجل عبء المرأة بجسارةٍ: فإما تكون له إغواءً أو خلاصًا. ويبدو أن الرجل بالنسبة لـ**بروتون** لا يكون حقيقيًا إلا عبر الغموض الذي يسكنه؛ يروق له أن ترى **ناديا** هذه النجمة التي يذهب نحوها والتي هي «كقلب زهرةٍ دون قلبٍ»؛ يتعرّف على ذاته في أحلامه، وهواجسه، والسياق التلقائي للغته الداخليّة، هذه الفعاليات التي تخرج عن سيطرة الإرادة والعقل: المرأة هي الشكل الحساس لهذا الحضور الغائم الأساسي أكثر بكثيرٍ من شخصيته الواعية.

أما **ستندال**، فهو منسجمٌ بهدوءٍ مع ذاته؛ لكنّه بحاجةٍ إلى المرأة كحاجتها إليه كي يتجمّع وجوده المشتّت ضمن وحدة رمزٍ ومصيرٍ؛ كما يبلغ الرجل ذلك مع الغير، ولكن

268- نسبة لآدلر Adler. (المترجمة)

269- حكم ستندال مسبقًا على القسوة التي يتسلّى بها مونترلان: «ما العمل مع اللامبالاة؟ الحب ـ الميل، ولكن دون الفظاعات. تأتي الفظاعات دومًا من شخصية ضعيفة بحاجةٍ إلى أن تطمئن على مميزاتها الخاصة».

يجب من أجل ذلك أن يشعر الغير به: فالرجال الآخرون لا مبالون بأقرانهم؛ وحدها المرأة العاشقة تفتح قلبها لعشيقها وتخبئه فيه بكلّيته. وفيما عدا **كلوديل** الذي يجد في الله شاهدًا ممتازًا، ينتظر كلّ الكتّاب الذين تفحّصناهم، حسب قول **مالرو**، أن تحبّ المرأة فيهم هذا «الوحش الفريد» الذي لا يعرفه سواهم. يتواجه الرجال بعموميتهم متعاونين أو متصارعين. **مونترلان** كاتبٌ بالنسبة لأقرانه، و**لورنس** عقائديٌّ، و**بروتون** صاحب مدرسةٍ، و**ستندال** دبلوماسيٌّ أو رجل فكرٍ؛ المرأة هي التي تكشف لدى هذا أميرًا رائعًا وقاسيًا، ولدى الآخر وحشًا مخيفًا، ولدى الثالث إلهًا أو شمسًا أو كائنًا «أسود باردًا كرجلٍ مصعوقٍ عند قدمي أبي الهول»[270]، وأخيرًا لدى هذا مغويًا، فاتنًا، عشيقًا.

المرأة المثاليّة بالنسبة إلى كلّ واحدٍ من بينهم هي تلك التي تجسّد تمامًا *الآخر* القادر على كشفه لنفسه. يبحث لديها **مونترلان**، روح الشمس، عن البهيمية المحضة؛ ويطلب منها **لورنس**، القضيبي، أن تختصر الجنس الأنثوي بعموميته؛ يعرّفها **كلوديل** بأنها شقيقة الروح؛ ويحب **بروتون ميلوزين** المتجذّرة في الطبيعة، ويضع أمله في المرأة ـ الطفلة؛ ويتمنى **ستندال** عشيقةً ذكيّةً، مثقفةً، حرّة الفكر والمبادئ: مساوية له. ولكن المصير الوحيد على الأرض الذي ينتظر المرأة الندّ، المرأة الطفلة، وشقيقة الروح، والمرأة ـ الجنس، والبهيمة المؤنثة، هو الرجل. مهما كانت الذات التي تبحث عن نفسها من خلالها، لا تصل إلى غايتها إلّا إذا قبلت هي أن تكون بوتقةً لها. على كلّ حالٍ يُطلب منها نسيان الذات والحب. يقبل **مونترلان** أن يغدق حنانه على المرأة التي تسمح له بقياس قوّته الذكرية؛ ويوجّه **لورنس** تقديرًا حارًّا لتلك التي تتخلّى عن ذاتها لصالحه؛ ويمجّد **كلوديل** التابعة، الخادمة، المتفانية التي تخضع لله بخضوعها للذكر؛ ويأمل **بروتون** خلاص البشرية على يدي المرأة لأنها قادرةٌ على منح حبها كاملًا لابنها وعشيقها؛ وحتّى بطلات **ستندال** مؤثراتٌ أكثر من الأبطال الذكور لأنّهنّ يستسلمن لعاطفتهنّ بعنفٍ؛ ويساعدن الرجل على إكمال قدره مثلما ساهمت **بروهيز** في خلاص رودريغ؛ في روايات **ستندال** يحدث غالبًا أن ينقذن عشاقهنّ من الإفلاس أو السجن أو الموت. ويطلب **مونترلان** و**لورنس** التفاني الأنثوي كواجبٍ؛ أما **كلوديل** و**بروتون** و**ستندال** فهم أقلّ غجرفةً، يعجبون بها كخيارٍ سخيٍّ؛ يتمنونه

270- ناديا Nadja.

دون أن يدّعوا أنهم يستحقونه؛ ولكنّ أعمالهم كلّها ـ عدا **لاميل** المدهش ـ تُبدي أنهم ينتظرون من المرأة هذه الغيرية التي كان **كومت** Comte يعجب بها لديها ويفرضها عليها، والتي يرى أنها تشكّل دونيّةً قاطعةً وفوقيّةً مبهمةً معًا.

يمكننا أن نذكر أمثلةً كثيرةً: تقودنا دومًا إلى نفس النتائج. بتحديد المرأة، يحدّد كلّ كاتبٍ أخلاقياته العامة والفكرة الخاصة التي يشكّلها عن ذاته: كذلك يُدرِج فيها غالبًا المسافة التي تفصل وجهة نظره في العالم عن أحلامه المهووسة بشخصه. غياب العنصر النسائي أو ضعفه في مجمل كتابٍ هو أمرٌ ذو مغزىً؛ ويكتسي أهمّيةً قصوى عندما يلخّص مظاهر *الآخر* بمجملها كما يحدث لدى **لورنس**؛ يحتفظ ببعضها إذا كانت المرأة مُعتَبرةً فقط كآخر والكاتب مهتمًّا بمغامرة حياته الفرديّة، مثل **ستندال**؛ ويفقدها في عصرٍ مثل عصرنا الذي حيث المشاكل الخاصّة لكلّ شخصٍ تحتلّ المرتبة الثانية. مع ذلك ما زالت المرأة كآخر تلعب دورًا بقدر ما يظلّ كلّ رجلٍ بحاجة لإدراك نفسه، وإن كان ذلك كي يتجاوز ذاته.

الفصل الثالث

تلعب أسطورة المرأة في الأدب دورًا معتبرًا؛ ولكن ما أهميّتها في الحياة اليوميّة؟ إلى أيّ حدٍّ تؤثّر على العادات والسلوك الفردي؟ للإجابة على هذه الأسئلة يجب تحديد علاقاتها بالواقع.

هناك أنواعٌ مختلفةٌ من الخرافات. وهذه التي تُعظِّم مظهرًا ثابتًا للوضع الإنساني الذي هو «شطر» البشريّة إلى صنفين من الأفراد، هي أسطورة سكونيّةٌ؛ تعكس في سماءٍ أفلاطونيّةٍ واقعًا مدرَكًا بالتجربة أو مصوّرًا بشكلٍ مجردٍ انطلاقًا من التجربة؛ وبذلك، تستبدل بالقيمة والمعنى والمفهوم والقانون التجريبي فكرةً متساميةً لا ترتبط بالزمن، لا تتبدّل، ضروريةً. لا تخضع هذه الفكرة لأيّة معارضةٍ بما أنها تقع في ما وراء المعطى؛ وتحوي حقيقةً مطلقةً. وهكذا، مقابل وجود النساء المبعثر والعارض والمتعدد، يضع الفكر الخرافي المؤنّث الخالد الوحيد والجامد؛ وإذا ناقض سلوك النساء الحقيقيات هذا التعريف المعطى له، فهنّ المخطئات: فلا يُقال إنّ الأنوثة كيانٌ، ولكن إنّ النساء لسن أنثوياتٍ. لا تستطيع التجربة أن تدحض الأسطورة. مع ذلك، فجذورها فيها نوعًا ما. بالتالي صحيحٌ أنّ المرأة غير الرجل، ونشعر بهذه الغيرية بشكلٍ محسوسٍ في الرغبة، والعناق، والحب؛ لكنّ العلاقة الحقيقية تكمن في التبادليّة؛ بذا تنتج عنها كوارث أصليّةٌ: من خلال الشبقية، والحب، والصداقة، وبدائلها المتمثّلة في الخيبة، والكره، والتنافس، هي صراع شعورين يريد كلٌّ منهما أن يكون أساسيًا، هي اعتراف بحرّيتين تؤكّد إحداهما الأخرى، وهي عبورٌ غير محدّدٍ من الكراهية

إلى الاتفاق. طرح المرأة، يعني طرح الآخر المطلق، دون تبادليّةٍ، رافضين رغم التجربة أن تكون ذاتًا، شبيهةً.

في الواقع المحسوس، تتجلّى النساء بمظاهر مختلفةٍ؛ ولكن تدّعي كلّ أسطورةٍ أقيمت بشأن المرأة أنها تلخّصها بكليّتها؛ كلٌّ منها تريد أن تكون فريدةً: نتج عن ذلك وجود تعدديةٍ للخرافات غير المتطابقة وظلّ الرجال حالمين أمام تناقضات فكرة الأنوثة؛ وبما أنّ كلّ امرأةٍ تشترك بأحد هذه النماذج التي يدّعي كلٌّ منها احتواءه على الحقيقة الوحيدة، فهم يشعرون تجاه رفيقاتهم بنفس الاستغراب القديم الذي كان يشعر بها السفسطائيون الذين لم يكونوا يفهمون جيّدًا كيف يكون الإنسان أشقر وأسمر معًا.

يتجلّى العبور إلى المطلق في التمثيل الاجتماعي: فالعلاقات تتجمد بسهولةٍ في طبقاتٍ، والوظائف في أنماطٍ، كما تتثبّت العلاقات في العقلية الطفولية في أشياء. فالمجتمع الأبوي مثلًا، الذي يتمحور حول الحفاظ على الإرث، يفترض حُكمًا، إلى جانب وجود أفرادٍ يملكون الأموال وينقلونها، وجود رجالٍ ونساءٍ ينتزعونها من أصحابها ويجعلونها تُتداول بين الناس؛ تنكر الجماعة بصورةٍ عامةٍ الرجال المغامرين، والنصابين، واللصوص، والمضاربين؛ بينما تستطيع النساء باستخدام جاذبيتهنّ الجنسيّة دعوة الشباب وحتّى الآباء إلى تبديد إرثهم دون أن يخرجن على القانون؛ يحصلن على ثروتهم أو ميراثهم؛ وبما أن هذا الدور يعتبر مؤذيًا تسمّى اللواتي يقمن به «نساء سيئات». في الواقع، يمكنهنّ بالعكس الظهور في منزلٍ آخر ـ منزل والدهن، أو أشقائهنّ، أو أزواجهنّ، أو عشاقهنّ ـ بشكل ملاكٍ حارسٍ؛ فمحظيّةٌ تنهب رجال مالٍ هي راعيةٌ بالنسبة للرسامين والكتاب. نفهم بسهولةٍ من خلال تجربةٍ ملموسةٍ إبهام شخصية أسبازيا، ومدام دوبومبادور. ولكن إن اعتبرنا المرأة هي السرعوفة الراهبة، والساحرة، والشيطان، يتشوش الفكر إن رأى فيها أيضًا الملهمة، والإلهة الأم، بياتريس.

وبما أنّ التمثيل الجمعي والأنماط الاجتماعية تتحدّد عمومًا بثنائياتٍ من التعابير المتعاكسة، سيبدو التناقض خاصيّةً أساسيّةً للمؤنث الأزلي. فمقابل الأم المقدسة هناك زوجة الأب القاسية، ومقابل الفتاة الملائكية، العذراء المنحرفة: وكذلك يقال حينًا إن الأم تعادل الحياة أو تعادل الموت، وإنّ كل عذراء هي إما طاهرةٌ أو جسدٌ مكرسٌ للشيطان.

بالطبع ليس الواقع ما يملي على المجتمع والأفراد خياراتهم بين مبدأي التوحيد المتعاكسين؛ بل المجتمع والأفراد في كلّ عصرٍ هم الذين يقرّرون، وفي كلّ حالةٍ، حسب احتياجاتهم. كثيرًا ما يعكسون في الأسطورة المتبنّاة التشريعات والقيم التي يرتبطون بها. وهكذا فالأبويّة التي تطالب ببقاء المرأة في المنزل تعرّفها بأنها إحساسٌ، وسريرةٌ، ومثوليةٌ؛ في الواقع كل كائنٍ هو في الوقت نفسه مثوليّةٌ وتسامٍ؛ عندما لا يُقترَح عليه هدفٌ، أو يُمنَع من بلوغ غايةٍ، ويُمنع من الانتصار، يسقط تساميه في الماضي بلا فائدةٍ، أي في المثوليّة؛ وهو المصير المخصّص للمرأة في النظام الأبوي؛ لكنّ هذا ليس نزعةً البتة كما أنّ العبودية ليست نزعةً لدى العبد. نرى بوضوحٍ لدى **أوغست كومت** نمو هذه الأسطورة. مماثلة المرأة بالغيرية، هو ضمان حقوقٍ مطلقةٍ للرجل في تفانيها، وفرضٌ حازمٌ لما يجب أن تكونه.

يجب عدم الخلط بين الأسطورة وإدراك معنىً؛ فالمعنى ماثلٌ في الشيء؛ وينكشف للشعور ضمن تجربةٍ حيّةٍ؛ بينما الأسطورة فكرةٌ متساميةٌ تفلت من إدراك كلّ شعورٍ. عندما وصف **ميشيل ليريس** Michel Leiris في «*عصر الرجل*» رؤيته للأعضاء الأنثويّة، قدّم لنا معاني دون أيّة أسطورة. الانبهار أمام الجسد الأنثوي، والاشمئزاز من دم الطمث هما إدراكٌ لواقعٍ ملموسٍ.

لا أسطورة في التجربة التي تكشف الخصائص المثيرة لجسد الأنثى ولا ينتقل المرء إلى الأسطورة عندما يحاول التعبير عنها بمقارناتٍ مع زهورٍ أو حصىً. ولكن القول إنّ المرأة هي الجسد، والقول إنّ الجسد هو ليلٌ وموتٌ، أو إنّه روعة الكون، يعني ترك حقيقة الأرض والتحليق نحو سماءٍ خاليةٍ. لأنّ الرجل أيضًا جسدٌ بالنسبة للمرأة؛ وهي ليست موضوعًا شهوانيًّا؛ ويكتسي الجسد بالنسبة لكلّ شخصٍ وفي كلّ تجربةٍ معاني خاصّةً. صحيحٌ أيضًا أنّ المرأة هي ـ كالرجل ـ كائنٌ متجذّرٌ في الطبيعة؛ وهي مسخّرةٌ للنوع أكثر من الرجل، وبهيميّتها أكثر وضوحًا؛ لكنّ الوجود يتحمّل مسؤولية المعطى فيها كما فيه، وهي تنتمي أيضًا للعالم الإنساني. تشبيهها بالطبيعة هو رأيٌ مُسبق.

قليلةٌ هي الخرافات التي خدمت الفئة المسيطرة أكثر من هذه: فهي تبرّر كلّ امتيازاتها وتسمح لها حتّى باستغلالها. ليس على الرجال الاهتمام بتخفيف الآلام والأعباء التي هي من

نصيب النساء فزيولوجيًا بما أنّ «الطبيعة أرادت ذلك»؛ ويتّخذونها عذرًا لزيادة بؤس الوضع الأنثوي أكثر، مثلًا لإنكار كلّ حقٍّ للمرأة في المتعة الجنسيّة، ولجعلها تعمل كالدواب[271].

لم يرسخ في قلب الرجل من بين جميع هذه الأساطير أكثر من أسطورة «الغموض» الأنثوي. فلها العديد من الميزات. فهي تسمح أولًا بتفسيرٍ مجانيٍّ لكلّ ما يبدو غير قابلٍ للتفسير؛ الرجل الذي «لا يفهم» امرأةً يسرّه أن يحلّ مقاومةً موضوعيّةً محلّ قصورٍ ذاتيٍّ؛ وبدل أن يقرّ بجهله، يقول بوجود غموضٍ: ها هي حجّةٌ ترضي الكسل والغرور في آنٍ واحدٍ. يجنّب القلب العاشق بذلك نفسه الكثير من الخيبات: إن كان سلوك الحبيبة نزويًا، وكلامها سخيفًا، يجد في الغموض عذرًا لهما. وأخيرًا بفضل الغموض تظلّ هذه العلاقة السلبية التي كان **كيركغارد** يفضّلها أكثر بكثيرٍ من التملّك الإيجابيّ؛ يبقى الرجل وحيدًا أمام لغزٍ حيٍّ: وحيدًا مع أحلامه، وآماله، ومخاوفه، وحبه، وغروره؛ هذه اللعبة الذاتية التي يمكن أن تتراوح بين الرذيلة والنشوة الصوفيّة هي بالنسبة لكثيرين تجربةً أكثر جاذبيّةً من علاقةٍ أصليّةٍ مع إنسانٍ. على أيّة أسسٍ يستند هذا الوهم المفيد؟

المرأة غامضةٌ بالتأكيد، من جهةٍ، «غامضةٌ مثل الجميع» حسب قول **مترلينك** Maeterlinck. كلّ شخصٍ هو ذاتٌ لنفسه فقط، كلّ شخصٍ لا يستطيع في مثوليته إلّا إدراك نفسه فقط: من وجهة النظر هذه يكون الآخر غامضًا دائمًا. في نظر الرجال عتامة الذاتية واضحةٌ أكثر لدى الآخر الأنثوي؛ لا يستطيعون بتأثير أيّ تعاطفٍ اختراق تجربته الخاصّة: فيضطرون إلى تجاهل نوعيّة المتعة الشهوانيّة لدى المرأة، وتوعكات الطمث، وآلام الولادة. في الحقيقة، هناك غموضٌ متبادل: كآخر، وكآخر من الجنس المذكر، هناك أيضًا في قلب كلّ رجلٍ حضورٌ مغلقٌ على نفسه لا يمكن للمرأة اختراقه؛ فهي تجهل ما هي شهوانية الذكر. ولكن حسب القاعدة العامة التي شاهدناها، يصنّف الرجال العالم في فئاتٍ مطلقةٍ حسب وجهة نظرهم: لا يعرفون التبادلية هنا ولا في أي مكانٍ آخر. بما أنّ المرأة غامضةٌ بالنسبة للرجل، يُنظَر إليها على أنّها الغموض بحدّ ذاته.

271- راجع بلزاك Balzac، «فيزيولوجيّة الزواج»: «لا تقلقوا من هذه الهمسات، من هذه الصرخات، من هذه الآلام؛ لقد صنعتها الطبيعة من أجلنا، ولنتحمل كلّ شيءٍ: الأطفال، والآلام، ومعاناة الإنسان. لا تتّهموا أنفسكم بالقسوة. في كلّ شرائع الأمم التي تدّعي الحضارة كتب الإنسان القوانين التي تنظم مصير النساء تحت هذا العنوان: «بؤسًا للضعفاء!».

يؤهلها وضعها في الحقيقة لتُعتبَر كذلك. قدرها الفيزيولوجي معقّدٌ جدًّا؛ هي نفسها تعيشه كقصّةٍ غريبةٍ؛ فجسدها ليس بالنسبة لها تعبيرًا واضحًا عن نفسها؛ تشعر أنّها مرتهَنةٌ فيه؛ الصلة التي تربط حياة كلّ فردٍ الفيزيولوجية بحياته النفسية أو بصورةٍ أصحّ العلاقة القائمة بين وجود فردٍ والحريّة التي تضطلع به هي أصعب لغزٍ يفرضه الوضع الإنساني: ويتجلّى لدى المرأة بصورةٍ محيّرةٍ أكثر.

لكنّ ما ندعوه لغزًا، ليس هو وحدة الشعور الذاتيّة، ولا سرّ الحياة العضويّة. تأخذ الكلمة معناها على مستوى التواصل: فهو ليس صمتًا بحتًا، ولا ليلًا، ولا غيابًا؛ ويتضمّن حضورًا متلعثمًا لا يُفلح في الظهور. القول إنّ المرأة لغزٌ لا يعني أنها صامتةٌ ولكن أنّ لغتها غير مسموعةٍ؛ إنها هناك، مغطاةٌ بغلائل؛ إنها موجودةٌ وراء هذه الخيالات غير الواضحة. من هي؟ ملاكٌ، شيطانٌ، ملهَمةٌ، ممثلةٌ؟ يُفترض أنه إما أن يكون هناك أجوبةٌ لهذه الأسئلة لا يمكن اكتشافها، أو بالأحرى أنّ أيًّا منها ليس مطابقًا لأنّ هناك غموضًا أساسيًّا يحيق بالكائن الأنثوي؛ في قلبها، هي بالنسبة لنفسها غير مفهومةٍ: أبا هولٍ.

الواقع أنها ستكون محرَجةً للغاية إن تساءلت *من تكون*؛ لا يوجد جوابٌ على هذا السؤال؛ لكن هذا لا يعني أن الحقيقة المخبأة متقلّبةٌ بحيث لا يمكن الإحاطة بها: بل أنّ لا حقيقة في هذا المجال. الكائن ليس سوى ما يفعل؛ ولا يتجاوز الممكنُ الواقعَ، ولا يسبق الجوهر الوجود: الإنسان *لا شيء* في ذاتيته المحضة. يقاس بأعماله. يمكن القول عن فلّاحةٍ إنّها عاملةٌ جيّدةٌ أو سيئةٌ، وعن ممثّلةٍ إنّ لديها أو ليس لديها موهبةً: ولكن إن نظرنا إلى امرأةٍ ضمن وجودها المثولي، لا يمكننا أن نقول عنها أيّ شيءٍ، ليست لديها أيّ صفةٍ من هذه الناحية. غير أنّه في العلاقات الغرامية أو الزوجية، في كلّ العلاقات التي تكون فيها المرأة التابعة، الآخر، تُدرَك ضمن مثوليتها. من اللافت أن الرفيقة، والزميلة، والشريكة لسن غامضاتٍ؛ بالمقابل، إن كان التابع ذكرًا، إن بدا فتىً مثلًا موضوعًا غير أساسيٍّ أمام رجلٍ أو امرأةٍ أكبر منه سنًّا، أو أكثر ثراءً، يحيط نفسه هو أيضًا بالغموض. يكشف لنا هذا بنيةً تحتيّةً للغموض الأنثوي على الصعيد الاقتصادي. الإحساس *ليس شيئًا* كذلك. كتب جيد Gide: «في ميدان العواطف، لا يتميّز الواقعي عن الخيالي. ويكفي أن نتخيّل أننا نحبّ كي

نحبّ، وكذلك يكفي أن نقول لأنفسنا إننا نتخيّل أننا نحبّ، عندما نحبّ، كي نشعر فورًا أننا نحبّ بصورةٍ أقلّ بعض الشيء...».

لا يوجد تمييزٌ بين الخيالي والواقعي إلّا من خلال السلوك. بما أنّ الرجل يملك في هذا العالم وضعًا مميّزًا، فعليه هو إظهار حبّه بهمّةٍ؛ كثيرًا ما يعيل المرأة أو يساعدها على الأقل؛ وعندما يتزوجها يمنحها وضعًا اجتماعيًا؛ ويقدّم لها الهدايا؛ ويسمح له استقلاله الاقتصادي والاجتماعي بمبادراتٍ وابتكاراتٍ: عندما كان السيد **نوربوا** مفترقًا عن السيدة **فيلباريزي**، كان هو من يقوم بأسفارٍ تدوم أربعًا وعشرين ساعةً كي يلحق بها؛ كثيرًا ما يكون مشغولًا، وهي فارغةً: الوقت الذي يقضيه معها *يمنحها إياه*؛ وهي تأخذه: بسرورٍ، أو شغفٍ، أو فقط لتتسلّى؟ هل تقبل نِعمه عن حبٍّ أم عن مصلحةٍ؟ هل تحبّ الزوج أم الزواج؟ بالطبع حتّى الأدلّة التي يقدمها الرجل ملتبسةٌ: هل وافق على هذا العطاء من باب الحبّ أم الشفقة؟ ولكن بينما تجد المرأة عادةً في علاقتها بالرجل العديد من الامتيازات فهذه العلاقة لا تفيد الرجل إلّا إذا كان يحبّها. كذلك يمكن تقدير درجة تعلّقه انطلاقًا من موقفه. بينما ليس لدى المرأة إمكانيّة سبر قلبها؛ حسب مزاجها سيكون لها تجاه مشاعرها وجهات نظرٍ مختلفةٌ طالما تحملتها بسلبيةٍ، فستظلّ كلّ التفسيرات صحيحةً. في الحالات النادرة التي تكون هي صاحبة الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية، ينعكس الغموض: ما يوضح جيّدًا أنه لا يرتبط بهذا الجنس أو ذاك ولكن بوضعٍ. بالنسبة لعددٍ كبيرٍ من النساء طرق التسامي موصدةٌ: فلأنّهنّ لا يعملن شيئًا، لا يصنعن من ذاتهن شيئًا؛ ويتساءلن باستمرارٍ ماذا كنّ سيصبحن، ما يقودهنّ إلى التساؤل عن ماهيتهنّ: وهو سؤالٌ حقيقيٌّ؛ إذا فشل الرجل في اكتشاف هذا الجوهر الخفي، فذلك بكلّ بساطةٍ لأنه غير موجودٍ. بإبقاء المرأة على هامش العالم لا يمكنها تحديد نفسها موضوعيًا من خلال هذا العالم ولا يغطي غموضها سوى فراغٍ.

كما يحدث أن تخفي، مثل كلّ المضطهَدين، وجهها الموضوعيّ قصدًا؛ فالعبد، والخادم، ومواطن البلد الأصلي، كل هؤلاء الذين يتبعون نزوات سيّدٍ تعلموا أن يواجهوه بابتسامةٍ لا تتبدّل أو ببرودةٍ غامضةٍ؛ يخفون مشاعرهم الحقيقية وسلوكهم الحقيقي بعنايةٍ. يعلّمون المرأة أيضًا منذ المراهقة أن تكذب على الرجال، وتتحايل، وتوارب. تواجههم بوجوهٍ مستعارةٍ؛ فهي حذرةٌ، منافقةٌ، ممثّلةٌ.

لكنّ الغموض الأنثوي كما يعترف به الفكر الأسطوري هو واقعٌ أكثر عمقًا. في الواقع لقد دُمج حالًا في أسطورة الآخر المطلق. إذا قبلنا أنّ الشعور غير الأساسي هو أيضًا ذاتيّةٌ نصف شفافةٍ، قادرة على التفكير نقبل أنها في الحقيقة سيدة وأنها ترجع إلى الأساس؛ كي تبدو كلّ تبادليّةٍ مستحيلةً، يجب أن يكون الآخر من أجل ذاته آخر، أن تتأثر ذاتيته نفسها بالغيرية؛ هذا الشعور الذي سيكون مرتهنًا كشعورٍ ضمن حضوره المثولي الصرف، سيكون غموضًا بالطبع؛ سيكون غموضًا في ذاته لأنه سيكون كذلك من أجل نفسه؛ سيكون الغموض المطلق. وهكذا، وراء السرّ الذي يخلقه إخفاؤه، هناك غموض الأسود، والأصفر، باعتبارهما الآخر غير الأساس. يجب أن نلاحظ أنّ المواطن الأمريكي الذي يحيّر الأوروبي العادي كثيرًا لا يُعتبر مع ذلك «غامضًا»: يؤكّدون بشكلٍ أكثر تواضعًا أنهم لا يفهمونه؛ وهكذا لا «تفهم» المرأة الرجل دومًا، ولكن لا يوجد غموضٌ ذكوريٌّ؛ لأنّ الأمريكي الغني، والذكر، هم من جهة السيّد والغموض من خصائص العبد. بالطبع، لا يمكننا سوى أن نحلم في دياجير سوء النية حول حقائق الغموض الإيجابية؛ فهو يشبه بعض الهلوسات الهامشية، ما إن نحاول تثبيته حتى يتبدّد. ويفشل الأدب دومًا في رسم صورة نساءٍ «غامضاتٍ»؛ يمكنهنّ فقط الظهور في بداية روايةٍ كغامضاتٍ غريباتٍ؛ ولكن ينتهي بهنّ الأمر إلى كشف سرّهنّ، إلّا إذا بقيت القصة غير مكتملةٍ، وعندها يصبحن أشخاصًا متماسكين وواضحين. مثلًا بطل كتاب بيتر شيني لا يكف عن التعجّب من نزوات النساء غير المتوقعة، لا يمكن أبدًا أن نخمّن سلوكهنّ، إذ يعاكسن كلّ الحسابات؛ في الحقيقة ما إن تنكشف للقارئ حوافز أفعالهنّ حتّى تبدو آليّاتٍ بسيطةً جدًّا: فهذه كانت جاسوسةً، وتلك لصّةً؛ ومهما كانت الحبكةُ بارعةً فهناك دومًا مفتاحٌ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، مهما كان الكاتب بارعًا، وصاحب خيالٍ مبدعٍ. فالغموض ليس سوى سرابٍ، يتلاشى ما إن نحاول الإحاطة به.

وهكذا نرى أنّه يمكن تفسير الأسطورة في جزءٍ كبيرٍ بشكل استخدام الإنسان لها. أسطورة المرأة ترفٌ. لا يظهر إلّا إذا أفلت الرجل من سيطرة حاجاته الملحّة؛ كلّما عاش المرء العلاقات بشكلٍ محسوسٍ، كلّما جعلها أقلّ مثاليّةً. فلّاح مصر القديمة، والبدوي، وحرفيّ القرون الوسطى، والعامل المعاصر لديهم ضمن ضرورة العمل والفقر علاقاتٌ محدّدةٌ للغاية بالمرأة التي هي رفيقتهم بحيث لا يزيّنونها بهالةٍ من الأبهة أو الشؤم. العصور

والطبقات التي أتيحت لها فرصة الحلم هي التي أقامت التماثيل السوداء والبيضاء للأنوثة. لكنّ للترف فائدةً أيضًا؛ كانت المصالح تدير هذه الأحلام حكمًا.

بالتأكيد إنّ لمعظم الأساطير جذورًا في موقف الرجل التلقائي تجاه وجوده نفسه والعالم المحيط به: لكنّ المجتمع الأبوي قام بتأنٍّ بتجاوز التجربة نحو فكرة التسامي بهدف تبرير الذات؛ كان يفرض على الأفراد من خلال الأساطير قوانينه وتقاليده بطريقةٍ مزخرفةٍ وحساسةٍ؛ وبشكلٍ أسطوريٍّ تغلغل الإلزام الجمعيّ في كلّ شعورٍ. ودخلت الأساطير حتى ضمن أكثر الكيانات خضوعًا للواقع المادي عبر الديانات، والتقاليد، واللغة، والحكايا، والأغاني، والسينما. يستطيع كلّ شخصٍ أن يحصل منها على إعلاءٍ لتجاربه المتواضعة. فإن خدعت أحدهم حبيبته، يعلن أنها رحمٌ ثائرٌ؛ هذا الآخر مهووسٌ بفكرة عجزه الجنسي: إنها إذًا السرعوفة الراهبة؛ والثالث يستمتع بصحبة امرأته: هي إذًا تناغمٌ وراحةٌ وأرضٌ معطاءةٌ. يُشبع الرجال بالأسطورة ميلهم للخلود الرخيص، والمطلق السهل، الذي نصادفه لدى معظمهم. ويصبح أقلّ انفعالٍ أو انزعاجٍ انعكاسًا لفكرةٍ دائمةٍ؛ هذا الوهم يرضي الغرور.

الأسطورة هي إحدى فخاخ الموضوعية الزائفة التي يتهوّر فيها الفكر الجادّ. يتعلق الأمر مرةً أخرى باستبدال التجربة الحياتية والأحكام الحرّة التي تتطلبها بمثالٍ جامدٍ. تضع أسطورة المرأة تأمّل سرابٍ مكان علاقةٍ أصليةٍ بكائنٍ مستقلٍّ. صاح **لافورج**: «سرابٌ! سرابًا يجب قتلهنّ بما أننا لا نستطيع فهمهنّ؛ أو تطمينهنّ، وإعلامهنّ، وجعلهنّ يتخلين عن الميل إلى الحلي، أن نجعل منهنّ حقًّا رفيقاتنا المساويات لنا، وصديقاتنا الحميمات، وشريكاتنا، أن نلبسهنّ بطريقةٍ مختلفةٍ، ونقصّ شعرهنّ، ونخبرهنّ بكلّ شيءٍ...». لن يخسر الرجل شيئًا إن تخلّى عن تغيير المرأة إلى رمزٍ بل على العكس. عندما تكون الأحلام جماعيّةً وموجّهةً، مكرّرةً، تكون فقيرةً ورتيبةً بجانب الواقع الحي: فهو بالنسبة للحالم الحقيقي، والشاعر، مصدرٌ خصبٌ أكثر من شيءٍ رائعٍ عفا عليه الزمن. العصور التي ميّزت النساء بصدقٍ أكبر لم تكن الإقطاعية المجاملة، ولا القرن التاسع عشر الأنيق: إنّها تلك التي كان الرجال فيها يرون في المرأة شبيهًا، كالقرن الثامن عشر مثلًا؛ عندئذٍ ظهرن روائيّاتٍ ـ حالماتٍ ـ حقًّا: يكفي أن نقرأ *«العلاقات الخطرة»*، و*«الأحمر والأسود»*، *«وداعًا للسلاح»* لندرك ذلك. بطلات **لاكلو** Laclos وستندال وهمينغواي لسن غامضاتٍ: ولم يجرّدهنّ ذلك

من الجاذبيّة. الاعتراف بأن المرأة إنسانٌ لا يفقر تجربة الرجل: لن يفقد شيئًا من تنوّعه وغناه وزخمه إن تحمّلت مسؤوليّتها ضمن ذاتيتها؛ رفض الأساطير لا يعني تخريب كلّ علاقةٍ مؤثرةٍ بين الجنسين، ولا إنكار المعاني التي تتكشّف للرجل بصورةٍ أصليّةٍ من خلال الواقع الأنثوي؛ ولا إلغاء الشعر والحب والمغامرة والسعادة والحلم: إنّه فقط الرغبة في أن يؤسس السلوك والإحساس والعاطفة على الحقيقة[272].

«فُقِدت المرأة. أين النساء؟ نساء اليوم لسن بنساءٍ»؛ رأينا إلى أين توجّهت هذه الشعارات. في نظر الرجال ـ وجحفل النساء اللواتي يتبعن وجهة النظر هذه ـ لا يكفي أن يكون لك جسد امرأةٍ ولا أن تقومي بمسؤوليات الأنثى كعشيقةٍ وأمٍ كي تكوني «امرأةً حقيقيةً»؛ من خلال الجنس والأمومة، تستطيع الذات المطالبة باستقلاليتها؛ «المرأة الحقيقية» هي تلك التي تقبل نفسها *كآخر*.

في موقف الرجال اليوم نفاقًا يخلق لدى المرأة تمزّقًا مؤلمًا؛ يقبلون أن تكون المرأة شبيهًا، ندًّا، ومع ذلك ما زالوا يفرضون أن تظلّ اللاأساسي؛ بالنسبة إليها، هذان القدران غير متوافقين؛ تتردّد بين الواحد والآخر دون أن تتلاءم تمامًا مع أيٍّ منهما ومن هنا يأتي عدم التوازن. لا يوجد لدى الرجل أيّة فجوةٍ بين الحياة العامة والحياة الخاصة: كلّما أكّد تأثيره على العالم بعمله كلّما بدا ذكوريًّا؛ تختلط لديه القيم الإنسانية والقيم الحياتية؛ بينما تتناقض النجاحات التلقائية للمرأة مع أنوثتها بما أنّه يُطلب من «المرأة الحقيقية» أن تكون موضوعًا، أن تكون *الآخر*. من الممكن جدًّا أن تتغيّر حساسية الرجال وحتى شهوانيتهم حول هذه النقطة. لقد وُلدت جماليّةٌ جديدةٌ. إن كانت موضة الصدر المسطح والأرداف النحيلة ـ للمرأة المراهقة ـ لم تدم طويلًا، فلم نعد مع ذلك إلى المثال المليء للقرون السابقة. يُطلَب من الجسد الأنثوي أن يكون شهوانيًّا، ولكن بصورةٍ خفيّةٍ؛ يجب أن يكون نحيلًا وغير مثقلٍ بالدهن؛ قويّ العضلات، مرنًا، قويًّا، يجب أن يشير إلى التسامي؛ لا يُفضَّل أبيض كنبتة البيت الزجاجي ولكن معرّضًا للشمس، ملفوحًا كصدر عاملٍ.

272- يقول لافورج أيضًا عن المرأة: «بما أنّها تُركت في العبودية، والكسل، دون أي انشغالٍ أو سلاحٍ سوى جنسها فقد ضخّمته وأصبحت «المؤنث»... تركناها تتضخّم؛ إنها في العالم من أجلنا... حسنًا! كلّ هذا زائفٌ... لعبنا بالمرأة حتّى الآن كدميةٍ. واستمرّ هذ؛ طويلًا!...».

عندما أصبحت ملابس النساء عمليّةً لم يجعلها ذلك تبدو غير محدّدة الجنس: بالعكس، أبرزت التنانير القصيرة جمال الساقين والفخذين أكثر بكثيرٍ من ذي قبل. ولا نفهم كيف يمكن للعمل أن يجرّدها من جاذبيتها الجنسية. قد يثير الحيرة فهم المرأة كشخصيّةٍ اجتماعيّةٍ وغنيمةٍ جنسيّةٍ في آنٍ معًا: في سلسلةٍ من الرسوم لبينيه Peynet ظهرت مؤخّرًا[273]، رأينا شابًا يهجر خطيبته لأنه وقع في شباك رئيسة البلدية الجميلة التي كانت تستعد لإتمام مراسيم الزواج؛ أن تمارس امرأةٌ «وظيفةً ذكوريةً» وتكون مرغوبةً في الوقت نفسه، كان هذا زمنًا طويلًا مدعاة سخريةٍ ماجنةٍ؛ وشيئًا فشيئًا تلاشت الفضيحة والسخرية ويبدو أنّ شكلًا جديدًا للشهوانية في طريقه للظهور: وربما سينتج أساطير جديدةً.

ما هو أكيدٌ، هو أنّ من الصعب جدًا على النساء اليوم الاضطلاع بوضعهنّ كفردٍ مستقلٌ وقدرهنّ النسوي؛ وهذا أصل هذه الأخطاء وهذه الانزعاجات التي تجعلهنّ يبدون «كجنسٍ ضائعٍ». دون شكٌ تحمّل عبوديّةٍ عمياء مريحٌ أكثر من العمل من أجل التحرّر: الموتى أيضًا متطابقون مع الأرض أكثر من الأحياء.

على أيّ حالٍ فالعودة إلى الماضي ليست ممكنةً ولا مرغوبةً. ما يجب أن نأمل به، هو أن يضطلع الرجال من جهتهم دون تحفّظٍ بمسؤوليّة الوضع الذي يتشكّل؛ عندها فقط ستستطيع المرأة أن تعيشه دون تمزّقٍ. عندها يمكن تحقيق أمنية **لافورج**: «آه أيتّها الشابات، متى ستصبحن أشقاءنا، أشقاءنا الحميمين دون قصدٍ سيّئٍ منّا باستغلالكنّ؟ متى سنتصافح فعلًا؟» عندئذٍ «ميلوزين التي لن تعود تحت وطأة القدر التي أطلقها الرجل وحده عليها، ميلوزين المحرّرة...» ستجد «موقعها الإنساني»[274]. عندئذٍ ستكون إنسانًا كاملًا، «عندما ينكسر استعباد المرأة الذي لا ينتهي، عندما ستعيش من أجل نفسها وبنفسها، إذ يطلق الرجل ـ الذي كان بغيضًا حتّى الآن ـ سراحها»[275].

273- في تشرين الأول/ أكتوبر 1948.

274- بروتون، أركان 17.

275- رامبو Rimbaud، رسالة إلى ب. ديميني، 15 أيار/ مايو 1872.

مؤلفات سيمون دوبوفوار

(في منشورات غاليمار)

1. روايات

المدعوة (1943)

دم الآخرين (1945)

كل الرجال زائلون (1946)

المثقفون (1954)

الصور الجميلة (1966)

عندما يتفوّق الروحي (1979)

2. سرد

موتٌ لطيفٌ جدًّا (1964)

3. قصص

المرأة المنهكة (1968)

4. مسرح

الأفواه عديمة الجدوى (1945)

5. أبحاث أدبيّة

بيروس وسينياس (1944)

من أجل مغزى الغموض (1947)

أمريكا يومًا بيوم (1948)

الجنس الآخر 1، 2 (1949)

امتيازات (1955). (أعيد إصدارها باسم: هل يجب أن نحرق ساد؟)

المسيرة الطويلة، بحث حول الصين (1957)

مذكرات فتاة رصينة (1958)

قوّة العمر (1960)

قوّة الأشياء (1963)

الشيخوخة (1970)

بعد كل شيء (1972)

كتابات سيمون دوبوفوار (1979)، بقلم كلود فرنسيس وفرناند غونتييه.

احتفال الوداع، متبوعًا بلقاء مع جان بول سارتر، آب ـ أيلول 1974 (1981)

رسائل إلى سارتر (1990) طبعة من تقديم وإعداد وشرح سيلفي لوبون دوبوفوار

1. 1930-1939

2. 1940-1963

حب عبر الأطلسي (رسائل إلى نلسون آلغرين 1947-1964). نص من تقديم وإعداد وشرح وترجمة عن الإنجليزية سيلفي لوبون دوبوفوار (1997).

6. شهادات

جميلة بوباشا (1962)، بالتعاون مع جيزيل حليمي.

7. سيناريو

سيمون دوبوفوار (1979) فيلم لجوزيه دايان ومالكا ريبوفسكا، إخراج جوزيه دايان.

8. يوميات

يوميات الحرب، أيلول/ سبتمبر 1939 ـ كانون الثاني/ يناير 1941 (1990). طبعة من تقديم وإعداد وشرح سيلفي لوبون دوبوفوار.

9. مراسلات

سيمون دوبوفوار، جاك ـ لوران بوست، مراسلات متشابكة (1937-1940). طبعة من تقديم وإعداد وشرح سيلفي لوبون دوبوفوار.

Simone de Beauvoir

Le deuxième sexe
I
Les faits et les mythes

Editions Gallimard, 1949, renouvelé en 1976

كيف يمكن أن نجد لديها الجرأة والتوقّد والتجرّد والعظمة؟ لا تظهر هذه الخصال إلاّ عندما ترمي حريّةٌ ما نفسها عبر مستقبلٍ مفتوحٍ، منبثقٍ إلى ماوراء كلّ معطىً. نحبس المرأة في مطبخٍ أو مخدعٍ، ونستغرب أن يكون أفقها محدودًا؛ نقصّ أجنحتها، ونأسف لأنها لا تعرف الطيران. فلنفتح لها المستقبل ولن تعود مضطرَّةً للمكوث في الحاضر.

ونبدي نفس التناقض عندما نسجنها في حدود أناها أو منزلها، ونلومها على نرجسيتها وأنانيتها وما يصحبهما: كالغرور، والنزق، والشرّ، إلخ.. ؛ نجرّدها من كلّ إمكانية التواصل المحسوس مع الغير؛ فلا تشعر ضمن تجربتها بنداء التضامن ولا بفوائده بما أنّها مكرّسةٌ بكلّيتها لأسرتها، منفصلةٌ؛ بالتالي لا يمكن أن نتوقّع منها أن تتجاوز نفسها نحو الصالح العام. تقبع بإصرارٍ في المجال الوحيد الّذي ألفته، حيث تستطيع ممارسة تأثيرٍ على الأشياء وتجد ضمنه سيادةً زائلةً.


ISBN 978-9933-9145-8-5


الرحبة للنشر والتوزيع
Al Rahba Publishing House